

ديسمبر 2017

422

كي يواجهوا الشمس المشرقة

مكتبة | 152

رواية

تأليف: جون ماكغرين

ترجمة: د. علي محمد سليمان

مراجعة: د. علي العنزي



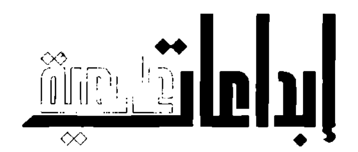
كي يواجهوا الشمس المشرقة

رواية

تـــألـــيـــف: جون ماكغرين

ترجـمة وتقـديـم: د. علي محمد سليمان

مـــراجـــعـــة: د. علي العنزي



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

كي يواجهوا الشمس المشرقة
رواية



That They May Face the Rising Sun

By: John McGahern

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2017م

إبداعات عالمية - العدد 422

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

المقدمة

يعتبر جون ماكغرين أحد أهم الروائيين ومؤسس الحساسية الجديدة في الرواية الأيرلندية. وتتجلى أهمية هذا الكاتب ودوره الفريد في أنه استطاع عبر مسيرته الأدبية على مدى أكثر من نصف قرن أن يرسم خصوصية الشخصية الأيرلندية ثقافيا وإنسانيا، وأن يقرأ خصوصية تجربتها المحلية في إطار كوني وإنساني شامل؛ إنه تشيخوف أيرلندا كما يسميه النقاد في أوروبا، الروائي الذي حرر أسئلة الحياة من سجون التاريخ والجغرافيا والسياسة والعنف وأطلقها في فضاء التساؤلات الكبرى، حيث تساؤلات الإنسان في بحثه الأزلي عن عالم يشبه أحلامه. إنه كاتب رواية «كي يواجهوا الشمس المشرقة» الصادرة في العام 2002، والتي تكتشف أفقا ينهض فيه الإنسان من موته لينظر إلى الشمس وهي تشرق، حيث توّجت آخر رواياته مشروعه الرائد في ابتكار عوالم روائية تتحرر فيها الشخصيات من إرث الفقدان والألم والعنف الذي تمحورت حوله أعماله السابقة من روايات وقصص ومسرحيات بغية البحث عن فضاء يمكن للمخيلة أن تستكشف فيه آفاقا تحتفي بالحياة والجمال.

ولد جون ماكغرين في 12 نوفمبر 1934، في نوكانروا بأيرلندا وتوفي في 30 مارس 2006، وكان قد نشأ في الريف الأيرلندي في حقل صغير، وكان أبوه شرطيا وأمه معلمة في مدرسة محلية، وهو الأكبر بين إخوته الستة. رسمت السنوات العشر الأولى في طفولته ملامح أساسية من شخصيته، وكان لها أثر عميق في تكوين حساسيته الأدبية ورؤيته الجمالية وأسلوبيته في الكتابة، فقد كان الريف هو العالم الذي تمحورت حوله أغلب أعماله لكونه بيئة طبيعية تضج بالألوان

والأصوات والجمال من جهة، ولكونه بيئة اجتماعية محكومة بعوامل الفقر والتخلف والاضطهاد السياسي والديني من جهة أخرى. وعندما توفيت والدة جون ماكغرين، وهو في 10 من عمره إثر إصابتها بمرض السرطان، اتخذت علاقته مع الطبيعة مسارا أكثر تعقيدا وخصوصية؛ فقد اضطر لترك بيت الطفولة الأول والانتقال مع إخوته للعيش مع أبيه في بيت ملحق بثكنته العسكرية.

وهكذا إذن، فقد اقترنت تجربة فقدان الأم بتجربة فقدان وطن الطفولة الأول، أي الطبيعة؛ إنه فقدان مزدوج رافق الكاتب طيلة حياته وتحول في رواياته إلى موضوع رئيس، وسؤال محوري في عوالم أغلب شخصياته.

لم يتجاوز ماكغرين تجربة موت أمه سوزان، بل ظل يعيشها ويعيد اكتشافها واكتشاف نفسه فيها بصيغ مبتكرة ومتعددة على مدى نصف قرن من الإبداع، وتحولت تجربة الفقدان الخاصة هذه إلى مرآة لتجربة الفقدان العامة التي عاشها المجتمع الأيرلندي على مدى عقود طويلة من الحروب والصراعات الدامية والتحولات الكبرى.

في المرحلة التالية من حياته تابع ماكغرين تعليمه في مدارس الريف الأيرلندي واستطاع رغم صدمة الفقدان أن يتفوق، حيث حصل على منحة دراسية مكّنته من الالتحاق بالتعليم الثانوي. في هذه الفترة تنقّل بين عدة مدارس وتعرّف مبكرا على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والتناقضات الثقافية التي يعاني منها المجتمع، وكانت سيطرة الكنيسة والمؤسسات الدينية على الحياة الاجتماعية والسياسية أحد أهم العوامل التي شكّلت وعيه ومواقفه تجاه قضايا مجتمعه. التحق بعد ذلك بكلية سانت باتريك حيث حصل على شهادة في التعليم مكّنته بعد تخرجه من العمل مدرّسا في مدرسة

كلونتارف الابتدائية، وبدأت اهتماماته الثقافية والأدبية في هذه المرحلة تتضح من خلال تجربته في التعليم، فسافر إلى العاصمة دبلن حيث التحق بالجامعة وتابع تحصيله العلمي ليتخرج في العام 1957 بشهادة تخصصية في التعليم.

مكّنت سنوات الدراسة الجامعية ماكغرين من التعرف على الأوساط الثقافية، وعلى الحركة الأدبية في دبلن، ونشر أول أعماله في مجلة لندن الأدبية في العام 1961، وكان فصلا من رواية لم تنشر كاملة بعنوان «نهاية أو بداية الحب»، وفي العام 1963 نشر روايته الأولى بعنوان الثكنة The Barracks، والتي شهد لها النقاد بشدة، وفي العام 1965، تزوج ماكغرين من زوجته الأولى إنيكي لاكسي، وفي نفس السنة نشر روايته الثانية الظلام The Dark التي مُنعت في أيرلندا بتوصية من الكنيسة بذريعة تعرضها للقيم والأعراف السائدة، وقد أدى ذلك إلى فصله من عمله في التعليم. وجد جون ماكغرين نفسه بعد منع روايته محاصرا بقيود الرقابة وممنوعا من العمل، فهاجر في منتصف الستينيات إلى إنجلترا حيث عمل في أعمال مؤقتة في البناء وكتب للصحافة الثقافية في لندن.

منذ روايته الأولى، بدأ ماكغرين يؤسس للسياق الذي سيحكم علاقته مع المؤسسة الأدبية في بريطانيا من جانب، ومع التراث الأدبي العريق لأيرلندا من جانب آخر؛ فالأدب الأيرلندي الحديث غني بأعمال تحولت إلى جزء مهمّ من الأدب العالمي في مختلف الأنواع، شعرا ومسرحا وقصة ورواية، وبأدباء أسسوا للحداثة الأدبية ولما بعدها من حساسيات وجماليات في التعبير، ليس في أيرلندا وبريطانيا فقط، بل في العالم عموما، فأدباء مثل ويليام بتلر ييتس وجيمس جويس وجورج برناردشو وأوسكار وايلد وصموئيل بيكيت وغيرهم أبدعوا في

التعبير عن الثقافة القومية لهذا البلد، وعن سيرة الكفاح الإنساني فيه، وكتبوا عبر قرن من الزمان بأسلوبيات متعددة ومتجددة لملامح الشخصية الأيرلندية، بكل ألوانها وغنى بيئتها الطبيعية والاجتماعية، في سياق أدب إنساني وكوني بقدر ما هو خاص ومحلي.

وفي منتصف القرن العشرين وجد هذا الروائي نفسه أمام تاريخ غني ومتعدد ثقافيا واجتماعيا وسياسيا لمجتمع عصفت به الحرب الأهلية والكفاح من أجل الاستقلال عن الإمبراطورية البريطانية من جانب، وأمام تاريخ شخصي مثقل بالفقدان وآلام الهجرة من جانب آخر؛ حيث فقدان الأم والوطن الذي لم يكن لينفصل عن إرث أجيال من المثقفين الأيرلنديين في التصدي لأحد أكثر الأسئلة والهموم تجذرا في الأدب الأيرلندي، ألا وهو سؤال الهوية، هذا السؤال الذي أنتج في سياق التجربة الاستعمارية التي كانت أيرلندا أحد أبرز رموزها وضحاياها في التاريخ الحديث، بما تضمنه من مقاربات جمالية فريدة ومؤرقة.

برز سؤال الهوية، في عالم تحوَّلَ في النصف الثاني من القرن العشرين إلى فضاء متعدد، وهنا كانت الكتابة بالنسبة لجون ماكغرين عملية بحث عن المفقود في التاريخين الخاص والعام وتجريب في رؤية العالم؛ كانت الكتابة بالنسبة لماكغرين الطريقة الوحيدة التي يرى العالم بها وفيها، قائلا ذات مرة: «أنا أكتب لأرى».

تتجلى مقولة الكاتب السالفة البيان، في رواية «الثكنة» من خلال حضور السيرة الذاتية في الفضاء الروائي، وكأن الكاتب هنا يضع صورا من حكايته الشخصية في إطار أكثر شمولية توفره الرواية، كي يتمكن من النظر إليها والتأمل فيها، حيث تروي الرواية حكاية إليزابيث، الأم لثلاثة أطفال، وزوجة الشرطي، الذي شارك في حرب استقلال جمهورية

أيرلندا، والتي تكتشف إصابتها بالسرطان، لكنها تخفي ذلك عمّن حولها وتتابع حياتها مصرّة على أن تتحمل كامل مسؤولياتها في رعاية زوجها وأطفالها. وحينما تتدهور صحة الأم بالتدريج، وتقترب ساعة الموت منها، تتكشف تناقضات عميقة في حياة الشخصيات وما تحمله من قيم أخلاقية، ويصور الكاتب العالم الداخلي الكئيب للشخصيات وتراجيديا وجودها. إنها تراجيديا عالم يتداعى في الريف الأيرلندي المليء بسحر الطبيعة وجمالها، بالبحيرات وغناء الطيور وألوان الزهور والأشجار، وهكذا يحدث الموت والفقدان في روايات ماكغرين؛ موتا تراجيديا إنسانيا تناقضيا في فضاء من جمال الطبيعة، يولّد في معظم الروايات شعرية خاصة تضيء وتكشف رؤية الكاتب لتراجيديا تداعي الريف الأيرلندي وتلاشي أنماط الحياة والثقافات المحلية فيه.

في روايته الثانية «الظلام»، يعود ماكغرين إلى صور أخرى من سيرته الذاتية التي صدرت في العام 1965، حيث تحضر الطفولة والعلاقة مع الأب هذه المرة كموضوع يتجاوز التاريخ الشخصي ليتقاطع في المعالجة الروائية، ومع تاريخ المجتمع الأيرلندي، إذ إن بطل الرواية طفل يتعرض لتجربة التعليم في مدارس الريف، ولاضطهاد الأب وعنفه. تبحث الرواية في مسار حياة الطفل وتقدّمه في مرحلة الشباب، وأفق الغفران والتصالح مع شخصية الأب، وإذ تفتح الرواية في النهاية أفقا لذلك، فإنها تقترح مسارات جديدة ليس للتصالح مع الماضي، بل لإعادة اكتشافه وللتحرر من قيوده. وكان ماكغرين قد رفض استغلال الضجة التي أحدثها منع الرواية في الصحافة والأوساط الثقافية لتحقيق الشهرة وتسويق اسمه، وعندما حاول بعض المثقفين في بريطانيا تقديم اعتراضهم على منع الرواية، فإن ماكغرين، لم يحبّذ ذلك، على الرغم من أن صموئيل بيكيت كان أحد أكثر المتحمسين

لقضيته وكتب له طالبا موافقته على أن يقود حملة ضد قرار المنع في الصحافة الثقافية في بريطانيا وفرنسا، لكن ماكغرين رفض وأوضح لبيكيت أنه لا يريد إثارة الموضوع لأنه يشعر بالعار من أن بلده تواجه كتبه بالمنع.

حافظ ماكغرين بعد ذلك على صمته وابتعد عن الأضواء، لكنه بقي يعمل بعيدا عن ضجيج الإعلام، حتى وصلت روايته «بين النساء» Amongst Women في العام 1990 إلى القائمة القصيرة لجائزة بوكر، وكان ذلك بعد مرحلة كتب فيها روايات أخرى ومجموعات قصصية وبضع مسرحيات، إلى أن تحقق له بفضل هذه الرواية نجاح كبير من حيث المبيعات والأصداء الإعلامية، وتصدرت روايته قوائم الكتب الأكثر رواجا في أيرلندا. ويعتبر العديد من المختصين في الأدب الأيرلندي أنها أكثر الروايات تعبيرا عن المجتمع الأيرلندي في النصف الثاني من القرن 20؛ إذ وصل ماكغرين في هذه الرواية إلى كل بيت في أيرلندا كما تشير الدراسات التي تناولت هذا العمل الفريد في عمق تصويره للواقع الاجتماعي والإنساني، خلال التحولات التي عصفت ببلده آنذاك، مسلطا -عبر تجسيده محنة شخصية البطل في تقبّل واقع ما بعد الاستقلال في عشرينيات القرن الماضي- الضوء على التناقضات التي تحكم واقع الحياة في الريف من وجهة نظر إنسانية لا تكتفي بما تفرضه الثقافة السياسية السائدة من أحكام وتصنيفات.

في روايته الأخيرة «كي يواجهوا الشمس المشرقة» التي نقدم ترجمتها إلى القارئ العربي، يفتح جون ماكغرين أفقا جديدا في جماليات الرواية الأيرلندية ويضيء عالما غيبته التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عصفت بالمجتمع الريفي في أيرلندا منذ بداية القرن 20؛ إنه عالم الروائي الأول، الوطن والأم المفتقدان، عالم يتلاشى بفعل الهجرة والرحيل

ويـذوي المجتمـع فيـه عـلى هامـش الحداثـة وأنمـاط الحيـاة الجديـدة. لا تسـتعيد الروايـة هـذا العـالم في مقاربـة نوسـتالجية تـؤرخ لحالـة الفقدان الشـخصي في حيـاة الكاتـب، بـل تغامـر في اكتشـافه ومعرفتـه في ضـوء الواقـع المعـاصر في سرد ينتـصر للحيـاة في وجـه المـوت والغيـاب. يرقـد المـوتى في هـذا العـالم بعـد حيـوات مليئـة بالكفـاح والخيبـات، لكـن الرواية ومنـذ عنوانهـا لا تغفـل عـن الشـمس، الحقيقـة الكـبرى، وربمـا الوحيـدة التـي تبقـى بعـد تواريـخ الحـروب والصراعـات السياسـية لتمنـح الحيـاة معنـى مـا. هـذا مـا يتعلمـه بطـل الروايـة روتلـج ليـس مـن الحيـاة فقـط بـل مـن المـوت أيضـا، وهـو العائـد مـن هجرتـه في إنجلـترا ليبحـث عـن مـكان لـه في وطنـه؛ ولا يسـعى الكاتـب هنـا إلى طـرح أي رؤيـة مثاليـة أو رومانسـية تفصـل حيـاة شـخصياته وفضـاءات عالمـه الـروائي عـن السـياسي والاجتماعـي، لكنـه يسـعى إلى تحريـر الذاكـرة مـن عـبء الأيديولوجيـا ومـن مؤسسـات السـلطة الدينيـة والسياسـية. يتـورط روتلـج في تفاصيـل حياتـه الجديـدة في حقـل صغـير في قريـة منسـية عـلى شـاطئ بحـيرة في ريـف أيرلنـدا، وتخضـع يومياتـه لـدورات الطبيعـة ومواسـمها، ويعمـل في الزراعـة وتربيـة الماشـية بعـد أن كان موظفـا متخصصـا في شركـة إعلانـات كبـيرة في لنـدن، ويكتشـف أسرار الحيـاة مـن وجهـة نظـر جديـدة تفرضهـا التجربـة. لكـن المعرفـة بالنسـبة إلى روتلـج، تبقـى ناقصـة وغـير مكتملـة إلى أن يواجـه المـوت، ليـس كسـؤال أو قلـق، بـل كتجربـة لا تنفصـل عـن الحيـاة والطبيعـة؛ حيـث تفـرض عليـه الظـروف أن يقـوم بتكفـين مهاجـر آخـر يدعـى جـوني، يعـود إلى القريـة ليمـوت، حيـث يشـارك روتلـج في حفـر قـبره ودفنـه مـع جيرانـه، وعندمـا يسـأل القرويـين لمـاذا تضعـون رأس الميـت في جهـة الغـرب يجيبـه باتريـك ريـان: «كي يواجـه الشـمس المشرقـة عندمـا ينهـض».

وهكـذا إذن، فـإن في الزمـن الـروائي الـذي تحـدده تـوالي الفصـول وعوامـل الطبيعـة حـول البحـيرة، يقـع مركـز الكـون الصغـير الـذي تتكشـف فيـه دلالات الحيـاة، وتواجـه الشـخصيات مصائرهـا محكومـة بحياتهـا اليوميـة الفقـيرة والمعزولـة عـن حركـة العـالم؛ إنـه عـالم تتعطـل فيـه السـاعات في بيـت جامـسي وينفصـل زمنهـا عـن واقـع الحيـاة، وكل مـا يفعلـه النـاس في محاولاتهـم لإصـلاح هـذا الخلـل لا يفـضي في النهايـة إلا إلى تأكيـده.

يصلـح جامـسي السـاعات كأنـه يسـعى إلى اسـتعادة زمـن مـا، لكـن الروايـة تكشـف عـن جوهـر التناقـض بـين الزمـن الإنسـاني الخـاص الـذي تفرضـه التجربـة في بيئـة محـددة ومفهـوم الزمـن العـام والمجـرد. ولـكأن ماكغريـن يعـود هنـا إلى فلسـفة أنطـون تشـيخوف عـن علاقـة الإنسـان بالزمـن ليـضيء العـوالم الداخليـة لأبطالـه في عجزهـم وفي كفاحهـم الملحمي لإبـداع معنـى مـا لحياتهـم، حيـث يتجـلى الإنسـان في زمنـه الخـاص ذاك، في ضعفـه وفي جمالـه، في عجـزه وفي قوتـه، في وضاعتـه وفي سـموه، إنـه يتجـلى حقيقيـا في علاقتـه مـع الطبيعـة ومـع الكائنـات الأخـرى، الحيوانات والنباتـات التـي يعيـش معهـا ويشـاركها مصيرهـا في الكفاح من أجـل البقاء. ولا يتحـرر الإنسـان هـا هنـا مـن ذاكـرة الاسـتعمار والاضطهـاد السـياسي والدينـي والهجـرات والغيـاب، لكنـه يعـاني مـن غربـة تجسـدها الروايـة ببراعـة؛ غربـة وانفصـال عـن الثقافـة السياسـية وعـن ذاكـرة العنـف عـلى مـدى قـرن كامـل مـن التحـولات والصراعـات العنيفـة في أيرلنـدا، غربـة تجلـت في المفارقـة بـين عـوالم الشـخصيات وأزمنتهـا الخاصـة مـن جهـة، والتاريـخ السـياسي المثقـل بهزائـم البـشر مـن جهـة أخـرى.

إن جـون ماكغريـن يلتقـي هنـا مـع حساسـية جيـل مـن الكتّـاب الذيـن سـعوا إلى تحريـر الذاكـرة الأيرلنديـة مـن إرث التجربـة الاسـتعمارية

والحرب الأهلية، لا ليلغيها أو يتجاوزها، بل ليفتح أفقا لكتابة جديدة قادرة على إنتاج وعي مغاير بالذات وبالعالم. وعي يتصدى لسؤال الهوية خارج أنساق الأيديولوجيا ويتأمل في الشرط الإنساني لمستقبل الفرد وحياته بقدر ما يحلل العلاقة مع الذاكرة والماضي.

المترجم

تـردد قــرع أجــراس القــداس حــول البحــيرة، فخفــق ماؤهــا الرائــق برعشــات ناعمــة انســابت تحــت ســماء الصبــاح الصافيــة وامتــدت في السـكينة لتغمـر العـالم كلـه. كانـت أبـواب البيـت مفتوحـة فدخـل جامـسي بهـدوء دون أن يقـرع البـاب، ووقـف في مدخـل الغرفـة الكبـيرة حيـث كان السـيد والسـيدة روتلـج يجلسـان. وقـف هنـاك سـاكنا كمَـنْ يكْمُـنُ لإوزة بريّـة تحـت شـجرة. توقـع أن يكتشـفاه بسرعـة، وتخيـل صيحـات المفاجـأة والتأنيـب، وكيـف سـيرد عـلى ذلـك بلومهـما عـلى قلّـة انتباههـما، وكيـف سـيعْقُبُ ذلـك ترحيـبٌ وضحـك، لكـنّ صـبره نفـد عندمـا تابعـا حديثهـما بهـدوء حـول زيـارة ينتظرانهـا تلك الظهـيرة، كأنّ اسـتمراره في توقّع اكتشـافه متلصّصـا في أيّ لحظـة أفسـد تلـك الـبراءة التـي دفعـت بـه إلى مَـا يفعـل.

نادى برقة لا تخلو من تبرم: «مرحبا.. مرحبا.. مرحبا..».

«جامـسي!» ردّا عليـه بـوُدٍّ كبـير. لم يتفاجـأ أحـد منهـما، فمـن عادته أن يدخـل هكـذا بهـدوء. «أهـلا وسـهلا بك».

قـال سـاخرا وهـو يتقـدم نحوهـما: «لا فائـدة منكـما. كنـت واقفـا أسـترق السـمع منـذ فـترة ولم أسـمعكما تنطقـان بكلمـة نميمـة واحـدة بحـق أحـد. ولا حتـى بكلمـة سـوء».

«نحـن لا نتكلـم عـلى أحـد بالسـوء مطلقـا. هـذا خَطـرٌ جـدا ويوقع في المتاعب».

«هكــذا، لا تســتغيبان أحــدا؟ لا جــدوى مــن الاســتماع لزوجــين مثلكــما إذن».

بـدا وسـيما ومتأنّقـا في بـزّة الأحـد الداكنـة وقميصـه الأبيـض وربطة عنقـه الحمـراء وحذائـه الأسَـود اللامـع وشـعره الرمـادي الممشـط مـن جبينـه العـالي إلى الـوراء وملامحـه الدقيقـة، وانبعثـت مـن كل حركاتـه وإيماءاتـه نضـارة شـديدة وعذوبـة في الطبـع.

«كيـت». مـد لهـا يـده الضخمـة وتظاهـرت هـي بالخَشـية مـن مصافحـة يـد بهـذه القـوة. هـذه لعبـة اعتادهـا فهـو يعتقـد أن كل أشـكال التواصـل الاجتماعـي ليسـت سـوى أنمـاط مختلفـة مـن اللعـب.

«اللـه لا يحـبّ الجبنـاء يـا كيـت». أعطتـه يدهـا، ولم يتركهـا مـن قبضتـه القويـة حتـى تأوّهـتْ صارخـة: «رويـدك يـا جامـسي». أطلـق صيحـة ظفـر خفيفـة: «أنـت مـن فرسـان اللـه يـا كيـت». ثـم قـال وهـو ينحنـي: «سـيد روتلـج».

«سيد مرفي».

«لا، لا سـادة هنـا» قـال معترضـا ثـم أضـاف: «مـا مـن سـادة في هـذه البقعـة مـن العـالم. لا أحـد سـوى رجـال نبـلاء منكسريـن».

«ولا سـادة في هــذا البيــت أيضـا. مــن هــو تحــت لا يخــشى السـقوط».

قـال جامـسي مخففـا مـن حـدة نبرتـه: «لماذا لا تذهـب إلى القـداس إذن إن كنـت تـرى نفسـك تحـت هكـذا؟».

«وما علاقة الأمر بذلك؟».

«في القداس ستشعر أنك مثل الآخرين».

«أودّ الذهاب إلى القداس. أنا أفتقد ذلك».

«وما الذي يمنعك؟».

«أنا جاحد إيمانيا».

قلده بسخرية: «جاحد إيمانيا.. لا أحد منّا غير جاحد، لكننا نذهب. هذا ليس عذرا».

«هذا نفاق. لماذا أذهب إن لم أكن مؤمنا؟».

«لترى الفتيات. لتتفرج على الطقوس» ثم أضاف وهو يرتجف ضحكا: «نذهب لنشاهد الخراصين الآخرين. ما رأيك بكل هذا يا كيت؟ أنت لم تنطقي بكلمة واحدة بعد».

قالت: «أبي وأمي كانا غير مؤمنين. كانا يؤمنان بأنّ الوجود ليس سوى ما تستطيع رؤيتَهُ وأنكَ لست سوى ما تعتقد وتظهر عليه هيئتُك».

«لا تبالي بهما يا كيت. أنت من أنت، وليذهبْ أولئك إلى الجحيم».

قال روتلج: «الطريقة التي نرى فيها أنفسنا غالبا ما تختلف عن تلك التي يرانا بها الآخرون».

«لا تبالي به أيضا. إنه فقط يحاول أن يناور ويراوغ. لا يدري إنْ كان يتبوّل في فراشه أم يتعرّق. لكنّ لزَوجته رأيا آخر. ستكونين على ما يرام ككل الآخرين هنا يا كيت». أخرج مقص تقليم من جيبه ووضعه على الطاولة: «شكرا، لقد أفادني كثيرا. فولاذ عظيم حقا».

«اشتريته من سوق الخميس في إنسيكيلن. لم يكن غالي الثمن».

«الشمال!» رفع يده لتأكيد كلامه «مكان عظيم للصفقات الرخيصة».

سألته كيت: «أترغب ببعض البربون يا جامسي؟».

«ها أنت تتكلمين يا كيت، لكن عليك أن تحذري من بعض الكلمات».

«لماذا؟».

«انظري إلى رَجُلك» مشيرا إلى روتلج الذي كان قد أخرج بعض الكؤوس من الخزانةَ وزجاجة من شراب الباورس الأيرلندي وشرع بصب الماء في إبريق بني.

«أنا بطيئة».

«لا، لست بطيئة البتة يا كيت. إنك فقط لم تولدي هنا. لا بد أن تولدي في المكان لتعرفيه جيدا وتكوني على دراية بما تفعلين».

«وهو لم يولد هنا».

«ليس بعيدا من هنا. قريب بما يكفي ليعرف. لم يكن في المدرسة لكنه كان على معرفة بالطلاب».

رفع جامسي كأسه: «بصحة أيامنا القادمة. أولئك المدفونون في شروهاون[1] لا يشربون اليوم».

«حظ طيب. ما الأخبار؟».

«ما من أخبار. أتيت باحثا عن أخبار». صاح بطريقة مسرحية لكنه لم يستطع كتمان ما لديه أكثر من ذلك: «جوني سيأتي إلى هنا من إنجلترا. سيأتي يوم الثلاثاء. ماري قرأت رسالته».

اعتاد أخوه جوني أن يأتي من دانغهام حيث كان يعمل في مصنع فورد لقضاء إجازة الصيف، ولم يفوت سنة واحدة منذ أن هاجر إلى إنجلترا قبل عشرين عاما.

«يسعدني أن أوصلك إلى المحطة».

«أعرف ذلك جيدا يا روتلج، شكرا لك، لكننا دائما نذهب في سيارة جوني رولي. جيم سيأخذ إجازة ليستقبل جوني في المطار ويوصله بعدها إلى القطار».

(1) نفهم أن الأحداث تجري قرب إحدى بحيرات مقاطعة Leitrim، التي يمر بها أطول أنهار أيرلندا وهو نهر Shannon، الذي تقع بالقرب منه بلدة Shruhaun.

جيم ابن جامسي وماري الوحيد. تفوق في دراسته والتحق بالخدمة المَدَنيّة في دبلن حيث برز وتبوّأ مناصب رفيعة في عمله وتزوج وأنجب أربعة أطفال.

«اعتاد جوني في وقت ما أن يقضي الليلة مع جيم ولوسي في دبلن، لكن الوضع تغير الآن ولم يعد مرغوبا به. لوسي لا تنسجم معه، وهذا أفضل. أفضل بكثير على أية حال. سأذهب إلى المحطة في موعد القطار وسنتوقف مع جوني في طريق عودتنا من المحطة عدّة مرات. وعندما نصل إلى البيت ستُعدّ لنا ماري لحم البقر، فما من لحم جيد في إنجلترا. لو ترى وجه جوني وهو يقول لها عندما تضع له قطعة اللحم أمامه على الطاولة بارك الله فيك يا ماري!».

سيُغسل البيتُ وملحقاتُه كما في كل صيف استعدادا لعودة الزائر، وستُطلى البوابة الخضراء من جديد، وستُستبدل الأوتاد القديمة التي ترفع الشبك المعدني في قفص الدجاج، وسيُنظف الشارع، وستقوم ماري بفرك الغرف كلِّها وتنظيفها. ستقوم مع جامسي بإخراج الفراش من الغرفة السفلى التي كانت فيما مضى غرفة جوني ووضعها في الهواء الطلق وأشعة الشمس. ستُنزع اللوحات المقدسة وصور الزفاف لتنظيف زجاجها ومسحه، وسيُعَدّ فراش جوني ببياضات ناصعة ويُغطى ببطانيّة حمراء. ستوضع مزهرية كبيرة في غرفته مع أزهار جُمعت من الحديقة والحقول. ورد وزنبق وقرنفل وزهور قفاز الثعلب وأغصان صَريمة الجَدي[2] من شجيرات السور ستوضع على حافّة النافذة المفَتوحة لتعطر الهواء وتزيل روائح العفونة والرطوبة من الغرفة المهجورة.

(2) صَرِيمة الجَدي أو العسلة، تدعى باللاتينية Lonicera، وهي شجيرة تستخدم في أوروبا للزينة.

ولا بد أن تكون قطعة من أفضل أنواع لحم خاصرة البقر قد طُلبت كتوصية خاصّة من الجزّار في المدينة. لا يمكن للبيت أن يبدو في حالة أفضل في انتظار كوكب يعود إلى وطنه القديم على الأرض.

قال جامسي: «جوني كان أفضل رام عرفته هذه الأنحاء من البلاد. لم يكن عليه عندما يجتمع الرماة يوم الأحد ليطلقوا بنادقهم سوى أن يرفع بندقيته ويصوّب باتجاه طير ليسقط كحجر. كان لديه اثنان من أفضل كلاب الصيد، أوسكار وبراند. العالم كله كان له، عند موطئ قدميه، ولم يكن عليه حتى أن يحرك يده. كل ما كان عليه فعله أن يتجوّل ويشرف على ما يفعله الرجال. نعم، كان من الممكن أن يكون أحيانا حادًّ الطبع ومباشرا، وربما صادقا أكثر مما ينبغي بطريقته الخاصة. كل أهل البلد كانوا يهاجرون إلى إنجلترا في تلك الأيام، ولو أنهم حصلوا على فرصة العمل التي حصل عليها جوني لَكُنّا شهدنا وقتها نزوحا جماعيا كما يحدث في الهجرات بحثا عن الذهب. لو أنّ أيّ أحد أخبرنا وقتها ما الذي سيحدث لضحكنا غير مصدقين. ذهب وراء آنا مولفي. كانا معا نجمين في تصفيات أيرلندا في آثلون في السنة التي سبقت، لكنهما لم يستطيعا التغلب على باتريك ريان. زاره المحامي مرة لتناول الشاي عندما كان باتريك يمزق قُطَب جرحه كلما تحرك. كان جوني متيّما بآنا التي ذهبت إلى إنجلترا هربا منه. كانت أحوال عائلة مولفي جيدة ولم تكن بحاجة إلى الهجرة. لكنها عندما كتبت إلى جوني بعد ذلك وقالت إنها تفتقده وتريده أن يأتي إلى إنجلترا، لا أعتقد أنّ قدميه قد لامستا الأرض لأيام عديدة. كنّا نريد له أن يأخذ إجازة ويذهب ليستطلع الأحوال ويجرب حظه، لا أن

يحرق الجسور وراءه دفعة واحدة، لكنه لم يستمع لنصحنا، ولو أنه أصغى إلينا لكان لا يزال هنا».

«ولماذا كتبت إليه آنا تطلب منه الذهاب إلى إنجلترا إن لم تكن جديّة ومهتمّة به فعلا؟».

«كانت تستغله. كانت متأكدة من هُيامه بها وما كان عليها سوى أن تنطق بكلمة حتى تحصل منه على ما تريد».

«هذا خطأ».

«خطأ أم صواب، جميل أم بشع، ما الفارق الآن؟ إنه أمر صعب. أولئك الذين لا يبالون بالآخرين يربحون كل شيء، وهم في النهاية من يتفرجون على الجميع. لم يكن لجوني عندها قيمة أكثر من كلب أو قطة. يا لبران وأوسكار المسكينَين! كانا كلبي صيد جميلين، يلازمانه كبندقيته ذات الماسورة المزدوجة. في الليلة التي سبقت رحيله أخذهما إلى المستنقع مع بندقيته. كانا يتقافزان ويركضان حوله مقتفيين أثر الطريق كأنهما ذاهبان إلى الصيد. مازلتُ أذكر ذلك جيدا. ليلة صقيع ساكنة، ما من نسمة واحدة، وأوراقُ الشجر بدأت تتساقط للتو.

كان بوسعك أن تسمع صوت ارتطام رفش بحجر في الحقول البعيدة، فما بالك ببندقية مزدوجة الماسورة. طلقتان فقط، واحدة تلو الأخرى، هذا كل ما سمعناه. كان بودنا لو نأخذ الكلبين ونتكفل بهما، لكنه لم يطلب ذلك أبدا. لم أكن كجوني راميا ممتازا، لكني كنت سأحتفظ بالكلبين والبندقية لو كنت مكانه. كانا كلبين جميلين. تلك الليلة أتى رجلان لشراء البندقية والدراجة النارية. توقعت أن يعطيني البندقية على الأقل بعد كل تلك السنوات التي قضاها في بيتي. لقد منحته كل ما أراد».

«لماذا لم تطلب شراء البندقية؟».

«لا، لم أكن لأطلب. كنت أفضّل الموت على ذلك».

«لماذا؟».

«كان يمكن أن يظن أني أطلبها دون مقابل. لم أكن لأمانع في اقتناء البندقية على كل حال لكن ما آلمني حقا هما الكلبان المسكينان، وأكثر من ذلك ماري التي كانت متعلقة بهما. رحل جوني. استقلّ القطار في صباح اليوم التالي ومضى في خطوة ستدمّر حياته. كان من الأفضل له لو أنه أطلق النار على نفسه بدلا من الكلبين».

«ألم يكن ذلك شجاعة مقارنة مع ما يجري عادة في حياتنا، أن تترك كل شيء وتمضي وراء الحبّ؟».

«لا يا كيت، أنت لا تعلمين، فهو لم يكن يدري ماذا يفعل. كان على استعداد لإلقاء نفسه في بيت يحترق لو أنها طلبت منه ذلك، وبالمقارنة مع ما قدمه لها، فإنه لم يضع قيمة لحياته. كان يعتقد أنه لا يستطيع العيش دونها».

«لماذا كانت تستغلّه إن لم تكن تريده؟».

«لا بد أنك تعلمين يا كيت. أنت امرأة».

«هناك أصناف كثيرة من النساء بعدد أصناف الرجال».

«وماري أيضا تقول نفس الكلام». ضرب على يد الكرسي مؤكدا كلامه: «كان جوني يعطيها نقودا ويشتري لها المشروبات والسجائر والله أعلم ماذا أيضا، لا ندري. كان لديه كثيرٌ من المال عندما رحل إلى إنجلترا، ولم يكن ليتردّد في إعطائها ثيابه لو طلبت، فقد كان دائما رهن إشارتها وتحت أمرها. سمعنا بعد ذلك أن آنا ذهبت إلى إنجلترا وراء بيدار كورن وتورطت في المتاعب، وأعتقد أن جوني ساعدها في الوقوف على قدميها، لكنها استغنت عنه فيما

بعد. لم يزرنا في ذلك الصيف، لكنه لم يفوّت صيفا واحدا بعد ذلك».

«هل ذُكرت آنا بحضوره عندما آتي؟».

«أبدا، ولا مرة واحدة. لم نعرف أبدا ما الذي حدث لها. سمعنا أنها تزوجت من رجل شرطة في لندن».

قال روتلج: «تحولت إلى الكاثوليكية. قلبتْ معطفها كما يقال. كنت على استعداد لأن أقلب معطفي من أجلك يا كيت لكن لم يكن لديّ معطف في تلك الأيام، وأنت لم تطلبي منّي ذلك».

«لم يجاف الحقيقة في كلامه يا كيت، فكلهم يقلبون عندما يتوجب عليهم الاختيار بين الإيمان ونوازع الجسد». ضحك بحيوية وهو يتكلم: «كلهم يقلبون».

قال روتلج: «كلنا نشبه جوني في وضعه.. ربما مع فارق أننا لم نصل إلى ذلك الحد».

«تكلم عن نفسك يا سيد روتلج. أنا لم أكن يوما في ذلك الوضع».

«إذن لم تكن بعيدا عنه».

«أنا لم أتحرك من هنا أبدا وأعرف العالم كلّه».

قالت كيت: «أنت على حق يا جامسي، لا تبال به».

«وأنت ما رأيك يا كيت؟».

«أعتقد أن النساء أكثرُ واقعية ويتعلمن كيف يتجاوزن خساراتهنّ. إنهنّ أكثرُ تركيزا على ذواتهنّ».

«نعم هكذا، ادخلي بخفة يا كيت وانسحبي على رؤوس أصابعك. مدي يديك ولكن لا تضغطي أبدا. اسألي لمَ لا، ولكن لا تسألي لماذا أبدا، ودائما اكذبي كأنك تقولين الحقيقة. ولتحفظ

السـماء الآثمـين المسـاكين» قـال وهـو يقهقـه بعـد تعليقـه السـاخر.

قـرع مفاجـئ بعصـا عـلى بـاب الـرواق كان مـن القـوة بحيـث لم يـترك فرصـة للـرد عليـه: «بـارك اللـه الجميـع هنـا». سُـمعت صيحـة بينـما كانـت خطـا بطيئـة مُتثاقلـة ومُنهكـة تقترب مـن الغرفـة الأمامية. قـال جامـسي وهـو يفـرك كفيـه مترقّبـا: «بيـل إيفانـس. لا يمكـن أن يكـون أحـدا غـيره». لم يتوقـف بيـل إيفانـس عنـد المدخـل، بـل دخـل بجسـارة إلى الغرفـة ليجلـس عـلى الكـرسي الهـزاز الأبيـض. كان ينتعـل جزمـة بلاسـتيكية ضخمـة ويلبـس بنطـالا أزرق مـن الصـوف الخشـن، ومعطفـا ممزقـا تحتـه قميـص مـن قـماش أغطيـة الفـرش، وقبعـة باليـة مـن القـش.

بـدا ذلـك كلـه عليـه أكـبر مـن مقاسـه بأضعـاف، بينـما اتـكأ عـلى سـاعد الكـرسي وعينـاه تتنقـلان بلهفـة بـين الوجـوه.

«جامـسي» قـال بابتسـامة عريضـة مترفعـة «أهـلا بـك عـلى هـذا الجانـب مـن البحـيرة».

أجابه ضاحكا: «يسعدني ويشرفني أن أكون هنا».

أُعـدّ الشـاي وقُـدم مـع الحليـب والكثـير مـن السـكر ووضـع مـع البسـكَويت عـلى مسـند صغـير بجانـب الكـرسي الهـزاز. قـال بيـل وهـو يـأكل: «كيـف أحـوال الجميـع هنـا؟».

«في القمة، جميعنا في القمة».

«هل تستطيعون تدبير أموركم دون جاكي؟».

«تسير الأمور بشكل ممتاز وكل شيء على ما يرام».

تعلّـمَ ألا يبـوح بـأي معلومـات عـمّا حـدث لـه، وكان في حياتـه الكثـير مـما يتوجّـب كتمانـه، ولأنـه لا يملـك حيـاة أخـرى كان يعلـم بفطرتـه أن إرضـاء مـن يرعـاه والاحتفـاظ بمكانـه مـن الأساسـيات.

سأل جامسي ممازحا بلهجة استفزازية: «هل تعتقد أنها ستتزوج مرة أخرى؟».

«الجميع يقولون إنك فضوليّ جدا».

رد جامسي متراجعا: «بعض الأخبار خير من ألا تسمع شيئا. ليس هناك حقائق أشد إيذاء من تلك التي نراها حقيقية بشكل جزئي، فالطريقة التي تصل بها الحقيقة إلينا هي ما يجعلها أكثر إقلاقا». ورغم تظاهره باللامبالاة إلا أن جامسي كان يعلم في قرارة نفسه أن فضوله مدعاة للخوف سرا وللسخرية علانية، فبقي صامتا على غير عادته.

أنهى بيل إيفانس الشاي والبسكويت. وضع الصحن والفنجان جانبا ثم سأل وهو ينهض: «هل لديكم سجائر؟». أعطاه روتلج خمس سجائر كانت موضوعة في زاوية الخزانة ثم أفرغ بضعة أعواد ثقاب في كفه فوضعها مع السجائر في جيب معطفه الصوفيّ الخشن. «لا يُمَلّ من صحبتكم، لكن عليّ الذهاب الآن». صاح جامسي بتودّد «حظا طيبا يا بيل» لكنّ بيل إيفانس لم يجب.

رافقه روتلج إلى البوابة حيث ترك دلوي الماء عند سياج شجيرات الفوشيا. «انظر فيما إذا كان أحد ما في الزقاق». تقدم روتلج إلى الزقاق الضيق وأجال نظره سريعا فبدا له كنفق مضاء يمتد بين جانبيه المرتفعين تحت سقف من الأغصان الخضراء المتشابكة. «ما من أحد هناك». «ما من أحد يراقب عند البوابة؟». «لا أحد. لقد قسوت كثيرا على جامسي». قال بنبرة ظافرة مكشّرا عن ابتسامة عريضة: «إنها الطريقة الوحيدة التي تناسبه. إنه كثير الثرثرة». رفع الدلوَين من بين شجيرات الفوشيا ومضى نحو البحيرة.

بيل إيفانس من نوع يكاد ينقرض كما طيور مرعة الغيط. كان قد أتى إلى المنزل الذي يعيش فيه الآن من الحقل الذي عمل فيه أول مرة بعد أن انتقل إليه من المدرسة الدينيّة عند بلوغه الرابعة عشرة، ولا أحد يعلم حتى هو نفسه كم مضى على ذلك.

سنوات عديدة مرت منذ ذلك اليوم البارد الذي تركوه خارجا ومضَوا آمرين إياه بأن يراقب المكان فقط وألا يفكر مطلقا. كان الوقت الذي يفصلهم عن حلول الليل طويلا على غير العادة فلم يتمكن من احتمال الجوع أكثر وعاد إلى روتلج وقال له «أعطني شيئا آكله أنا أتضور جوعا».

«ما الذي جرى؟».

أجاب بتردد: «لقد ذهبوا».

لم يكن هناك سوى القليل من الطعام لأن كيت كانت قد سافرت إلى لندن وتركت روتلج يدبر أمور المنزل وحده.

«أهلا، تفضل إلى أيّ شيء تحبه في البيت، لكن ليس لديّ حتى خبز. كنت أنتظر أن أذهب إلى القرية مساء».

«أليس لديك بطاطا؟».

«بلى لديّ الكثير» ولم يكن قد فكر بذلك كشيء يمكن تقديمه.

«بسرعة يا جو ضعْها على النار».

وضع روتلج قدرا من الماء على النار ليغلي وقام بغسل البطاطا. «كم واحدة؟». «أكثر أكثر». برقت عيناه وهو يحدق في القدر منتظرا غليانه ونضج البطاطا. أكل الأربع عشرة حبة كلَّها مع قشرها والزبدة والملح وأكمل شُرْبَ إبريق كامل من الحليب ثم قال بشعور عارم من الرضى وهو ينهض متجهاً نحو الكرسي الهزاز الأبيض «يا الله، أشعر الآن بالامتلاء. هل لديك سجائر؟».

أعطاه روتلج حصته من السجائر من أحد الرفوف. أشعل سيجارة وبدأ يستنشق دخانها بعمق إلى أن تمتلئ رئتاه ليقوم بعدها بنفثه ببطء من أنفه ثم يترك للدخان أن يتحرّر من صدره في دفقات متقطعة. كانت متعته من العمق والقوة بحيث كانت مراقبتها أيضا لا تخلو من متعة مشوبة بالقلق. لم يكن في البداية على عجلة من أمره في المغادرة فبدأ روتلج يسأله عن حياته على الرغم من معرفته بأن ذلك لن يَلقى ترحيبه وأنه يعلم مسبقا الخطوط العريضة لمجريات تلك الحياة.

كان على علم بأنه لم يكن له أبٌ أو أمٌّ وأنه تُرك لرعاية الراهبات، وعندما بلغ السابعة من عمره - سن العقل كما كانوا يعتقدون - انتقل ليكون في مكان آخر تحت رعاية الآباء وإخوة الكنيسة ثم ليُرسل مرة ثانية عند بلوغه الرابعة عشرة كما يرسَل الكثيرون غيره إلى العمل في الحقل.

يتذكر روتلج أن أولئك الصِّبْيةَ كانوا يُرسلون أيضا للعمل كخدم في الكليات يمسحون ويكنسون الأرض ويفرّغون القمامة ويخدمون في مطاعم الكلية التي كان يدرس فيها. يتذكر كم كان أولئك الصِّبية صغارا في ستراتهم البيضاء وبناطيلهم المقلّمة بالرمادي ورؤوسهم الحليقة ووجوههم الشاحبة المتوترة. كانوا ممنوعين من تبادل أي كلمة مع الطلاب، يحملون صوانيَ كبيرة من اللحوم أو السمك وأوعية مليئة بالحساء والخضار وسلالا من الخبز، وفي أيام الآحاد كؤوسا من عصير البرتقال. كان المكان من الكآبة بحيث بدت كؤوس العصير المصفوفة كأزهار ملونة على الطاولات في أيام الآحاد، مناسبة الترفيه الوحيدة في ذاك الوقت. كان ما يجري في المطبخ يصل من وراء الحاجز الخشبي كضجيج

بعيد يقطعه الصراخُ أو تحطّمُ الأشياء بين فينة وأخرى. في بدلته السوداء الطويلة ورأسه الحليق وعينيه الحمراوين المتوقّدتين كان عريف الطلبة يبدو شخصا شريرا ولا سيما عندما يبتسم بفتور. يتجول بين صفوف الطاولات أو يتوقف تحت الصليب بين النوافذ العالية ليقرأ التوجيهات ويصدر الإنذارات، وبرأس محني يتلو صلوات الشكر قبل كل وجبة وبعدها. وفي تجواله البطيء بين الطاولات وهو يقرأ من دفتر صلواته اليومي اعتاد أن يتوقف ليرمق بنظرة جامدة كل من تبدر عنه أي ضوضاء أو حركة غير معتادة، هو الذي يكفي ما أُذيع عنه من صيت ليجعل أدوات الطعام تسقط على الأرض وتتبعثر من أيدي من يسارعون بارتباك إلى تلافي أو تصحيح أي خطأ أو هفوة في حضوره. هكذا كان يفعل ثم يبتسم ابتسامة جليديّة ويعود إلى دفتر صلواته متابعا مشيه وتوقّفه كقطار كثير المحطات ليثبّت بعدها نظره فجأة على مملحة مقلوبة في مكان ما.

في أحد الصباحات بينما كان الصِّبية الخدم يهرولون بين المطبخ والطاولات اصطدم به أحدهم متعثرا وهو يحمل صينيّة مبتعدا عن إحدى الطاولات فتطايرت الأطباق والأوعية وتلطخ ثوبه الكهنوتي. الطلبة الذين كانوا يجلسون قريبا من الحادثة فقط شاهدوا ما حصل إلّا أنهم لم يكونوا متأكدين تماما.

قيل إن الصبيّ خرق قانون الصمت في مواجهة غضب عريف الطلبة محاولا تبرير ما حدث، إلا أنه تعرّض لضرب مفاجئ ووحشيّ توقّف خلاله الجميع عن تناول أي لقمة أو التّفَوّه بأي كلمة. كان الصمت أثناء بكاء الصبيّ المرير عميقا ومثقلا بالإحساس بالذنب، لكنه سرعان ما تلاشى مع عودة السكاكين

والشوك إلى قرع الصحون والاحتكاك بها واستئناف الجالسين على الطاولات لهمهمتهم الخافتة.

كثيرون ممّن كانوا جالسين أثناء تلك الحادثة إلى الطاولات وقد أخرسهم الخوف سيمضون حيواتهم تحت وطأة شعورهم بأنهم كانوا شركاء في ضرب الصبيّ من خلال صمتهم.

هذا الرجل الهرم الجالس الآن في الكرسي الهزاز الأبيض يدخن باسترخاء وهو يرتاح بعد أن أكل طبقا كبيرا من البطاطا، كان يمكن أن يكون أحد أولئك الصِّبية الذين كانوا يقومون بخدمة الطاولات أو تنظيف المطبخ لو لم يصادف أن يُرسَل في ذلك اليوم البعيد إلى العمل في أحد الحقول.

«أرسلوك إلى العمل في الحقل عندما بلغت الرابعة عشرة؟».

«رحمتك يا رب. نعم، هذا ما حصل».

«وقد عملت هناك عدة سنوات قبل أن تهرب إلى هنا؟».

«رحمتك يا رب. أجل، هذا ما فعلته».

«ولم يحسنوا معاملتك هناك؟».

لم يُجبْ وامتد صمته لحظات بدت كأنها دهر وهو يحدق بنظرة ثابتة في الكرسي الأبيض الذي توقف عن الحركة: «لماذا تسألني عن ذلك يا جو؟».

«لكل إنسان حكاية وأصل. لا أحد يأتي من فراغ».

«ها أنت على وشك أن تصبح مزعجا كجامسي».

«ألم تكن في رعاية الرهبان والقساوسة في ذلك المكان قبل أن يُرسلوك إلى العمل في الحقل أول مرة؟».

تجاهل روتلج التأنيب. كظلّ طائر يعبر فضاء تضيئه نافذة مفتوحة، اجتاحت وجه بيل إيَفان بسرعة خاطفة نظرة مُعذِّبة ما

لبثت أن تلاشت لتكسو وجهَهُ شراسةٌ قاتمة. «ألم تكن قبل الرهبان والقساوسة تقيم مع أولاد آخرين في دير برعاية الراهبات؟ ألم تتلقَّ معاملة أفضل هناك؟».

لم يكن الصمت المديد ما ألَمّ به هذه المرة بل موجة من الألم والغضب اكتسحت وجهه فصرخ: «توقّف عن تعذيبي». تراجع روتلج أمام حدة غضبه، وتحت وطأة شعوره بالخجل من استجوابه المتطفّل سارع بالإجابة «لم أكن أقصد ذلك. أنا آسف، ليس في البيت سوى القليل من الطعام».

«البطاطا كانت عظيمة يا جو. جعلتني أشعر بالامتلاء. والآن عليّ الذهاب» قال وهو ينهض من الكرسي متّكئا على مَقْبض عصاه الصلب ثم أضاف: «لقد تركوا الأمور في عهدتي ويمكنَ أن يعودوا في أية لحظة وأريد أن أكون هناك حين عودتهم».

نظر روتلج إليه وهو يمشي ببطء نحو البحيرة حاملا دلوي الماء. هكذا اعتاد أن يراه كل يوم منذ أن جاء مع كيت إلى هذا البيت، يمضي كل يوم إلى البحيرة ليملأ الدلوين بالماء.

في هذا الوقت كان كيت وجامسي لا يزالان يتحدثان عنه: «لقد قلت لك يا كيت أنت متساهلة أكثر مما ينبغي. بقدر ما تحسنين معاملة أمثاله بقدر ما يتطاولون عليك».

«وما الذي يعرفه غير ذلك؟».

«سيتحتّم عليك أن تقاسي لكن قد تكونين على حق في نهاية المطاف». قال جامسي موافقا بطريقته المتساهلة: «ما تعرّض له كان ظلما ولم يكونوا في الحقيقة محظوظين البتة. عندما كان جاكي يقود الجرّار في الطريق إلى معمل الألبان كان على بيل أن يركب خلفه في المقطورة تحت المطر لينزل عند كل بوابة ويرفع الحاويات

الثقيلة إلى المقطورة، وبجهد كبير كان يقوى على فعل ذلك عندما كانت تلك الحاويات مليئة. عمل شاق كان كفيلا بإنهاك رجل أقوى منه. بمجرد أن تلمس الحاوية سطح المقطورة كان جاكي يُقلع بالجرّار متحركا فيركض بيل للحاق به ويتعلّق بالمقطورة متسلقا إلى مكانه خلف الحاويات. في بعض الأحيان كان يقع فيضربه جاكي عندما يتوّجب عليه إيقافُ الجرّار والترجُّلُ منه. عذابات لم تكن تَقلُّ في شيء عما قاساه الأقدمون سوى أن بيل كان دائما يعود إلى البَيت حيّا مع حاويات القشدة. لقد كان الأمر من السوء بحيث كان على الحارس ميوراي أن يتدخل ويحذر جاكي».

«يصعب عليّ فهم ذلك. ألم يكن يستطيع انتظاره بضع ثوان كي يصعد إلى المقطورة؟!».

«جهل، محض جهل. ما من وصف آخر لذلك. في أحد الأيام رأيتهم في الحقل يحرثون الأرض، جاكي مع رجلين آخرين لن أسمّيهما الآن. كنت أراقب من وراء سور الشجيرات. كان عمل بيل أن يسوي التراب بقدميه منتعلا جزمة بلاستيكية ضخمة، وكلما عبروا بالمحراث المكان الذي كان يسوّي التربة فيه ركلوه أو دفعوه ليسقط على الأرض المحروثة ثم يستغرقون في الضحك. كانوا كأنهم يمارسون رياضتهم المفضلة».

«ألم يكن بوسعك فعل شيء ما؟».

«وما الذي كان بوسعي فعله؟ لو كنت قد تدخلت لضربوني أنا أيضا إلا إذا فعلت مثلهم وألقيت به إلى الأرض. في تلك السَّنة هرب، وكان ذلك أفضل ما فعل في حياته، ولم يعلم أحد كيف تمكّن من ذلك. لا بد أنه مشى طويلا قبل أن يعثر على من يوصله. بعد سنتين على هروبه، وكان من المؤكد أنه سيستمرّ في

اختفائه لولا أن مجموعة من مشجعي فريق أيرلندا الواحدة عثروا عليه حين توقّفوا لتناول الشراب في طريق عودتهم في حانة على أطراف مدينة مولينغار. في بداية الأمر لم يعرفوا بيل الذي كان قد سمن قليلا وانتعل حذاء ولبس ثيابا عادية، لكنهم فوجئوا بتحيّته المعتادة عندما مد يده لهم مرحبا يطلب السجائر. كانت حانة ومزرعة في الوقت ذاته وكان بيل يخدم هناك ويشرب ما يتركه الزبائن من بقايا. كان عليهم أن يُغلقوا أفواههم الكبيرة ويصمتوا، لكنّ ما حدث أن جاكي ورجلين آخرين استقلوا سيارة الفورد ذات يوم أحد ومضوا إلى مولينغار ليعودوا به».

«هل أجبروه على ذلك؟».

«لا أحد يعلم. وربما كان سعيدا للقائهم أو أنه مدّ يده إليهم بتحيّته المعتادة طالبا السجائر كما فعل مع رهط المشجعين. في الأحد التالي عاد لحضور القداس ولمد يده طالبا السجائر كأنه لم يكن غائبا قط».

نهض جامسي وخرج عبر الرواق فاسترعى انتباهه أربعة أعمدة حديدية تنتصب فوق قواعد إسمنتية في الحديقة الصغيرة بين البيت والبستان: «رحمتك أيها الرب! باتريك ريان أعجوبة حيّة. يبدأ كل شيء، لكنه لا ينهي شيئا».

قال روتلج: «سيعود في وقت ما من السنوات القادمة».

رد جامسي بتعاطف: «لقد ابتُلينا جميعا».

«في الفترة الأولى لقدومنا كَان من الصعب انتظاره ونحن لا ندري إن كان سيأتي أم لا. نراقب ذلك الطريق المقفر حول البحيرة طوال النهار قبل أن نتأكد مع حلول المساء أنه لن يأتي. لم يعد يهمّنا الأمر الآن».

«مع ذلك أنت تريد الانتهاء من ذلك. تلك الأعمدة العجيبة لا تحتاج سوى إلى عارضة وحبل وحشد لشنق رجل».

«أين باتريك هذه الأيام؟».

«آخر ما سمعته أنه في مكان ما قرب درومود يبني كراجا للحفّارات والجرّافات». أغلب الظن أنه انتهى من ذلك الآن ورحل إلى مكان آخر. ترك ماشيته المسكينة في مكان ما قرب التلة».

«غالبا ما تساءلت لماذا يحتفظ بماشية من الأساس؟».

«من أجل السمعة فقط. دون ملكيّة الأرض والماشية لن يكون سوى مجرّد بائع متجوّل آخر. أنا أعرفه جيّدا. أعرف باتريك طوال حياتي. أخوه المسكين كان مريضا لعدة أسابيع في كاريك، لكنه لم يكلف نفسه عناء زيارته ولو مرة واحدة. يقال إن السيدة لوغان المسكينة وكلبها افتقداه كثيرا بعد دخوله المشفى».

مشوا معا بين جانبي الزقاق المنحدرين اللذين كساهما الصيف في أوج نضارته بزهور قفاز الثعلب والفراولة البرية والشجيرات الخضراء بينما فاحت رائحة زهور صريمة الجدي الحرجية في الهواء. لمحوا دخان سيجارة يتصاعد من وراء أشجار جار الماء، فعرفوا أنه بيل. رأوه جالسا على دلو مقلوب، يدخن بنهم كأنه يستنشق أنفاس الحياة، ثم بلذة وتمهل ينفث الدخان في الهواء الساكن العابق برائحة النعناع وهو ينظر إلى اثنين من طيور التَّم كانا يصطادان في المياه قرب فراخهما، وعلى مسافة أبعد قليلا تدفق تيار من الماء مترقرقا بحيوية جارفا معه الرواسب الضحلة. امتد سطح البحيرة ساكنا كسطح زجاج، وعلى الضفة الأخرى قرب بوابة بيت جامسي كان رجل قد تقدم بجرّاره في البحيرة ليصطاد السمك وهو يجلس في مقطورة النقل المرتفعة بينما كان المحرك

يهدر. عرفه جامسي على الفور: «سيسيل بيرس، طالما استطاع البروتستانتي أن يمشي فهو قادر على شرب كؤوس الجعة مثله مثل أيّ كاثوليكيّ». اتجه بعدها نحو بيل: «يبدو أنك مرتاح يا بيل». أجابه وهو ينفث الدخان من أنفه: «أجل، لا بأس يا جامسي».

قالت كيت عندما أخرج جامسي دراجته من قناة الصرف الجافة: «بلّغ ماري محبّتنا»، فتوقّف وانحنى قائلا: «لم يعجبوني مطلقا على أيّة حال» ثم مضى. نهض مالك الحزين من بين أعواد القصب وخفق بجناحيه متقدّما كأنه يقوده على طول الشاطئ الممتدّ، لكنه حلّق بعد ذلك عاليا فوق البحيرة نحو تلك الناحية من الشاطئ حيث ينتصب رصيفان مستديران، واختبأ وراءهما في أجمة كثيفة من الأشجار والأزهار البرية قرب أطلال البيت الذي وُلدت فيه ماري ثم عبرتْ منه البحيرةَ إلى الجهة التي أصبحت فيها زوجة جامسي.

انعطف روتلج وكيت مبتعدَين عن البحيرة في طريق عودتهما إلى البيت فرأيا بيل إيفانس واقفا بين دلوي الماء. لم يكن يدخّن وبدا أنه كان ينتظرهما فحمل كل منهما دلوا وسارا معه. كان دائما يمشي ببطء، بسبب التهاب المفاصل، حاملا دلويه في الطريق الصاعدة إلى أعلى التلة، متوقفا كل عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة ليرتاح، لكنه الآن وقد تخفف من حمله مشى معهما بيسر مستعينا بعصاه حاثا خطاه في مسار منحرف يشبه زحف السرطان. استمروا في المشي حتى تجاوزوا بوابة البيت. صاح بيل: «هيه.. يكفي إلى هنا».

«هل أنت جاهز للعشاء الآن؟» ابتسم بيل كذئب يكشر عن أنيابه وهو يجيب: «نعم أنا جاهز».

«وهل ستجد ما تأكله؟».

«أجـل، بمشـيئة الـرب سـأجد الكثـير». لكـنّ نظـرة قلـق مفاجئـة لاحـت في عينيـه وكذّبـتْ نـبرة الثقـة في كلماتـه.

في الجهـة الأخـرى مـن البحـيرة كان جامـسي يسـتريح مـن عنـاء صعـود التلـة وبـدا مـع دراجتـه في البعيـد واضحـا كرسـم عـلى خلفيّـة السـماء الصافيـة، بينـما تجمـد سيسـيل بـيرس في مقطـورة جـرّاره كأنـه اسـتغرق في النـوم وهـو يمسـك بسـنارة الصيـد والمحـرّك يهـدر في السـكينة. قـال روتلـج لكيـت: «كان بيـل إيفانـس أول شـخص التقينـاه عندمـا وصلنـا إلى شـاطئ البحـيرة أول مـرة».

«مـا زلـت أذكـر العاصفـة. كنّـا في سـيارة الشـاه، وراء جيمـي جـو ماكيرنـان في سـيارته الفـورد الحمـراء الصغـيرة والأمـواج تندفـع عـلى الطريـق مـن شـاطئ البحـيرة وتنهمـر عـلى زجـاج السـيارة حاجبـة الرؤيـة عـبر النوافـذ. لم نكـن نسـتطيع سـوى سـماع الأصـوات في ذلـك الجـو العاصـف بينـما كان الزبـد يغطـي الطريـق والشـاه يرتجـف مـن الضحـك وراء مقـوده في السـيارة التـي تتدحـرج بـين حفـرة وأخـرى. «بعيـدا عـن كل مـا تسـعون إليـه هـذه الطريـق الملكيّـة لا تَقـلّ جـودة عـن خنـدق مـائي». لا تـكاد تسـمع مـا يقـول عندمـا يضحـك بطريقتـه تلـك. هكـذا، كان يجلـس ضاحـكا ويرتـجّ ككـرة ضخمـة مـن الهُـلام، كأن رحلتنـا تلـك لم تكـن سـوى رحلـة صيـد إوزّ بـرّي».

«أمضينـا ذاك النهـار كلّـه نشـاهد البيـوت والأمكنـة. بيـوت مهجورة وأخـرى مهدّمـة، وذلـك البيـت في الجبـال الـذي انتـشرت مصائـد الفـئران عـلى أرضـه، وبيـت آخـر جديـد بطابـق واحـد وقـد ازدحـم بالأطفـال والأحـلام البائسـة التـي تشـبه الأسـمال المعلقـة مـع لوحـة الإعـلان عـلى مدخلـه».

«كان الأطفال يندفعون ويتقافزون نحونا من الطوابق المسكونة. إلى أين كانوا يريدون الذهاب؟».

«إلى إنجلترا. إلى المدن. أخبرتني أمٌّ أن بوسعهم شراء بيت هناك إن تمكّنوا من بيع ما لديهم هنا، وأن زوجها قد حصل على عمل في معمل الإسمنت. لم ينطق جيمي جو ماكيرنان بكلمة يومها عدا بعض الإشارات المقتضبة إلى الأسعار ومساحات الأراضي وأسماء عائلات مُلّاكها».

«وعمك الشاه العزيز كان صامتا أيضا. ما إن قلت له إن من الأفضل أن يركب أحدنا مع جيمي جو حتى أجابني: (هذا سيؤدي إلى خلط للأمور يا كيت. جيمي جو معتاد أن يكون وحيدا). ثم ضحك. لا أدري إن كان قد قصد بذلك سنوات السجن. سألته إن كان اهتمام جيمي بالبيوت والأراضي لا يزيد عن اهتمامي أنا بالقمر، فلماذا يهتم بذلك حقا؟ وكان الجواب (تحرير أيرلندا). لكن أيرلندا حُرّة. (وفق معتقدات جو هناك جزء منها ليس حرا)».

«الشاه طوال حياته يكره السياسة ولا أعتقد أنه شارك يوما في أي انتخابات».

«لم أكن أفهم قصده. كعادتي أنا جيدة في إعطاء انطباع بأني أفهم الآخر في الوقت الذي لا أملك أدنى فكرة عمّا يقول. ليست خصلة حميدة لكن هذا لا يهمّني. كنت وقتها قد وقعت في حُبّ المكان».

بين صفّين من أشجار جار الماء امتد ممرّ ضيّق يؤدّي إلى بيت حجريّ صغير مسقوف بالحرير الصخري. على مقربة أيكة من أشجار تفاح عتيقة اكتست بالطحالب وأشجار سنديان معمرة، وحديقة مسورة بسياج من أشجار الزعرور الأبيض، كثيفة

ومتشابكة كأنها عالم من الفوضى البرية. بدا الرواق الملحق بالبيت والذي بُني ليكون ساترا من الريح كتلة إسمنتية قبيحة وخطرة بدأت تنفصل تدريجيّا عن جدران البيت الحجريّة، بينما امتد خلف البيت صفٌّ من الغرف الخارجية الصغيرة، وعلى مقربة في مخزن التبن الصدئ عربة صغيرة مقلوبة.

في الداخل تدلى إبريق ماء على حامل معدنيّ اسْوَدَّ لونه فوق الرماد في الموقد إلى جانب طاولة صغيرة تُرك فوقها فناجين متّسخة ووعاء ثقيل من السكر وإبريق شاي كبير من الألمنيوم. في الغرفة الصغيرة السفليّة سرير رثٌّ وُضع ملاصقا للجدار وسرير معدنيّ آخر وُضع في الغرفة الأخرى مع خزانة من ألواح الخشب الرخيص. إلى جانب الموقد خزانة جداريّة اصطفتْ فيها أحجار كُروية كانت تتدحرج على الأرض في كل الاتجاهات كلما فُتح باب الخزانة.

«أخبروني بأنهم سيرتبون المكان». هكذا عبّر جيمي جو ماكيرنان عن تذمره. «ما تراه هو الموجود». كانت لديه سلطة داخلية صامتة.

قال الشاه: «هذا ليس بيتا. إنه مجرد عنوان وليس أكثر من موقع».

أجاب جيمي: «لكن بشرا كانوا يسكنون هنا. كان هذا بيتا ومأوى لهم. لن أجادل، ولا يمكنني الادعاء بأنه في هيئة مناسبة، لكن إن كنت تريد مكانا يُطل على البحيرة على مساحة عشرين فدانا فهذا موقع جيد».

على جدار النافذة المطلة على البحيرة عُلق تقويم محل جِزارَة من العام الماضي يظهر عليها فوق جداول الشهور والأيام صورة صبيين يركبان دراجتيهما وهما يقودان خروفا في طريق ريفية بين

جدران حجرية عالية يرافقهما كلبان إسكوتلنديان جميلان لونهما أبيض وأسود، وكتب عليها «لحم بقر ممتاز ولحم ضأن بأفضل الأسعار. نلبّي كل الطلبات الكبيرة والصغيرة». كانت حقول الأيام في التقويم كلها مشطوبة بعلامة الضرب حتى أكتوبر، ففي اليوم الثاني والعشرين من هذا الشهر تتوقف علامات الضرب عن ملء حقول الأيام، وابتداء من اليوم الثالث والعشرين تتوالى حقول بقية أيام السنة خالية من أيّ علامة ضرب.

قال جيمي جو: «هذا هو اليوم الذي مات فيه» ثم أشار إلى قاعدة النافذة حيث تُركت قائمة كُتب عليها: اثنا عشريّة من زجاجات البيرة الداكنة - زجاجة باورس - شاي - زبدة - قطعتا خبز - نصف رطل لحم خروف - مكالمتان هاتفيتان؛ «هذه قائمة ليلة السهر على جُثته قبل دفنه» أخبرهم جيمي جو ماكيرنان ثم أضاف: «لم يكن لديهم الكثير من الناس في مناسبة كهذه. هي ابنة عمي، وعندما مات زوجها لم تشأ أن تبقى هنا وحدها فرحلت لتعيش مع أقربائها. لديهم ماشية هنا لكنهم يريدون بيع المكان بسبب مشكلات مع الجيران ومتاعب يواجهونها في الحظائر».

في الوقت القصير الذي استغرقته زيارتهم لهذا البيت تكلم جيمي جو أكثر ممّا فعل طوال ذلك اليوم الذي قضَوه في التنقل ومشاهدة البيوت. «أكثر ما يهمّها هو ألّا يذهب هذا البيت إلى أيّ من الجيران ولهذا لم تعلن عنه في صحيفة الأوبزرفر. أنتم أول من يرى البيت».

قال الشاه: «هذا لا يزيد من قيمة المكان بالنسبة إلى أيّ ساكن جديد».

أجابه جيمي جو: «هذا يعود لصاحب العلاقة. أنا فقط أريد أن أكون صادقا».

«أعلم هذا يا جيمي جو. بعض المحتالين كانوا سيجعلونك تعتقد أنك على وشك أن تسكن في الفردوس».

سأله ممازحا: «هل تتحدث عن زملائي؟».

أجابه الشاه متهكما: «ثُلة أولاد».

قال جيمي جو بهدوء كأنه شعر أنه تكلم كثيرا: «منذ شهور قليلة كنت حانوتيا، وهأنذا دلّال عقارات. هذه هي الحياة!».

الحقول الممتدة حول المنزل تسوّرها أشجار الدردار والسمن والسنديان والجميز وتنمو فيها بكثافة نباتات السمار إلى جانب الأشجار فتشكل قرب البحيرة جزيرة حرجية تعيش فيها سلالات من طيور مالك الحزين، وتمتد على الضفة الأخرى أوراق البردي والبتولا النامية إلى سفوح الجبال. غالبا ما يكون الطقس في المنطقة المحيطة بالبحيرة متقلبا وعاصفا باستثناء الأراضي المنخفضة أسفل التلال حيث تترقرق ساقية ماء وتصب في بركة يصطاد الإوزُّ البريُّ فيها السمكَ متوزعا في أسراب صغيرة.

قال روتلج: «إن كنت تريدين المكان يا كيت فعليك بالصمت. جيمي جو ليس محتالا لكنه كالبقية يريد الحصول على أفضل سعر». هذا ما نصحني به الشاه عندما أخبرته بأن المكان يعجبني.

لم أكن محظوظا في ذلك اليوم الذي قضيناه على التلة. كان المكان الوحيد المعقول وكنت أعلم أنه أعجبك. نشأتُ في هذا الريف، وبين حقول كهذه تمكنتُ من إتمام تعليمي حين لم يكن التحصيل العلمي ممكنا حتى زمن الجيل الذي سبقنا، وللحظة

وجدت نفسي أستعيد كل تلك الأحلام التي هيمنتْ علينا أيام الشباب. أعرف تلك الحقول الخضراء حيث الفقر والمعاناة، وتخيلت وقتها وأنا أتفحص المكان كيف سأعود إلى هذه الأرض وأكمل ما تبقى من عمري فوق تلك التلة، بعكس ما حلمت وأملت على الدوام. سألني جيمي: جو ما رأيك؟ فأجبته: أحد الاحتمالات. ما ثمن مكان كهذا حاليا؟ أجابني بابتسامته الهادئة: «قيمة أيّ شيء يحددها من يدفع. أخبرني عمّك بأنك تعيش في لندن. كيف تجد إنجلترا؟»، لدينا أعمال والحياة هناك سهلة ومريحة وفي الحقيقة ما كنا لنبحث عن مكان آخر هنا لو كنا سعداء تماما. «وما المشكلة في إنجلترا؟»، لا شيء سوى أنها ليست بلدي ولا أشعر بأن حياتي فيها حقيقية البتة. هناك جانب مريح في هذا الوضع أيضا فأنت تشعر هناك بأنك متحرر من المسؤوليات تجاه ما يحدث، وأنه رغم حضورك في المكان تعلم في قرارة نفسك أن جزءا حقيقيا منك غائب عنه. «وهل تشعر بأن هذا المكان هنا حقيقيّ؟»، حقيقيّ إلى حد بعيد. «هل من الممكن أن يكون الهدوء والطيور ما يجذبك إلى هذا المكان؟»، لم أكن قد انتبهت حتى تلك اللحظة إلى أن طيور الصعو وأبا الحناء والعصافير كانت بالفعل تغرد على الأغصان الجرداء وأن ديكا بريا قد بدأ بالصياح في حقل قريب. لا ليس أصوات الطيور ما يجذبني، فكما يقال نحن نعتقد أنها تغنّي بينما هي في الحقيقة تبكي. هل عشت في إنجلترا من قبل؟ يبدو أن لهجتي كانت عدائية بعد ما ظهر من امتعاضي فيما يتعلق بالطيور لكنه لم يبالِ بذلك وتكلم بصدر رحب. «قضيت هناك شتاء واحدا في الشرقِ حول فوريست غيت وويست هام. كنا نحاول وقتها تحرير بعض رجالنا في بنتونفيل، وكان معهم

في نفس الجناح في السجن عصابة من المجرمين من إيست إند. كنا نفكر أن نستغل هؤلاء في تنفيذ العملية لكن خطتنا فشلت. خَططنا لاستغلالهم وخططوا لاستغلالنا، وعلمنا فيما بعد أنهم كانوا ينوون التخلي عنا أثناء العملية والهرب وحدهم». كيف كانوا؟ «من؟ مجرمو الويست إند؟ مثل الفئران، لا يعنيهم شيء سوى الفرار بجلودهم». قال بنبرة مثالية مثقلة بالنفور والحنق: «ماذا كنت ستفعل بعصابة مجرمين يتآمرون عليك للهروب وحدهم؟ بالتأكيد تطلق النار عليهم. كنا ننوي رميهم بالرصاص في كل الأحوال حتى لو لم يتآمروا، فقد كانوا يعرفون أكثر ممّا يجب وكنا نعلم أننا مراقبون». استعاد الأحداث كأنه يروي حكاية دون انفعال أو ضغينة. «على أية حال لم تنجح الخطة. وصلنا في الوقت المناسب تماما». زاد هدوؤه وهو يقول كنا ننوي رميهم بالرصاص في كل الأحوال، من برودة الطقس في تلك التلال الرطبة. «رأينا بيل إيفانس يومها واقفا في الزقاق بتلك الجزمة البلاستيكية الضخمة وقد رَبط حبلا حول معطفه الثقيل ووضع على رأسه قبعة سوداء لامعة. لا أتذكر الدلوين. ربما أخفاهما في مكان ما».

«أذكر كيف وضع الشاه يده في جيبه ثم رمى حفنة من النقود المعدنيّة في الهواء فتطايرت وتساقط بعضها على غطاء محرك السيارة الفورد الصغيرة وتدحرجت إلى ما بين الحجارة والأوراق المتناثرة على أرض الزقاق. ركض بيل إيفانس لالتقاط بعض القطع كأنه هر يطارد فريسة. أذهلتني الطريقة التي رمى بها النقود».

«لم يكن يقصد أيّ إساءة. كان يفعل الشيء نفسه كلما جاء إلى منزلنا عندما كنا صغارا، وأحيانا يرمي الحلوى بدلا من النقود، ثم اشترى الشاه المكان لنا».

«كنت أخشى أن يخسر الصفقة بسبب مساوماته».

بعد الاتفاق على السعر وتوقيع العقد تم استبدال سقف الحرير الصخري بطبقة من البلاط الحجري الأسود، وبُنيتْ غرفٌ جديدة وحمّام، وحُفرت بئرُ جديدة. عاد روتلج وكيت إلى لندن تاركين للشاه الإشراف على العمل في إصلاحات البيت وتوسيعه، مهمة انخرط فيها بحماس كبير متجولا بسيارة المرسيدس بين الطرق المحيطة بالبحيرة. كانت العلاقة بين مالكة البيت السابقة وجيرانها سيئة كما قال جيمي جو، وقد كان ذلك صحيحا ككل ما أورده من معلومات خلال ذلك اليوم العاصف على شاطئ البحيرة. قال جامسي: «لا يتعلق الأمر بالمرأة العجوز وحدها. العلاقات بين الجيران كانت كلها سيئة، وهكذا كان الأمر دائما».

«لا تساعد ولا تمد يد العون لأحد، وخذ كل ما تقع عليه عيناك لنفسك فقط. هكذا هي الحال هنا في جوار البحيرة، الناس لا يتكافلون ولا يوطّدون ما بينهم من علاقات. لا أحد يهمه إلا نفسه، وعندما يكون الناس هكذا فما من راحة بال أو خير. كانوا كلهم يطمعون بأرض تلك المرأة العجوز التي لم تنجب، وكانت هي من جانبها تُصرّ على ألّا يحصل أحد منهم على الأرض من بعدها».

أثار ما كان يحدث في البيت فضولَ الجوار. بناء غرف جديدة واستبدالُ السقف وحفرُ بئر ماء في مكان لا يبعد عن البحيرة سوى رمية حجر، راقب الجيران ذلك بكثير من الغيظ والتبرّم تجاه أيّ جديد أو غريب، وما كان منهم عندما عاد روتلج وكيت من لندن في الربيع سوى أن تجنبوهما رغم انشغالهما بشؤون بيتهما الجديد. كانا قلقين. هل سينجحان في الانتقال إلى البيت

الجديـد؟ إن لم يحـدث هـذا فـلا سـبيل أمامهـما سـوى العـودة إلى لنـدن.

جامـسي كان أول مـن زارهـما في الأيـام الأولى مدعيـا أنـه كان يمـر مصادفـة في الجـوار. تحدّثـا إليـه وبعـد أن رحـب بهـما دعـوَاه إلى البيـت، ومـا إن مضـت أيـام قليلـة حتـى زارهـما مـع مـاري دون موعـد مسبق حامـلا كميـة مـن البيـض الطـازج وأكياسـا صغـيرة مـن البطاطـا والجـزر.

«هـذا للبيـت.. فقـط للبيـت.. لنتمنـى لكـما حظـا طيبـا» هكـذا قـال مـصرّا وهـو يـرد عـلى اعتراضهـما بـأن مـا أحـضره كـرم كبـير. بعـد ذلـك زارهـما جـون كويـن. أتى في سـيارته البيتـل البيضـاء القديمـة مثـيرا زوبعـة مـن الدخـان. ركنهـا تحـت شـجرة عنـد البوابـة بحيـث تواجـه الطريـق المنحـدرة نحـو البحـيرة ثـم ترجّـل ووضـع حجـرا كبـيرا وراء أحـد العجـلات الخلفيـة قبـل أن يمـشي بثقـة عـبر الممـر. كان رجـلا طويـلا ووسـيما ذا بُنيـة قويـة، يرتـدي بـزّة أنيقـة ويـسرّح شـعره الرمـادي الكثيـف إلى الخلـف، ومـا إن يتكلـم حتـى يفاجـئ الآخريـن بتناقـض بـين مظهـره الأنيـق وصوتـه المُتملـق.

«أتيـت لأتمنـى لجـيراني الجـدد التوفيـق والسـعادة والنجـاح. كـم يبتهـج قلبـي لرؤيـة زوجـين شـابين يبـدأان حياتهـما في مـكان جديـد بحـب. هـذا يرفـع المعنويـات حقـا».

رحبّـا بـه وقدّمـا لـه الشـاي والبربـون لكنـه بتلويحـة مختالـة مـن يـده رفـض تنـاول أي شيء.

«لسـت هنـا لأضيـع وقتكـم الثمـين أو وقتـي. أنـا هنـا مـن أجـل هـدف ومصلحـة محـددة. أعـرف عمـك الطيـب المعـروف هنـا بلقـب الشـاه، هـذا الرجـل الرائـع الـذي يقـدره جميـع مـن في المدينـة.

في الحقيقـة المصلحـة المشـتركة التـي أتـت بي إلى هنـا هـي أني رأيـت السـيدة روتلـج تمـشي في الجـوار، واكتشـفت أن لديـك زوجـة طويلـة وجميلـة مـما دفعنـي إلى التفكـير بأنـك أفضـل مـن يقـدم خدمـة لجـارك. لـن أطيـل عليـك. ماتـت زوجتـي الطيبـة الأولى بعـد أن أنجبت لي ثمانيـة أطفـال. وبعـد أن ربيتهـم وكـبروا تزوجـتُ مـرة ثانيـة عمـلا بقـول الـرب في كتابـه المقـدس ليـس مـن الخـير أن يعيـش الرجـل وحيـدا، حكمـة آمنـت بهـا وسـكنت قلبـي طـوال عمـري. وفي الحقيقـة لا يضـيرني الاعـتراف أمامكـم بـأن تجربتـي الثانيـة هـذه لم تكـن ناجحـة».

عندمـا سـئل بتهذيـب «مـا الـذي جـرى؟» أجـاب «كانـت تنفـر مـما أحلَّـه الـرب بـين الزوجـين، وتـرى مـا هـو طبيعـي ومثـير للسـعادة إثمـا. جرّبـت كل مـا أعـرف لأغـيّر مـا في نفسـها وأجعلهـا سـعيدة. في يـوم جميـل كهـذا والشـمس مشرقـة أخذتهـا برحلـة في القـارب عـبر البحـيرة علنـي أدخـل المسرة إلى قلبهـا. كانـت البحـيرة جميلـة وقليـلا مـا تهـب نسـمة هـواء، ومـا مـن حركـة سـوى قفـزات سـمكة هنـا أو هنـاك وتغريـد الطيـور عـلى هواهـا، الجبـال تبـدو رائعـة في البعيـد وطيـور التـم تسـبح. الأصـوات كلهـا كانـت تصـدح جمـالا وسـعادة. هـل تعلـم مـاذا قالـت لي؟ أنـت تفكـر برميـي هنـا يـا جـو، أليـس كذلـك؟ أي حديـث حـب كان هـذا؟ كان محدثكـم جـون يجـدّف في البحـيرة الغارقـة في السـكينة بينـما تـراءت الجبـال زرقـاء في البعيـد، أمـا هـي فقـد عـادت مـن حيـث أتـت. وبمـا أننـا تزوجنـا في الكنيسـة، ولا تـزال هـي عـلى قيـد الحيـاة، لم يكـن أمامـي سـوى أن أسـعى بنفسي وراء مـا يخفـف مـن وحـدتي، وهـذا بالضبـط مـا أقصـده بالمصلحـة التـي أتـت بي إلى هنـا. لقـد حالفـك الحـظ أثنـاء إقامتـك في الخـارج

ولا بد أنك لا تمانع من تقديم المعروف لجارك القريب. من المؤكد أن لزوجتك الرائعة صديقات كثيرات، وإن استطاعت تزويجي من إحداهن فستصبح جارة لها. سنكون جيرانا رائعين، وستقوم بين البيتين علاقات الودّ، وسيساعد بعضُنا بعضا وتجري الأمور بيننا على أفضل حال».

استأذنت كيت وغادرت الغرفة. نهض جون وقال: «هذا ما أتيت من أجله آملا أن تمدوا يد المعروف لجاركم. وضعت كل أوراقي أمامكم على الطاولة، فما من عادتي أن أخفي شيئا حينما يتعلق الأمر بمصالحي».

رافقه روتلج إلى سيارة البيتل البيضاء البالية المركونة عند البوابة. حرّك الحجر من وراء العجلة الخلفية قبل أن يركب وقال: «إن سارت الأمور بشكل جيد بمشيئة الرب فإننا سنقضي أوقاتا ممتعة معا وستعم السعادة الجميع». تحركت السيارة عندما أنزل فرامل اليد وانحدرت في الطريق متسارعة ثم أزّت بالضجيج حتى اشتغلت قرب البحيرة وسط غيمة من الدخان متدحرجة على طول الشاطئ كقارب معطوب يحاول العودة إلى الميناء.

قالت كيت: «آسفة، لم أطق البقاء معه في غرفة واحدة. قلما أقابل من لهم هذا التأثير».

«كنت أتساءل وهو يتكلم إن كان يعني ما يقول حقا».

«كان يعني ما يقول تماما. كان يرمقني بنظراته المتفحصة وكأنني حيوان. ما الذي سنفعل بطلبه الغريب؟».

«لا شيء، لن نفعل شيئا. سنسأل عنه».

اكتشفا أن شاه يعرف عن جون أكثر مما ينوي التصريح به عندما سألاه عن الزائر الغريب في الأحد التالي. «أوه، جون..»

هـز رأسـه عندمـا سـمع الاسـم ثـم تابـع «جـون ولـد. نسـاء ومزيـد مـن النسـاء.. عندمـا كان شـابا اعتـاد أن ينفـذ القانـون بيـده وأن يحـل المشـكلات في البـارات بـأن يأخـذ الرجلـين المتصارعـين إلى الخـارج ليضربهـما قائـلا إنـه يقـوّم مـن سـلوك النـاس».

«قال إنه تعامل معك؟».

«الجميع هنا لديهم مصالح معه. هذا هو جون».

«وكيف تتعامل معه؟».

«لا أتعامـل معـه. لكنـه دائمًا يسـتطيع اكتشـاف نسـاء سـخيفات..».

توقـف الشـاه محـركا يـده بطريقـة توحـي بأنـه لا يمكـن أن يخـوض في تفاصيـل وضيعـة كهذه.

في لقائهـم التـالي تابـع جامـسي ومـاري باهتـمام كل كلمـة أثنـاء سرد تفاصيـل تلـك الزيارة.

علـق جامـسي: «أجـل، أعتقـد أني سـمعت مـا يكفـي. جـون كويـن حالـة عجيبـة. يمكنـه أن يفعـل أيّ شيء ولا يفـوّت فرصـة، لكنـي لم أتصـور أن يـأتي يـوم يطلـب فيـه مـن جيرانـه أن يبحثـوا لـه عـن نسـاء في إنجلـترا».

عقبت ماري: «يريد أن يجرب حظه معك أولا يا كيت».

قـال جامـسي: «هـم هكـذا هـؤلاء النـاس. اللعنـة عليهـم يمكنهـم أن يفعلـوا أيّ شيء وعندمـا يواجَهـون بالرفـض يحاولـون مـع شـخص آخـر. لا يُقـدّرون النـاس إلا بمقـدار مـا يسـتفيدون منهـم. عندمـا زارنـا أول مـرة اسـتعار منـا البغـل الصغـير الـذي كان عندنـا تلـك الأيـام وعندمـا أعـاده لنـا كان الحيـوان في حالـة يـرثى لهـا، جلـد صـدره مسـلوخ وحوافـره قاسـية. رفضنـا إعارتـه في المـرة التاليـة. ومـاذا بوسـعنا سـوى أن نرفـض. كانـت المـرة الأولى التـي نـردّ فيهـا أحـدا. كان ذلـك البغـل

المفضل لدى أبي، وقد مضت شهور عديدة قبل أن نتمكن من إعادته إلى حالته الطبيعيّة».

«جون كوين كان طويلا وقويا ونادرا ما تصادف رجلا بوسامته. أخوه الأكبر باكي لا يزال يعيش في بيته ويختلف عن أخيه كل الاختلاف، هادئ ومحترم. اعتاد جون في تلك الأيام أن يعمل في حراثة الأراضي بالأجرة وكان بإمكانه أن يحرث قطعة أرض صغيرة بالمحراث وحده دون الاستعانة بالأحصنة. لم يكن يشرب أكثر من كأس أو كأسين من البيرة الداكنة، حَذرٌ جدا خصوصا عندما يتطلّب الأمر دفع النقود ولم يخرج مع النساَء أو الفتيات رغم أن حظوظه كانت ستكون جيدة لو أراد ذلك. كان يكتفي بالكلام الجميل والمداعبات والرقص، ولا يريد دائما البحث، سوى عن جون كوين ذاته».

«عائلة سويني كانت بالنسبة إليه كثمرة حان قطافها. كانوا يعيشون في مكان هو الأجمل في الجوار، بحجارة الآجر ذاتها التي يمكن لك أن تراها في الدير القديم، وكان لديهم من المال ما لم يكن لغيرهم في تلك الأيام. عُرف مكانهم بالقفير. كانت مارغريت وحيدة أهلها كما كانت أمّها من قبل. تزوّج أبوها توم سويني من الجبال. لم يكن وسيما، لكنه كان مجدا في عمله، وهو الذي زرع شجرة الكستناء الكبيرة وسط الفناء ثم بنى حولها كحلقة جدارا من الحجارة المطلية بالكلس والَمدعّمة بأطواق من الحديد. أمّها كانت امرأة ضخمة سهلة الطباع وتعشق توم سويني رغم دمامته. كانوا لا يثرثرون مع الناس ويعشقون الأرض التي تمشي عليها مارغريت، بسطاء ومحترمون لا تشوب سمعتهم أيّ شائبة غير أنهم كانوا أبرياء. كان توم سويني أول من يلبي النداء إن

احتاج أحد الجيران لأيّ مساعدة، وكل من يدخل بيتهم يعامَل بكرم ويُقدم له الطعام والشراب حيث كان مشروب البويتين الأيرلندي الذي يُحضره توم من الجبال متوافرا لديهم وذا نوعية جيدة تضاهي أجود أنواع الشراب.

لم يعتادوا الخروج أو زيارة أحد أو التدخل في شؤون الجوار، يعيشون معا بطمأنينة مكتفين بحياتهم داخل البيت. أناس كهؤلاء هم أكثر من يخسرون عندما يواجهون أيّ مشكلة إذْ ما منْ أحد يلجؤون إليه. مارغريت كانت مدللة تحصل على كل ماَ تطلب من أبيها وأمها، لكن هذا بدأ يتغير عندما وصل جون كوين مع أحصنته في الربيع ليقوم بحراثة الأرض لهم. الكثير من الفتيات الأجمل من مارغريت كن يرغبن بجون كوين، لكن لم يكن لديهن حقول من الجير وبيت كبيتها».

«وقف أبوها ضده منذ البداية. صحيح أن جون كوين كان يتألق جمالا لكن الأب شعر أن كل ما بناه حول بيته سيذهب هباء. أما ماري أمها التي كانت تملك كل شيء فكانت مع جون كوين منذ اللحظة الأولى».

«وما الذي كان بوسعهما عمله؟! كانت مارغريت مغرمة بجون، وكل ما كان باستطاعتهما فعله أن يغلقا الأبواب في وجه ابنتهما الوحيدة، وهذا ما لم يقدرا عليه كما قالت ماري».

«دعي إلى حفل الزفاف جميع من يسكن حول البحيرة، حتى ماري هذه التي كانت قد تركت المدرسة لتوها في ذلك الوقت. لم يبخلوا في الإنفاق وقدموا كل أنواع الطعام والشراب. كان حديث الناس أسابيع عدة سبقت الحفل، ستعزف الموسيقى، وكان وقتها باكي دونالي عازف الكمان الأفضل في تاريخ البحيرة لا يزال على

قيد الحياة. كان ابن عمه أيضا عازفا مذهلا على الأوكورديون. في صباح يوم الزفاف وعندما بدا أنها لن تمطر نصبت طاولة طويلة تحت شجرة الكستناء في الفناء».

قالت ماري: «ذهبت مارَغريت مع أبيها وأمها إلى الكنيسة في عربة يجرها حصان صغير. رأيتهم يذهبون. كانت ترتدي فستانا من الحرير الأزرق ينسدل حتى كعبي قدميها من خياطة أمها ولا يقل جودة عن تصميم أفضل الخياطين. ارتدت قبعة زرقاء مزينة بورود بيضاء وانتعلت حذاء أبيض، بينما ارتدى جون كوين بزّة رمادية جديدة ووضع وردة بيضاء في جيبها. بدا متألقا ومفعما بالثقة».

«قيل إنه أَنهَك الخياط ستراتون في قياسات تلك البزّة الرمادية، ومن المحتمل أنه لم يَدفع له بعد كل ذلك العناء. لن يخيط له شيئا آخر بعد ذلك». صمت جامسي قليلا ثم قال: «بمجرد أن ركب جون كوين العربة مع مارغريت وأبيها وأمها بعد خروجهم من الكنيسة في طريقهم إلى البيت أخذ رسن الحصان من يد توم وقال بصوته الناعم المتملق إن توم قد أدى ما عليه حتى تلك اللحظة وإن الوقت حان كي يجلس وينعم بالراحة. ماذا كان بوسع توم سويني المسكين أن يفعل؟! أخذ جون كوين مكان شخصين في العربة، تناول السوط ولوح للناس المارين في الشارع ثم ضرب الحصان البني الصغير حتى جعله يعدو بسرعة. لم يكن الحصان معتادا على معاملة كهذه فقد كان توم سويني يقول له: لا داعي للعجلة. سنصل إلى البيت قبل وقتنا. ولعله كان يتكلم مع الريح حينما كان جون كوين يتولى أمر الحصان».

«بعض النسوة والأطفال من الجيران بقُوا في البيت يجهزون المكان ويعدون الطاولات. وزعوا الورود في أرجاء الفناء ولا بد

أنهم فوجئوا بالعربة تصل مسرعة قبل الجميع، الحصان يتصبب عرقا وتوم سويني على وشك البكاء. وما إن وصل حشد المدعوين حتى كان توم سويني قد فك الحصان وقدم له الماء ليشرب ثم أخذ يربّت عليه وهو لا يزال في ملابسه الجديدة».

تجمع المدعوون بعد وصولهم من الكنيسة مترقبين أن يحمل العريس عروسه إلى بيت الزوجية وأن تبدأ الموسيقى وُيقدم الطعام.

لكن جون كوين كان يعد مفاجأة أخرى: «والآن يا مارغريت، قبل أن ندخل إلى البيت أريد أن أريك شيئا هنا على مرأى من الجميع». تحلق الجميع حولهما لسماع ما يقال. «نحن ذاهبون، ما من شيء لم يسبق لنا رؤيته في أنحاء هذه البحيرة».

«فتح البوابة، وعلى الرغم من أن مارغريت كانت ضخمة بما يكفي قام بحملها وكأنها ريشة. أذكر أن فردة حذائها وقعت فقام أحدهم بالتقاطها وإعادتها إلى المنزل». «لن نستغرق أكثر من دقيقة. اسمحوا لنا أيها الأصدقاء والجيران المحترمون، فهناك أمر صغير علينا أن نقوم به أولا ولن يعطّلكم عن شيء أبدا». «تعلمون كيف يتكلم بنعومة وتملق».

«اعتقد الجميع أن جون كوين كان يهرّج فحسب واستمروا في أحاديثهم وضحكهم. ليس جون من يتصرف بشكل مألوف. كانوا يعرفون إلى أيّ حد يمكن أن يصل به الأمر وأنه لن يكون جون لو أنه تصرف كالآخرين ثم بدؤوا يتساءلون ما ذلك الشيء الغريب الذي يريد أن يريه لمارغريت على شاطئ البحيرة. لم يكن معروفا وقتها كما هو الآن».

«تقدموا نحو حافة الجرف الذي يطل على البحيرة حيث ينحدر حقل صخري نحو الشاطئ وحيث تركت التربة القليلة

مساحات مكشوفة من الصخر وتحول لون العشب إلى الأحمر في البقع الجافة في تلك الناحية من الشاطئ».

«وقفوا هناك يطلون على المشهد بينما ساد الصمت في الفناء كأنه كنيسة. كانا بعيدين ولم يكن بالإمكان سماع ما يقولان. فَرش جون كوين غطاء السرير الذي كان قد أخذه معه على الصخر، وبدت مارغريت كأنها تحاول التملص منه، لكنه تمكن من الإمساك بها بيد واحدة. تم الأمر قبل أن يستوعب أحد ما الذي كان يجري. رفع فستانها الأزرق إلى ما فوق رأسها ومددها على غطاء السرير. كان الصراخ الذي أطلقته وقتها كفيلا بأن يجعل القلب يقفز رعبا. بعد ذلك رأينا جون كوين يقف بينها وبين البيت وهو يسوّي بنطاله ويثبّت حزامه. لا بد أنه كان يخشى أن تهرب منه، لكنها بقيت ممددة على الأرض وكان عليه في النهاية أن يرفعها ليسوّي ثيابها ومن ثَم يحملها بين ذراعيه على مرأى من أبيها وأمها اللذين وقفا كشبحين يراقبان دون أن ينطقا بكلمة واحدة».

«كان مشهدا لم ير أحد مثله من قبل. سارع الجميعَ إلى المغادرة، وتوقف البعض عند الأب والأم في طريقهم، لكن معظمهم توجه مباشرة نحو الطريق. ما الذي كان بوسعهم أن يقولوه؟! حتى مارغريت ذاتها بدا عليها بوضوح أنها لا تريد العودة إلى البيت بعد ما حصل، وفي الوقت الذي وصل به جون إلى الفناء كان الجميع قد غادر ولم يبقَ من حفل الزفاف سوى الورود الموزعة في أنحاء الفناء والطاولة الكبيرة المثقلة بشتى أنواع الأطعمة والمشروباتَ تحت شجرة الكستناء. كان العازفون آخر من غادر دون أن يعزفوا نغمة واحدة. رافقهم

تـوم سـويني المسـكين إلى البوابـة وحـاول إعطاءهـم بعـض النقـود، لكنهـم رفضـوا أن يأخـذوا بنسـا واحـدا، وعندمـا أصرّ كان كل مـا فعلـه بـاكي دونـالي الـذي لم تكـن شـهامته تقـل عـن مهارتـه في عـزف الكـمان أنـه وضـع يديـه عـلى كتفـي تـوم ثـم عانقـه بقـوة بطريقـة توحـي أنهـم لا يريـدون شـيئا وأنهـم يتفهمـون كل شيء ولا يمكـن أن يلقـوا باللـوم عـلى عاتقـه في كل مـا جـرى. التعاطـف في حالـة كهـذه أقـسى مـا يمكـن أن يحتملـه المـرء، وتـوم سـويني الـذي لم يكـن قـد تفـوه بكلمـة واحـدة حتـى تلـك اللحظـة بـدأ يبـكي كالأطفـال. لم يكــن بوســعهم أمــام مشــهد قــاس كهــذا ســوى أن يتبادلــوا النظـرات ويـرددوا بعـض عبـارات المواسـاة.. سـتكون الأمـور عـلى مـا يـرام.. ثـم يمضـون مسرعـين. كان مشـهدا رهيبـا. رجـل عجـوز ينـوح، والنـاس دائمـا يقولـون إن الأمـور سـتكون عـلى مـا يـرام عندمـا لا تكـون هنـاك أيـة فرصـة لذلـك».

«لا بد أنه لم يكن في تمام عقله».

«لا، لم يكن في تصرفه ما يناقض عقله إطلاقا يا كيت».

«لماذا تصرف هكذا إذن؟».

«هنـاك منهـج في كل مـا يفعـل جـون كويـن. كل شيء مخطـط لـه. في تلـك الأيـام كان عـلى مـن يتـزوج مـن بيـت أسرة معروفـة ألا يرفـع صوتـه كـما يقـال وأن يبقـى في الظـل ويقبـل مكانـة لا تزيـد عـن مكانـة خـادم. لكـن جـون كويـن منـذ اللحظـة التـي أخـذ فيهـا لجـام الحصـان في طريـق العـودة مـن الكنيسـة حتـى اللحظـة التـي أخـذ فيهـا مارغريـت إلى الصخـور كان يُـري الجميـع لمـن سـتكون الكلمـة وأن كل شيء بـدءا مـن ذلـك اليـوم سـيكون تحـت سـيطرته».

«أقلُّه أن يشعر بالعار».

«لا شيء من هذا البتة. كان يتفاخر بأنه فعلها على مرأى من الجميع، بل قيل إنه لم يكن يسمح لمارغريت بارتداء ثياب داخلية في البيت لتكون طوع رغبته متى وأين يشاء».

«لم يعيشوا طويلا. مات توم سويني بعد أن توقف عن تناول الطعام لأسابيع، وتدهورت أحوال مارغريت بعد أن أنجبت ثمانية أطفال. في صباح أحد الأيام كان جون كوين يتجول ببندقيته.فرآها تمشي في ثياب النوم قبيل الفجر في لحظة تساقط الندى باحثة في برودة الجو عمّا يخفف آلامها، واستمرت أحوالها بالتدهور حتى أصبح الأطفال يتجنبون المرور قرب البوابة في طريقهم إلى المدرسة كي لا يسمعوا صراخها». توقف جامسي قليلا ثم أضاف: «عندما يضحك الناس من أطواره المتقلبة عليهم ألا ينسوا بقية الحكاية».

«هل يمكن تحميله مسؤولية موتها؟» لا، كان ذلك سيحدث في كل الأحوال. كان المكان يشبه جنة صغيرة، الحيوانات تكاد تتكلم لما تلقاه من رعاية، وتوم سويني يزرع كل أنواع الخضار، فاصولياء وبازلاء وخس وجزر أبيض وكل ما يخطر في البال بالإضافة إلى خلايا النحل. يقلّم أشجار التفاح لتأخذ شكلا يشبه الزبدية أو الفنجان، ويضيف كل سنة طبقة من القش إلى السقف فيمكنك رؤية تعاقب تلك السنوات السبع في ألوان الطبقات التي تتدرج من البني الذهبي إلى ما يقارب الأسود بفعل ماء المطر. أما جون كوين فلم يكن يزرع سوى البطاطا والملفوف وربما بعض اللفت، ويغطي سقف القش بالصفيح، كما قام ببيع الفاصولياء وخلايا النحل. لا أظن أنه ساهم بضربة رفش واحدة في حقل الخضار، وأهمل أشجار الفاكهة فتشابكت أغصانها ونمت بشكل عشوائيّ. اعتادت القطط أن تتجمع حول البيت وتنتظر عندما كان توم

سويني يقوم بحلب الماشية. أما في أيام جون كوين فقد جاعت القطط، وككل ما لا تدور مياهه في طاحونته لم يكن لها حظ بالاستمرار في البيت».

«للإنصاف كان جيدا مع الأطفال. تحول بعد موت الأم إلى طاه لا بأس به، جاهز على الدوام بوجبة لذيذة في قدر فوق الموقد. الأطفال كانوا أقوياء، مظهرهم حسن ونشيطون في أعمالهم وكان دائما يكيل لهم المديح فيتنافسون لنيل ثنائه. تعلم الخياطة وتصليح الأحذية، ولم يكن يوفر نفسه من المديح».

«في تلك الأيام كان الضرب المبرح شائعا في المدارس، والناس يخافون الاعتراض على قسوة المدرسين. كانت السيدة كيلبوي أكثر من يثير الرعب في قلوب الأطفال من بين المدرسين. تنهال ضربا على ضحيتها، تبدأ بضرب الساقين ثم تدمي اليدين، وإن حاول أحد تفادي عصاها بذراعيه انهالت على ظهره».

«لكن جون كوين لم يكن يخاف. لن ينسى أحد من الطلاب كيف وصل إلى المدرسة. قرع الباب بتهذيب شديد قبل أن يرفع المزلاج ويدخل قاعة الصف محدثا ضجيجا بحذائه الثقيل على الأرضية الجوفاء. قال والتهذيب يقطر من لسانه: اعذروني يا أطفال لمقاطعتي دروسكم لكن لدي بضع كلمات أقولها لمعلمتكم ولن يستغرق هذا طويلا».

«بطبيعة الحال سُر الأطفال بذلك وجلسوا في مقاعدهم يستمعون بانتباه». «آسف لأني آخذ من وقت الدرس يا معلمة، لكنّ ابنتَيّ عادتا البارحة مساء من المدرسة تبكيان وقد تورمت أيديهما بشكل لم تستطيعا الإمساك بالملعقة لتناول العشاء. منعهما البكاء من النوم، ولعلك تلاحظين أيتها المعلمة أنهما متغيبتان عن المدرسة اليوم».

«ما الذي كان بوسعها أن تقول وقد حاصرها جون كوين بهذه الطريقة؟! كان الأطفال يصغون ويتلقفون كل كلمة بانتباه وهو يتكلم برقة كأنه قطة تموء أمام وعاء من الحليب». «والآن أيتها المعلمة، أخشى أن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد لو تكرّر ذلك مرة ثانية، وأنك ستضطرين للبحث عن عمل آخر عندما تقول المحاكم كلمتها. سيكون من المؤسف أن يحدث هذا في مكان صغير يعيش فيه الناس مع بعضهم بسلام. سيُسبِّب ذلك مشاعر سلبية بين الناس يصعب نسيانها في كثير من الأحيان. والآن، ابنتاي الصغيرتان ستعودان غدا إلى المدرسة، وحذارِ أن يتكرر ذلك مرة ثانية. إياك أن تلمس يدك هاتين الطفلتين، هَذا كل ما أريد قوله الآن ولن آخذ دقيقة أخرى من وقت الدرس».

«قال وهو يمشي بحذائه الثقيل على الأرضية الجوفاء بين صفوف المقاعد: سامحوني يا أطفال، قاطعت دروسكم، لكنْ كان لدي بضع كلمات مهمة لا بد من قولها لمعلمتكم. والآن عودوا إلى كتبكم ودراستكم، وانتبهوا جيدا إلى كل ما تقوله المعلمة، فبهذا يمكنكم أن تتعلموا كيف تنجحون في الحياة وكيف تجعلون من أنفسكم ومن أهلكم الفقراء بشرا سعداء. اسمحوا لي يا أطفال، لن آخذ دقيقة أخرى من درسكم».

«لم تنطق السيدة كيلبوي بكلمة واحدة خلال ذلك، وبمجرد أن غادر جون كوين توجّهت إلى غرفة المدير ثم ذهبا معا إلى رواق المدرسة حيث لا يمكن لأحد من الأطفال رؤيتهما أو سماعهما. عادت بعد وقت طويل ولاحظ الأطفال أنها كانت تبكي».

«لم يتعرض بعد ذلك أيّ من أولاد جون كوين للضرب، لكنهم أُهملوا ولم يكترث أحد بتعليمهم. هكذا تصرف المعلمون بدافع

خوفهم من جون كوين الذي عاد إلى المدرسة أكثر من مرة ليشتكي ممّا كان أطفاله يتعرضون له من الإهمال والتجاهل، لكنه لم يستطع إثبات ذلك، فالمعلمون مثلهم مثل الحراس والأطباء لا يمكن لأحد أن يتفوق عليهم ودائما لديهم حججهم ليردوا عليك».

«لم يكن لكل ذلك أثر يذكر على تقدم ونجاح أولاد كوين الذين أثبتوا جدارة بالنسبة إلى أعمارهم، وكانوا ما إن يبلغوا الرابعة عشرة أو السادسة عشرة حتى يهاجروا إلى إنجلترا. حالفهم الحظ هناك، ويقال إن بعضهم أصبحوا من أصحاب الملايين لكنهم لم ينسوا جون كوين. في الحقيقة الكثير من الآباء العاديين لم يلقَوا من أبنائهم تكريما أو وفاء كما لقي جون كوين من أبنائه».

«شغلته تربية الأطفال عن النساء، وكان معروفا في المنطقة، لذلك لم تكن أية امرأة ترى في دخول بيت يعج بالأطفال ويديره جون كوين أمرا مغريا.

لكن ذلك تغير عندما بدأ الأطفال يهزلون، فأخذ يبحث عن النساء في الصحف ووكالات الإعلانات. كان يحصل عليهن من كل الأنحاء. سيفاجئك كم من الفقيرات كن يجبن العالم بحثا عن شريك حياة وأن جون كوين كان الفتى الذي يعثر عليهن. «مزارع أنيق يملك منزلا على البحيرة» هكذا كان يعلن عن نفسه. رأيت العديد منهن. لم يكنَّ جميلات لكن يقال إنه حصل على المال من بعضهنّ. كنّ يتسوّقنَ لوازم البيت بينما ينتظر هو في الحانة المجاورة مع زجاجة البيرة الداكنة.

«كانت السيدة أوبراين إحدى اللواتي تخلى عنهن. عملت لديه عدة أشهر قبل أن يضجر منها لعلمه بتوافر طابور من البديلات ينتظر. مدبّرة منزل لعائلة غنية من الشمال لا تزال تحرص على

تذكرها واللقاء بها حتى يومنا هذا، ومشكلتها الوحيدة أنها كانت بريئة بعض الشيء وتصدق كل ما يقال لها. كانت تعشق جون كوين، إلا أنه قام بترتيب زواجها من توم أوبراين وهو رجل كادح كان يبحث عن امرأة ليتزوجها. خلال وقت قصير من زواجهما صار لديهما في الفناء دجاج وإوزّ وحمام جديد وغسالة وكل مستلزمات الحياة. لَكن ذلك كما ظهر لم يعجب جون كوين على الإطلاق، فقد كان يطمع بالحصول على المزيد من المال من أولئك الناس الأغنياء الذين كانت تعمل لديهم والذين كانوا يزورونها كل عام ويدعونها مع توم أوبراين إلى وليمة طعام وشراب في مركز المدينة».

«الغريب في الأمر أنها ظلت دائمًا لطيفة مع جون كوين، وعندما دخل توم أوبراين المشفى قبل عدة أشهر ظهر إلى جانبها على الفور فاستقبلته بفرح. كان جون كوين بكامل عافيته وتألقه، وكعادته متيقظ لكل ما يحدث حوله.

«سارع الجيران إلى تحذيره بألّا يفرض نفسه قبل أن يخرج توم أوبراين من المشفى. لم يسرّها ما حدث البتة لأنها كانت على ثقة بأن جون كوين لن يتأخر وسيكون معها بلمح البصر بصرف النظر عما يحدث لتوم».

«ألم يكن بوسع القس أن يقول شيئا؟».

«لا أبدا. زار البيت مرة لكن دون جدوى، فما من أحد بوسعه النيل من جون كوين الذي كان يستمتع بأخذ كل امرأة يريدها إلى المقاعد الأولى في الكنيسة. هناك يركع ثم يدعوها إلى مقعدها وهو ينحني بخشوع في طقس مذهل، وما إن ينته القداس حتى يأخذ المرأة إلى المذبح فيشعلان شمعتين صغيرتين ثَم ثالثة يضعانها على

قاعدة بين الشموع الأخرى لطلب أمنية. (تمنّي الخير والسعادة لنفسك دائما يا مورا. لا خير في نجمة تسقط دون أن يراها أحد ويتمنى بها خيرا. دائما تمنّي الخير لنفسك). شيء لا يصدق! لو كان جون كوين ممثلا لما استطاع حتى باتريك ريان الهرولة وراءه».

تساءل روتلج: «هل هذه هي الكنيسة التي تريدني أن أعود إليها؟!».

أجابته ماري باستهزاء: «لا يذهب المرء إلى الكنيسة للعبادة بل ليتفرج كجون كوين، وسيكون مشهدا مثيرا للشفقة أن يتبعه أحد إلى هناك».

بدا جامسي مستمتعا بهذا الذم والتقريع لكنه علق بنبرة لا تخلو من الغرور: «ومع ذلك نحن نذهب إلى الكنيسة كما يفعل البعض هنا، ممن لا أريد تسميتهم».

«ولماذا يتزوج جون كوين إن كان بوسعه الحصول دائما على ما يريد من النساء دون أن يتكبد عناء الشكليات؟».

«تفاجئني بسؤالك هذا. هناك سبب وحيد. لا بد أنه كان يعتقد أنها تملك مالا، وربما كان قد بدأ يواجه صعوبات مع النساء مع تقدمه في العمر كحالنا جميعا، بالإضافة إلى أنه كان ذائع الصيت وسمعته تسبقه».

«وهل كانت تملك مالا؟».

«أعتقد أنها كانت تملك بعض المال لكن جون كوين لم يتمكن من وضع يده على شيء، فهي لم تكن بهذا الغباء وإن كانت قد استغنت عن الكثير من الأشياء فليس النقود من بينها».

«أيّ رجل!» قالت ماري باستنكار ثم أضافت: «كان جون كوين دائما يربّي أحصنة. كان لديه فحل أبيض واعتاد كلما أتت الفرصة

إلى البيت أن ينادي زوجته إلى الفناء لتتفرج على ما يجري. (هذا طبيعي وصحي، ما حلله الربَ). هكذا كان يقول. ذلك القارب الذي يحتفظ به مقلوبا في حقل الخيزران خطر جدا، ولا بد أنه كان يحاول الحصول على المال منها عندما كان يأخذها فيه ولم تكن هي في الحقيقة بعيدة عن الصواب عندما سألته إن كان ينوي إلقاءها في البحيرة. لم يكن يبالي بالطيوِر والجبال الزرقاء أو طيور التم السابحة»

«ولماذا إذن يطرب أسماعنا بذلك الشعر؟».

أجابت ماري بلهجة الاستهزاء ذاتها التي تهكمت بها على ذهاب جامسي إلى الكنيسة: «لأنه يعتقد أنّ ذلك لائقٌ وسيلقى استحسانا وربما يساعده على كسب كيت في صفه».

«على كل حال لم تبقَ معه طويلا، فقد قام أخوها باستعادتها منه، وبفضل الرب لم يحصل جون كوين على بنس واحد. كانوا أناسا طيبين وشرفاء ولا يعرفونه على حقيقته. سمعت أن تلك المسكينة ليست بخير».

«لو حدث أي شيء لها فسيعيد جون كوين الكَرّة ويسلك الطريق ذاته، تذكروا كلامي».

«نعم، سيعيد الكَرّة حتى لو لم ينجح في محاولاته السابقة. إنه يثير الاشمئزاز».

«انظروا كيف يحاول هنا وهناك، ويجرب أن يحصل على امرأة من إنجلترا بواسطة كيت!».

«لن يحصل على شيء من كيت».

قال جامسي بنظرة ماكرة من عينيه وهو يفرك كفيه: «الرجل المسكين يحاول جهده فقط وكغيره لا يريد سوى أن يشارك في

السباق نحو ذلك المستنقع» فأجابته ماري: «أنت.. أنت أيضا تثير الاشمئزاز ولا عجب أن لوسي لا تطيقك».

لم تكن لوسي زوجة ابنه تنسجم معه، أمر آلمه بعمق دائما، فوجم عند ذكرها. «يريدك البعض مفصلا على هواه في أدق التفاصيل». كان ما يشعرون به تجاهه من مودة أكثر من أن ينطقوا بكلمة أخرى إلى أن استعاد انتباهه ثم وجدوا ما يكسر صمتهم.

اعتاد الشاه أن يأتي بسيارته إلى البحيرة كل يوم أحد مصطحبا كلبه في المقعد الأمامي وأن يبقى حتى موعد الشاي في السادسة، وأحيانا كان يأتي في أيام الأسبوع ليلا. في أيام الآحاد غير الماطرة كان يحب أن يمشي في الحقول ويتفرّج على الماشية في الجزيرة الصغيرة حيث تستوطن طيور مالك الحزين وأن ينظر عبر البحيرة إلى هكتارات من نبات البردي تمتد كبحر إلى سفوح الجبال التي بدأت حياته فيها وشجيرات البتولا الصغيرة التي تشبه زهورا خضراء في مجاهل المستنقع. في الأيام الماطرة يجلس في البيت وغالبا ما يكون صامتا، لكن فترات صمته لم تكن ثقيلة الوطأة، لا يتكلم إلا ليجيب عن سؤال وُجّهَ إليه أو ليقول شيئا محددا. لديه في العموم حساسيّة عالية تجاه من يحيط به، مخيلته تعمل بنشاط لذاته وبالنيابة عن غيره، كأنه يحاول رؤية نفسه في عيون الآخرين. رغم انخراطه في العمل منذ طفولته إلا أنه لم يتعلم القراءة والكتابة، لذلك كان عليه أن يعتمد دائما على فطرته وحدْسه في التعامل مع الآخرين وفي اختيار من يثق بهم، وقد كان الصمت والإصغاء بالنسبة إليه أكثر فائدة من الكلام، ممّا جعل إحساسه دقيقا كرادار. تميزت طباعه عموما بالدماثة

واللطف مع الآخرين، لكنه بدأ يتخلى عن ذلك تدريجيا مع زيادة ثروته وتقدمه في العمر، فأصبح فظا مع من لا يحب من الناس ويبذل كل ما في وسعه لتجنب الأمكنة والأشخاص الذين لا يشعر بالراحة معهم. في حالات كهذه يصبح سلوكه همجيا كمن يصاب للحظات بالعمى، لكنه في أوساطه المعتادة والمألوفة التي يحاول جاهدا ألا يبتعد عنها يتألق بعفوية. الشذوذ الوحيد في مخيلته الذكية كان احترامه الخفيّ للمجرمين وحتى للأوغاد مثل جون كوين الذين يثيرونه ويدهشونه بتحديهم وسخريتهم من الأخلاق السائدة.

عائلته كانت تحت سيطرة أمه، جميع أفرادها ناجحون في أعمالهم وأذكياء وظرفاء، وبيتهم يشرف على قوس من الأشجار الحرجيّة يؤدّي إلى حديقة ورود، وتغطي العرائش المزهرة جدرانه المطلية بالكلس الأبيض. في الوقت الذي كانت قلة من البيوت في الجبال تمتلك أكثر من الأساسيات كان لديهم بستان صغير من التفاح وقهوة طازجة مطحونة مع جذور الهندباء البرية المجففة، وكلما توافر لديهم شيء من المال بنوا غرفة إضافية في البيت بدلا من توسيع حظائر الماشية. كان الشاه الوحيد من بين أفراد عائلته الذي ترك المدرسة بسبب مدرّس ملتزم لكنه سيّئ الطباع تسلق على سمعة أخيه الأكبر وأخته اللذين كانا أول من حصل على منحة دراسية في هذه الجبال. ضربه في السنة الأولى من دراسته ضربا مبرّحا فلم يعد الصغير إلى المدرسة، ولم يفلح أحد في إجباره على العودة. حقق أول أرباحه في الثانية عشرة من عمره عندما أجّر حصان العائلة لاستخدامه في نقل حجارة لتشييد طريق إلى المدرسة القومية الجديدة التي كانت أخته تُعِّلم فيها.

أول عمل له كان في مقلع للحصباء والرمل حيث تعلم فك الآليات وصيانتها، وبعد فترة قصيرة بدأ يقود إحدى شاحنات المقلع المخصصة لنقل الرمل. تمكن بعد ذلك من شراء شاحنة قديمة خاصة به وعمل في نقل البضائع من مرفأي بلفاست ودبلن وإليهما. على تلك الطرق الوعرة كانت مهارات الميكانيكي أكثر ضرورة من مهارات السائق، وما إن بلغ أوائل العشرينيّات من عمره حتى امتلك أربع شاحنات، ومع اندلاع الحرب تحول إلى تعهدات حراثة الأراضي وكَسَبَ الكثير من المال.

توقف الطلب على تعهدات الحراثة مع نهاية الحرب فباع آلاته مبكرا وتمكن بذلك من الحفاظ على رأسماله ومن زيادة الثروة التي جناها. بعد ذلك اشترى منشرة وعمل فيها بضع سنوات قبل أن يشتري أرض محطة القطار وبعض المباني وأميالا من القضبان الحديدية. انخفض ثمن المحطة بعد إغلاق الخط الحديدي بسبب الركود الاقتصادي فاضطر للاستدانة، ساعده في ذلك مدير مصرف كان يعرفه من أيام الدراسة وأمّن له الحصول على قرض تمكن من سداده سريعا بعد أن قام بتفكيك وبيع ما في المحطة من قضبان وأبنية وعوارض ومقطورات لم يكن بحاجة لها. أصبح يملك إمبراطورية صغيرة في الثلاثين من عمره في وقت لم يكن أحد يملك ما يكفي من المال سوى كبار التجار ورجال الدين والأطباء والمزارعين، وازدهرت أعماله وامتلأت القطارات المتجهة إلى المراكب الراسية في المرافئ. في ظروف كهذه كان لا بد لرجل في مثل سنّه أن يتوسع في أعماله. اعتمد على التعهدات ولم يوظف أحدًا عنده بصفة دائمة سوى شاب صغير صموت وذكي، من أحد البيوت المجاورة له في منطقته الجبلية، وكان كلما

احتاج إلى عمال آخرين لجأ إلى توظيف البعض بشكل مؤقت. عمل في تجارة قطع التبديل فكان يشتري شاحنات وآليات زراعية قديمة ثم يبيعها كقطع عندما لا يجد في المحطة ما يباع من قضبان ومقطورات، وبعد أن تملّك أكواخ عمال المحطة الأربعة أتى ببعض الرجال العاطلين عن العمل ليسكنوا فيها دون أجر. مقابل ذلك استفاد منهم في العمل في الورشات ومستودعات خردة الآليات القديمة على أطراف المدينة. كانوا انطوائيين وصامتين لكنهم كانوا يتفاهمون فيما بينهم بشكل جيد دون الحاجة إلى الكلام. كان يستبدل بمن يموت أو يعود إلى دياره من نفس المصدر كما يستبدل الكلب الأسود والأبيض المولع به. رفاهيته كانت في السيارات الجديدة الثمينة التي كان يحب قيادتها والولائم التي كان يقيمها كل يوم في الفندق. كان بشعره البني الكثيف المجعد ومظهره الرشيق الأنيق وخصاله المريحة جذابا للنساء رغم قرار قديم وغير معلن بتجنب الزواج كما فعل مع المدرسة. في الفترة التي كانت شاحناته تجوب الطرقات عرف العديد من الفتيات الرشيقات والجميلات، لكنه بعد بضع سنوات اكتفى بفتاة واحدة جميلة ورشيقة أيضا اسمها آني ماي ماكيرنان وظلا يلتقيان طوال تسع سنوات في موعد ثابت، ليلتين في الأسبوع.

اعتاد أن يمر ليأخذها بسيارته الفارهة من المزرعة المريحة التي تقيم فيها مع والديها وأخيها إلى حفلات الرقص ولحضور أفلام السينما وبالتدريج أخذ يصبح واحدا من أفراد أسرتها، يساعد أخاها في صيانة الآلات الزراعية في الحقل ويأخذ والديها بسيارته إلى ستاندهيل وبوندوران على شاطئ البحر، وفيما بعد إلى مشفى دار هاملتون. عندما تُوفي والدها ثم أمها فيما بعد، كان

حاضرا ووقف إلى جانبها كأنه فرد من أفراد العائلة. عندما قرر أخوها أن يتزوج ويقيم مع زوجته الشابة في البيت بدأت آني ماي تتعرض للضغط ممّن كان لسنوات عديدة بمثابة خطيبها، وهكذا وجدت نفسها تقول له بطريقتها الهادئة بعد أن تبادلا هدايا عيد الميلاد في سيارته: «عمتي ماري تريدني أن أذهب للعيش معها في نيويورك.. أتدري؟ إن لم يحدث شيء قريبا فسأهاجر إلى أمريكا في عيد الفصح».

لم يكن لها أن تكون أكثر صراحة معه وقد فهم ذلك جيدا. لا بد أن الصمت كان لحظتها طويلا بينهما، لكن ذلك العزم ذاته الذي تغلب على كل المحاولات لدفعه إلى العودة إلى المدرسة ذات يوم تغلب على كل عواطفه وحيرته. «أتعلمين يا آني ماي، لا أشك مع ظروف هذه البلاد أن أمريكا ستكون نهاية المطاف بالنسبة إلينا كلنا». لم يحدث أن بابا أُغلق في وجهها من قبل بطريقة أكثر رقة أو أكثر صرامة. لم تهاجر إلى نيويورك في الفصح بل تزوجت بطريقة تقليدية من بادي فيتزجرالد تاجر الماشية العجوز. لم يطرأ أيّ تغيير على حياة الشاه بعد ذلك سوى أنه أصبح يذهب إلى دار السينما المحلية بمفرده وأن زياراته لأخواته وأخيه أصبحت أكثر خصوصا أيام الآحاد. وحدهم رفاقه في لعب البوكر كانوا يجرؤون على استفزاز ذلك الجدار من البلادة واللامبالاة الذي أصبح يواجه العالم به بسؤاله عمّا جرى.

«هل تدري أن آني ماي ماكيرنان قد تزوجت من العجوز بادي فيتزجرالد؟» هكذا طرحوا السؤال بخفة وتعمدوا أن يبدو عرضيا كأنهم يُلقون بورقة على طاولة اللعب بينما تلامست الأقدام

تحت الطاولة. لم يتوقع أحد ردة فعله. لم يعلق بشيء البتة واستمر اللعب حتى أُلقيَت كل الأوراق وجُمعت الأرباح. تجرأ أحدهم على القول بينما كان دور جديد من أوراق اللعب يوزع: «أخشى أنك فوّت الفرصة عليك.. لم تتصرف بالسرعة الكافية عندما تهيّأت لك الفرصة». أجابهم أخيرا: «لو أنها انتظرت بضع سنوات أخرى لكانت أمنت على نفسها». انفجر الجميع حول الطاولة ضاحكين، أما هو فلم تنمّ عنه ولو ابتسامة واحدة وهو ينقّل عينيه بين الوجوه وأوراق اللعب في يديه. قال بعد لحظات: «الديمن حُكم»[3] فاستؤنف اللعب بحماسة. «فليكن الحظ مع الأفضل».

كان على علاقة طيبة بروتلج ولم يؤثر على ذلك أنه يحمل الاسم ذاته. عندما ترك روتلج الدراسة الكهنوتية وقف عمه إلى جانبه في الوقت الذي تعرض فيه للّوم والاتهامات من الجميع. «فليذهبوا إلى الجحيم» هكذا قال له الشاه، ورغم أنه لم يتلق ما يكفي من التعليم ليقرأ ويكتب إلّا أنه قدّم إليه دعما ماليا لمتابعة دراسته قبل أن يهاجر مع الجموع التي ركبت القطارات والمراكب إلى إنجلترا. ولم يدرك روتلج مدى نفور عمه من فكرة الزواج ومدى انسجامه مع وضعه كأعزب إلا بعد فترة من قدومه إلى العيش في جوار البحيرة وبعد أن سافرت كيت مرة إلى لندن لتؤجر بيتها هناك.

لم يكن يحلم بصحبة أفضلَ يومَ الأحد الماضي عندما غادرت كيت إلى لندن. ودّعها بتأثر واضح، وفي الليلة ذاتها فوجئ بسيارة المرسيدس تقترب من المنزل.

(3) في الخليج تلفظ (حُكم) وفي بعض البلدان العربية، تقال: «الديناري طرنيب»، وهي تسميات لها علاقة بإدارة اللعب بالورق/الكونشينة.

أثنى الشاه على الحديقة وعلى التحسينات في المنزل، لكنه لم يصرح بالسبب الحقيقي لزيارته إلا بعد أن جلس وأخذ قسطا من الراحة.

قال له بصدق وكأنه يهنئه: «لا بد أنك تشعر الآن بالارتياح بعد أن ذهبت كيت إلى لندن».

«لا أعتقد أنه ارتياح».

«قل لي ماذا إذن؟» سأله برحابة صدر وهو يرتجف ضاحكا بصمت.

«لديها عمل تقوم به في لندن، ولا أشعر بالارتياح إطلاقا لغيابها».

قال وهو يمسح بيده الدموع التي سالت على وجهه بفعل الضحك: «أعلم.. أعلم هذا جيدا. كلنا نحب أن نقول كلاما كهذا بين وقت وآخر».

«لا، ليس مجرد كلام».

«حسنا، يكفيك هذا الآن»، ثم لوح بيده محاولا تغيير موضوع الحديث.

«اعتقدت أن كيت تعجبك وأنكما على وفاق».

«ليس هناك أفضل من كيت. لم تكن لتحلم بأفضل من كيت الطيبة».

«إذن ما الذي كنت تقصده؟».

«اسمع، هل سيجيبك الجدار إن سألته؟ جرب وأجبني، أأنا مخطئ أم على صواب؟».

«على صواب، عدا أن لا رغبة لديّ في التكلم مع الجدران».

«أترى الآن؟» قال بثقة رغم أن الحديث انتهى دون أن يرى روتلج ما كان يعنيه، وعندما عادت كيت من لندن رحب بها

بحرارة كأنه كان يفتقدها في كل يوم من أيام غيابها. كانت عاداته منتظمة تجعل الأيام كلها متشابهة ولا تكاد أيام الآحاد يختلف بعضها عن بعض بحيث ما إن يتغير أمر بسيط حتى يبدو واضحا وكبيرا. مضت شهور حتى سأل باستحياء إن كان بالإمكان تبكير موعد وجبته. اعتاد أن يأكل بصمت واستغراق يجعل الحاضر معه في الغرفة نفسها مشاركا في طقس فردي ممتع، لكنه على غير عادته أكل بسرعة تلك الليلة ثم نهض مبكرا عن الطاولة.

«لا بد أن هناك أمرا مهمّا هذه الليلة»، قال روتلج وهو يرافقه إلى السيارة بينما داعبت كيت الكلب.

أجابه الشاه بسرعة: «هناك جنازة هذه الليلة».

سأل روتلج دون تكلف: «من مات؟».

أجابه وقد احمرّ وجهه: «السيدة فتزجرالد».

مضى وقت طويل على قصتهما ولم يكن لروتلج أن يربط الاسم مع ماض بدا له بعيدا لولا ما ظهر عليه من حرج. سأله بعفوية: «ألم تُكنّ حبا قديما؟».

«كفاك الآن..».

دفع الكلب إلى مقعد السيارة بسرعة قبل أن يجلس خلف المقود، وكان وجهه لا يزال مضرجا بالحمرة خجلا عندما أنزل زجاج النافذة ليُلقي تحية الوداع المعتادة «بارك الله فيكم» بينما كانت السيارة الفارهة تتحرك باتجاه البوابة وشجيرات جار الماء ثمّ تبتعد نحو شاطئ البحيرة.

قالت كيت: «غريب أن يُظهر كلّ تلك المشاعر وهو يذهب إلى جنازتها بينما كان بإمكانه أن يتزوجها عندما كانا شابين. لا يزال مولعا بها. هذا واضح من ارتباكه وخجله».

«يريد أن يعيش وحيدا، ولم يرغب يوما بالزواج. الرجل الأعزب، الراهب، المثل الأعلى في المجتمع في تلك الأيام. ومن يلومه بعد أن رأينا كل أولئك الأطفال يرمقوننا بعيونهم في تلك البيوت؟!».

«ألا تعتقد أننا سعيدان؟».

كان سؤال كيت جديا مما دفعه لأن يضمها ويقول: «نحن مختلفان، يجب ألّا نقلق كثيرا. لقد أردنا أن نكون معا ولم نكن خائفين».

الأعمدة الحديدية الأربعة التي تنتصب دون جدوى خارج المنزل كانت دائما تستفز الشاه الذي قال وهم يتمشون في الحقول يوم الأحد: «أيّ مشهد تلك الأعمدة! هل تظن أن ريان سيقوم يوما ما بالانتهاء منها؟!».

«أظن أنه سيفعل يوما ما».

«لو كنت مكانك لأتيت بمن يقوم بالعمل على أكمل وجه. كنت صرفته إلى الجحيم وما سمحت له بالاقتراب من المنزل مرة ثانية».

«لم يكن بوسعي فعل ذلك. لقد أنجز الكثير من العمل هنا عندما لم يكن أمامنا خيارات أخرى».

مشيا في الحقول حتى شاهدا الأغنام تتجمع في الظل والأبقار مع عجولها متوزعة في حلقات على مقربة من الماء حيث لا تزال الحفر التي اقتلعَت منها البطاطا ظاهرة بين الأعشاب. تحت شجرة شوكية علَى بعد خطوات من الشاطئ وقفت إحدى البقرات وحدها. «يبدو أنها على وشك أن تلد. ليس هذا وقتا مناسبا فوق كل هذا العشب لكن وقت العجل الصغير قد حان. لم تأت البقرة بأيّ حركة بينما كان الشاه يتلمس جسدها». «إنها تختلج. قد

تضـع في أيّ لحظـة، وسـتكون بحاجـة للرعايـة قبـل حلـول الليـل». تركاهـا ومضيـا. بـين أعـواد الخيـزران كانـت أسـماك صغـيرة تسـبح في الماء الضحـل، وتـوزع العديـد مـن طيـور التـم في أنحـاء البحـيرة بينـما ظهـر في البعيـد زورق صيـد وزوج مـن طيـور مالـك الحزيـن يتنقـلان بتثاقـل بـين المسـاحات المكشـوفة بـين أشـجار الجزيـرة. هبـت ريـح خفيفـة فـوق شـجيرات الـبردي الممتـدة في مسـاحات شاسـعة كبحـر واصطبغـت الجبـال بزرقـة أكـثر دكنـة مـن زرقـة البحـيرة والسـماء بينما تناثـرت فـوق المـروج عـلى الضفـة الأخـرى عظـام الأسـماك وأصـداف السرطـان النهـري الزرقـاء حيـث تتجمـع ثعالـب الماء لتـأكل وتـربي صغارهـا.

قـال روتلـج: «لا أسـتطيع النظـر إلى زرقـة الجبـال دون أن أتذكـر جـون كويـن».

أجابـه الشـاه وهـو يهـز برأسـه: «أوه، جـون! جـون لا يُعـوَّل عليـه إلا في أمـر واحـد، النسـاء. إنـه ولـد».

عندمـا عـادا إلى البيـت جلسـا إلى مائـدة الطعـام. أكل وحيـدا وقربـه كلبـه.

لم يتكلـم أحـد ولم يكسر الصمـت سـوى صـوت شـوكة أو سـكين أو ملعقـة تحتـك بطبـق وزقزقـة الطيـور الصغـيرة في الخـارج. غـادرت كيـت مـع روتلـج الغرفـة وعـادا دون أن يثـيرا انتباهـه، وعندمـا نهـض عـن المائـدة قـال: «وجبـة عظيمـة. بـارك الـرب فيـك وحفظـك يـا كيـت». رافقـاه إلى السـيارة. قفـز الكلـب إلى المقعـد الأمامـي وبعـد أن تحـرك توقـف الشـاه عنـد الأعمـدة الأربعـة وأنـزل زجـاج نافذتـه وقـال: «بـارك اللـه فيكـما». وقفـا يراقبـان السـيارة تبتعـد تنعكـس أضواؤهـا عـلى الزجـاج وتلـوح كلـما ابتعـدت باتجـاه شـاطئ البحـيرة

مـن بـين الأشـجار الكبـيرة. ظـلا واقفـين ينظـران إلى الأضـواء المشـعة في البعيـد فـوق البحـيرة حتـى لمحـا شـخصا يتحـرك في العتمـة ويعـاود الاختفـاء بـين فسـحة وأخـرى بـين الأشـجار. في آخـر ظهـور لـه كان مـن الممكـن أن يسـلك الطريـق الصاعـدة إلى الهضبـة أو إلى الحقـول عـلى الشـاطئ، لكـن باتريـك ريـان ظهـر بخطواتـه البطيئـة في ظـل شـجيرات المـاء عنـد البوابـة.

شـهق روتلـج عندمـا رأى الشـخص يقـترب في الظـلام، لكـن باتريـك ريـان تابـع تقدمـه بخطـوات بطيئـة عـبر الممـر القصـير المـؤدي إلى الـرواق، بزّتـه الداكنـة أنيقـة وقميصـه الأبيـض مكـويّ مـع ربطـة عنـق نبيذيـة اللـون معقـودة بعنايـة وحـذاء أسـود يلمـع رغـم طبقـة رقيقـة كسـته مـن غبـار الطريـق. رجـل عريـض المنكبـين، طوله خمسـة أقـدام وسـت بوصـات بوجـه بالـغ الوسـامة، قـوي ومنتصـب القامـة في الخامسـة والسـتين مـن عمـره. عـرف روتلـج لتـوه أن لديـه كلامـا أعـده بعنايـة مسـبقا فانتظـره في مكانـه بـدلا مـن أن يتوجـه إليـه.

قـال باتريـك بتمهـل وحـرص: «عزمـت عـلى القـدوم إلى هنـا عـدة مـرات، لكـن مشـاغلي والتزامـاتي تجـاه بعـض النـاس منعتنـي مـن ذلـك».

«لا بـأس، مـا مـن مشـكلة في ذلـك، أهـلا وسـهلا بـك»، قـال روتلـج ثـم رافقـه إلى داخـل البيـت.

سـأل بعـد أن جلـس في الكـرسي الهـزاز الأبيـض: «أيـن السـيدة؟ هـل هـي هنا».

«هنا، في مكان ما في البيت».

دخلـت كيـت الغرفـة وقـد ارتـدت بلـوزة مـن الحريـر الفاتـح ومشـطت شـعرها: «أهـلا وسـهلا بـك يـا باتريـك».

أجابها بحرارة وهو ينهض بعفوية: «سعيد برؤيتك يا كيت».

كان الجو داخل البيت رطبا ومعتما مقارنة بضوء الرواق وظهر المقعد الأخضر وراء النافذة يلمع في الضوء الخافت.

قال روتلج وهو يخرج زجاجة من شراب الباورس: «ما رأيك بكأس؟ مضى وقت طويل لم تزرنا فيه».

رفع باتريك يده بحركة انفعالية وقال: «لا، لقد أقلعت عن الشرب. أقلعت نهائيا عن هذه العادة السيئة في هذا البلد».

سألته كيت: «ما رأيك بالشاي؟».

«ولا حتى شاي. في الحقيقة أتيتكم بطلب. أريد من هذا الرجل أن يوصلني إلى كاريك».

«أكيد، هذا سهل».

«لا بد أنكم سمعتم أن فتانا في وضع سيئ في كاريك».

رد روتلج بحذر: «أخبرنا جامسي بأن إيدموند متوعك».

رد عليه بسخرية: «نعم، بوجود جامسي لن يعدم هذا المكان محطة راديو وتلفزيون».

«لا نستطيع الاستغناء عن جامسي».

«أظن أنه أخبرك بأنني لم أذهب لزيارة أخي بعد، ولا بد أنه نشر هذا الكلام في كل أنحاء البلد».

«لا، كل ما أخبرنا به أن إيدموند يعاني من وعكة وأن العجوز السيدة لوغان والكلب قد انقطعت أخبارهما منذ ذهابه إلى المشفى».

«يشيعون أني لم أشأ الذهاب لزيارته، بينما الحقيقة أني لم أسمع بخبر دخوله المشفى سوى اليوم. لن تسمع أيّ خبر عندما تعمل هنا بينما يتسكع الآخرون في أنحاء البلاد».

«متى تريد الذهاب؟».

«نذهب الآن على بركة الله».

سأل روتلج كيت: «هل تريدين الذهاب معنا؟» رغم علمه أن باتريك ريان لا يحبّذ الفكرة وأنها على الأرجح لا تريد مرافقتهما».

«لا، شكرا».

قال باتريك ريان: «سأعود غدا»، لكن كيت لم تجب. وقفت صامتة في الرواق تحدق في الأعمدة الحديدية الأربعة المنتصبة فوق قواعدها الإسمنتية أمام المنزل ثم قالت: أنا أيضا «سمعتهم يتحدثون عن الأمر».

«لو لم يتحدثوا في هذا الموضوع لوجدوا قصة أخرى»، قال باتريك ثم أضاف ضاحكا وقد تغير مزاجه فجأة «الناس هنا حول البحيرة فضوليون ونهمون للأخبار والثرثرة وطالما جامسي على قيد الحياة فهم بخير». مرة أتى من دبلن شاب من عائلة ريغان لقضاء العطلة هنا، عائلة كلها أطباء ومعلمون ومحامون، ومهَن أخرى من هذا النوع. شاب مرهف الحس ومهذب، سمعتَ أنه دبلوماسي في شيكاغو. أراد أن يزور عمه الذي يعمل معلما في كيش. أتعلم ماذا فعلوا به؟ أسرجوا له حصانا صغيرا إلى عربة ليوفروا عليه عناء المشي أو الدراجة. استغرق في قطعه مسافة الميل الواحد إلى حدود البحيرة وقتا أطول مما استغرقه في مسافة الأميال الخمسة إلى كيش. خرجوا جميعا إلى الطريق ليستجوبوه عن كل شيء، من أين أتى؟ وأين يقيم؟ وإلى أين يذهب؟ وكم من الوقت سيمكث هنا؟ وعن كل شاردة وواردة خطرت في بالهم. تجمعوا حوله وحشروا أنفسهم بين عريش العربة والحصان المسكين وهو يعيد الإجابة عن أسئلتهم كأنه يمر عبر مفتشي

الجمارك، ولو كان قد فعل ذلك عبر مكبر صوت لوفر على نفسه ساعات من ترديد التفاصيل ذاتها. لم يصل إلى كيش إلا مع حلول الظلام، وقتها فقط قلقوا عليه. كما أقول لك يا صاحبي، هؤلاء الناس دائما بحاجة إلى جامسي».

قال روتلج: «جامسي إنسان رائع».

أجابه باتريك ريان باستخفاف: «إنه ليس أكثر من طفل. لن يكبر أبدا يا بني. رحل الكثيرون من هنا منذ زيارة الشاب ريغان ورحلته العجيبة تلك في العربة. كان الريف يعجّ بالبشر، أما الآن فيبدو أنه لن يبقى معنا سوى مياه البحيرة وطيور التم».

عبرا الفسحة المطلة على البحيرة حيث كان سيسيل بيرس يصطاد السمك من عربة النقل في جراره. قال روتلج: «لقد ذهب سيسيل ليحلب الماشية. كان يصطاد هنا طوال النهار».

أجابه باتريك: «ليس هناك أفضل من سيسيل. لم أسمع في حياتي كلمة سيئة واحدة من فمه بحق أحد. لو أن الناس في الشمال يتعلمون من رجال مثله عندنا».

«الأمور مختلفة هناك».

«كيف تختلف؟».

«إنهم متساوون أكثر هناك، لهذا يقتلون بعضهم. لم يكن البروتستانتيون في يوم كُثُرا هنا، وكأيّ أقلية عليهم أن يحنوا رؤوسهم ويصمتوا، أعجبهم الأمر أم لا، تماما كحال الأيرلنديين في لندن عندما يحدث تفجير. هكذا أمرُ سيسيل؛ يريد ألا يهتم إلا بأموره، وهو يميل إلى هذا الطبع سواء كانوا أقلية أم أكثرية».

قال باتريك ريان بحدة: «إنهم هناك جموع تحكمها الضغينة وسيأكل بعضهم بعضا يوما ما».

أراد روتلج أن يغير موضوع الحديث فقال: «جون سيأتي من إنجلترا هذا الأسبوع».

أجابه باتريك ريان: «رحمتك يا رب، هل سيحدث هذا مرة أخرى؟» ثم غيّر من لهجته وأضاف مقلدا جامسي بمكر لا يخلو من عاطفة: «نستقبله في المحطة بسيارة جوني رولي، وفي الطريق سنشرب، سيكون هناك الكثير من الشراب، فكما تعلمون لا بد أن نتوقف بطريقنا في الحانات. سيكون هناك الكثير من المصافحات والترحيب بالعودة، العودة إلى الوطن من إنجلترا، وما إن نصل حتى تكون ماري قد وضعت لحم العجل في المقلاة». ضحك من نفسه مبتهجا بقدراته على التقليد، موهبة يعرف الجميع براعته فيها.

«هذا بارع يا باتريك. مدهش!».

«إنه عجيب.. عجيب حقا» قال وهو يقلد جامسي مرة أخرى وقد زاد الإطراء من حماسته ثم عاد بلباقة وسرعة إلى صوته الخاص: «وبعد كل تلك الطقوس عليك أن تقضي الأسابيع التالية في تجنب جوني في كل مكان كما تتجنب أيّ كائن له قرون». لم يكونا على وفاق أبدا، ولا يمكن لأخوين أن يكونا أكثر اختلافا.

مرا عبر متاهة من الدروب الضيقة قبل أن يصلا إلى الطريق الرئيسة المؤدية إلى كاريك، وكانت أشجار الزعرور المتطاولة في بعض الدروب تحتك بالسيارة. بدت بعض الأكواخ جميلة بطلائها الجديد وحدائقها وزهورها بينما بدت أكواخ أخرى مهملة وبائسة.

«بعض هذه البيوت تشبه الجحور. تستطيع تمييزها بسهولة، أصحابها العجائز لم يعرفوا في حياتهم ما هي علبة الطلاء أو بذور الأزهار. الريف هنا مليء بأمثال هؤلاء». عمل عند بعضهم، فقراء،

يعرفهم جيدا وتحدث عنهم بسخرية وازدراء. «لم آخذ منهم بنسا واحدا يا بني. ليس لديهم ما يدفعونه». لكن صوته تغير عندما تحدث عن البيوت الغنية التي عمل فيها، وطغت عليه نبرة من ولاء وتعاطف تشبه مشاعر الحنين غير الناضجة عند صبي. «في هذه الأنحاء من البلاد لا يقوى الناس على رفع مؤخراتهم من الخنادق التي يعيشون فيها، فلكي ترتقي وتحسن ظروفك تحتاج إلى ما يدعمك». «ترتقي إلى ماذا؟» كاد السؤال يخرج من بين شفتي روتلج لكنه لم ينطق به. «أعتقد أنهم مثلنا، سيعيشون في الضوء فترة ثم يختفون».

«لن يعجبهم كلام كهذا أيضا يا بني»، قال باتريك ريان بحدة ثم أضاف: «كل ما يؤمنون به من هراء أنهم استثنائيون وأنهم سيعيشون إلى الأبد».

بدت أبراج الكنائس فوق الهضبة أعلى من سقوف بيوت كاريك، وانتصب خزان مياه إسمنتي فوق هضبة أخرى في الطرف الآخر من المدينة كثمرة فطر كبيرة فوق ساق نحيلة.

كان البناء الحجري الطويل دارا للعمال قبل أن يتحول إلى مشفى وقد صُقلت أحجاره الفيكتورية الخشنة بفعل مرور الزمن. سارا في قسم مرتب ونظيف، النزلاء من كبار السنّ في صفّ من الأسرَّة العسكرية على طول ممر مفروش بمشمع بُنيّ. استغرق معظمهَم في الصمت في عوالمهم الخاصة وقلة كانوا في حوارات صاخبة مع أنفسهم، بينما تجمد البقية ساكنين في أمكنتهم كأنهم لا يزالون في صدمة. تجمع زوار الأحد حول بعض الأسرَّة وقد بدت عليهم ملامح قلق نابع من الإحساس بعدم الجدوى. قال باتريك بضيق: «يبدو أن لا شيء يبقى عندما تصل الأمور إلى هنا يا بني».

وجـدوا إيدمونـد في غرفـة صغـيرة وحـده، غارقـا في نـوم عميـق خـدر، وذراعـه متصلـة بأنبـوب يتـدلى مـن كيـس أعـلى السريـر.

قال باتريك: «يبدو أن حالته سيئة».

«الأفضل أن ندعه ينام».

وضـع باتريـك ريـان زجاجـة المـشروب المنشـط التـي أحضراهـا عـلى الطاولـة بجانـب السريـر ثـم أمسـك فجـأة بكتفـي إيدمونـد وأخـذ يهـزه بعنـف.

«دعه يسترح، ألا ترى أنه مريض جدا؟».

زادت كلـمات روتلـج مـن إصرار باتريـك ريـان: «سـنعيده إلى وعيـه في لحظـات يـا بنـي».

صـاح روتلـج بـه عندمـا بـدأ كيـس المحلـول والأنبـوب يهتـزان: «انتبـه، الأنبـوب».

استيقظ إيدمونـد مذعـورا، لم يعـرف أيـن هـو في وهلتـه الأولى، ثـم مـد يـده المرتجفـة وقـال عندمـا ميّـز وجـه أخيـه: «باتريـك». سـأله الأخـير: «هـل أنـت بخـير؟»، لكنـه لم يجـب إمـا لأنـه لم يفهـم السـؤال وإمـا لأن وجـود روتلـج بجانـب السريـر شـتت انتباهـه. بـذل جهـدا كبـيرا وهـو يحـاول التحـدث إلى روتلـج في مجاملـة تقليديـة: «جـو، لطـف منـك أن تـأتي. كيـف أحـوال الجميـع حـول البحـيرة؟».

«نحن بخير يا إيدموند. كيف حالك أنت؟».

لم يـترك لـه باتريـك وقتـا ليجيـب. مـلأ كأسـا مـن الـشراب المنشـط وأمـره أن يشربهـا: «خـذ، سـتفيدك». رفـع الـكأس إلى شـفتيه لكـن إيدمونـد كان أضعـف مـن أن يـشرب وسـال معظـم السـائل الأصفـر عـلى وجهـه الشـاحب.

نهره روتلج: «كف عن هذا. نحن نسبب له الأذى أكثر مما نساعده».

لوهلة بدا أن باتريك ريان سيرد على روتلج، لكنه التفت إلى إيدموند وقال آمرا: «والآن عد إلى النوم يا بني. ستكون بخير». نظر إيدموند إلى روتلج بتساؤل صامت، وجهه مريح ووسيم كوجه أخيه لكن بملامح أنهكها المرض. تعارفا منذ سنوات لكن علاقتهما لم تتعدَّ المجاملات المهذبة التي كانا يتبادلانها كلما التقيا مصادفة في الطريق، والتي غالبا ما تتمحور حول أحوال الطقس المتقلبة. وككل الناس المنطوين كان لدى إيدموند عادة أن يرد على كلام الآخرين بإعادة صياغة ما يقال له على شكل أسئلة بطريقة تعبر عن اهتمام كبير أو حتى انبهار. كانت تلك الطريقة رغم اختزالها تشجع الآخر على الاستمرار في الحديث. كثيرون لم ينتبهوا، أو لم يكترثوا لحقيقة أنهم كانوا في أحاديثهم معه لا يكلمون أحدا بل يحاورون الصدى، وتقبّل البعض بصمت أن تلك كانت طريقته الخاصة. القليلون فقط عبّروا عن ازدرائهم: «أليس لديك ما تقوله سوى أن تعيد ما تسمعه؟!»، هكذا كان أخوه الساخط يقول له. «لا شيء تجيب به؟ ما من إجابة لديك إطلاقا؟!»، على الرغم من كل احتجاجات باتريك كان إيدموند دائما يختار ما يشعره بالأمان في ترداد صدى ما يسمع. أما الآن فهو على حافة جرف يطل على صمت لا يتطلب منه ترداد أي شيء.

سأله روتلج بلطف: «لا بد أنك متعب».

«إلى حد ما. لطف منك أن تأتي. لطف منكما أنتما الاثنان أن تأتيا».

«سنذهب الآن. بإمكانك العودة إلى النوم».

«مـع السـلامة»، قـال إيدمونـد مناديـا باتريـك بلقـب لم يسـمعه روتلـج منـذ سـنوات. «سـلامي للجميـع حـول البحـيرة».

«كلهـم يسـألون عنـك»، أجابـه روتلـج، وعندمـا قـال باتريـك «الجميـع ينتظـر عودتـك إلى البيـت. عـد للنـوم الآن» كان إيدمونـد قـد غـطّ في النـوم.

دخلـت ممرضـة إلى الغرفـة الصغـيرة، وعندما بـدأ باتريـك بالتحدث إليهـا حـول المريـض خـرج روتلـج لينتظـر في الممـر. عـاد باتريـك وقـال روتلـج وهـما يسـيران في الممـر الأخـضر الشـاحب: «لقـد أخطأنـا عندمـا أيقظنـاه». أجابـه باتريـك ريـان بغمـوض: «أخـشى أن أيـام أخـي في عالمنـا باتـت قليلـة».

سأله روتلج في السيارة: «إلى أين تريديني أن أوصلك؟».

«لم يحـدث مـن قبـل أن غـادرت هـذه المدينـة قبـل أن أصرف بعـض المـال، ولا أريـد تغيـير عـادتي هـذه».

«إلى أين إذن؟».

«دعنا نذهب على بركة الله ونرى ما أحوال بادي لو».

كانـت حانـة بـادي لـو فارغـة عـدا الفتـاة التـي تعمـل عـلى البـار وامرأتـين ومجموعـة مـن خمسـة رجـال مختلفـي الأعـمار بـدا أنهـم في طريـق عودتهـم مـن مبـاراة كـرة قـدم. سـأل باتريـك ريـان فتـاة البـار وهـي ترتـب كـؤوس البـيرة: «أيـن بـادي؟» «ذهـب إلى الأرض». «أنـا وبـادي صديقـان حميـمان». لم تجـذب عبـارة باتريـك ريـان الفتـاة لمتابعـة الحديـث معـه، ومـا إن رفـع هـو وروتلـج كأسي البـيرة حتـى تركـز انتباهـه كلـه عـلى مجموعـة الرجـال العائديـن مـن مبـاراة كـرة القـدم. قـال وهـو يضحـك معتـذرا: «سـأذهب لأرى مـن أيـن أتى هـؤلاء الرجـال». اتجـه نحـو طاولتهـم وهـو يمـشي ببـطء بطريقـة مسرحيـة

استرعت انتباههم إليه حتى قبل أن يتكلم. «هل فاز فريقكم؟» أخبروه بأن فريقهم قد خسر. فريق شانون غيلز، لعب المباراة في بويل وفارق الخسارة كان كبيرا.

قال لهم بود: «لا بد أن لديكم فريقا من الخاسرين مثل فريقنا».

أجابه أحد الرجال: «ليس فريقا عظيما، لكن لا بأس به على الأقل نستمتع بسببهم بقضاء يوم في الخارج. لولا كرة القدم لما خرجنا من المنزل».

قال رجل آخر: «ستعيد قول هذا الكلام مرات ومرات».

انخرطوا بعد ذلك في حديث تخلله بعض الضحك. عاد باتريك وانضم إلى روتلج عند البار وقد استعاد حيويته ونشاطه. «إنهم من دروملیون، مشجعو فريق خاسر.. يمكننا أن ننهي مشروبنا الآن ونذهب على بركة الله. لا تنسي أن تخبري بادي لو أني كنت هنا وسألت عنه».

سألته الفتاة بتهذيب: «من أقول له؟».

«قولي له الرجل الذي ارتدى المعطف الرثّ وسيعرفني ما إن يسمع ذلك».

رددت الفتاة مدهوشة من ثقته وطريقته المسرحية: «الرجل الذي ارتدى المعطف الرثّ..».

«وبعد كل ما قيل، من يخبر الرجل من ارتدى المعطف الرثّ؟» ردد باتريك ريان ذلك بمرح ثم أضاف وهو يلوح بيده للرجال الخمسة «رجال المباراة». وقف بعد ذلك عند الباب وصاح: «إلى اللقاء يا أصدقاء. فليُطِل الرب في أعمارنا كي نحتمل الخاسرين». صاح الرجال مبتهجين وقرَعوا بكؤوسهم على الطاولة.

لوّح لهم روتلج واتجها نحو السيارة. قال باتريك ريان: «يا الله! كان بالإمكان قضاء وقت ممتع مع هؤلاء الرجال. سأخبرك شيئا يا بني. لولا المباريات والجمهور في أيام الأحد لما تحرك هؤلاء الرجال من بيوتهم العفنة ولتُركوا وحيدين».

ما إن غادرا المدينة حتى دخلا بالسيارة متاهة الدروب الضيقة، كأنهما يسافران في تيه أخضر لولا قطَع صغيرة من السماء ظهرت من بين أغصان الأشجار. قال باتريك لروتلج وهو يقود السيارة ببطء ويطلق بوقها عند كل منعطف يحجب عنه امتداد الطريق: «سآتي إليكم غدا. سأنهي ذلك العمل قريبا».

«لا داعي للعجلة».

«كنت حريصا على الانتهاء من البناء دفعة واحدة».

«كان ذلك منذ زمن طويل مضى».

«لقد انسجمت مع المكان بسرعة منذ مجيئك إلى هنا يا بني».

«تدبرنا الأمر. معظم الناس يتمكنون من ذلك بطريقة أو بأخرى».

«البعض لديهم قدرة على الانسجام أكثر من غيرهم. إلامَ تردّ ذلك، إلى الحظ أم إلى شيء ما يدعمك؟».

«كلا الأمرين يساعدان».

سأل باتريك ريان بفظاظة كأنه يستشعر أثر تطفّله: «ألا تشعر بالفقدان لأنك لم تنجب أطفالا؟».

«لا، لا يمكنك أن تفتقد ما ليس لديك».

«وكأنه ما من بشر كفاية في هذا العالم!».

«هل كانت كبيرة على الإنجاب عندما حاولتما؟».

«لا يا باتريك، لم تكن كبيرة على الإنجاب»، قال روتلج بهدوء

وصرامـة. «أيـن تريـدني أن أوصلـك؟ أم أنـك تريـد العـودة معـي إلى المنـزل؟».

«أنزلني في القرية».

لم يكـن في القريـة مـا يلفـت الانتبـاه. بضـع سـيارات اصطفـت أمـام باريـن وطفـل ينحنـي فـوق الجـسر الصغـير ناظـرا إلى النهـر الضحـل ويرفـع رأسـه لينظـر إلى السيارة تعبر قـرب مقصـورة الهاتـف الخـضراء، وفي فنـاء الكنيسـة غـير المسـقوف كانـت أبقـار القـس ترعـى فـوق المـرج.

«ستراني غـدا»، قـال باتريـك ريـان وهـو ينـزل مـن السـيارة، متجهـا نحـو البـارِ بحيويـة.

في البيـَت نـادى روتلـجُ عـلى كيـت ليعلمهـا بقدومـه ثـم خلـع ثيابـه بسرعـة وارتـدى ملابـس العمـل القديمـة عندمـا تذكـر أنـه نـسي أن يتفقـد البقـرة. كانـت الأبقـار قـد غـادرت المـروج عـلى شـاطئ البحـيرة وتركـت وراءهـا آثـار حوافرهـا عـلى العشـب القصـير. عـلى بعـد حقلـين رأى روتلـج الأبقـار ترعـى بنهـم ولاحـظ أن بقرتـه الحمـراء ليسـت هنـاك. بحـث بقلـق ولم يجدهـا بـين الماشـية ولا حتـى في الحقـول المجـاورة. كانـت آخـر أبقارهـما التـي نجـت مـن أول ماشـية اشـتراها وسـيكون مؤلمـا أن يفقدهـا هكـذا بسـبب الإهـمال. بحـث في كل الأمكنـة المتوقعـة ومـع ازديـاد قلقـه قـال لنفسـه إنـه لا فائـدة مـن التوتـر والتـسرع وإن أفضـل مـا يمكـن فعلـه الآن أن يبحـث برويّـة وبدقّـة في كل الأراضي المحيطـة حقـلا حقـلا، وبعـد أن فتـش عنهـا في كلِ مـكان وجدهـا أخـيرا في زاويـة مزرعـة أشـجار الراتينجيـة الصغـيرة التـي غُرسـت لتكـون حزامـا واقيـا مـن الريـح حـول البحـيرة. اسـتلقت البقـرة عـلى جانبهـا ووراءهـا قنـاة مـاء مغطـاة بالسرخـس وزهـور

قفاز الثعلب ونباتات شوكية. عندما اقترب منها مبعدا الأغصان بيديه كانت تحاول النهوض على قوائمها بصعوبة، وما إن أحست بوجوده حتى تهاوت وأطلقت خوارا كئيبا ومنهكا.

«يا بقرتي المسكينة»، ردد روتلج متنفسا الصعداء. رددت البقرة خوارها المستغيث مرة أخرى. كانت الفسحة بين الأشجار تشبه غرفة في وسط البرية وبدا له واضحا من الآثار التي تركتها البقرة على الأرض المكسوة بأوراق الراتينجية الأبرية أنها تعاني آلام المخاض منذ فترة ليست قصيرة. علامات المخاض جلية، انفجر كيس ماء الرأس وتوسع رحم البقرة. لم يشأ أن يلمس الرحم خشية ألا تكون يداه نظيفتين، لكنه من تلمس بطن البقرة لاحظ أن رأس وقوائم العجل في المكان الصحيح. بدأت البقرة تدفع بقوة بعد أن عادت للاستلقاء مطلقة خوارها المتوجع.

تكلم روتلج دون تفكير كأنه يحاول طمأنة البقرة: «لا يمكن أن نفقدك بعد كل تلك السنوات»، وما إن نطق بكلماته حتى سمع سعالا حادا. التفت فرأى جامسي واقفا يحدق في البقرة وقد بدأ الليل يلف أشجار الراتينجية وراءه. تقدم جامسي نحوه دون أن يحدث أيّ ضجيج وقال بنبرة متواطئة: «مرحبا.. مرحبا..».

«أنت؟ لقد أرسلتك السماء».

«هل تحسست العجل؟».

«العجل في وضعه الصحيح، لكنها لا تستطيع الدفع جيدا».

«أحضر لي رافعة التوليد».

لاحظ روتلج وهو يهم بالذهاب حبالا ناعمة تتدلى من جيوب جامسي. لا بد أنه كان هنا يراقب البقرة منذ وقت طويل وقد أتى مجهزا نفسه دون أن يتوقع وجوده هنا. في المنزل ألقت كيت

كل شيء من يدها عند وصول روتلج وأعدت ماء ساخنا ومنشفة ومعقمات وصابونا ورافعة التوليد التي كانت من الألمنيوم خفيف الوزن. حملا كل شيء واتجها مسرعين إلى المزرعة.

همست كيت عندما دخلت المساحة المعتمة تحت أغصان الراتينجية: «جامسي، جيد أنك هنا».

«كيت، سعيد لرؤيتك».

شمر كل من الرجلين عن ساعديه وساقيه. أمسكت كيت بالمنشفة وشد جامسي قوائم البقرة بينما قام روتلج بربطها بالحبال حول أظلافها ثم قام بإدخال رافعة التوليد في مكانها على دفعات إلى أن توترت الحبال بفعل الشد، وكلما دفعت البقرة زادت من الضغط على الرافعة.

قال جامسي: «بقرة رائعة. انظر كيف تضغط؟! هناك الكثير من البقرات يستلقين على الأرض ولا يفعلن شيئا». ظهر لسان العجل الطويل وأنفه وازداد توتر الحبال المشدودة إلى قوائم البقرة، ثم في لحظة رهيبة بدا فيها الألم والضغط في أقصاهما ارتخت الحبال وانزلق العجل الصغير على الأرض تغطيه المشيمة اللامعة ببَلَلها. صاح جامسي وهو ينزع المشيمة عن أنف العجل: «إنه ذكَر.. ثور قوي». سارع روتلج إلى رفع حبل السُّرّ وتعقيمه بكوب من محلول مضاد للالتهاب. أطلقت البقرة خوارا قويا وهي تجاهد لتنتصب على قوائمها، كل ما فيها من حواس وانتباه مركز على العجل الصغير كأنه أول عجل تلده، وكأن هذه اللحظة بداية جديدة للعالم. «انتبهي يا كيت، ابتعدي عن طريقها. لا يمكن التكهن بما قد تفعل». أخذت البقرة تلعق عجلها، تجففه مما علق به، وكانت حركات لسانها قوية بحيث أزاحت العجل

مـن مكانـه عـلى الأرض رغـم وزنـه الثقيـل. قلبتـه بعـد ذلـك عـلى جنبـه الآخـر وراحـت تلعقـه بلسـانها لتنظفـه مـن أوراق الراتينجيـة التـي التصقـت بالطبقـة اللزجـة عـلى جسـده، وعندمـا انتهـت أطلقـت خـوارا مدويـا يثـير الذعـر وهـي تسـاعده لينتصـب عـلى قوائمـه. ترنـح العجـل وهـو يجاهـد لينتصـب عـلى قوائمـه الطويلـة المرتجفـة قبـل أن يكبـو عـلى ركبـه، رغـم حثّـه بنفـاد صبر ثـم نهـض مـن جديـد، رأسـه ضخـم وكتفـاه ثقيلتـان وغليظـان وجلـده بلـون الشـوكولا الفاتـح مـع بقعـة بيضـاء عـلى الصـدر والقوائـم.

صاح جامسي بإعجاب: «أيّ حيوان!».

«لم يكن بوسع لوسي بقرتنا العجوز أن تضع بمفردها».

«رائع أنها سالمة. رائع أنهما معا بخير».

قـال جامـسي: «هـذه الرافعـات الجديـدة ممتـازة. غالبـا مـا كنـت أرى سـتة رجـال يشـدون الحبـال ويربطونهـا بجـذع شـجرة فتتمـزق البقـرة المسـكينة مـن الشـد والضغـط».

«انظر يا جامسي كم تبدو عليهما السعادة مع بعضهما».

قـال روتلـج: «الأفضـل أن نتركهـما، سـيبدأ العجـل بالرضاعـة عندمـا يشـعر بالجـوع. يسـتطيعان تدبـر شـؤونهما الخاصـة جيـدا». سـيطر عليهـم شـعور بالراحـة وهـم يفكـرون أن البقـرة سـتكون بخـير حتـى سـنة قادمـة عـلى الأقـل مـع عجلهـا الصغـير.

سـألت كيـت فجـأة وهـم يسـيرون باتجـاه المنـزل: «كيـف حـدث أنـك حـضرت إلى هنـا يـا جامـسي؟».

«كالثعالـب النائمـة يـا كيـت، هكـذا أتيـت. لا بـد أن تشـعري بالسـأم لرؤيتـي مرتـين في اليـوم ذاتـه».

«لا، هذا ما لا يمكن أن يحدث أبدا».

«لكن قل لي، منذ متى وأنت هنا؟ لا بد أنك كنت هنا طوال الوقت تراقبني وأنا أبحث عن البقرة. أيّ رجل أنت؟! لماذا لم تخبرني بوجودك؟».

قهقه جامسي ثم سأله: «أين تركت باتريك ريان؟».

«كيف علمت أني كنت مع باتريك؟».

«لمحته عند الشاطئ. رأيت السيارة وقدرت أنها كانت متجهة إلى كاريك. أعرف باتريك جيدا، كان يريد الذهاب إلى المشفى. كنت أعلم أن البقرة ليست على ما يرام وأنك لن تستطيع العودة مبكرا. لا أحد يستطيع إخراج باتريك ريان من المدينة بسهولة».

«تركته في القرية. لم يشأ أن يبقى معي».

«لا تخبرني، أعرف باتريك جيدا».

أقنعاه بصعوبة أن يذهب معهما إلى المنزل. «ها أنا أشرب الشراب مرتين في نفس البيت. ستكون سيرتي على كل لسانٍ في البلد».

«ليس كل يوم تضع بقرتُنا العجوز». أمسك روتلج بكتفيه تعبيرا عن امتنانه.

قدّما له المشروب وتحدثوا عن زيارة المشفى وعن مجاملات إيدموند والاختلاف في الطباع بين أخوين تربيا في بيت واحد مع ذات الأبوين.

«أستطيع سماع صوته» قال جامسي مقلدا إيدموند «كيف أحوال الجميع حول البحيرة؟ لطف كبير منكما أن تأتيا».

قالت كيت: «لم يكن على باتريك أن يهزه من كتفيه ويوقظه هكذا».

«كفاك يا كيت، أنت لا تعرفين باتريك. إنه لا يأبه لإيدموند وكل ما يهمه حقا أن يقوم بالزيارة ويراه الناس كي لا يلومه أحد إن حصل شيء ما. في أيام الأب والأم كان باتريك كل شيء. باتريك كذا.. وباتريك كذا.. ولم يكن أحد ينتبه لإيدموند. كانا كأنهما يران الشمس في باتريك وحده».

«هذا خطأ».

«صواب أم خطأ يا كيت، ليس هناك من خطأ أو صواب في هذا العالم. هناك فقط ما يجري في الواقع. يجب أن أذهب الآن»، قال وهو ينهي ما في كأسه. «ذهبت ماري إلى مولفي في زيارة الأحد. تريدني ألا أتأخر عليها وأن ألاقيها كي نعود سوية. لن تسلك ذلك الطريق عبر المستنقع وحدها ولو كانت نهاية العالم».

رافقاه إلى حيث ترك دراجته قرب البحيرة. أضاء القمر السماء فوق البحيرة وفاحت في هواء الليل روائح النعنع البري وأزهار صريمة الجدي بينما بدت الأشجار على حواف المياه المضاءة بضوء القمر عالية وساكنة. قال جامسي بهدوء وهو يهم بركوب دراجته: «أخشى أن إيدموند المسكين لن يعبر هذه الطرق ثانية. أخشى أنه لن يرى البحيرة مرة أخرى».

في وقت متأخر من تلك الليلة مشى روتلج وكيت في جو مفعم بالندى الكثيف نحو المزرعة. كان العجل قد أخذ كفايته من الرضاعة ونام إلى جانب أمه التي أطلقت خوارا حادا وقلقا عندما اقتربا خلال الأغصان الكثيفة.

هدأت البقرة عندما تحدثا إليها ولعقت عجلها النائم بحركات سريعة خاطفة من لسانها كأنها تعبر عن فخرها به، وبدت مع صغيرها كأنهما معا هكذا منذ الأزل. تبعتهما القطة السوداء وهما

يعـودان أدراجهـما عـبر الحقـول، ركضـت وتقافـزت في طريقهـما في حيلـة منهـا كي تُحمـل بعيـدا عـن رطوبـة العشـب، وفي نهايـة المطـاف حملهـا روتلـج لتكمـل رحلتهـا إلى البيـت عـلى كتفـه.

أتى الطقـس الحـار جالبـا معـه أمراضـه. هاجمـت يرقـات الذبـاب الأغنـام وأصابـت ضحاياهـا بعـوارض مضحكـة، فـكان كلـما يصـاب منهـا واحـد يقـف دون حَـراك كأنـه غـارق في التفكـير ثـم فجـأة يصـاب بالهيـاج. اقتيـدت الأغنـام إلى الزريبـة حيـث أعـد لهـا مغطـسٌ مـن محلـول مضـاد لليرقـات تغمـس فيـه الأعضـاء المصابـة فتتلـوى اليرقـات البيـض السِّـمَان في صـوف الأغنـام لتتسـاقط عـلى الأرضيـة قـرب المغطـس وتُطلَـق بعـد ذلـك الأغنـام وقـد تخلصـت مـن زائراتهـا القاتـلات.

سـارت البقـرة تقـود عجلهـا المتعـثر في مشـيته مـن المزرعـة نحـو القطيـع المتجمـع قـرب المـاء حيـث اقـترب الجميـع لتَشَـمُّمه ولكـزه ترحيبـا بـه بينـما وقفـت أمـه الفخـور جانبـا. عندمـا عـادتَ الأبقـار لاجترارهـا اقتربـت العجـول الصغـيرة مـن الرفيـق الجديـد متوقِّعـة مشـاركته في اللعـب لكـن العجـل الصغـير كبـا عـلى ركبـه منهـكا مـن رحلتـه الطويلـة. فوجـئ روتلـج عنـد سـماعه أصواتـا حـال وصولـه إلى المنـزل. أتى باتريـك ريـان وهـو يتحـدث الآن مـع كيـت.

«كيف أحوال إيدْموند؟».

«لقد انتهى».

«يمكن أن تتحسن صحته من جديد».

«لا يا ابنتي، لقد انتهى».

جلـس باتريـك إلى المائـدة وقبعتـه بجانـب يـده فـوق غطـاء الطاولـة يتنـاول فطـورا مـن البيـض المسـلوق وخبـز محمـص مـع

الزبـدة وفنجـان كبـير مـن الشـاي. في الجهـة المقابلـة جلسـت كيـت إلى طاولـة أخـرى تعـد إطـارات خلايـا النحـل كعادتهـا في الانـصراف إلى أعـمال كهـذه كلـما كان باتريـك ريـان في البيـت.

«أنـا في الجنـة هنـا أنعـم بهـذا البيـض العظيـم»، قـال باتريـك مرحبـا بروتلـج لـدى رؤيتـه.

قالت كيت: «كنا نتحدث عن إيدموند».

«قلـت لهـا إن أجلـه قـد حـان. لا فائـدة مـن إنـكار ذلـك. أعتقـد أنكـم لم تتوقعـوا مجيئـي».

«تسرنا رؤيتك». نحن نتوقع حضورك عندما نراك يا باتريك».

«ليس هناك ما هو أكثر تأكيدا من توقعاتنا».

«هل كان هناك ما يسلّي في القرية الليلة الماضية؟».

«تأخرنـا كثـيرا في العـودة وأوصلنـي أحدهـم إلى طـرف البحـيرة. جلسـنا هنـاك في السـيارة وتناقشـنا وقتـا طويـلا. اللعنـة عـلى نقاشـات آخـر الليـل. لا تصـل فيهـا إلى أيّ شيء. كان القمـر كبـيرا كطبـق مـدور عندمـا صعـدت التلـة إلى بيتـي. لم أنـم هنـاك منـذ سـتة أسـابيع، ولم يكـن مـن امـرأة شـابة هنـاك تجـبرني عـلى ذلـك عـلى أيـة حـال».

«هذا أفضل».

«ومـا أدراك؟ إنهـا لم تكـن هنـاك عـلى أيـة حـال. انظـر هنـا، هـذه المـرأة تعتنـي بالنحـل. لـو كان البـشر نشـيطين ومجتهديـن كالنحـل لـكان لدينـا فـردوس عـلى الأرض».

قالـت كيـت بصـوت عـال: «النحـل يمكـن أن يكـون غـير مُجِـدٍّ عـلى طريقتـه أيضـا. لا فائـدة مـن طنينـه المتواصـل مثـلا».

أجابهـا باتريـك بصـوت عـال: «هـذا مـا يصـح قولـه عـن أكاذيبنـا أيضـا» ثـم تنـاول قبعتـه عـن الطاولـة «خـير لنـا أن نبـدأ العمـل. هـل

أنـت جاهـز؟».

«جاهز كما لم أكن من قبل».

«لنبدأ العمل إذن بمشيئة الرب».

كانـت الأخشـاب والزوايـا الحديدية والمسـامير والبراغـي والصمولات كلهـا ملقـاة في المخـزن منـذ شرائهـا قبـل عامين.

اسـتغرقا وقتـا طويـلا في جمعهـا وفرزهـا. عمـل باتريـك ريـان ببـطء لكـن بدقـة وقـام بقيـاس العـوارض عـدة مـرات ورسـم عليهـا خطوطـا بقلـم رصـاص ومسـطرة، ثـم تأكـد مـن القياسـات مـرة أخـرى قبـل أن يـأتي بالمنشـار. في وقـت لاحـق مـن النهـار سـمعا صـوت محـرك ثقيـل يقـترب ببـطء مـن جهـة الشـاطئ إلى التلـة الصاعـدة نحـو البيـت. قـال باتريـك ريـان مبتهجـا وهـما يرفعـا رأسـيهما: «يبـدو أن لدينـا زوارا يـا بنـي». ظهـرت سـيارة المرسـيدس السـوداء الجديـدة تجـر مقطـورة ماشـية مسـقوفة واقتربـت مـن المدخـل فابتسـم باتريـك ريـان بخيبـة واضحـة ارتسـمت عـلى وجهـه وقـال: «إنـه الشـاه». الرجـلان يعرفـان بعضهـما جيـدا. «مـن الأفضـل أن تذهـب لاسـتقباله. لا أظـن أنـه سـيدعني وشـأني. لا أدري مـا الـذي يفعلـه بمقطـورة الماشـية هـذه!». توجـه روتلـج نحـو السـيارة. لم ينـزل الشـاه، كلبـه يجلـس في المقعـد الأمامـي وينبـح بهيـاج.

«ألا تريد أن تنزل وتدع الكلب ينزل أيضا؟».

«أنا أنتظر».

«ماذا تنتظر؟».

«أن أعرف ماذا أفعل؟».

«تفعل بماذا؟».

«بهذه الأمانة».

«أية أمانة؟».

«تتكلـم وكأنـك لا تعـرف؟!»، قـال الشـاه بنـزق ثـم نـزل مـن السـيارة يتبعـه الكلـب.

ربـت روتلـج عنـق الكلـب وفتـح الشـاه بـاب المقطـورة بطريقـة مسرحيـة. كانـت مليئـة بالصناديـق، ومـا إن رآهـا روتلـج حتـى عـرف سـبب امتعـاض الشـاه وبـدأ يضحـك بهـدوء. قبـل عـدة أشـهر كان قـد وقّـع عقـدا مـع شركـة لصنـع النبيـذ واتفـق عـلى أن يكـون الدفـع نبيـذا.

قـال: «كان عليهـم أن يرسـلوا كل هـذا إلى المنـزل هنـا. لم يطلـب أحـد منهـم أن يلقـوا بعبئهـا عليـك».

أجابـه الشـاه غاضبـا: «قالـوا إن الشـاحنة كبـيرة ولا يمكنهـا المـرور عـبر الشـاطئ. لـو كنـت أعرف مـا الحمولـة لأرسـلتهم بهـا إلى الجحيم».

«يمكنك أن تفتح حانة بكل هذا».

أجابـه الشـاه معترضـا: «هنـاك العديـد مـن الحانـات في المدينـة تعمـل بكميـات أقـل».

«أعتقـد أنـه مـن الأفضـل أن ننقلهـا إلى داخـل المنـزل بعيـدا عـن أيّ أذى».

«إلا إذا كنـت تريـد إلقاءهـا في البحـيرة. يـسرني أنـك تسـتطيع رؤيـة الجانـب المضحـك مـن الموضـوع رغـم كل شيء. أعتقـد أن روح الدعابـة مفيـدة إن كنـت تريـد الدعـوة إلى حفلـة أو مناسـبة».

لم تسـمع كيـت صـوت السـيارة عندمـا اقتربـت وفوجئـت برؤيـة المقطـورة في الـرواق. اقتربـت مـن الشـاه ورحبـت بـه لكنهـا فوجئـت بفظاظتـه.

سألت: «ما كل هذه الصناديق؟».

أجابها الشاه متهما: «يبدو أن رَجُلَك لم يخبرك أنت أيضا. اسأليه وسيخبرك، يبدو أنه يعرف كل شيء».

«يخبرني بماذا؟».

«بقصة كل هذه الصناديق. لا بد أن لديه حوتا لكل هذا. ولن يطول الأمر قبل أن تري هذا المكان تأكله النيران».

نظرت إلى روتلج متسائلة.

«أتذكرين العمل الذي قمت به لصالح شركة النبيذ؟».

«بالطبع، أذكر».

«لقد تركوا ما ترين مع هذا الرجل في المدينة بدل أن يوصلوه إلينا».

«لم أتخيل أنها ستكون كثيرة هكذا».

أجاب روتلج ممازحا: «لن يسبب لهم هذا الخسارةً».

«أجل، يمكنك قول ذلك ثانية»، قال الشاه وهو ينظر إلى وجه كيت بانتباه وقد جعلته بسلوكها وملامحها يشعر بالثقة.

بدأ روتلج وكيت بحمل الصناديق إلى داخل المنزل بينما وقف الشاه عند المقطورة يفتح لهما بابها ويغلقه كأنه يريد التستر على الفضيحة التي بداخلها. حمل روتلج الصناديق إلى الغرفة الإضافية عبر الرواق بينما كانت كيت تضعها على أرضية المدخل لثقلها، وعندما فرغت المقطورة من الصناديق انتبهت إلى الشاه يحدق في صناديقها.

«هل فعلت شيئا ما خطأ؟».

«ألا تستطيعين وضعها في مكان آخر؟ حيث يضعها زوجك، كي لا يراها أحد».

قال روتلج وهو يلهث: «اتركيها إن كانت ثقيلة. أنا سأحملها إلى الغرفة».

كان يحـاول بصعوبـة إخفـاء الانفعـال البـادي عـلى ملامـح وجهـه بالاختبـاء وراء حمـل الصناديـق. أغلـق الشـاه بـاب المقطـورة وأغلـق المـزلاج بحـدة امتـزج فيهـا الغضـب مـع شـعور بالارتيـاح. لم ينظـر باتريـك ريـان إليهـم أثنـاء ذلـك. كان مسـتغرقا في قيـاس الأطـوال المختلفـة لألـواح الخشـب بشريـط القياسـات وقلـم الرصـاص.

قـال الشـاه وهـو يدخـل المنـزل وقـد تنفـس الصعـداء بعـد أن نُقلـت الصناديـق إلى مـكان آمـن: «أرى أن هـذا السـكّير عـاد للعمـل هنـا. لـو لمـح الصناديـق فلـن يـبرح هـذا المـكان».

أجابه روتلج: «إنه لا يحب النبيذ».

«أعتقـد أنـه سـيختفي قريبـا. لـن يبقـى هنـا طويـلا. لقـد قلـت لـك مـرارا أن تَصْرِفَـه إلى الجحيـم وتـأتي ببنّـاء آخـر يُعتمـد عليـه».

«لا بأس، سيفي بالغرض حاليا».

انبهـر الشـاه للوهلـة الأولى بمـرح باتريـك ريـان وبسـلاطة لسـانه وبسـخريته، نقائـص كان يتسـامح معهـا عمومـا، لكـن باتريـك بالـغ وذهـب بعيـدا فانكمـش الشـاه وأصبـح يعاملـه بـبرود كأنـه مجموعـة مـن أوراق اللعـب. في إحـدى الليـالي أوصلـه في طريقـه مـن المدينـة إلى البحـيرة. كان باتريـك سـكّيرا، وعندمـا يـشرب يسـيطر عليـه مـزاج تهكمـي بـذيء ونزعـة لإلقـاء المواعـظ عـلى الآخريـن.

«لقـد جمعـتَ أمـوالا طائلـة. مـاذا سـتفعل بهـا. هـل تعتقـد أنـك سـتأخذها معـك؟ ليـس للكفـن جيـوب. هـل قـررت شـيئا بشـأن هـذا؟».

لم يكـن لباتريـك ريـان أن يقتحـم منطقـة أكـثر خطـرا. صمـت الشـاه طويـلا وهـو يقـود السـيارة. لم يكلمـه أحـد بهـذه الطريقـة منـذ سـنوات. المـال بالنسـبة إليـه مصـدر فخـر وشـعور عميـق بالـرضى

والأمان. لم ينطق بكلمة حتى وصل إلى الحانتين في شروغهون على ضفة النهر الصغير عند الفناء غير المسقوف. أوقف السيارة عند الجسر الحجري بينما استَمر باتريك ريان في إلقاء محاضرته.

«لا أريد النزول هنا. أخذت كفايتي من الحانات لهذا اليوم. أريد الذهاب إلى البحيرة».

«انزل». هكذا قال له وهو ينظر إلى الأمام بثبات. لو كان باتريك أكثر انتباه وصحوا لما فاجأته ردة فعل الشاه.

«لا داعي لأن تأخذ الأمور بكل هذه الجدية. كنا نتسلى فقط ولا داعي لكل هذا الحنق».

«هذا يكفي. انزل».

عندما رأى أن محاولته لتلطيف الجو باءت بالفشل عاد إلى مزاجه وقال: «اسمع، أسدي إليك نصيحة مقابل لا شيء. ربما يكون لديك مال كثير، لكني أرى أنك غليظ وجاهل ولست أكثر من ساقية آسنة».

«قلت لك انزل. لا يهمني ما ترى».

كرر الشاه لدى دخوله البيت «يجب أن يذهب إلى الجحيم». جلس، طلب الشاي وقال إنه لا يريد أن يأكل أيّ شيء. أراد أن يذهب إلى الفندق كعادته بمجرد إفراغ حمولة المقطورة.

قال مشيرا إلى موضوع النبيذ مرة أخرى: «أنت امرأة عظيمة يا كيت. نحن لا نشك في ذلك كما هو الحال مع زوجك».

«تشك في ماذا؟».

أجاب بنبرة امتزجت فيها الفكاهة بالقلق والاستنكار «بمن سيقيم الحفلة».

«أية حفلة؟».

«لا بد أن يقيم أحد ما حفلة مع حمولة كهذه في البيت. لم أر بعد ذلك الرجل الذي يقيم حفلة كهذه».

«لدينا زوار يأتون عادة وهناك مناسبات للاحتفال. سيكفينا ذلك سنوات».

«ربما تحتفل وحدك. لن أفاجأ إن رمت كيت بك إلى الخارج يوما ما».

«ربما تطردني في كل الأحوال».

قال وهو يضحك مستعيدا روح الدعابة: «وربما لن يكون ذلك بعيدا».

رافقاه إلى حيث السيارة والمقطورة. أعطت كيت الكلب قطعة بسكويت فحملها معه بحرص إلى المقعد الأمامي.

«آسف لأنهم ألقوا بها إليك بدلا من إحضارها إلى هنا».

«لا بأس، إنها في مكان آمن الآن على أية حال».

رفع الشاه يده ببطء لباتريك ريان في تحية تشبه مباركة القسيس وهو يستدير بالمقطورة الثقيلة بين مدخل البيت والأعمدة الحديدية العارية. رسم باتريك - الذي كان يقف بانتباه متهكّم - علامة على صدره ثم رفع يده وأدى تحية عسكرية للشاه في أداء متقن ذهب هباء، لأن المقصود لم يكلف نفسه عناء إلقاء نظرة خاطفة إليه في المرآة، وهو يبتعد بسيارته جارّا المقطورة عبر المدخل باتجاه شاطئ البحيرة. قال روتلج لكيت وهو يهمّ بالعودة لينضم إلى باتريك: «والآن، ماذا سأقول لمن تركت عند المخزن؟ لا بد أنه ينتظرني الآن ليعرف كم بعنا من الماشية؟». وفور وصوله إلى هناك سأله باتريك: «ما الذي كان يفعله الشاه بتلك المقطورة؟ لا أظن أنه سيعمل في تجارة الماشية».

«أشياء إلى البيت، تم توصيلها إلى المحطة عن طريق الخطأ».

لـو كان جامـسي لقتلـه الفضـول، ولسـأل عـلى الفـور مـا ذلـك الـشيء؟ لكـن باتريـك لم يسـأل.

«أعلـم أنـه عمـك وأن لديـه أمـوالا طائلـة. لكـن لـدي مـا أقولـه لـك يـا بنـي. إنـه لا يـزال غليظـا وجاهلا كسـاقية آسـنة».

رد روتلـج بصرامـة واقتضـاب: «إنــه يعجبنــي. كان لطيفـا عندمـا كنـت صغـيرا وطيبتـه لا تـزال كامنـة فيـه في مـكان مـا، حتـى لـو لم تظهـر واضحـة للعيـان».

نظـر باتريـك ريـان إليـه بقسـوة للحظـات لكـن روتلـج وقـف بثبـات ثـم انـصرف بعـد فـترة صمـت ليتابـع قيـاس العـوارض.

رفعـا العـوارض الثقيلـة عـلى سـلم إلى أعـلى الأعمـدة الحديديـة. لم يزرهـما أثنـاء الوقـت الـذي قضيـاه في العمـل صامتـين في الجـو الحـار سـوى بيـل إيفانـس في طريقـه إلى البحـيرة لمـلء دلـوي المـاء. ظـل يتحـدث معهـما حتـى أعطـاه باتريـك بعـض السـجائر ثـم دخـل إلى البيـت طلبـا للطعـام والـشراب ولمزيـد مـن السـجائر.

«ربما كان أكثر سعادة منا يا بني. إنه لا يحس بأي اختلاف».

«من يدري؟».

«مـن يـدري: بعـد كل مـا يقـال ويفعـل، مـن يخـبر الرجـل الـذي ارتـدى المعطـف الـرث»، دنـدن باتريـك بالأغنيـة ثـم قـال: «تلـك أحجيـة يـا بنـي».

«هل تتبادل الأمكنة معه؟».

«لا يـا بنـي، لا أبـادل حتـى لـورد بمكانـه. كلنـا يريـد مكانـه في الحيـاة وإن قلنـا الحقيقـة فـلا أحـد يريـد أن يبـدل مكانـه مـع أحـد. نريـد أن نكمـل كـما بدأنـا كـما أنـه مـا مـن خيـار أمامنـا. لـو كان

هناك من خيار لرأيت الكثير من المتهورين يجرون عمليات تجميل لتغيير أنفسهم وأشكالهم كما يفعل أولئك الذين نراهم في الجرائد يغيرون جنسهم».

لا أحد يعلم متى يأتي باتريك؛ أفي هذا اليوم أو ذلك، إلى أن تظهر قامته فجأة في الظلام، بين الأشجار المحيطة بالشاطئ، أو نباتات «جار الماء» قرب البوابة، أو حتى واقفا في مدخل الغرفة. اعتادا أن يعملا حتى حلول الظلام، وبعد أن وضعا العوارض الثقيلة في مكانها فوق الأعمدة بدأا في تفصيل الإطار الذي سيدعم السقف. بعد نهاية العمل يجلس معهم في البيت ليأكل ويبقى مترددا في الذهاب إلى البيت. عرض عليه روتلج عدة مرات أن يوصله إلى كاريك ليرى أخاه إيدموند في محاولة للخروج من صمت سهراتهم الطويلة، وكان باتريك يجيبه «أعلم، أعلم هذا جيدا لكن أخي أجله حان. إنه كأبي بسيط وسهل. أمي كانت قاسية. عاشت في أمريكا سنوات وفقدت عينها بضربة من قرن ثور، عندما كانت في الحظيرة تربط إحدى البقرات. أنفقت كل ما جلبت معها من مال لإنقاذ بصرها في عينها السليمة. كانت قاسية جدا، وربما لهذا كنت أنا قاسيا على إيدموند. ما أهمية ذلك في نهاية المطاف؟ علمت أنه انتهى منذ تلك اللحظة التي أيقظته فيها. إنه هناك في كاريك عالق في شبكة من الخيوط لا فكاك منها. لن نراه ثانية».

سأله روتلج في ليلة أخرى: «هل ترغب في الذهاب إلى المدينة؟».

«لا، لا يا بني سنتورط في الشرب إن ذهبنا إلى المدينة».

«يمكننا أن نكتفي بكأس أو بكأسين. ليس من الضروري أن نسرف في الشرب».

«عليـك أن تعلـم أن الرجـل الأيرلنـدي لا يمكنـه الاكتفـاء بالأنصـاف، ولا يرضيـه سـوى أن يحصـل عـلى الخنزيـر كامـلا».

«هناك لوازم يجب إحضارها للبيت».

«اذهب أنت إلى المدينة يا بني إن كان لديك ما تفعله».

رفعت كيت رأسها عن كيِّ الثياب ونظرت إليه بتخوف.

«لماذا لا تتركين ما في يدك يا ابنتي لنتحدث بشكل جيد».

«أستطيع التحدث وأنا أكوي. أستمتع هكذا أكثر».

«لا يمكنـك الصفـير ومضـغ الطعـام في وقـت واحـد. هـل سـتتمكنين يومـا مـن جنـي المـال مـما ترسـمين؟».

«لا أظن ذلك يا باتريك».

«لماذا إذن ترسمين يا ابنتي؟».

«ذلك يجعل الأشياء التي أراها أكثر قربا مني».

«هل تقصدين أن لا أحد سيشتري لوحاتك لو عرضتها للبيع؟».

«هــذا جائــز. لــدي عمــة قضــت حياتهــا ترســم وتلــوّن وكانــت موهوبــة لكنهــا لم تبــع لوحــة واحــدة».

«لا بد أنه كان لديها من يغسل وينظف إذن».

«كان زوجها محاميا».

«أظن أنه لم يكن لديهما أطفال أيضا».

«كان لديهما طفلتان..».

«لا تخــبرني شــيئا عــن النــاس في هــذه الناحيــة مــن البــلاد. لقــد حرثــت حقولهــم وبنيــت بيوتهــم وخرجــت معهــم ونمــت في أسرّتهــم وجلســت إلى موائدهــم. إنهــم أغبيــاء وقــذرون كفضــلات الــكلاب. يريـدون كل شيء لأنفسـهم ولا يمنحونـك إلا القليـل، وكلـما تقدمـوا في السـن ازداد أولئـك الأغبيـاء طمعـا، بـدلا مـن أن يصبحـوا أكـثر رشـدا».

«هذه قسوة بالغة. هناك العديد من الناس المحترمين حولنا».

«هناك البعض منهم»، وافقه بتردد «لكنهم يخالفون المعتاد».

«ماذا عن ماري وجامسي؟».

«ماري هي الأفضل في هذا العالم»، تألّق وجهه وهو يتحدث «ليس هناك أروع من ماري. وجامسي كريم لن يتردد في إعطائك كسوة ظهره. مرة ذهبت لأستعير بغلهما فما كان من جامسي إلا أنّ فكه من مربطه خلال ثوانٍ وقدمه إليّ مقسما إنه لا يحتاج إليه في شيء».

سألته كيت «ماذا عنك أنت؟ أمورك ليست سيئة أيضا كما يبدو؟».

«آنَ لك أن تعرفيني جيدا. أنا لست في الحسبان. لست سوى نوع من المهرجين بين هذا الجمع. هل مكنتك تلك الرسومات التي رسمتها لي من الاقتراب من الوحش الذي بداخلي يا كيت؟».

«لديك وجه مثير للاهتمام. لكن نفسك، أنت تعرفها أكثر. لم أستطع الوصول إليها».

قال مدافعا عن نفسه وبسرور لم يتمكن من إخفائه: «ربما لأن نفسي لم تكن متاحة ليراها الجميع».

«لقد قدمت إلينا مساعدة كبيرة عندما قدمنا إلى هنا أول مرة»، قال له روتلج عندما كانا وحيدين يصفّان عوارض السقف.. فأجابه: «لا يا بني، كان ذلك أقل ما أفعله».

«عندما أعطيتك نقودا أول مرة قمت برميها في الهواء وكان علينا أن نبحث عنها بين الأشجار».

«لا أذكر يا بني. قمت بكثير من الأفعال التي أفضل نسيانها لكني لم آخذ مالا من جيراني أبدا».

«كنت هنا عندما جاء القس إلى البيت أول مرة».

«لا أذكر ذلك أيضا».

«اختبأت وقتها، وعندما رأيت سيارته تقترب من البيت طلبت مني أن أخرج لاستقباله وألّا أكون على عجلة من أمري».

«نعم، لقد بدأت أتذكر. أكمل يا بني».

«استقبلته وقدمت له الشاي. كانت كيت في المدينة. لم يكن يبحث عنك. جلسنا وتحدثنا عن الماشية والطقس والأرض، وبعد وقت طويل قال: لا بد أنك تتساءل ما الذي أتى بي إلى هنا؟ قلت له: لقد خطر ذلك ببالي، وأنا سعيد بوجودك هنا على أية حال. قال: لست هنا لأمر شخصي. المطران لونغفورد مهتم بأمرك جدا وبأسباب ابتعادك عن الكنيسة. يسألني بإلحاح عنك كلما أتى إلى هنا. سيأتي يوم الخميس من أجل طقوس تعميد، وأعلم أنّ من أول الأمور التي سيسألني عنها إن كنت قد التقيت بك. وأنا الآن أستطيع أن أخبره يوم الخميس القادم بثقة أني التقيت بك».

علق باتريك ريان: «إنه مستقيم وصريح. هو والمطران من طبيعتين مختلفتين، كالجبن والطباشير».

«لقد تناول الشاي دون حليب أو سكر ولم يشأ حتى أن يأخذ قطعة بسكويت».

«يفاجئني أنه تناول الشاي. لا بد أنه كان معكّر المزاج. عادة لا يتناول أيّ شيء في زياراته للبيوت. يعيش على الفواكه والخبز والماء، ورغم اهتمامه الشديد بالماشية فإنه لا يقرب اللحوم. أظن أن ذلك يفسر عدم وجود علة واحدة فيه».

«ما إن خرجنا من البيت حتى لمحك قرب المخزن واتجه نحوك على الفور». ضحك روتلج ثم تابع «وقبل أن يقترب منك بدأت

أنت بإخراج النقود من جيبك. كان يوما عاصفا فطارت قطعة من فئة خمسة الجنيهات وعلقت بين أوراق الشجيرات».

«كان عليّ أن أتوارى بعيدا عن الأنظار. لم أتوقع أن يخرج من البيت بسرعة. كان له في ذمتي ديون سنتين لم أدفع منها شيئا».

«بعد أن دفعتَ له ما في ذمتك رأى قطعة النقود العالقة بين الأغصان فتناولها وقال: مشيئة الله أن تكون هذه لي أيضا».

«له عينا صقر عندما يتعلق الأمر بالنقود. لديك ذاكرة قوية يا بني».

«في نفس اليوم أعطيتك نقودا فرميتها لتبعثرها الريح، وكان علينا أن نبحث عنها بين أغصان الشجر».

«لم تكن النقود تهمني أبدا».

رُفعت العوارض فوق الأعمدة الحديدية الأربعة، فكان عليهما أن يتنقّلا بين السلالم على سقالات. قُصت عوارض السقف وثُبتت في مواضعها قبل أن يباشرا بتفصيل العوارض المائلة وبدا عملهما متقنا ونظيفا. هبت نسمة منعشة من جهة البحيرة شعرا بها وهما فوق ألواح السقف الخشبية، وتناهى إليهما صوت حركة السير على الطريق متداخلا مع طنين الحشرات وغناء الطيور. بين فينة وأخرى كان أحد طيور أبي الحناء أو الصعوة يحط على عارضة في السقف وينظر إليهما كأنهما ليسا سوى زوج من الأغنام أو الأبقار ثم يطير عائدا إلى الأدغال. اعتادا مع مرور السنوات أن يعملا سوية دونما انتظام وغالبا في صمت لا يكسره سوى باتريك ريان متحدثا كعادته بطرافة وتهكم عن أناس عمل عندهم أو عرفهم.

يقطع فترات الهدوء هذه من حين إلى آخر هبات من الغضب تأتي وتذهب بسبب خطأ ما في تثبيت قطعة خشب وتستنفد قواهما في التعبير عن انفعالاتهما.

قال روتلج وهما منهمكان في العمل: «لا بد أن جوني قد أصبح الآن في البيت. قد يأتي لزيارتنا في أي وقت».

«أعلم يا بني. كان عليّ أن أذهب لزيارته لكني لا أطيق فكرة الذهاب إلى هناك رغم أننا كنا صديقين حميمين. ما جرى له أسوأ حكاية عرفتها هذه المنطقة من البلاد. لقد هاجر عندما كان يملك كل ما يريد عند موطئ قدميه».

ما إن بدأا بتثبيت العوارض الجانبية بالمسامير حتى أخذ الإطار الذي سيحدد السقف بالتشكل، كل عارضة تحدد مثلثات أو مربعات يحجب كل منها عن الأرض مساحة محددة من السماء تتخللها في المثلثات الخارجية أوراق وأغصان شجر الجميز والدردار.

«إلام تنظر يا بني؟».

«إلى العوارض كيف تؤطّر السماء، وكيف يبدو الضوء من خلال المربعات أكثر جاذبية من السماء المفتوحة! إنها تجعل السماء تبدو أكثر إنسانية باختزالها هكذا في قطعة صغيرة».

ضحك باتريك ريان بتعاطف «نعم طالما العوارض مثبتة إلى الأعمدة الحديدية فإنها قادرة على فعل كل ذلك.. في أيام مضت كانوا يحتجزون الناس لكلام أقل من هذا. لو تفوهت بكلام كهذا، لسارعوا إلى إخراسك كما لو كنت منبه ساعة قديمة».

قال روتلج وهو ينظر إلى بعض المزارعين الذين بدؤوا بجزّ العشب: «يمكنني أن أجزّ لك العشب هذه السنة يا باتريك عندما أجهز الآلة. سأجزّ لجامسي أيضا».

«لا، لا يا بني لقد عَرض عليّ ذلك عدةُ زبائن، لكن العشب لدي ليس ناميا بما يكفي، ولا مشكلة إن تركناه دون جزٍّ».

تداخل في فترات الصمت التي تتوقف فيها المطارق طنين الحشرات الرتيب مع زقزقة الطيور الصغيرة والأصوات الأكثر حدة للغربان والنوارس قرب الشاطئ. تناهى إلى سمعهما صوت سيارة تقترب فتوقفا على السلالم ينظران إليها وهي تشق طريقها عبر الأشجار والممرات.

قال باتريك ريان عندما رأى السيارة تنعطف في الطريق صاعدة من جهة البحيرة: «لطفك يا رب، كأن هذا المكان تحول إلى شارع أوكونيل». توقفت سيارة فوكسول خضراء عند نباتات «جار الماء» قرب البوابة، وترجل منها رجلان ضخمان في منتصف العمر. «متاعب»، قال باتريك ريان وهو ينزل عن السلم ويتجه مسرعا نحو الرجلين كأنه يحاول منعهما من الاقتراب أكثر. لم يصافح الرجلين ولم يتبادل معهما أي كلمة ترحيب أو عبارة مجاملة. ابتعد الرجال الثلاثة نحو الزقاق ثم اختفوا وراء حافته العالية. رتب روتلج ألواح الخشب وجمع بقايا العوارض في كومة لاستخدامها حطبا للتدفئة. اعتاد على زوار باتريك ريان وغالبا ما كان يراه يترك عدة الشغل ليغادر فجأة مع رجال أتوا بحثا عنه. للوهلة الأولى كان الأمر يثير انتباهه، لكنه تعود الآن ألّا يبالي، وفي كل الأحوال لم يعد هناك الكثير من العمل الذي يصعب تركه قبل إتمامه. عاد الرجال الثلاثة وظهروا من وراء حافة الزقاق. توجه الرجلان إلى السيارة الخضراء ومشى باتريك ريان ببطء نحو المخزن. لم يكن مزاجه رائقا ووقف يتأمل العوارض والألواح الخشبية بشرود غاضب.

«كلما عشت أكثر أكلت أكثر».

«ما المشكلة؟».

«كان علينا أن نطلي العوارض والألواح بالكريبوسوت[4]».

«لا يزال بوسعنا فعل ذلك الآن».

«كان من الأسهل لو قمنا بطلائها قبل رفعها من الأرض».

استمرا في العمل، وبدا باتريك ريان ممتعضا وشاردا وارتكب بعض الأخطاء، وهما يثبتان آخر الألواح الخشبية في مكانها. «من كان أولئك الرجال؟».

«زوجُ أوْغادٌ رسميون من تلك الحفرة الكريهة، مقاطعة دروم ريلي».

«هل هدداك؟».

«يمكن أن أخبرك بطريقة أخرى يا بني أنهما لم يقدما لي البرتقال».

أخرجا علب الكريبوسوت من المخزن وسكبا السائل الداكن في علبتين صغيرتين.

أحضر روتلج زوجا من القفازات المطاطية وقدمها إلى باتريك ريان.

«لا، ضع القفازات أنت. لا أحتاج إليها، جلدي سميك وقاس».

«إنها مادة خطرة. ألا تشم أبخرتها؟».

«طوال عمري أطلي بها دون أن أرتدي شيئا، ولن أغير من عادتي الآن».

بينما كانا على سلمين يطليان الألواح الخشبية خرجت كيت من المنزل في لباس مربّي النحل الأبيض بخوذتها وحجابها الواقي

(4) سائل زيتي يستحضر بتقطير القطران، ويستخدم لصيانة الخشب.

وقفازيها، تحمل مبخرة دخان نحاسية وأداة صفراء. ضغطت على منفاخ المبخرة المتقدة فانبعث منها دخان شاحب. «ما الذي تريد فعله؟».

«مع ملابس كهذه لا حاجة إلى السؤال».

سأل بحدة: «ما حاجتها إلى أدوات وملابس النحل؟».

«لا أدري. نستطيع سؤالها في طريق العودة».

سكب كمية من السائل الداكن فوق العوارض فسال وتغلغل بينها في كل الجهات تحت ضربات الفرشاة القوية، بينما انتفخ خده وهو يحرك فكيه ببطء كأنه يأكل لسانه وقد عاد إليه مزاجه التهكمي المشاكس. مكثت كيت فترة طويلة في البستان وعندما عادت بدت شعثاء، شعرها الأشقر يتطاير حول وجهها والدخان ينبعث من المبخرة النحاسية التي تحملها بطريقة غريبة. اعترضها باتريك ريان قبل أن تبتعد عنهما: «كيف النحل؟».

«النحل غاضب».

«هل كنت خائفة؟».

فوجئت بلهجة التهكم العدوانية في سؤاله. «لا، كان بإمكاني الدخول بين الخلايا لكن لم أجد فائدة من ذلك. كان النحل مهتاجا. لقد خفت». التمعت حبيبات العرق على جبينها عندما نظرت إليه وبدا جانب عنقها الأيسر محمرا حيث لُسعت من وراء الواقي.

«ما الذي جعل النحل عدوانيا في يوم جميل كهذا من أيام الطقس الأيرلندي؟».

«لم يرغب في وجودي قربه. لم تكن فكرة جيدة».

«ما الذي لم يكن فكرة جيدة؟».

«أن أقترب من الخلايا».

انتظرتْ ردا لكنه عاد إلى سكب الطلاء الداكن فوق ألواح الخشب، وعندما تسرب السائل إلى حيث تقف ابتعدت بسرعة دون أن تنطق بكلمة. تابع الرجلان طلاء الألواح بصمت، يسكبان الكريوسوت ثم يمسحان بفرشاتيهما ويحركان السلمين بين حين وآخر.

قال باتريك ريان وهو ينقل سلمه الثقيل بمحاذاة العارضة: «طلاء الكريوسوت هكذا على السلم عمل بطيء. سأذهب إلى البستان لأقضي حاجة».

قال له روتلج: «حاذر من النحل».

«لن يؤذيني النحل. جلدي سميك».

«ومع ذلك خذ حذرك».

«لا، لا يا بني. النحل لن يؤذيني».

دخل إلى البستان وقبعته تتأرجح على رأسه من الخلف إلى الأمام، يمشي بقامته الطويلة، قويا يشف قميصه الأبيض المتسخ عن كتفين عريضين وظهر منتصب. تابع روتلج الطلاء. متعة غير واعية في دَهْنِ السائل الداكن بالفرشاة استغرق فيها في حرارة الطقس والنسائم الرطبة التي هبت من صوب البحيرة. تناهى من البعيد صوت حفارة آلية تهوي ثم ترتفع وتعود لتهوي من جديد. وسط شروده في هذا الإيقاع الرتيب أحس روتلج بعودة باتريك ريان كأنه عَصْفُ ريح مفاجئ في يوم قائظ على حقل جُزّ عشبه للتوّ تطايرت معه الحشائش الجافة والأوراق في زوبعة من الغبار تدور وترتفع بصخب وعنف ثم تتلاشى لتظهر كالسراب في جهة أخرى من الحقل.

ظهر راكضا وهو يمسك بنطاله بيد ويضرب الهواء بقبعته في اليد الأخرى بعنف وتوتر، محاولا إبعاد النحل الذي يطارده وهو يدور حول نفسه ويلوح بقبعته يمينا ويسارا من دون جدوى. ضرب الهواء بقبعته في حركات قوسيّة أقصر حول رأسه، وهو يستدير ليركض، يكاد يسقط في كل خطوة متعثرا ببنطاله الذي تكوم حول قدميه. توقف أخيرا عند السلم واستدار وهو يحاول بقبعته طرد النحل الذي كان ينقض عليه كطائرات قاذفة. لم يكن بوسع روتلج فعل أي شيء، فقد كان عليه هو أيضا أن يطرد بعض النحل الذي هاجمه وهو في أعلى السلم. كان باتريك ريان متكوما على الأرض عندما تراجع هجوم النحل تدريجيا. صرخ بعد أن التقط أنفاسه: «اللعنة على هذا النحل العاهر». سمع أزيزا من شعره فأخذ يضرب ويفرك رأسه بالقبعة حتى أتى روتلج وساعده في التخلص مما علق في بنطاله وتحت قميصه. اقتحم النحل كل شيء حتى حذاءه. سأله بغضب: «لماذا لم تقتل هذا النحل اللعين؟».

«لا داعي لذلك».

«لا، عليك أن تقتل كل النحل. يجب عدم تركه يقترب من أيّ بيت. كنت جالسا هناك وقد أنزلت بنطالي عندما هاجمني كغيمة قذرة».

«هل تتألم كثيرا؟».

«لن أبدل ألمي بمكان في الجنة يا بني. سيزول الألم مع الوقت. كل شيء يزول إن استطعت الانتظار وقتا كافيا».

«لدينا دواء في المنزل».

«لن يفيد ذلك في شيء. الأفضل أن نتجاهل الأمر. سيزول كل شيء بمفرده».

«فلنمض إلى البيت لنستريح». «أنا بحاجة إلى بعض الماء».

كان الجـو في البيـت بـاردا والإضـاءة الخافتـة تبعـث شـعورا بالراحـة. لم تفلـح محـاولات كيـت في إقنـاع باتريـك ريـان بالسـماح لهـا بمعالجـة لسـعات النحـل. «لـن يجـدي أيّ شيء مـع اللسـعات. لا تبـالي بهـا وعالجـي زوجـك إن أردت». «لسـعاتي القليلـة لا تسـتحق الاهتـمام». «أعطينـي كأسـا جيـدة مـن الـشراب بـدلا مـن ذلـك». قدمـت لـه قدحـا كبـيرا مـن دون مـاء أو ليمـون كـما أراد. «نعـم، هـذا مورفـين الرجـل الأيرلنـدي. فليجمعنـا في السـماء سـوية. أمّـا مـن نديـم يشـاركني إذن؟». ثـم رفـع كأسـه في تحيـة. «الجـو حـار وأنـا لا أشـعر بـالألم»، قـال روتلـج، ثـم سـكب كأسـا صغـيرة لنفسـه عـلى سـبيل المجاملـة وأضـاف إليهـا الكثـير مـن المـاء بينـما أعـدت كيـت لنفسـها فنجانـا مـن الشـاي.

دفعـه الألم ليتحـرك ويـدور في مكانـه، لكـن مزاجـه التهكمـيّ عـاد إليـه تدريجيـا.

«هاجمنـي النحـل كغيمـة سـوداء وكان ضجيجـه أسـوأ مـن الظـلام. أينـما ذهبـت تبعنـي وأحـاط بوجهـي دون أن أسـتطيع إبعـاده». «آسـفة، كان علـيّ تحذيـرك. لم أر النحـل في مثـل هـذا الهيـاج مـن قبـل. حتـى أنـا مـع كل مـا لـدي مـن معـدات لم أسـتطع التعامـل معـه».

«ليس خطأك يا كيت. لقد حذرني زوجك لكنني لم أبال».

تحـرك وتململ كثـيرا عـلى كرسـيه وهـو يتكلـم كأنـه يحـاول تخفيـف ألمـه بالـكلام. شرب بسرعـة ولم ينتبـه إلى كيـت عندمـا أعـادت مـلء كأسـه. تكلـم عـن حادثـة وقعـت أثنـاء جـزّ العشـب في أحـد الحقـول. رجـل عجـوز كان يجـزّ العشـب عـلى حصـان صغـير عندمـا قطعـت شـفرة القـص خليـة نحـل بـريّ أحمـر.

ذُعـر الحصـان، ويقـال إن النحـل الـبريّ يسـتطيع أن يشـم رائحـة الخـوف. هجـم النحـل عـلى الحصـان المسـكين الـذي جمـح وأخـذ يقفـز ليُسـقط الرجـل وينجـو. خـلال وقـت قصـير مـزّق الحصـان لجامـه مـن شـدة الألم ثـم هـوى عـلى الأرض جثـة هامـدة. لم يـرَ باتريـك ريـان الحصـان والرجـل في حياتـه ولم تطـأ قدمـاه ذلـك الحقـل، لكنـه الآن يسـتطيع تخيـل الرجـل والحصـان الصغـير مـع آلـة الجـزّ والأشـجار المحيطـة بذلـك المـرج كأنـه يـرى حقيقـة ماثلـة أمـام عينيـه.

قالت كيت: «الماضي والحاضر سيان في العقل. كلاهما صور».

سألها روتلج: «هل أنت متأكدة أنك لم تشربي شيئا يا كيت؟».

أجابته وهي تغمز بعينها: «لا بد أنه الأسبيرين والمرهم الأزرق».

لم ينتبـه باتريـك ريـان في شروده إلى مـا قيـل. «كان هنـاك نحـل أسـود ونحـل أحمـر. كنـا نبحـث عـن الخلايـا في المـروج لنسـتخلص العسـل منهـا. النحـل الأحمـر كان أكـثر شراسـة. لقـد أزيلـت كل الخلايـا مـن المـروج».

نهـض بحـذر شـديد وهـو يقـول: «لـو أخذنـا المزيـد مـن ذلـك المسـكّن لسـقطنا مـن أعـلى السـلم. فلنعُـد إلى العمـل باسـم الـرب».

في الخـارج كان النحـل لا يـزال يطـير قريبـا، لكنـه لم يعـد يهاجـم. عـاد باتريـك إلى العمـل وهـو يقـف عـلى السـلم ناقـلا وزنـه مـن سـاق إلى أخـرى، لكنـه لم يشْـكُ واسـتمر في سرد النـكات والحكايـات كأن الـكلام يخفـف مـن آلامـه، وفي فـترات الصمـت يصفـر أو يدنـدن ترنيـمات أو لعنـات لا معنـى لهـا.

«إنهـا لا شيء. سـاعة أخـرى وتـزول كأنهـا لم تكـن. كل شيء سـيزول ويُنسى».

سعال حاد وصوت وقع أقدام على الحصى لفتا نظرهما إلى رجل يجرّ نحو المنزل دراجة نسائية ثبّت إلى مقودها سلة وغطى مقعدها نسيج صوفي. كان الرجل يحني رأسه كحيوان أو كمهرج وينقّل حذاءه فوق الحصى بحركات مبالغ فيها تثير الضحك. يرتدي بزّة صوفية زرقاء وربطة عنق حمراء تدلت إلى أسفل وقد حشا كمَّيّ بنطاله في جوربيه ومشّط شعره الرمادي الذي بدا داكنا بفعل الزيت. تقدم الرجل بخطوات ازدادت كوميدية وبُطْئا كلما اقترب أكثر، حتى بدا في لحظة كأنه حيوان يخبط في أرض مجهولة. صاح باتريك ريان: «عاد جوني. جوني عاد من إنجلترا». استقام جوني بقامته عندما وصل تحت القوائم الحديدية ودفع بالدراجة فابتعدت بعجلاتها على غير هدى قبل أن تسقط قرب إحدى القوائم ثم ضرب الأرض بقدمه وأدى تحية عسكرية صائحا: «أنا تحت أمركم».

نسي باتريك ريان آلام لسع النحل وهو يهبط من السلم ليركض نحو صديقه القديم. «جوني، كما أنت لا يفوتك شيء. أهلا بالرفيق».

ضربا أكفهما عاليا متصافحين كرياضيين يحتفلان بالفوز ثم وقفا كأنهما يستعدان لمنازلة.

«اللعنة عليهم جميعا»، بدأ جوني يغني فتابع معه باتريك ريان «عدا إيلين» ثم شرعا يرقصان وهما يدوران وأكفهما متصافحة عاليا. «وهي وهي وهي»، تابعا الغناء وهما يدوران راقصين. «وهي في القلعة» ثم توقفا لاهثين وتعانقا.

«أهلا بعودتك. أهلا بعودتك من إنجلترا».

«رائع أن أعود وسعيد برؤيتك».

صافحه روتلج مرحبا: «أهلا بعودتك يا جوني».

«رائع، رائع أن أراك. هل زوجتك بخير؟».

«ستسر برؤيتك».

قال باتريك: «علمت بقدومك البارحة فقط».

«كان كل شيء مرتبا»، أجابه جوني. «كان جامسي في انتظارنا في محطة القطار. عدنا بسيارة جوني رولي وتوقفنا كالعادة في طريقنا إلى هنا في عدة حانات، وعندما وصلنا إلى البيت كانت ماري قد بدأت بتحضير وجبة اللحم.. كانت ناضجة ولذيذة كالزبدة. غطّ جامسي في النوم بينما كنا نأكل وأحرق جبهته لكن ماري كالعادة اعتنت به. أجل، كان كل شيء مرتبا ولا يمكن أن يكون أفضل من ذلك. لقد استعرت دراجة ماري لآتي بها إلى هنا وأراكم. كم أنا سعيد برؤيتكم جميعا بخير».

«أما تزال في شركة فورد في دانغيهام؟».

«ما زلت في حمام مطعم فورد؛ أقوم بأعمال تنظيف دورات المياه. لا يمكنك القول إنه عمل بمعنى الكلمة».

«لكنه أفضل من عملك السابق على خط الإنتاج».

«نعم، لم أرَ الخير من عملي هناك» أشار إلى أذنه اليسرى موحيا بجهاز تقوية السمع. «هكذا انتقلت إلى العمل في المطعم».

«لقد ارتكبت خطيئة عمرك عندما رحلت من هنا. كنت هنا في الفردوس دون أن تدري، لكنك تركت كل شيء وراءك ومضيت بعيدا».

«ربما أكون قد أخطأت. لكن ذلك حدث وانتهى».

قال روتلج محاولا تخفيف الحرج: «باتريك لا يرحم أحدا منا».

«أنا أقول الحقيقة ولا أنتظر معروفا».

«الحقيقة ليست دائما مفيدة».

«أخبرني إذن، ما المفيد؟».

«الرأفة.. التفهم.. التعاطف..».

«سأخبر كيت أن جوني هنا. لا بد أنها تريد تحضير بعض الأشياء».

«قل لها ألّا تُتعب نفسها. لقد أتيت لأطمئنّ عن أحوالكم فقط».

قال باتريك ريان باقتضاب: «حسنا اذهب، لكن قل لها إن لديها وقتا كافيا قبل أن ندخل».

قال جوني بعد أن ذهب روتلج: «أرى أنهما لا يزالان هنا؟!».

«نعم، بقدر ما تتيح لهما الحياة».

«لم أتوقع أبدا أن يستمرا هنا. في كل زيارة لي كنت أتوقع أن أراهما قد رحلا».

«إنهما يتوسعان»، أشار باتريك ريان ساخرا إلى الأعمدة الحديدية وما يسقفها من عوارض وألواح ثم تابع: «أعتقد أن علينا أن نقتنع أنهما سيبقيان هنا مثلنا جميعا، إلى أن يحين موعد قدوم سيارة دفن الموتى. وهما يشتريان مزيدا من الأراضي، كأنهما لا يملكان ما يكفي!».

«سمعت عن ذلك. لكن هل يطوران ما يشتريان من الأراضي؟».

«سيتدبران الأمر. أنت تعلم جيدا أنه عليك أن تولد في الأرض، لكنّ أخاك ساعدهما كثيرا في البداية كي لا يغرق بهما المركب. كل ما في هذا المنزل له مكانة ملكية. لديهم قط أسود بمخالب بيضاء تخال أنه سينتصب على قائمتين ليطلب الإفطار! طبعا ليس من المسموح الاقتراب منه أو توجيه ركلة إليه. أما الماشية فتعود إلى

حظائرها خلف المنزل وتصرخ احتجاجا كأنها مجموعة من نشطاء النقابات، إن لم تجد العشب في حالة تلبي معاييرها! لقد قاما ببذر المروج واشتريا خروفا ليرعى العشب فيها. تخيّل، إنهما الآن يحبان ذلك الخروف! هل هناك كائن أكثر غباء منه على وجه البسيطة التي خلقها الله. ولديهما أيضا بقرة حلوب تكاد تجلس بعد حلبها على كرسي مريح وتضع نظارات لتقرأ صحيفة الأوبزيرفر. لقد كاد النحل أن يأكل مؤخرتي قبل ساعة. وزوجته ترسم.. ترسم كل ما تقع عيناها عليه، حتى أنا رسمتني».

«وكيف كان الرسم؟».

«لن تقبل حتى أن تعلقه على جدار. ولن تتعرف عليّ إن كنت رجلا أو وحشا».

«أغلب الظن أنها هي من يرتدي سروال الفارس في البيت وأن الكلمة لها. في إنجلترا النساء هنّ من يرتدين سروال الفارس والرجال عادة أكثر ضعفا من أن يعترضوا».

«دعني أقل لك. كلهنّ هناك يرتدين سروال الفارس -إن سُمح لهنّ- وقد رأيت ذلك بنفسي في كل البيوت، لكنّ هذين الزوجين هنا مختلفان. إنهما لا يختلفان مع بعضهما إطلاقا، ويجعلانك تشعر في بعض الأحيان أنهما ليسا رجلا وامرأة».

«من الغريب أن تفكر بكل أولئك الرجال والنساء الذين هاجروا إلى إنجلترا وأمريكا وأقاصي الأرض الأخرى بينما ترى هذين الزوجين يعودان في الاتجاه المعاكس إلى هنا».

«كان على الناس أن يهاجروا. لم يكن من خيار آخر أمامهم. أنت هاجرت ولم تكن بحاجة إلى ذلك».

«أعلم.. أعلم.. أعلم..».

«كنت ستكون الآن غنيا لو لم تهاجر».

«بوسعنا جميعا أن نكون أغنياء لو علمنا ماذا تخبئ لنا الأيام».

«كان جميع من حولك يعلم، إلّا أنت فقط لم تكن ترى».

«لا أهمية لمن حولي.. أعتقد أنه من الأفضل أن ندخل إلى البيت باسم الرب».

«انتظر لحظة»، قال باتريك ريان وأخذ يجمع عدة الشغل في حاوية بنّيّة، مقياس مستوى زئبقي وشريط قياس معدني ومطرقة ومنشار وعدة أزاميل.

«هناك أمر آخر دفعهما إلى القدوم إلى هنا، الهدوء. الهدوء.. هل بإمكانك بحق السماء أن تصغي قليلا إلى هذا الهدوء اللعين، ألا يصيبك بالجنون؟!».

وقف الرجلان جامدين في وضعية كوميدية كتمثالين في مكان عام كأنهما استحضرا ذاكرة بعيدة من الأداء المسرحي، كل منهما يجمع كفه حول أذنه كأنه يصغي. في تلك اللحظات الساكنة تناهت إليهما أصوات الطيور تصدح بانفعال باد وتعالى طنين النحل وهو يتنقل بين نباتات البرسيم البيضاء والحمراء.

تناهى خوار البقر من جهة شاطئ البحيرة وأصوات السيارات والشاحنات العابرة على الطريق، ومن مكان أبعد تناهت أصوات ميكانيكية أكثر خشونة لحفارات وآلات ثقيلة تحفر أساسات بيت ما أو تفتح ممرا ما بين الأحراج. وبالسرعة والتلقائية ذاتها التي تقمصا فيها هيئتي تمثالين يصغيان إلى الأصوات حولهما انتقلا إلى الرقص متحررين من سكونهما. رقصا مبتهجين وصفقا رافعين أيديهما وهما يدوران حول الأعمدة الحديدية بصخب حتى كادت أنفاسهما تتقطع.

بدا جوني مُمْتَقَعَ الوجه يتصبب عرقا لكنه في مزاج مرح للغاية. قال وهو يضحك ويحاول التقاط أنفاسه بصعوبة: «الأفضل أن نذهب إلى البيت قبل أن نتسبب بمزيد من المتاعب». أجابه باتريك ريان: «لو بقينا هنا وقتا أطول فسيظنون أننا نتحدث عنهم».

دخل الرجلان البيت بصخب. بادرت كيت بالترحيب «أهلا بك يا جوني». «سعيد بوجودي معكم يا كيت». أتت كيت بكمية من الشطائر الملفوفة بفوطة رطبة في طبق أصفر كبير. وضعت الشطائر على كرسي بين الرجلين، بينما سكب روتلج الروم من زجاجة في كأس وأضاف إليه عصير التوت البري المركز.

قال جوني وهو يأخذ الكأس: «روم وتوت بري! ما كان عليك أن تتكلف كل هذا. كأس من البربون كان يكفي».

«الزجاجة تنتظرك من عام إلى آخر. لا أحد يشرب الروم هنا عدا اثنين أو ثلاثة أشخاص فقط في عيد الميلاد».

«ما إن أدخل حانة أمير ويلز حتى تكون كأس شراب الروم جاهزة من أجلي على البار، وقبل أن يتمكن الزبائن المداومون من رفع كؤوسهم».

سأله باتريك: «لا أدري من أين أتيت بهذه الذائقة؟! كنت تشرب الروم حتى قبل رحيلك من هنا».

ملأ روتلج كأسا كبيرة من شراب كحولي، من إبريق بني وأضاف إليها الماء وقدمها إلى باتريك. أومأ إلى كيت سائلا إن كانت تريد فأجابته مومئة بالنفي. ملأ كأسا وانضم ليشرب مع الرجلين.

«بصحتكم».

«وليأتنا الغد بالمزيد بمشيئة الرب كما يقول جامسي».

«حظا طيبا وبصحتكم».

قال باتريك ضاحكا: «رباه! يا بني لا ترفع الأنخاب هنا وإلا طردونا، كما قال بيي ماكواير لابن حميه الإنجليزي، عندما دعاه إلى أول كأس من البيرة في الحانة».

لاحظت كيت أن أحدا من الرجلين لم يأكل من الشطائر، فحملت الطبق وقدمته لهما.

«هذه الشطائر رائعة يا كيت».

«أهلا وسهلا بك يا جوني».

قال باتريك ريان: «كان جوني هذا أفضل رام عرفته هذه المنطقة من البلاد. عندما كانت البنادق تخطئ يمينًا ويسارا في التصويب كان هو يكتفي برفع بندقيته ليهوي الطائر من السماء كحجر».

«لم أعد قادرا هذه الأيام على إصابة جدار منزل. قبل عدة سنوات أخذت في أحد أيام الصيف بندقية جامسي وجربت أن أصوب على الغربان. لم أحقق إصابة واحدة».

«ستستعيد قدرتك بالتدريب».

«أشك في ذلك. لقد انتهى الأمر. باتريك كان الأفضل في هذه المنطقة. كان نجما».

رد باتريك دون أن يتمكن من إخفاء سروره: «أنا لا شيء دون الآخرين. نحن الاثنان كنا الأفضل. كنا نكمل بعضنا وكثير من الناس لم يكونوا قادرين على التفريق بيننا».

«في بطولة آثلون كان باتريك في الصدارة عندما فزنا. صحيح أن اسمي ذكر في بعض الأخبار، لكنني في الحقيقة لم أفز بشيء».

«ليس مهمّا من فاز. لقد فزنا جميعا بالبطولة ومضى أسبوع كامل قبل أن نصحو من سكرة انتصارنا».

أشاع الكحول وشراب الروم في الرجلين، دفئا وعواطف توقدت بذكريات أيامهما الخوالي.

سأل باتريك ريان جوني باقتضاب: «كيف أحوال إنجلترا؟».

«إنجلترا لا تتغير كثيرا. لديهم هناك أسلوب ثابت في الحياة وكل شيء منظم بدقّة».

«ليس كالحال هنا في هذا البلد اللعين، حيث لا يعرف الرجل الأيرلندي ماذا سيفعل غدا».

«لكل إنسان أسلوبه الخاص، إلا أن الإنجليز في أحيان كثيرة يكونون منظمين أكثر مما ينبغي».

«لا خوف علينا من ذلك، فليس لدينا هنا تقاليد أو أساليب حياة راسخة».

قالت كيت معترضة: «بعض الناس هنا لديهم أساليب رائعة».

أجابها باتريك ريان موافقا على مضض: «ربما لدى القلة من البعض. لكن ما من تقاليد. كل يجرب وحده كسفينة تمضي حسب اتجاه الريح».

سأل روتلج: «أما زلت تعيش في المنزل نفسه؟».

«في المنزل نفسه في شارع إدوارد». غرفة في الطابق العلوي، صعود الدرج إليها يقطع الأنفاس أحيانا لكنها أفضل من أن يعيش أحد ما فوقك. مرة سكنت غرفة في فايرلوب تحت رجل بولندي. رحمتك يا رب، تحسبه في عراك دائم، حتى في منتصف الليل تشعر بالضجيج، فوق تحت.. فوق تحت.. غرفتي في شارع إدوارد واسعة بنافذة كبيرة أستطيع أن أرى منها الأضواء في قصر أمير ويلز».

فجأة كأنه يرى غرفة جوني للمرة الأولى وينظر عبر نافذتها الكبيرة إلى حانة الأمير ويلز وشارع إدوارد استسلم باتريك ريان

لذلك الفضول الذي يُلمّ به حيال الغرباء وبدأ يسأل عن الغرفة والبناء ومن يعيش فيَ الغرف الأخرى.

قال جوني: «أنا متأكد أني أخبرتكم كل شيء من قبل عن الغرفة، فأنا أعيش فيها منذ خمس سنوات».

«لا، نريد المزيد، فلا شيء جديد في هذا العالم وكلنا ننسى. نريد أن نسمع مرة أخرى».

في غرفته طاولة وكرسي عالي المسند وسرير ومقعد مريح للقراءة أو للاستماع للراديو وموقد غاز صغير. على الرف فوق الموقد اعتاد أن يحتفظ دائما بكمية من قطع النقود المعدنية من أجل عداد الغاز والكهرباء في الطابق الأرضي. هناك موقد للطبخ ومغسلة في زاوية وراء الباب، ولم يكن لديه جهاز تلفزيون، فقد كان يشاهد ما يريد في مطعم عمله أو في محل الرهانات وحانة أمير ويلز في عطلة نهاية الأسبوع.

«سيد سينغ مالك البيت هندي يقود سيارة مرسيدس ولديه العديد من البيوت». كل الهنود الأغنياء لديهم سيارات مرسيدس. يأتي كل ليلة خميس ليجمع الإيجارات، وإن كان لديك عطل ما في الكهرباء أو الغاز فما عليك إلا أن تخبره ليرتب أمر إصلاحه على الفور. الهنود أناس دقيقون للغاية. سينغ لا يشرب، ومعظم الهنود لا يشربون، فالكحول ممنوع في ديانتهم. كل سكان الغرف أيرلنديون عدا اثنين من اسكوتلندا وويلز. اثنان من الأيرلنديين من جنود الحراسة. لا يؤجر سينغ سوى العازبين، لا يؤجر متزوجين أو نساء أو ملوّنين».

«لَكن سيد سينغ نفسه يعتبر ملونا»، علقت كيت.

«الأمر سيان يا كيت، فهذه أعمال ومصالح. قال لي سينغ مرة: حتى أنتم في أيرلندا لا تخلطون طيور أبي الحناء والشحرور مع

بعضها. كان هناك مستأجر إنجليزي أقام فترة من الزمن لكنه وقع في مشكلات مع الجنود، من الحراس الأيرلنديين. هؤلاء لا ينامون إلا في البيت، يعملون كثيرا في المطارات وفي الأنفاق، وعندما ينتهون من العمل يذهبون مباشرة إلى الحانة حتى دون أن يغيروا ملابسهم. يعملون في أيام العطلة أيضا ويكسبون مالا كثيرا. المتزوجون منهم فقط حريصون لأن عليهم إرسال المال لعائلاتهم، أما البقية فكانوا يعيشون على هواهم. غالبا ما يتعرضون للمتاعب وقد سمعت أن اثنين منهما قُتلا. الكثير من الناس يشتكون منهم، لكني بصراحة لم أجد فيهم ما يعيب. لقد كانوا يعطونني من مالهم لأدفع الأجرة لسيد سينغ ليلة الخميس. إنهم رجال أقوياء».

علق باتريك ريان: «لا أعتقد أنهم من مسببي المتاعب».

«العمل في مطعم شركة فورد سهل. تنظيف الطاولات والأرضية والحمامات وأخذ المراهنات إلى المحل المختص بها».

«وكيف سَمْعُك؟».

«غالبا ما أسمع أكثر مما أريد».

«في كل الأحوال ذلك أفضل من الوقوف في الطوابير اللعينة».

«الضجيج فظيع على خط الإنتاج، لكنك تعتاد على ذلك لأن الوقت يمر بسرعة وتكون مشغولا لا وقت لديك لتفكر. أما في المطعم فالوقت يمر بطيئا، ومع ذلك فأنا محظوظ لوجودي فيه».

قال باتريك ريان: «أعتقد أنه من الصعب تمضية الوقت في الليل».

«لا بأس بذلك إن استطعت تنظيم وقتك. أنا عادة آخذ غفوة قصيرة ثم أغتسل وأحلق ذقني وأبدّل ملابسي، وهذا ما كنت أعيبه على أولئك الرجال الأيرلنديين الذين كانوا لا يخلعون ملابسهم إلا

عند النوم. عندما يلعب فريق رمي الأسهم أصل إلى حانة الأمير مبكرا، دائما هناك مواصلات، وإن لم يكن هناك مباراة أذهب في التاسعة. كلهم يعرفونني في الحانة. في أيام السبت والأحد أنام حتى وقت متأخر وأشترك في بعض المراهنات بعد قراءة البريد. أحرص يوم الأحد على حضور قداس المساء في الكنيسة. الأب راين هو القس هناك، وهو من درومشامبو. أنتظره بعد القداس، وإن لم يكن مشغولا نتحدث طويلا عن الوطن، ونضحك من الطرفة التي تقول إنه لا مفرّ من رياح درومشامبو مهما ابتعدت عنها».

قال باتريك ريان بتأثر: «أعرف والد ووالدة الأب راين الطيبين».

«في تلك الأيام لم يكن القساوسة يأتون سوى من العائلات الغنية. لم يكن آل راين أغنياء، لكنهم كانوا يعملون بجد في كل ساعة منحها الله لهم، واعتقد الوالدان أنهما دخلا الجنة عندما سُمي ولدهما قسيسا». «لم يكن ابنهما متدينا. كنت أحادثه كل يوم أحد تقريبا. لكن القساوسة في إنجلترا اجتماعيون وودودون عموما، علاقتهم مع الرب ليست متشددة، كما هو حال نظرائهم هنا».

تدخل روتلج: «الأب كونروي ليس كذلك».

قال باتريك ريان: «الأب كونروي بسيط. كان القساوسة يسيطرون على البلاد بالدين. أمر جيد أنهم بدؤوا الآن يخففون من تزمتهم».

«في عيد الميلاد أسافر بالقطار إلى جوسي كونور في مدينة بيرمنغهام. آخذ معي ديكا روميا وبعضا من زجاجات شراب الباورس. آن وجوسي في منتهى الروعة، دائما أتلقى منهما دعوة مبكرة قبل عيد الميلاد، أقضي معهما وقتا ممتعا ونتحدث عن كل

ما جرى حول البحيرة. العيد في شارع إدوار موحش، تغلق حانة الأمير طوال النهار ولا ترى سوى بعض الناس يحملون الهدايا في الشارع المقفر».

قال باتريك بانفعال وقد بدأ الكحول يفعل فعله: «كل آل كونور محترمون وكرماء، وحتى لو كانوا في أكثر حالات الفاقة فإنهم يعطونك كل ما لديهم».

حط عصفور على الفراولة البرية عند السور وأخذ ينقرها فتململت القطة السوداء النائمة على حافة النافذة وقد أثارتها حركة الطيور الصغيرة التي كانت تتقافز كدمى آلية بين السرخس والأعشاب.

قال روتلج متهكما: «يا لها من قطة عظيمة. تريد أن تحصل على العصفور مع شوكة وسكين!».

ردت كيت: «أجمل ما في الفراولة البرية أنها تجذب هذا العصفور. رائع أن يكون لدينا قطة كهذه».

علق جوني: «أنا أوافق كيت. كنت في الماضي أطلق النار على أي عصفور تقع عيناي عليه. أما الآن فأنا أفضل أن أتمتع بمشهد تحليق الطيور».

قال باتريك ريان: «لا، أنا أفضل اصطيادها».

سأل جوني: «كيف أحوال بيل إيفانس هذه الأيام؟».

«مدهش كالحياة. لا يزال يذهب إلى البحيرة لملء دلوي الماء».

«هذا رجل يظن أنه ضمن مكانا في الجنة».

قال باتريك ريان وهو يأخذ سيجارة من جوني ويشعلها من عود ثقاب: «لقد تحسنت حياة بيل بعد موت معلمه باكي. لا يمكن القول إنه يعيش في فردوس الآن، لكن أموره أفضل بكثير».

أضاء عود الثقاب وجه باتريك عندما اقترب من لهبه ليشعل سيجارته فبدا للحظة كوجه طفل يستعيد مع صديقه دفء عالم كان في يوم ما لهما.

لم تستمر لحظة الصفو تلك، فما إن سحب باتريك ريان آخر نفس من سيجارته حتى أعطى عقبها فجأة لروتلج: «خذ، ألق هذه في الخارج يا بني». تجمد روتلج في مكانه دون حَراك أو كلمة، وشُحن الجو بالتوتر والصمت فترددت أصوات الصيف التي كانت إلى لحظات مضت غير مسموعة، وعلا فجأة صوت تخبّط ذبابة سوداء كبيرة على زجاج النافذة من جهة السور حيث كان العصفور ينقر الفراولة قبل أن يطير.

نهض روتلج ببطء ثم انحنى وقال: «في خدمتك يا سيدي». أخذ عقب السيجارة المشتعل واتجه نحو المدفأة المطفأة ثم فتح بابها وألقى بها فيها. اعتاد على طلباته الغريبة، ورآه أكثر من مرة يدفع زبائنه المحتاجين لمهاراته لحمل أغراضه ومعطفه كخدم مطيعين. «تنفع أن تكون ممثلا جيدا يا بني»، قال باتريك بحرج بينما كان روتلج يغلق باب المدفأة. ساد الصمت في الغرفة. قالت كيت «كان عليّ أن أضع منْفَضة سجائر».

كان جوني قد أطفأ سيجارته وأخفى عقبها في جيبه. وضع كأسه على الطاولة ونهض قائلا: «شكرا على كل شيء. سررت برؤيتكم جميعا بعد سنة أخرى».

أجاب روتلج وكيت: «شكرا لزيارتك. رائع أن نراك مرة أخرى».

كان باتريك لا يزال تحت وطأة غضبه من المشاكسة التي لم ترضه: «سأذهب الآن وقد لا أعود قبل وقت طويل. سيكون لديك وقت كاف لطلاء ألواح الخشب حتى لا يصيبها المطر».

«كل شيء سيكون بخير».

«ما الذي سيكون بخير؟».

«كل شيء. الطلاء وكل شيء».

«لن يكون كل شيء بخير. لكن يجب أن تتدبر الأمر».

«هل فكرت بالعودة إلى هنا بشكل دائم عندما تتقاعد من فور؟». سألت كيت جوني وهي ترافقهما مع روتلج إلى البوابة.

«لا أدري يا كيت. لقد اعتدت على إنجلترا، وعندما ترتبين تفاصيل حياتك يجب أن تمضي معها».

علق باتريك: «لم يعد بمقدوره العودة. لم يعد يعرف أحدا هنا الآن».

«لا تنس أن تبلغ ماري وجامسي تحياتنا».

رد جوني بتهذيب ولكْنة إنجليزية واضحة: «سأفعل ذلك».

«أظن أن لديك زيارات كثيرة تقوم بها».

«لا يا كيت. ليست كثيرة وتقل من سنة إلى أخرى. يسعدني كثيرا أن أراكم بخير».

حمل باتريك ريان صندوق العدة ودفع جوني الدراجة النسائية وسارا في الطريق المنحدر صوب شاطئ البحيرة يتكلمان ويضحكان.

ما إن انتهت عملية طلاء الألواح الخشبية حتى انتصب إطار السقف هيكلا داكنا بشعا فوق الأعمدة الحديدية. مرت كيت بجانب السلم بينما كان روتلج يرتب المكان في طريقها لتطمئن على خلايا النحل بعد فوضى اليوم السابق. في يوم الأحد عبرت سيارة المرسيدس قرب شاطئ البحيرة وفيها صندوق كبير من الشوكولا لكيت وعلبة معدنية صغيرة بمقبضين. كانت العلبة بلون العشب والطين وبدت كأنها من مخلفات الجيش. قال الشاه وهو

يترجل من مقعد السيارة الأمامي: «أرى أن الكاتدرائية قد بدأت تنهض!».

«يبدو أنها ستبقى هكذا حتى وقت طويل. لقد ذهب مرة أخرى ولا يعلم سوى الله متى سنراه».

«لقد قلت لك منذ زمن طويل يجب أن تطرده».

قالت كيت: «أنا أؤيد هذا».

أعطاها الشاه صندوق الشوكولا فشكرته «هذا كثير جدا».

«كفاك الآن. لا، ليس كثيرا على الإطلاق».

سأل روتلج: «ماذا في هذه العلبة الغريبة؟».

قال الشاه وهو يضع العلبة المعدنية الصغيرة على الطاولة: «أنا ذاهب في إجازة عطلة قصيرة وأريد أن أترك هذه عندكم». لم يذهب من قبل في إجازات عدا مرة واحدة منذ سنوات عديدة إلى بحيرة لوغ ديرك، ولا يزال حتى الآن يشكو بين حين وآخر مما قاساه في رحلته تلك. البرد والمطر وقلة النوم والحجارة الحادة والجوع. «إن كان الجحيم شبيها بذلك فأنا أفضل الأصل». أما يوما الأحد الحاران اللذان يذهب فيهما كل سنة بسيارته إلى البحر على شاطئ بوندوران ليتخبط بين الأمواج، ويحرق بشرته الزهرية، مستلقيا في الشمس، فلا يمكن اعتبارهما عطلة.

«أنا ذاهب إلى دونغال، إلى بورتونبورت. سآخذ مونيكا والأولاد معي. المسكينة تحتاج وقتا تفرج فيه عن نفسها». أحبُّ بنات إخوته إلى قلبه هي مونيكا. امرأة طويلة بشعر داكن، ذكية وأَم لأربعة أطفال. زوجها كان رجل أعمال ناجحا ومحبوبا، لطيف الطباع رغم بدانته، وعاشا معا بسعادة ووفاق. «حذّروه لكنه لم يسمع فدفع الثمن. استطاع أن يغير بعض عاداته بعد أن

تلقى تحذيرات كثيرة بشأن بدانته. أخبره أحدهم بأن الكريفون يساعد على تخفيف الوزن فأخذ يتناول هذه الفاكهة كل صباح ويشتريها بالصناديق، لكن ذلك لم يؤثر على وزنه، بل فتح شهيته لتناول الوجبات الرئيسية الكبيرة بضمير مرتاح. حذّرتُه من أثر الكريفون هذا، لكن كل ما فعله أنه ضحك». كانت مونيكا قريبة منه، ورغم رحيله المفاجئ استطاعت أن تتولى أمر الأعمال والمصالح التي شعرت أنها قادرة على إدارتها مع مسؤولياتها في تربية الأطفال، وقامت ببيع ما وجدت إدارته خارج مقدراتها بمفردها. تعودت أن تلجأ إلى الحلول الوسط لكثرة ما لديها من أعباء».

أعاد روتلج سؤاله: «ماذا في هذه العلبة؟».

«نقود».

«ولماذا ليست في المصرف».

«لدي ما يكفي من النقود في المصرف. رجل الضرائب لا يكف عن عادته بالتلصص على حساباتنا».

«وماذا ستفعل بها؟».

قال وهو يضع مفتاحا بجانب العلبة: «أتركها هنا حتى أعود».

«كم فيها؟».

أجاب بتردد: «ما يقارب ثلاثين ألفا».

«يجب أن نعدها».

اعترض الشاه بقوة لكن روتلج أصر. لم يكن يريد أن يدع أي مجال للظنون. وفي غرفة النوم أسدلا الستائر وأخذا يعدان النقود كأنهما لصان. كان في العلبة المعدنية ثلاثة وأربعون ألف جنيه.

قال روتلج وهو يعيد العلبة إلى مكانها: «تستطيع شراء بيت وأرض بهذه النقود. تستطيع أن تتزوج وتبدأ بها حياة جديدة، أو حتى تسافر إلى أمريكا أو إفريقيا».

«أفضل من أن تكون في يد رجل آخر على أية حال».

صمتَ روتلج وقد قرر ألا يمضي أبعد في الحديث أو المزاح. لم يتمكن الشاه من المشي في الحقول بعد أن مضى الوقت في عَدّ النقود البطيء. جلس إلى المائدة يأكل بصمت في صحن أبيض كبير، نقانق وشرائح لحم خنزير، وأنصاف مشوية من الطماطم وبصل وفطر وشريحة رقيقة من الكبد وقطعة لحم خروف. ومن صحن آخر كان يتناول قطعا من خبز الصودا الطازج ويدهنها بالزبدة بينما كان كلبه إلى جانب كرسيه يترقب بنفاد صبر حركات يديه الأنيقة. سأل كيت عندما فرغ من طعامه: «ممكن؟» أجابته كيت: «بالتأكيد» فقدم ما تبقى في صحنه للكلب ثم تنهد برضى، وهو يمد يده ليتناول قطعة من فطيرة التفاح المكسوة بطبقة من السكر الناعم. سكب عليها الكريما من إبريق أبيض صغير ثم رشف الشاي من فنجان كبير. بعد برهة نهض وقال وهو يتناول قبعته: «بارك الله فيك يا كيت. لن تريني قبل فترة طويلة».

«أتمنى لك وقتا سعيدا في بورتونبورت».

«لا أظن أنه سيكون سعيدا، لكن عليّ أن أكون هناك على أية حال».

تغير الطقس فجأة، ليس إلى زخات مطر الصيف المعتادة، بل إلى هَطْل غزير مستمر يرافقه رعد وومضات برق خاطفة، في الأفق الممتدً وراء الحقول والبحيرة. توترت القطة السوداء وتكورت في الزاوية قرب الموقد محتمية بالكرسي الهزاز، وفي الخارج تدفقت

المياه نحو البحيرة متجمعة في السواقي والمصارف بصوت مسموع إلى أن تلاشت العاصفة واستمر هَطْلُ المطر على شكل زخات مع هبات قوية من الريح.

أتت أيام الصيف بأعمال الموسم المعتادة. راقب روتلج الماشية تحسبا لأمراض الصيف. هاجم الذباب الأغنام مرة أخرى ووجد إحداها مطروحة على ظهرها بجانب حَمَلها الصغير، لكنه عالجها في اللحظة الأخيرة وأطلقها لتعود إلى حملانها من جديد.

كان على كيت اقتلاع الأعشاب الضَارة من الحديقة والاعتناء بالجزر والبصل والشمندر والخس والجزر الأبيض بالإضافة إلى تدعيم شجيرات الفاصولياء والبازلاء ورش البطاطا وأشجار الفاكهة بالمبيدات. اعتادت في هذه الفترة أن تأكل مع روتلج في وقت متأخر حين يدخل ضوء أول المساء من النافذة متلونا باخضرار الأفق المفتوح على قمم الأشجار والحقول والمروج. في إحدى الأمسيات قالت: «لم نر جامسي وماري منذ زمن طويل. ما رأيك أن نتمشى صوب البحيرة ونزورهما؟ على الأغلب أن جوني قد عاد إلى إنجلترا الآن».

لا يبعد البيت القديم الذي تربت فيه ماري سوى مسافة قصيرة في طريقهما إلى شاطئ البحيرة في بقعة منعزلة بين أشجار كثيفة تحجب جدرانه الحجرية.

نبتت شجرة دردار في غرفة الجلوس حيث كان سكان البيت فيما مضى يلعبون الورق ويتلون صلواتهم قبل أن يهيلوا الرماد على الجمر المتوهج في الموقد. لا تزال ملامح البيت على مرمى حجر من الماء تشي بجمال وألفة ماضيه، وتذكر إطلالته على أفق البحيرة الأزرق بحياة ازدهرت فيه ذات يوم. نمت أشجار الكرز

والتفاح والإجاص بكثافة حول المكان، وظهرت في أنحاء متفرقة أوراق عنب الثعلب الخضراء في أجمة من نباتات البرقوق الزاحفة. وفي المساحات المحيطة بالبيت، لا تزال زهور النرجس الصفراء والبيضاء ترحب بالربيع كل سنة بأعداد كبيرة، رغم خواء المكان وعدم وجود أحد يهتم لذلك.

وقعت ماري في حب جامسي عندما كانت طالبة في المدرسة، وطوال أيام شبابها لم يلفت نظرها أي رجل آخر. كان يأتي إليها من جهة البحيرة على دراجته البالية وكانت هي دائما في انتظاره. حب وعلاقة امتدت بأوجها العاطفي سنوات وسنوات في تناقض صارخ مع حكاية جوني. انتقلت عند زواجها من جامسي إلى بيته قرب البحيرة حيث ترك لهما أبوه غرفته في الطابق العلوي وانتقل مع سرير صغير إلى غرفة ابنه القديمة مقابل غرفة جوني تحت النافذة. ومع قدوم ماري إلى بيت الزوجية بدأت مزهريات الورود تظهر على رفوف النوافذ والطاولات وأضافت لمسات من الألوان الجديدة بأغطية الوسائد والشراشف الزاهية التي جلبتها معها من بيت أهلها. كانت تحرص على غسل البياضات والأغطية وكيّها بشكل منتظم، وأصبح الطعام فجأة شهيا بعد سنوات طويلة لم يعرف فيها البيت سوى أطباق فقيرة. تحول البيت إلى مساحة ملونة من النظافة والألق. حلم عاش وتنفس معها لسنوات، وها هي الآن تحوله إلى حقيقة. لكن في غمرة فرحها بحياتها الجديدة أحسّت بقلق من أن تهجر بيتها القديم الذي تحب وتبتعد عن أبيها وأخيها اللذين أكدا لها مرارا أنهما سيتدبران أمورهما بمفردهما، لكنها مع ذلك حرصت على أن تخبز لهما الخبز وتحمله إليهما في الطرف الآخر من البحيرة مرتين في الأسبوع. اعتاد أبوها أن يذهب

كل خميس إلى المدينة في عربة يجرها حصان، وبعد أن ينتهي من التسوّق يذهب إلى فندق هوي الذي يملكه ابن عمه ليشرب هناك كؤوسا عديدة من أفضل أنواع الكحول، باورس معتّق عمره ثمانية عشر عاما، وذلك أثناء حديث يتفق فيه مع سيد هوي حول السياسة والحزب الذي ينتميان إليه. يعود بعدها إلى البيت، وإن لم يكن الجو ماطرا أو عاصفا فإنه غالبا ما كان يغفو في زاوية العربة وهي تعبر بين الحانتين في شروهاون. كان رجلا سهل الطباع غير مُتطلّب يعرف الجميع هَنَاته ونقاط ضعفه، لذلك لم يكن يتلقى في رحلاته عبر تلك الطرقَ المقفرة سوى ابتسامات ودودة دون أن يكلف أحد نفسه عناء رفع صوته لإلقاء التحية عليه. كان في العادة يستيقظ من غفوته عند شاطئ البحيرة في الوقت الذي يبدأ الحصان بحثّ خطاه متلهفا إلى لحظة الوصول الوشيكة التي ستحرره من العربة وتمنحه الماء والعلف. أما إن لم يوقظه عدْوُ الحصان المتسارع فإنه يصحو عندما تبدأ العربة بالارتجاج عند بداية الطريق المحفرة.

لم تكن ماري في أيام الخميس تستطيع مقاومة رغبتها في الذهاب مع الكلبين إلى المنحدر الصاعد إلى التلة في الوقت الذي ينعطف فيه الحصان بالعربة نحو شاطئ البحيرة. عندما تظهر العربة ويبدأ الحصان بالعدْو تتنفس الصعداء وتلحق بها إلى أن تصل إلى مدخل البيت ويبدأ الكلب بالنباح. «سيوقظه هذا إن لم يكن قد استيقظ بعد. أتمنى لو أن الجميع يتقنون عملهم كما يفعل هذا الحصان البنّيّ». كانت تصمت عندما يمازحها جامسي في موعد ذهابها إلى سفح التلة لأنها تعلم في قرارة نفسها أن لا وجود للحب دون ما يصاحبه من قلق. أجل، يغمرها شعور

بالطمأنينة والسعادة عندما يصل أبوها، حبها الأول الذي لم تعرف فيه كلمة قاسية طيلة أيام صباها، لينام بعد رحلة الخميس في سريره الكبير ذي الجرس النحاسي المكسور.

لكن عالمها القديم الذي تحبه والذي تركته رويدا رويدا بدأ يتلاشى. في ليلة ماطرة من ليالي أكتوبر توارت فيها البحيرة وراء حجاب من الضباب ورذاذ المطر، وصل الحصان إلى البيت سالما، لكن الرجل الذي كان في العربة، فارق الحياة في الطريق. تجربتها الأولى في الفقدان، فقد كانت صغيرة عندما ماتت أمها، وعاشتها بمرارة ودون عزاء.

«كان الأكثر حظا بين الرجال. زوجة طيبة وأولاد مجدون لم يسببوا له أي متاعب. لم يعرف المرض في حياته، وهكذا يموت ببساطة بعد بضع كؤوس من الكحول، وحديث مع هوي عن السياسة؟! هل تعتقدين أننا سنحظى بنهاية أكثر سلاما وبساطة؟! هل بإمكانك أن تتخيلي طريقة أسهل؟» هكذا قال لها جامسي محاولا أن يهدئ من روعها.

أُغلق بيت الأب بعد سنة من رحيله. كان أخوها على علاقة بفتاة سافرت إلى بوسطن لتقيم عند عمّتها، وفي عيد الهالاوين التالي لحق بها ليتزوجا هناك. طلب الأخ من ماري قبل رحيله أن تختار ما تشاء من البيت لتحتفظ به، وتحت إصراره أخذت بضعة أشياء صغيرة.

في يوم سبت معتدل من أيام أكتوبر، وقد نضجت ثمار البندق على أشجارها عُقد مزاد علني على شاطئ البحيرة. بيع كل ما في البيت، آلة جزّ العشب والمحراث والخزانة الحمراء الكبيرة والماشية والحصان والعربة. لم تذهب ماري لحضور المزاد ولا إلى

سفح التلة لتلقي نظره على الحشد المتجمع هناك، لكنها طلبت من جامسي أن يشتري الدجاجات والبقرة الحمراء التي اعتادت أن تحلبها في البيت. عندما عاد إلى البيت ظافرا بالبقرة الصغيرة وقفص الدجاج بدا لها كل شيء كأنه أطلال عالم منهار، لكن لم يكن لديها الوقت الكافي لتشغل بالها بتلك الهواجس، ففي صباح اليوم التالي اكتشفت أنها حامل وأن لديها البيت وثلاثة رجال لتعتني بهم. كانت ولادتها عسيرة، لكنها كانت قوية. سمي الولد جيمس على اسم جده لأبيه رغم أن جامسي عرض أن يُسمَّى الطفل على اسم جده لأمه.

بعد ولادة الطفل، ولأنهما كانا يتوقعان مزيدا من الأطفال، قررا أن يوسعا البيت ويبنيا غرفة جديدة. بدأ باتريك ريان ببناء الغرفة وأصبح يقضي في البيت وقتا لا يقل عن أصحابه. رافقه جوني أثناء عمله وكانا يجدَان الوقت للهو والمرح. شعرت ماري مع زوجها أن روح أبيها لَم تغادر ذلك البيت الذي تداعى سقفه بل إنها انتقلت إلى بيتهما على الضفة الأخرى من البحيرة.

في طريقهما إلى بيت جامسي يتجه روتلج وكيت عادة من البوابة المُفضية إلى البحيرة، صاعدين نحو سفح التلة، ومن هناك يسيران في ممر يجتاز منحدرا تكسوه الطحالب نحو المنزل المتواري بين نباتات جار الماء والدردار والليلك حيث يستقبلهما الكلبان روف وبوبي عند البوابة الحديدية الثانية بالنباح. في مدخل البيت قفص شبكي كبير للدجاج وكثير من الزهور تتوزع في كل أنحاء المكان، كابوسين وويليام الوسيم والزنبق. طُليت جدران البيت بالكلس الأبيض والنوافذ بأحمر قان وإطاراتها بأخضر يبدو فاقعا على خلفية خضرة المروج الهادئةً. كسيت الغرفة التي

بناها باتريك عند الزاوية اليمنى للبيت بحجر الأردواز، واستُبدلت بأسقف القش في غرف البيت الأخرى طبقةٌ من الحرير الصخري.

اصطفت على رفوف النوافذ السوداء أوعية خشبية تحوي زهور الثالوث المخملية وإبرة الراعي. كان باب البيت مفتوحا والمكان يغرق في الصمت إلى درجة كان بوسعهما سماع صوت بندول الساعة في الداخل. قدّرا أن نباح الكلبين كان كافيا ليعلن قدومهما، ويُعرّف بهما، فقرعا الباب بمرح عدة مرات.

«ادخلا إن كنتما وسيمين».

«لسنا كذلك. ماذا نفعل؟».

«هذا سيئ جدا. ليس بوسعكما الدخول إذن».

«لا تباليا بهذا الأحمق. إنه قادر على إهانة قديس مبارك»، قالت ماري وهي تخرج فاتحة ذراعيها مرحبة وقبّلتهما.

مد جامسي يده الضخمة: «كيت، الرب لا يحب الجبناء ولا يموت الإنسان الشجاع سوى مرة واحدة».

ردّت كيت وهي تعطيه يدها: «أنا امرأة ضعيفة يا جامسي».

«لست ضعيفة أبدا». وعندما صرخت «انتبه يا جامسي»، حرر يدها من قبضته الضخمة وهو يطلق صيحة ظفر: «أنت من فرسان الله. أهلا بك يا كيت». انحنى بعد ذلك لروتلج كمهرّج: «رغم أنك لم تعجبني يوما».

أجاب روتلج وهو ينحني: «هذا شرفٌ لي».

بعد ضوء المساء الساطع فوق البحيرة بدت لهما الغرفة مظلمة رغم أن نافذتها الوحيدة المطلة على الجنوب كانت مفتوحة، ولم ينتبها لوجود الحفيدة مارغريت الجالسة على كرسي صغير بين ماري وموقد الطبخ الأصفر ذي الحواف اللامعة. طفلة

جميلة بشعر داكن، بشرتها فاتحة وعيناها بلون الخوخ الغامق. رفعها روتلج بين يديه بحب وأدهشه كم كبرت منذ أن رآها آخر مرة في الصيف الماضي. قال جامسي ممازحا: «إياك، لم يعد بوسعك فعل هذا. لديها الكثير من الفتيان المعجبين». «ليس لدي أي معجبين. الكثير من الفتيان، كلهم جميلون ووديعون». مد لسانه وهو يتظاهر بأنه يغطي وجهه بيديه بينما كانت الطفلة تضربه معابثة.

«ذهب الثلاثة الآخرون مع أبيهم وأمهم في عطلة لكن مارغريت فضلت أن تبقى معنا. أليس كذلك؟» ضربت ماري بيديها على رأسها ممازحة الطفلة التي هزت رأسها بجدية مومئة بالإيجاب.

«أين ذهبوا؟» سألت كيت فأجابها جامسي بلهجة العارف: «ذهبوا.. ذهبوا لكني نسيت.. ذهبوا إلى هناك. إلى مكان ما أجنبي».

ضحكت ماري والطفلة منه ورددت تقلده بسخرية: «في مكان ما.. هناك.. لقد استأجروا بيتا لمدة ثلاثة أسابيع في البندقية. هل لديك فكرة أين تقع إيطاليا؟».

أجابها: «في مكان ما. هناك..» ثم لوح للطفلة بقبضته.

«أسألك، أليس لديك أدنى فكرة عن إيطاليا؟ إني أعترف للسماء بأنه لا يعرف الفرق بين إيطاليا ومولينغار. لا يذهب إلى أي مكان».

أجابها جامسي بحزم مستعيدا جديته: «هم هناك في مكان ما على أية حال، ونحن هنا لا نعبأ بهم البتة. هل لديكم أخبار جديدة؟».

«ما من أخبار. أظن أن جوني قد عاد إلى إنجلترا الآن».

«عاد منذ زمن طويل».

قالت ماري بصوت خافت: «وإيدموند المسكين مات. لقد دفن البارحة. فليرحمنا الرب».

قال روتلج: «لم أكن أعلم وإلا لذهبت إلى الجنازة. إيدموند كان شخصا عزيزا علي».

«كان عزيزا على قلوبنا جميعا. لو كنت تذهب إلى القداس لعلمت بأمر الجنازة. هذا ما تجنيه من عدم ذهابك إلى الكنيسة».

«كان بإمكانك أن تُخبرني».

انتبه روتلج إلى ارتباك جامسي المفاجئ. دائما يشعر بحرج شديد تجاه أي عتب أو تأنيب. سارعت ماري لتقول بحذر: «كان يريد أن يذهب إليك ليخبرك لكن باتريك منعه وقال إنه لا داعي لذلك».

قال روتلج: «كان عليّ ألا أبالي بكلامه. باتريك ريان يستطيع أن يسبب المتاعب حتى لمؤخرتك. يريد أن يفرض أسلوبه على الجميع».

وضع جامسي يده على كتف روتلج: «كان عليّ ألا أقول شيئا. لم يكن ليدري أبدا».

أجابه روتلج: «لا عليك، كنت أحب إيدموند لكن هذا لن يغير شيئا الآن».

«لم يسهروا على الجثة. أخذوه من المشفى إلى الكنيسة مباشرة وكل ما كان يهم باتريك ريان في الجنازة أولئك الأشخاص المهمّون الذين أتوا، أطباء ومقاولون وسياسيون ممن كان يعمل عندهم. كم كان سخيفا وهو يشتري لهم المشروب وينظر في عيونهم بوقاحة وهو يتصنع أنه يمسح دموعه. لو رأيته لما صدقت أنه

يمثل ولأقسمتُ إنه كان صادقا فيما يفعل. لو كان الأمر بيده لما أعارني أي اهتمام ولما التفت إليك لو كنت هناك أيضا».

قالت ماري كأنها تحاول التخفيف من مبالغة زوجها: «أما آن لك أن تعرف باتريك ريان على حقيقته! هل كنت تتوقع أن يتصرف بطريقة مختلفة؟! ولو اعترفنا بالحقيقة فالجميع جاؤوا من أجل باتريك، فمن كان يعرف إيدموند المسكين؟».

رد جامسي بغضب: «نحن نعرفه. هناك أوقات تكون فيها الحقيقة خطيئة».

قالت ماري بحزم: «نحن لا أهمية لنا».

قال روتلج: «الكذب يمشي والحقيقة تبقى في مكانها».

«لم يكن لإيدموند أي قيمة عند باتريك. لقد تعمد أن يترك سقف البيت يسقط ليتخلص من أخيه المسكين».

«لم يحزن عليه سوى العجوز السيدة لوغان وكلبها. أصيب الكلب بالهزال منذ أن ذهب إلى المشفى، ولا يزال يتنقل بين البوابة والبيت بحثا عنه. والعجوز المسكينة تشعر بالفقدان. لقد آوته عندما سقط سقف بيته وكان يساعدها في كل شيء».

«هل ذهبت إلى الجنازة؟».

«المسكينة لم تقوَ على ذلك»، قالت ماري وهي تبتسم ابتسامة جميلة متحفّظة. «لم يكن باتريك يريدها هناك على أي حال. لقد توفي شخص آخر أيضا. زوجة جون كوين الثانية. ذهب إلى الجنازة لكنهم لم يسمحوا له بدخول البيت، ومع ذلك سار مرافقا النعش من الكنيسة وكان ينحني في المقاعد الأولى لمصافحة الأيدي ثم ذهب بعد ذلك إلى المحامي باحثا عن أية فرصة يكسب منها المال».

«عجيب أمر جون هذا. لن يمضي وقت طويل قبل أن يتزوج مرة أخرى فما إن يغلق الله بابا في وجهه حتى يبحث عن باب آخر».

فرك جامسي كفيه بمرح وهو يومئ إلى ماري ممازحا أنهم تكلموا بما يكفي وأنه حان وقت الشراب. أجابته بإيماءة مشاكسة وهي تنهض لتحضر زجاجة الكحول. طلبت كيت شايا لكن ماري أصرت أن تشرب معها بعض الشراب الخفيف الساخن. امتلأ فضاء الغرفة برائحة الليمون والقرنفل وهم يحضرون الشراب بينما كانت مارغريت تشرب كأسا من عصير الليمون.

«حظا طيبا اليوم وغدا، وليمنحنا الرب العمر الطويل».

«هكذا إذن، عاد جوني إلى إنجلترا بعد صيف آخر».

«أجل، انتظرنا القطار القادم من درومود مع كأسين في البار المقابل للمحطة. لا شيء يدعو إلى الاحتفال بالوداع. استقبله والد مارغريت وأوصله إلى المطار».

قالت ماري: «يؤسفني أن أقول إني لم أشعر بالحزن».

«كان جوني يقضي معي أغلب أوقاته كل يوم».

«كان رفيقا رائعا أثناء زيارته».

قال جامسي: «هذا النوع من الرجال يعرف كيف يتصرف عندما يكون بعيدا. هناك فارق كبير بين أن تكون زائرا وأن تنتمي إلى المكان».

قالت ماري: «حتى أثناء صمته كان من الصعب أن تراه ولا تتذكر كل ما حدث. كان يعتقد أنه لا يستطيع العيش من دونها. هنا كان يجلس ويضع رأسه بين يديه على الطاولة ويبكي، وهنا كان قبل بضعة أيام يجلس ليحل الكلمات المتقاطعة ويتابع أخبار

السباق عندما لا يريد أن يتكلم».

«هل كانت آنا مولفي جميلة إلى حد تسلبه عقله هكذا؟».

«لا، كثيرات كنّ أجمل منها. لكن لجمالها ملامح خاصة، طويلة بشعر داكن وجسد ممشوق. لم تكن مولعة بجوني إطلاقا، وفي الحقيقة كانت تلتقي ببيدار كوران في الوقت نفسه. كاد أن يسبب لي الجنون عندما حاولت أن تنهي علاقتها به. كان يمشي جيئة وذهابا، يمشي ويتكلم ويتكلم ولا يستطيع تناول أي طعام أو الجلوس ولو لدقيقة واحدة».

«كان الخوف يتلبّسنا في بعض الأحيان، ماذا سيفعل لو عرف علاقتها ببيدار؟!».

قالت ماري: «ثم أتى إلى هنا».

ذهب هيو برادي إليه وأخبره بالحقيقة، عكس غيره من الناس الذين كانوا يغرقونه بالأكاذيب. اتهمه جوني بنشر الأقاويل والإشاعات وذهب مباشرة إلى آنا التي أقسمت له إنه لا علاقة لها بكوران ولا بأي رجل آخر. كان كالدمية بين يديها فصدقها وعاد إلى برادي لينقضّ عليه متهما إياه بنشر الأكاذيب. لقد تلطف به الرب في ذلك اليوم، فبرادي رجل شرس وخطر.

«هاجر بيدار كوران إلى إنجلترا مما خفف من عذابات جوني، ولم يكن لرحيله أي سبب مهم، فكل الناس كانوا يهاجرون وقتها إلى إنجلترا. ربما كان ما عُرف به من حرص وحذر أحد أسباب هجرته، فعلاقته مع آنا أصبحت أكثر دفئا مما تسمح به علاقة العمل بينهما».

«كانت آنا في هذه الفترة تلتقي بجوني فقط لتتحاشى ردات فعله».

«بعد ذلك أتى دور آنا في الرحيل إلى إنجلترا. اعتقدنا أنها ترحل لتبتعد عن جوني فأوضاع عائلة مولفي كانت جيدة وما من سبب يدعوها إلى الهجرة. لكنها في حقيقة الأمر ذهبت وراء بيدار».

«وكيف كانت ردة فعل جوني تجاه رحيلها؟».

«وماذا كان بوسعه أن يفعل؟ كان قد أصبح حينها كالغريق الذي يتعلق بقشة بعد أن وعدته أن تبقى على اتصال وأن تراسله».

«حصلت آنا على أرض في إنجلترا وحصل بيدار على امرأة أخرى. بدأت حينها تكتب لجوني الذي جعلته رسائلها يفقد صوابه. كان يذهب ليلاقي ساعي البريد في الطريق، ويجعله يفتش عن رسائلها في حقيبته، بدلا من أن ينتظر ليحُضر الرسائل إلى البيت. عندما كتبت له مرة أنها تشتاق إليه وتريده أن يأتي إلى إنجلترا كاد يطير فرحا، ولا أظن أن قدميه لامستا الأرض لعدة أيام».

«بعد ذلك قتل الكلبين المسكينين أوسكار وبران»، قالت ماري بصوت خافت. «كنت أطعم الكلبين بنفسي. كانا رائعين».

قال جامسي: «كان أفضل له أن يطلق النار على نفسه أو يعلق حجرا في عنقه ويقفز وسط البحيرة».

«كل هذا لأن آنا كانت في يوم ما ممثلة في فرقة مسرحية؟».

«كانت الأسوأ بينهم في التمثيل، لكن مع ذلك لم تكن لتستطيع رفع نظرك عنها وهي على الخشبة».

قالت ماري: «كان جوني يطلب مني أن أقرأ له مقاطع النص الخاصة بها وهو يتدرب على دوره».

«هل تستطيعين تذكر أيّ من تلك المقاطع؟».

«ولا حتى سطر واحد عدا أنه كان فظيعا. ترهات قديمة».

ابتسـمت مـاري: «خصوصـا إن قارنتـه بمـا يحـدث أمـام عينيـك».

«إنهـا بيغـين التـي أراهـا أمامـي فقـط. ومـا شـأني إن أحـضرت لي سربـا مـن الإنـاث المختـارات يقفـن في دورهـن مـن هنـا إلى عـالم الـشرق؟!» ردد روتلـج مـن ذاكرتـه.

«هذا هو تماما. ترهات قديمة فظيعة».

«عندمـا كانـت جديـدة كانـت هـذه الكلـمات قـادرة عـلى إثـارة النـاس وتحفيزهـم».

«مـن السـهل أن تثـير النـاس» قالهـا جامـسي بامتعـاض. «هـل كنـت هكـذا عندمـا كنـت أدور بالدراجـة حـول البحـيرة لأجـري وراءك يـا مـاري؟».

«لم تكـن تبـالي كثـيرا. كنـت مشـغولا بكثـير مـن الأمـور الأخـرى ومـا كنـت أنـا سـوى خطـأ عابـر. مـا الـذي وجدتـه في هـذا الرجـل يـا مارغريـت؟!» وضعـت يدهـا عـلى شـعر الطفلـة.

قال وهو يفرك يديه: «تلك الأيام يا ماري. كنت تحبينني».

«الحب» رددت ماري «الحب يطير من النافذة».

قالـت كيـت: «عندمـا يقـع إنسـان مثـل جـوني في الحـب فـإن ذلـك يقـود إلى الشـقاء».

«أليـس هـذا هـو الغـرام؟» قالـت مـاري «أن يفتـح المتحابـون عيونهـم ذات يـوم؟!».

«حتـى الأذكيـاء يقعـون في الفـخ بينـما يصولـون ويجولـون. أليـس هـذا مـا حـدث مـع رجلـك هـذا يـا كيـت؟».

أجابـت كيـت ضاحكـة: «لا، كنـا نعمـل في الشركـة نفسـها لكـن في قسـمين مختلفـين وفي طابقـين مختلفـين مـن البنـاء. لم أكـن أفكـر فيـه بـأي طريقـة خاصـة عـدا أن وجـود رجـل أيرلنـدي في نفـس مـكان

العمل لم يكن أمرا معتادا».

قال روتلج: «روبرت بوث أيرلندي وهو الذي سهل لي العمل في الشركة».

«لا يمكنك اعتبار روبرت بوث أيرلنديا. لقد ذهب إلى مدرسة تمثيل ليتخلص من لكنته».

«لا تسمحي له أن يحرفك عن مسار الحديث يا كيت. نريد أن نعرف كيف حدث ووقع في الشباك».

«لا تخبريه يا كيت».

«تعطلت آلة تصوير الوثائق لدي في أحد الأيام فذهبت إلى الطابق الذي يعمل فيه لأصور بعض الأوراق. كنا نعرف بعضنا بالأسماء ولم تتعدَّ علاقتنا حينها بعض كلمات المجاملة. فجأة ودون مقدمات قال لي: ساقاك جميلتان يا كيت». صاح جامسي بمرح كأنه يهلل لهدف في مباراة كرة قدم بينما راحت مارغريت تلوح له بأصابعها بحركات تشبه بندول الساعة.

«هذا مثير. كالثعلب الذي يكمن بين الأعشاب ينتظر اللحظة المناسبة لينقض على فريسته».

«سيفضحك»، قالت ماري محذرة.

«لا تخبريه يا كيت. سينشر قصتك في كل مكان».

«لا تبالي به أيضا. من الخير أن نظهرهم على حقيقتهم».

رد جامسي: «لا تستطعْنَ العيش دوننا أيضا».

«ثم التقينا في المصعد ونحن نغادر الشركة، ولا أظن أني بريئة من تدبير هذه المصادفة عن قصد. دعاني لتناول الشراب، وكان يوما ماطرا من أيام نوفمبر. ذهبنا إلى ركن النبيذ القديم، بار على ضفة النهر ليس بعيدا عن مكان العمل. طلبنا زجاجة نبيذ

أحمـر وطبقـا مـن الجبنـة البيضـاء والمكسرات، ولم يكـن مـن عـادتي أن أشرب في تلـك الأيـام».

قـال جامـسي: «لا أدري كيـف تسـتطيعون شرب ذلـك النبيـذ الأحمـر. مذاقـه كالسـم الصـافي. رجلـك هـذا كان يحـاول أن يقفـز فـوق الحواجـز».

أجـاب روتلـج: مشـيرا بالموافقـة: «نعـم، أعتقـد أني كنـت أفعـل ذلـك يـا جامـسي».

«ثـم كان هـذا مـن تزوجتـه. سـتمرّ مارغريـت بـكل هـذا قريبـا. كل أولئـك الأولاد وديعـون». وجهـت لـه حفيدتـه لكمـة خفيفـة فتظاهـر أنـه يحمـي وجهـه منهـا بيديـه الضخمتـين.

«لا بـد أن مارغريـت تظننـا جمعـا مزعجـا مـن الحمـير»، قالـت مـاري وجذبـت الطفلـة إلى حضنهـا.

كانـت بنـدولات السـاعات تـدق في البيـت طيلـة الأمسـية دون انتظـام كل نصـف سـاعة. سـبع أو ثمـاني سـاعات كلهـا معلقـة عـلى جـدران الغرفـة المجـاورة.

«هـل تشـير أي مـن هـذه السـاعات إلى الوقـت الصحيـح؟». نظـر روتلـج حولـه كأنـه شـعر بـأن الوقـت قـد حـان ليذهـب.

«لِمَ العجلـة؟ مـاذا وراءك؟» سـأل جامـسي معترضـا بسرعـة «الليـل طويـل أمامنـا. مـضى وقـت طويـل لم نركـما».

حـضّرت مـاري دون أن ينتبـه إليهـا إحـدى الشـطائر مـن شرائـح لحـم الخنزيـر مـع الطماطـم والخـس، وقـد قُطّعـت عـلى شـكل مربعـات صغـيرة. انضـم روتلـج إلى جامـسي في كأس جديـدة مـن الكحـول، بينـما شربـت كيـت الشـاي مـع مـاري ومارغريـت.

«لا أدري كيـف أضبـط هـذه السـاعات المعطلـة!» قالـت مـاري

«يجب أن نحضر مصلح الساعات إلى البيت قريبا لينظفها ويزيّتها. كان والد جامسي شغوفا بالساعات. كان يفضل أن يذهب إلى الجحيم على أن تفوته ساعة في مزاد، يجمعها ويعتني بها ويضبطها بدقة، أما أنا فأحتفظ بها معطلة. اعتدنا على أصواتها مع الوقت ولم يعد بوسعنا الاستغناء عنها».

«ومن يبالي بالوقت؟ نحن نعرف الوقت جيدا»، قال جامسي «والآن، هل لديك مزيد من الأخبار قبل أن تذهب؟».

«لا شيء.. إلا إن كنت تعتبر ذهاب الشاه في إجازة أخبارا».

«الشاه يذهب في عطلة! فليباركنا الرب!». قال جامسي متعجبا فعلقت ماري بدهشة: «وهل ذهب في حياته إلى عطلة؟!». «مرة واحدة، إلى لوغ ديرغ قبل سنوات عديدة. هذه المرة سيذهب إلى المنطقة نفسها، ولكن إلى فندق على شاطئ البحر». «من المؤكد أنه يشعر بالضجر رغم كل ما لديه من أموال ولا يدري ماذا يفعل في حياته».

«ذهب مع مونيكا ابنة عمي التي فقدت زوجها مؤخرا. دعاها مع أطفالها الأربعة لقضاء العطلة معا».

«هذا يستحق الثناء».

حمل روتلج الطفلة ورفعها إلى الأعلى ثم أعطاها نقودا وطلب منها أن تزوره مع ماري. رافقهما جامسي والطفلة تمسك بيد ماري إلى سفح التلة. قال روتلج: «سآتي مع آلة جزّ العشب في أول فسحة صحو يتيحها الطقس». وعلى الرغم من أن هذا أهم خبر يسمعه الليلة لكن جامسي تعمد أن يجيب بعدم اكتراث: «لا بأس، في أي وقت يناسبك».

قبل الموعد المقرر لنهاية العطلة بثلاثة أيام عادت سيارة

المرسيدس عبر الطريق المحاذي لشاطئ البحيرة تتبعها سيارة مونيكا الفورد الحمراء الكبيرة. جلس الولد الأكبر في المرسيدس إلى جانب الشاه بينما رافق الولدان الآخران وأختهما أمهم في سيارتها. اقترب الشاه بسيارته من مدخل الرواق وهو مستغرق في حديث ودي مع الولد، وعندما نزل قرب المدخل وضع يده على كتفه وقال بفخر: «هذا الرجل سيصبح طيارا». كان الصبي أطول من الرجل العجوز وقد ارتدى مع إخوته ثيابا مريحة وثمينة. كانوا متألقين إلى جانب أمهم التي ارتدت فستانا أخضر بسيطا في أول مرة تظهر فيها دون زيّ الحداد الأسود، وتضوعت سحرا بقامتها الطويلة وأناقتها الطبيعية.

«عدتم مبكرين؟».

«أجل، هذا صحيح»، قال الشاه بعدوانية بينما تشاغلت مونيكا بالنظر إلى السقف في صمت بليغ. «لقد اكتفينا».

جلسوا جميعا لتناول كعكة تفاح طازجة مع الشاي، وما إن فرغوا حتى اكتشف الأولاد القطة السوداء وانشغلوا بها، بينما وقف الكبير منهم إلى جانب أمه كأنه قد تحول الآن إلى دعامة وأمل بيت عريق.

سأل روتلج عمه عندما خرجا: «كيف كان الفندق؟».

«جيد، على الشاطئ مباشرة. يكفي أن تقطع الشارع لتكون في البحر. كنت أسبح كل يوم وحاولت جاهدا أن أقنع مونيكا بالسباحة، لكنها لم تسمع».

«هل كان الطعام جيدا؟».

«جيد بما يكفي».

«ألم يمانعوا أن تغادروا مبكرين؟».

«كانوا محترمين ليس لأنهم أعادوا لنا بقية النقود، بل لأنهم أصحاب عمل جيدون مثلهم مثل كل أهل الشمال».

«كيف وجدت أحوال مونيكا؟».

رد الشاه وهو يضحك: «لاحظت أنها كانت ترتاد البار هناك كل مساء، إما لأنه أعجبها وإما لأنها كانت تبحث عن الرجال».

«يصعب عليّ تصديق ذلك».

«ليس هناك أصعب من حياة الأرملة. حتى الرهبان يقولون ذلك».

قال روتلج محاولا تغيير موضوع الحديث: «هل تريدني أن أضع العلبة المعدنية في صندوق السيارة دون أن ينتبه أحد؟».

«لا، دعها هنا، سآتي يوم الأحد».

انتبه روتلج لتوتر عمه وارتباكه، فقال له بتعاطف: «أظنك لن تسافر مرة أخرى في وقت قريب».

«لا، لن تقوى حتى الأحصنة البرية على الجري إلى ذلك. لا أدري لماذا يتهافت هؤلاء الحمقى على السفر إلى تلك الأمكنة!». «ربما يساعدهم ذلك على استعادة إحساسهم بالمكان؟».

في البيت كانت مونيكا تتحدث عن أيام رحلتها في الفندق. «تعلمين، بذل كل ما بوسعه من أجلنا. لا بد أن ذلك كان مرهقا. لقد أحاط الأولاد بالدلال والرعاية». كان كتفاها يهتزان بفعل الضحك الذي ما لبث أن تحول إلى ابتسامات. «كان يذهب كل يوم في الساعة الحادية عشرة صباحا ليسبح. يبدل ملابسه في غرفته ويرتدي سروال سباحة قديما لا بد أنه كان من الموضة أيام الحرب. لم يكن يضيره لو غطى نفسه بعباءة أو ملاءة، لكنه كان يتجول هكذا بسرواله وصندله القديم فقط حاملا منشفته بين بهو

الفندق والطريق حيث يتجمهر الناس وتطلق السيارات أبواقها ثم يتجه إلى البحر كأنه حوت. أتعلمين، قد لا تلاحظين أنه ضخم وهو في ثيابه، لكنه في سروال السباحة يبدو كبرميل متحرك. لقد ابتعدت عن هذا المشهد بعد أن تجمع حوله الناس. قال لي إيمون: أتعلمين يا أمي لو أن عمنا رجلٌ فَكِهٌ لكسبنا المال من وراءه».

قال الصبي: «هذا صحيح. لقد كَان جمع الناس حوله يزداد كل يوم».

«كان يمكن أن أموت لو كنت في البهو وقتها. لم يكن يفعل سوى أن يلوح بيديه ككاردينال، للناس المتجمهرين حوله، غير مبال بشيء ومنسجم مع نفسه إلى درجة أرغمت الناس على تقبله في النهاية». عند رحيلنا رأيت الناس يوجهون إليه شتى النظرات، نظرات سخرية ونظرات تعال، كانت تبتعد عنه مرتبكة عندما يقابلها بثقة وتجاهل. لم يكن يفوته شيء رغم عادته في تجاهل الناس حوله. كنت بعد أن يخلد الأولاد إلى النوم ويتولى ابني باتريك رعايتهم، أخرج لأتمشى على الشاطئ وحدي، وفي طريق عودتي أمر ببار الفندق. كان ذلك صعبا عليّ للوهلة الأولى، فقد كنا أنا وجو نفعل الشيء ذاته في نهاية كل يوم من أيام إجازاتنا. لم أتخيل نفسي قادرة على فعل ذلك وحدي، لكن عندما رأيت طيفه الجليل يرافقني شعرت بالسعادة، فأنا لا أمل من صحبته عدا أن وجوده معي يبعد عني تطفل الرجال ودعواتهم. هذا أسوأ ما يمكن أن تتعرض له امرأة وحيدة. مرة رأيته يرمقني عبر الزجاج بنظرة غريبة بعد أن تناولت كأسي الثانية من البراندي ثم قال لي بطريقته تلك التي تجعلك تشعرين أنك في نهاية الطريق: (ستعتادين على ذلك يا مونيكا). كل أفراد هذه العائلة لا يحبون

الشرب. لم يحدث أن شربت أمي إلا قليلا في آخر حياتها. فليباركه الرب، لقد فعل الكثير من أجلنا وكان في غاية اللطف مع الأولاد. كلهم يحبونه إلا عندما يكون مضحكا».

«أو عندما يلقي بنقوده في الهواء»، قال أحد الأولاد.

«لم يعجبهم ذلك، وكان عليّ أن أدفعهم لجمع القطع النقدية التي يرميها. كنا في طفولتنا نجمع القطع النقدية بصرف النظر من أي جهة من السماء سقطت».

قال الولد راسما على وجهه تعابير الاشمئزاز: «أمي دائما تتحدث كيف كانت الأمور عندما كانت صغيرة».

«للإنصاف لقد قضى طوال الوقت في الفندق ولم يتفوه بكلمة واحدة. لو رأيت وجهه عندما قلت له إننا اكتفينا من إقامتنا هنا. كان ذلك بمثابة الخلاص بالنسبة إليه».

شارك روتلج وكيت على عتبة الرواق بطقوس نهاية تلك العطلة، الشكر والإطراء والوعود وقبلات الوداع. استقل الأولاد سيارة أمهم وكانت أول من غادر بعد أن دعتهم لقضاء سهرة في بيتها. «سنأتي بالتأكيد عندما تستقر أمورك وحالما تكونين جاهزة». أنزل الشاه زجاج سيارته الكبيرة وهو يتقدم بها نحو المدخل: «سآتي يوم الأحد. ستكون الأمور عادت إلى طبيعتها في ذلك الوقت».

عاد يوم الأحد وأخذ العلبة المعدنية. قال له روتلج ممازحا: «هل أنت متأكد أنك لا تريد عد النقود؟ كان بإمكاني أن آخذ منها ألفي جنيه».

«كفاك اليوم. لًا أدري كيف تتحملينه يا كيت؟».

هبت نسمة من صوب البحيرة عبر النافذة المفتوحة فخفقت

الستائر ناثرة ضوء الصباح على جدران غرفة النوم. صدر صوت احتكاك مخالب حادّ من خلف الستارة. كانت جلبة الطيور قد ملأت أرجاء البيت، لكن طنين الحشرات لم يكن قد بدأ بعد، وتناهت من بعيد أصوات السيارات العابرة على الطريق. تبع صوت المخالب سقوط جسم ثم صمت، وبعدها صوت شيء ما ثقيل يُسحب على أرضية الغرفة باتجاه السرير. تدخل القطة السوداء في معظم الصباحات من النافذة بهدوء، إلا إن كانت تحمل فأرا أو طيرا صغيرا لتملأ الغرفة بضجيج شغبها، لكن الجلبة كانت هذه المرة أكثر إثارة للقلق من صوت قطة تدخل حاملة صيدها. تململت كيت وضغطت بوجهها على الوسادة كأنها تطارد نوما أكثر عمقا. ثم بقفزة واحدة وثبت القطة إلى حافة السرير ونشبت مخالبها في الغطاء الأبيض متشبثة كي لا تقع تحت ثقل حملها، وبعد أن توازنت على السرير تقدمت نحو كيت وألقت بالحيوان تحت كتفها المرفوعة. أرنب بري صغير بفرو بني يلتمع بطنه الأبيض. ركزت القطة انتباهها كله على المرأة النائمة. اعتادت كيت أن تضع لها الطعام قبل أن تصبح أليفة، ولم تكن تقترب بل تراقب من وراء الشجرة ثم تتقدم جارّة جسدها على الأرض، بعد أن تبتعد كيت.

استمر الحال هكذا حتى مكثت في أحد الأيام ونظفت وجهها بعد أن التهمت ما في الطبق من طعام بدل أن تجري كعادتها لتختبئ. أصبحت منذ ذلك اليوم أليفة، واعتادت المنزل أكثر من الحقول، لكن طبيعتها البرية لم تَزُل تماما. يبدو أنها انقضت على الأرنب بينما كان نائما في جحره بين الحشائش أو طاردته وهو يفر منها فوق المرج.

انتظرت القطة أن تثير انتباه المرأة النائمة، لكن صبرها نفد، وسحبت الأرنب من جديد ووضعته فوق رقبة كيت. راقب روتلج ذلك وقد لجمه الذهول. كان بوسعه أن يقترب ويبعد الأرنب، لكنه تجمد في مكانه لا يقوى على الحركة كأنه في حلم. وقبل أن يستفيق من ذهوله تحركت يدا كيت من تحت الغطاء إلى عنقها بحركة ذاتية كأنهما حيوانان صغيران، وما إن لمستا الفرو حتى تجمدتا، وبصرخة نهضت جالسة ملقية بالأرنب جانبا. «ما هذا الذي فعلته؟!». تراجعت القطة أمام غضبها إلى زاوية الغرفة ومكثت هناك. أشعل روتلج الضوء جانب السرير.

«ما الذي جاء به إلى هنا؟».

«جلبته قطتك. أدخلته من النافذة».

«ولماذا لم تمنعها؟».

«لم أكن أدري أنها ستفعل ذلك».

نهضت كيت بعد أن هدأت والتقطت أنفاسها.

«أيتها الشريرة. يا للحيوان المسكين. أرنب صغير لم يكتمل نموه بعد!».

كان جسد الحيوان لا يزال دافئا وأنفه يقطر دما، وتلطخ الفراش ببقع حمراء صغيرة. رفع روتلج الأرنب وألقى به بعيدا عن السرير.

«لماذا فعلت ذلك بي؟» ردت القطة على غضب كيت ببربرة أعلى ثم تقدمت منها كأنها تنتظر أن تحملها وتكافئها.

خلت السماء في الخارج من الغيوم وتماوجت المروج النضرة كمياه البحيرة تحت هبات الريح الخفيفة. سمعا في الراديو أثناء تناول الإفطار أن مرتفعا جويا يقترب من جهة المحيط الأطلسي،

وأثناء قيامهما بأعمال الصباح سمعا أصوات آلات جزّ العشب تتردد في كل ناحية كأنها طائرات تحلق على ارتفاع منخفض فوق المروج. طغت حمى النشاط والحركة في الخارج على هدوء البيت، واستعد روتلج للبدء بجزّ العشب، وأعد آلة الجزّ لربطها بالجرار. لا يحب هذا العمل، وغالبا ما يثير فيه التوجس والخشية، فهو لم يتعود على الآلات ولم يكن يجد في تشغيلها أي متعة كغيره من الشباب، ولم تكن له يوما الثقة أو المهارة في استخدامها. تعلم فقط بعض الأساسيات عن التشغيل وعن خطر تلك الشفرات الصغيرة التي تدور فيها بسرعة تصيب بالدوار.

هدأت النسائم التي داعبت الستائر في الصباح، وسكن سطح البحيرة كأنه لوح زجاج انعكست عليه السماء الصافية على جانبي نهر الضوء المتدفق مع صعود الشمس في السماء. لم تهب نسمة واحدة فوق المروج ولم يخفق في الهواء سوى أجنحة الفراشات فوق العشب الساكن. غطى صوت الجرّار على طنين الحشرات، وبقيت ضوضاء الغربان وزعيق نوارس البحيرة مسموعة، لكن ما إن بدأت آلة جزّ العشب بالدوران ووصلت سرعتها القصوى حتى طغى صوتها على كل شيء. جلس روتلج فيما يشبه شرنقة من الضجيج والغبار ودخان المازوت والحرارة المنبعثة من المعدن يقود الجرار الذي يدور بآلة الجزّ في أنحاء المرج بينما تساقط العشب المجزوز من مقدمة مروحة الشفرات. لمح بطرف عينه أرانب برية تفر هاربة وواحدة من طيور التُدرجة تقود فراخها إلى ملجأ آمن في إحدى السواقي العميقة. عندما انتهى من جزّ العشب بدا المرج نظيفا وخاليا، وتكوم العشب المجزوز تحت أشجار السنديان والدردار العالية، بينما كانت النوارس والغربان تحط في هجمات

سريعة لاصطياد الضفادع والحلزونات والديدان، وانصرف زوجان من الحمام إلى نقر الحبوب المتناثرة بين الحشائش. لم يُقتل أثناء عملية الجزّ أي من الأرانب البرية أو طيور التُدرجة.

بعد أن زالت مساحات العشب الكبيرة بدت الأرض الفاصلة بين البيت والبحيرة كأنها مكان آخر. قال روتلج وهو يتناول إفطاره: «أعلم أن جامسي ينتظر، وسينفد صبره بمجرد أن يسمع صوت آلة جزّ العشب».

«متى ستنتهي».

«المرج لديه صغير. سأنتهي بعد الظهر».

«سأذهب إلى هناك في حوالي السادسة».

سار بالجرار على طول شاطئ البحيرة، وعند وصوله كانت البوابات بين الطريق والبيت كلها مفتوحة. استقبله الكلبان عند البوابة الأخيرة ورافقاه إلى البيت. كان الدجاج ينقر في التراب في الظل وراء شبك القفص المعدني، وعند مدخل البيت وُضع زوج من الأحذية ليجف في أشعة الشمس. فُتحت البوابة الخضراء من جهة الغرفة الإضافية المطلية بالكلس الأبيض على مصراعيها، لكن روتلج ترك الجرار في الشارع وآلة الجزّ مرفوعة. دخل ونادى: «هل أنتم جاهزون؟». أجابه جامسي صائحا من الداخل: «الجنود المخلصون لا يموتون أبدا». كان الجو داخل البيت رطبا ومعتما بعد الشمس الساطعة فوق المروج. جلس روتلج بحذائه وفي يده صحيفة الأوبزرفر، بينما جلست ماري مع مارغريت بصمت إلى جانب المدفأة المطفأة.

قال جامسي بعد تبادل التحيات: «لماذا لا تطفئ هذا الشيء اللعين في الشارع ونشرب شايا أو أي شيء آخر؟».

«لا، سأباشر العمل. كم تريد أن تجزّ من العشب؟».

تبادل جامسي وماري النظرات بسرعة قبل الإجابة: «ما رأيك أنت؟».

«بإمكاني جزّه كله إن أردت».

سأل جامسي ماري فأجابته: «لا فائدة من أن تسألني، فأنت تعلم ماذا تريد».

إنها مشكلة بالنسبة إليه فدائما كان يتردد، هل يجزّ العشب على ثلاث مراحل أو يفعل ذلك دفعة واحدة. في أيام الصيف الحارة اعتاد أن يقضي أسابيع وهو يعمل في جزّ العشب، لكن مع آلات الجزّ لم يعد العمل مجهدا وزالت منه كل التفاصيل والدراما القديمة. فلماذا يتردد في جزّه كله دفعة واحدة الآن؟

سأل روتلج بقلق: «ماذا فعلت أنت؟».

«لقد تخلصت منه كله».

تدخلت ماري أخيرا وقالت: «فليذهب إلى الجحيم. دعنا نجزّه كله وإلا فسيبقى في وجوهنا طوال الصيف».

سأل جامسي: «ماذا لو أمطرت؟».

أجابه روتلج بهدوء: «لن تمطر حسب النشرة الجوية».

«حسنا، فلنتخلص منه كله دفعة واحدة. هكذا، إما أن نعيش وإما أن نموت».

قالت ماري بصوت قوي فجأة: «عظيم، لا أستطيع تذكر كل الأصياف التي سئمت فيها من لون المروج».

لم يكن المرج كبيرا ولا يفوق في مساحته اتساع حديقة. أُزيلت شجيرات السور وحُفر مكانها مصارف، قام جامسي بتعليمها في المواضع العميقة بقضبان، ربط إليها أشرطة من النايلون كانت

ترفرف كرايات كلما هبت الريح.

يحاذي المرج في بعض المواقع ضفة النهر والمستنقع من الجهة الأخرى. وقف جامسي على مقربة يراقب، مما أثار توتر روتلج الذي يعرف مخاطر أن تنفلت الشفرات أو أن يعلق حجر صغير فيها فتقذفه كرصاصة من بين الحشائش الكثيفة، لكن لم يكن بالإمكان إقناعه بالابتعاد. «لا يمكن تمييز النهر من الأعشاب في هذه المنطقة. فليحفظنا الرب. إن انزلق الجرار هناك فسنكون حديث الناس في كل مكان لأسابيع».

لم تنفلت الشفرات ولم يعلق بها أي حجر، وانتهى جزّ المرج مع حلول المساء. حط سرب من الغربان وبعض الحمام على الأرض المعشوشبة، لكن النوارس بقيت تحلق قرب البحيرة، واصطبغت السماء غربا بلون أحمر. فوجئ روتلج عندما لم يجد كيت.

«قالت إنها ستكون هنا في السادسة».

قالت ماري: «لا بد أن أمرا ما منعها من المجيء».

وضع جامسي على الطاولة زجاجة من شراب الباورس، كأنه يشرع بالتحدي، ثم فتح السِّدَادَة فبانت العلامة التجارية الذهبية التي تصور ثلاثة من طيور السنونو في وضعية التأهب للطيران. اعترض روتلج: «لا أظن أني قادر على شرب الباورس الآن. أفضّل البيرة أو الماء». «خيبت ظني. لا فائدة ترجى منك»، قال جامسي وملأ كأسا من الباورس ثم رفعها.

أثارت الجعة الباردة شعورا منعشا بعد التعب الذي شعر به يسري كنشوة في أعماقه إثر يوم طويل من التحفّز والغبار والحرارة والدوران فوق المروج. وضعت ماري طبقا كبيرا من الشطائر على كرسي.

«هذا رائع يا ماري. هل لديك أخبار من إيطاليا؟».

«البارحـة»، قالـت بابتسـامتها الجميلـة المعتـادة وناولتـه بطاقـة بريديـة مـن رفٍّ النافـذة.

لا شيء في البطاقـة. توقـع روتلـج أن يـرى صـورة لمقهـى مكتـظ أو لكاتدرائيـة قديمـة لكنـه رأى صـورة لإحـدى لوحـات جوتـو ديبونـدون يظهـر فيهـا القديـس جوزيـف مـع مريـم العـذراء وطفلهـا. عـلى خلفيـة السـماء الزرقـاء في اللوحـة يطـير مـلاكان كل بجناحـين مفتوحـين وهالـة ذهبيـة فاتحـة تحيـط بهـما.

ارتـدت العـذراء فسـتانا أقـلّ زرقـة مـن لـون السـماء بينـما كانـت ثيـاب القديـس والطفـل والملاكـين بنّيّـة بلـون الـتراب. وعـلى خلفيـة التـلال الشـاحبة ظهـرت أشـجار مزهـرة وحلـت السـكينة عميقـة وكاملـة، عـلى كل مـن في اللوحـة، ولـكأن الإيمـان والثقـة بالنـور المبـارك قـد تملـكا قلوبهـم.

عندمـا أعـاد روتلـج البطاقـة كانـت مـاري وجامـسي يضحـكان مـن اسـتغراقه في تأمـل الصـورة.

«ما المضحك؟».

«أعتقد أنها من اختيار الأم». كتبها فقط جيم.

«هـذا مـا تجـده عـادة في عيـد الميـلاد»، قالتهـا مـاري عندمـا تـلاشى الضحك.

«البطاقـة جميلـة. لا بـد أنهـا كانـت رحلـة طويلـة بالنسـبة إلى جيـم».

«كان يغرقني بالأسئلة قبل أن يذهب إلى المدرسة».

«أصبـح هادئـا بعـد ذهابـه إلى المدرسـة. اعتـاد أن يجلـس هنـا عـلى زاويـة هـذه الطاولـة ليحـل تمارينـه. كنـا نعلـم أنـه جيـد، لكـن مـا

الجيد حقا؟ صديقك هذا انتظر أن يترك المدرسة بفارغ الصبر».

«لا تلق بالا إليها. لقد كانت الفُضلى في مدرستها، أما أنا فلم أكن جيداَ أبدا».

«هذا لا يعني شيئا. لا شيء على الإطلاق. لم أكن مثل ما قدر لجيم أن يصبح. لم نكن وقتها نعلم أنه سيكون والد مارغريت».

ابتسمت لحفيدتها: «لم نكن نعرف».

«اعتاد جامسي أن يأخذ إجازة أسبوعا ليحفر الأرض ويزرع البطاطا. كنا وقتها نملك قطعة الأرض على البحيرة التي لدينا اليوم، ولكن لم يعد لها فائدة الآن. لم يكن العمل شاقا كما كان في أيام طفولتي حين كانوا يستخدمون العربة اليدوية، وكان لدينا بغل وعربة بأحزمة مطاطية، وكل ما كان على جيم فعله أن يلتقط الأوتاد التي يغرسها أبوه حول الأرض ويضعها في العربة. في ذلك الوقت كان على جيم أن يلتحق بالمدرسة ويترك العمل قرب المستنقع، لكنه لم يشْكُ أبدا. معظم الناس كانوا لا يرسلون أولادهم إلى المدرسة إن احتاجوا إليهم في العمل.

قال جامسي: «لا أذكر الجو إلا باردا على الدوام عند البحيرة. لن تشعر بالبرد في منخفض المستنقع، لكن على الشاطئ ستواجه الصقيع، وما من ملجأ هناك سوى أشجار البتولا الصغيرة التي كنا نحتمي بها من الأمطار. كثير من الناس بنوا بيوتا صغيرة ليحتموا بها من الطقس العاصف. اعتدنا أن ننتظر ماري هناك بحماقة ونمكث حتى نراها تقود دراجتها في الزقاق».

«في أحد الأيام رأينا سيارة المعلم هنت قادمة من طريق المستنقع. طبعا كان هذا الرجل هنا أول من لمحها، وتساءل ما الذي أتى بالمعلم إلى هنا؟ وما تراه يفعل عند المستنقع؟».

«ثعالب ماكرة. لم نتوقع أنه أتى من أجلنا عندما أوقف سيارته على حافة الطريق. في تلك الأيام لم يكن بمقدور أحد الاقتراب من كاهن أو معلم إن لم يكن في جرأة جون كوين، ولم يكن من المتوقع أن يقتربا منك أيضا».

«كان المعلم هنت الأشرف والأكثر استقامة من بين كل المعلمين الذين عرفناهم».

«انتهينا من شرب الشاي، وبعد أن تحدثنا قليلا طلب أن يكلّمنا على انفراد. عندما ابتعدنا قليلا نحو السيارة قال إنه لم يصادف في حياته المهنية سوى واحد أو اثنين بمثل ذكاء جيم في الدراسة. وقال إنه متأكد من أن جيم سيحصل على منحة دراسية من المقاطعة في حال واظب على الدوام في المدرسة».

«سرّنا ذلك، فالسبب الوحيد الذي منعنا من إرسال جيم إلى المدرسة أننا لم نشعر من قبل بأهمية ذلك».

«أحضر المعلم هنت النتائج لنا بنفسه إلى البيت. لم يكن قد زارنا من قبل، وكانت يداه ترتجفان عندما سلمنا الرسالة. تحسبه هو الطفل الذي حصل على المنحة الدراسية!».

«حسنا، هو كذلك بطريقة ما».

«لم نتوقع أن يتمكن هذا الأحمق من إقناع المعلم بالبقاء، إلا أنه فتح زجاجة كحول جديدة بالرغم من أن الوقت كان صباحا. أقسم بالله إن الإثنين شربا الزجاجة كلها».

«ماذا قال جيم؟ لا بد أنه شعر بنفسه طائرا في السماء».

«لم يكن بمقدوره قول أي شيء بينما كان المعلم مستغرقا مع صديقك في الشراب. خفت أن يسقط المعلم مع سيارته في القناة بعد كل ذلك الشراب، فهو لم يكن معتادا على الإسراف في الشرب».

«كان رجلا مرنا».

«كان رجلا ضخما وقويا».

«بعد أن غادرنا المعلم ركب جامسي دراجته وجال في كل أنحاء البلد وهو ممتلئ إلى خياشيمه بالكحول»، قالت ماري وهي تضحك بسخرية لكن بعينين تفيضان بحب عميق. «طلبوه أول الأمر إلى اجتماع طويل في البلدية».

«كانوا يشعرون بالغيرة».

«كنت ناضجا بما يكفي وقتها لتعرف الناس على حقيقتهم ولا تتفاخر».

«وماذا قلت غير الحقيقة. قلّة منهم كانوا مسرورين».

«قلة نادرة».

«فليذهبوا إلى الجحيم. لم يكن يهمني أحد سوى جيم والمعلم هنت».

«كان من الأفضل لك أن تدعهم يعرفون بأنفسهم». صمتت ماري للحظات ثم قالت هامسة: «جامسي هذا لا يستطيع كتمان أي شيء».

«لم تعد ماري الإنسانة ذاتها بعد أن سافر جيم ليلتحق بالكلية في سبتمبر ذاك». كرر جامسي العبارة عدة مرات. «كسر غيابه قلبها ولم يعد ممكنا أن تعود إلى طبيعتها مرة أخرى، كأن الحياة نفسها هجرت المكانَ».

سأل روتلج: «ما رأيك يا مارغريت فيما تسمعينه عن أبيك عندما كان شابا؟».

أجابت الطفلة كأنها تشير إلى حقيقة معروفة: «أبي لا يتحدث عن حياته عندما كان صغيرا. أمي فقط تفعل هذا».

قالت ماري: «سيأتون جميعا إلى مارغريت حال عودتهم من الخارج» فاقتربت الطفلة منها.

نظر جامسي بقلق إلى المرج الأجرد ثم إلى السماء حيث كانت طائرة تشق طريقها في زرقة المساء الصافية. تملكته الهواجس وشعر أنه مكشوف. سيسخر الجميع من طمعه في كل أنحاء المنطقة إن أمطرت السماء. قال له روتلج: «سأكون هنا في الصباح. لن تمطر». «لا عليك بحق الرب. في أي وقت يناسبك». قال ذلك بشرود بينما كانت ماري ومارغريت تلوحان من مدخل البيت.

على شاطئ البحيرة وقف صبي على الصخور يصطاد السمك، يرمي بسنارته اللامعة إلى الماء ثم يلف بكرة الخيوط ويسحبها ببطء. نهض مالك الحزين من بين أعواد الخيزران وخفق بجناحيه متقدما خطوات قليلة قبل أن يدور عائدا إلى الضفة الأخرى بينما راحت الشمس التي اصطبغت بالأحمر القاني تغرق ببطء وراء الأفق. قال روتلج لكيت: «انتظرنا أن تأتي».

«لم أستطع التملص. أتى الشاه وكان يريدك في أمر مهم. جاء بيل إيفانس أيضا ثم تأخر الوقت».

«هل لدى بيل أخبار؟» سأل بحيادية، ثم أضاف بتعب: «بيل دائما لا أخبار لديه».

«أخبار مهمة. اعتبارا من الآن سيذهب كل أسبوع مرة إلى المدينة بالباص. سيحصل هناك على وجبة ورعاية خاصة».

«لا بد أنه في قمة السعادة».

«منتهى السعادة».

في الصباح التالي حجب ضباب أبيض كل شيء حتى الأشجار العالية على شاطئ البحيرة. غلالة رقيقة غطت أشجار الخوخ

والإجاص والتفاح في البستان وكست العشب كشبكة عنكبوت واهية. علق عصفور صغير في بيت النباتات الزجاجي ثم تمكن من الطيران هَاربا قبل أن يتحول إلى فريسة للقطة السوداء. فُصلت آلة جزّ العشب عن الجرار واستبدلت بها آلةُ التجفيف. كل ما في الصباح من نضارة وبرودة منعشَة كان يبعث على الغبطة في ترقب ما سيحمله اليوم من دفء. بدأت عملية التجفيف ما إن تبخّرت غلالة الضباب وجففت أشعة الشمس العشب من الندى. الآلة جديدة وتعمل بشكل ممتاز، تفرش العشب المجزوز في صفوف تحت أشعة الشمس ليجف قبل جمعه في حزم تبن كبيرة. بعد أن انتهى روتلج من العمل في مروجه انعطف بالجرار والآلة نحو البحيرة متجها إلى بيت جامسي حيث استقبلته الكلاب عند المدخل. كان الجميع في المرج، ماري وجامسي يسويان الأعشاب المتراكمة بالمذراة، ومارغريت تلعب مع الكلاب على مقربة منهما. قال روتلج: «هاتان المذراتان ليستا من علامات الإيمان بتقنية الآلات».

تجمّعوا حوله يراقبون كيف يضع آلة التجفيف في وضعية التشغيل ويربطها إلى الجرار. قال جامسي كمن يدفع تهمة عن نفسه: «كنا فقط نستغل الوقت». سأل روتلج مارغريت بعد أن شغل الآلة وحذرها من الاقتراب من مسنناتها: «أين تفضلين أن تكوني، في إيطاليا أم هنا في المروج؟». «في المروج بقرب ماري».

ظهرت خريطة أيرلندا على شاشة التلفزيون في نشرة الطقس الليلة الماضية وقد توزعت فوقها شموس صغيرة تشبه ثمار تفاح تضحك، ومع حلول المساء انتهت عملية فرش العشب الذي جف مع هبوط الليل وأصبح تبنا يصدر حفيفا حال لمسه. وُزع التبن في

الصباح التالي في صفوف تُركت بينها مساحات من أرض مكشوفة ذهبية اللون. عاد روتلج باتجاه البحيرة إلى مرجه ليحزم التبن لديه أولا بسبب ما أبداه جامسي من قلق، وأتت كيت لتساعده في صفّ الحُزم وتخزينها. وبالرغم من أن مشهد حُزم التبن الكبيرة المكدسة في المروج كان مألوفا بالنسبة إليه منذ سنوات طويلة، إلا أن جامسي لم يكد يصدق ما تراه عيناه من الدهشة وهو يراقب الآلة الحمراء الكبيرة تجمع التبن ثم تخرجه حزما مرصوصة ومرتبة. تحولت دهشته إلى قلق وعدم ثقة ظهَرا واضحين في الاستراحة عندما أتت ماري ببعض الشاي والحلوى. قال لها: «إن تدهورت أحوال الطقس الآن نستطع أن نكمل ما تبقى بالمذراة».

«وماذا عن مرجي المسكين؟». «أنت لا يهمك الأمر على الإطلاق».

«بل يهمني، لكن ليس بوسعي فعل أي شيء».

حُزم التبن أثقل من أن تحملها الطفلة، لكن جامسي تمكن مع ماري ومارغريت من صفها كلها ما إن لفظتها الآلة، حزمتان متوازيتان يُترك بينهما فراغ كاف ليوضع فوقهما بشكل عرضي حزمتان أخريان مع فاصل بينهما للتهوية. رتبوا الحزم كلها في صف طويل ووضعوا فوقها ما يقي من المطر ثم وقفوا في الأرض الجرداء كأنهم تماثيل.

اتجهوا بعد ذلك وراء الجرار عبر شاطئ البحيرة ليكملوا العمل في مروج روتلج يسبقهم الكلبان. ومع حلول المساء، بعد أن توارت الشمس خلف المنزل، كانت حُزم التبن قد صُفّت كلها تحت الظلال المتطاولة للأشجار الممتدة نحو شاطئ البحيرة. أطلق جامسي صيحة ظفر عندما رفعوا الحزمة الأخيرة ليتوّجوا بها آخر

صف صغير من الحزم وتنفس الصعداء: «لقد أنهينا كل شيء في ساعات قليلة». ردد عبارته هذه عدة مرات كأنه يتخفف من عبء النهار. «لو اجتمع الكثير من الرجال والأحصنة لاحتاجوا إلى أيام ولَمَا تمكنوا من إنهاء كل هذا العمل».

قالت كيت برقّة: «كل شيء في أمان الآن».

قال جامسي محذرا: «لكنها ليست في المخزن بعد».

«إن أمطرت اليوم نضعها في المخزن غدا. لم يعد بوسعنا فعل شيء اليوم سوى أن نتركها لمصيرها».

في الداخل أضاء مصباحُ قراءة غُطّي بظُلّة خضراء، طاولة الطعام الكبيرة التي وضع فوق غطائها الملون بمربعات كبيرة حمراء وبيضاء زبديّة زرقاء فيها سلطة وإلى جانبها طبق أبيض كبير فيه شطائر من التونة وشرائح لحم الخنزير. إلى جانب ذلك وُضع لوح فوقه أنواع مختلفة من الجبن بما فيها جبنة الغولتي التي يحبها جامسي بغلافها الفضي، بالإضافة إلى قطعة كبيرة من الخبز ونبيذ أبيض وزجاجة من شراب الباورس وعصير الليمون وإبريق من الماء تسبح فيه قطع الثلج مع شرائح الليمون.

قال جامسي مداعبا: «بيت عظيم ووليمة عامرة. مصباح مضاء في ذروة الصيف! هذا تبذير. تبذير.. تبذير.. والأطفال يموتون جوعا في إفريقيا».

«كل هذا اللغط عن أفريقيا وهو لا يعلم أين تقع إيطاليا! الرجال لا يقلعون عن عاداتهم أبدا! يثرثر عن المصباح ويشرب من الكحول ما يكفي لإضاءة بيت لسنة كاملة».

ملؤوا كؤوسهم، وكانوا متعبين أكثر منهم جائعين بعد يوم عمل مضنٍ وحار. تحول الإرهاق والوجع في أجسادهم إلى خدر

بفعـل الكحـول ولم يرغـب أيّ منهـم بالجلـوس إلى الطاولـة. وقفـت مارغريـت بجانـب جامـسي عـلى كرسـيه فداعـب شـعرها وشريطتهـا بينـما اسـترخى الآخـرون في كراسـيهم يتأملـون ضـوء المصبـاح. ظلـت الطفلـة بجانـب جدهـا إلى أن دخلـت القطـة السـوداء بحـذر إلى الغرفـة.

تـلاشى الضـوء في الخـارج فتحولـت السـماء وراء أشـباح الأشـجار السـوداء إلى وهـج خافـت، وبـدت الغرفـة شاسـعة بإطلالتهـا عـلى الحقـول والأشـجار وضـوء السـماء المخمـلي.

قالـت مـاري بصـوت خافـت: «في طقـس كهـذا لكـن في وقـت متأخـر أكـثر مـات والـد جامـسي. كانـوا يومهـا يصفـون حُـزم التـبن في الفنـاء حيـث وضعناهـا نحـن. كان مريضـا في الفـراش لكنـه لم يسـتطع الابَتعـاد عـن النافـذة. (ألا يصفّونهـا بشـكل خاطـئ؟) كان يسـأل بغضـب وأجيبـه: لمـاذا تزعـج نفسـك بهـم؟ انظـر، سـيضعونها هكـذا.. أقـول لـه هـذا وأحـاول إبعـاده عـن النافـذة، لكنـه مـا إن يذهـب إلى غرفتـه في الطابـق السـفلي حتـى يعـود بعـد وقـت قصـير ويلصـق أنفـه بالزجـاج كولـد مشـاغب».

«وهل كانوا يصفّون التبن بشكل خاطئ؟».

«لا ليـس بشـكل خاطـئ. بـل بطريقـة مختلفـة عـن طريقتـه». أطلـق لعنـات مروعـة يومهـا: فلتسـقط، فلينهمـر عليهـا المطـر. لـن يبقـى منهـا شيء للبقـرات. دفعتـه للذهـاب إلى فراشـه لكنـه مـا لبـث أن عـاد ليلصـق أنفـه بالزجـاج مـن جديـد، واسـتمر عـلى هـذه الحـال طـوال النهـار. كنـت أُعـد طعامـا للرجـال، وكان علـيّ أن أحتفـظ بوجـه حيـادي، وعندمـا أتـوا لتنـاول الطعـام عـاد إلى غرفتـه وصفـق البـاب وراءه ولم يظهـر مـرة أخـرى حتـى ذهبـوا.

أصغى جامسي إلى كلام ماري بصمت مطبق وبعد أن انتهت قال: «كان أبي فظا وجاهلا لكنه كان يحب ماري. لم يرحب بها في البيت في البداية، لكنه صار بعد ذلك يحب الأرض الذي تمشي عليها».

«لم يكن يكلمني في الفترة الأولى لقدومي إلى البيت، لكنه أصبح فيما بعد لا يقبل كأسا من الماء إلا من يدي».

«بعد أسبوعين من حزم التبن كنت أرش الأرض بالسماد مع البغل الصغير وأصر أبي أن يساعدني. كان يُفترض به أن يكون في الفراش، ولأني أعرف مقدار عناده لم أكترث للأمر. كان الطقس كما هو اليوم طقسا رائعا. ناداني وأنا أعمل قائلا إن مذراته قد علقت. كدت أضحك، فلم تكن المذراة عالقة وكان باستطاعة طفل أن يرفعها لكنه لم يقوَ على ذلك. عندها انتبهت أن وضعه سيئ للغاية، وكان عليّ أن أحمله إلى البيت. لم يعش بعدها سوى ثلاثة أيام».

«كان علي أن أبقى معه، فقد كان الخوف والقلق يتملكانه إن تركته حتى ولو بضع دقائق. وفي النهاية تلاشى. رحل بسلام كما يتمنى أي إنسان».

قال روتلج: «يبدو أنه كان يشبه جوني أكثر مما يشبه جامسي».

«إلى حد بعيد. لذلك لم يكونا على وفاق. لا أدري من أين لهما بجامسي! لم يكن يشبههما في أي شيء».

صاح جامسي: «كطائر الوقواق!».

«في أي مكان تظن جوني في هذه اللحظة؟».

رفع جامسي كمه ونظر إلى الساعة لكنه وجد صعوبة في تبين الوقت في الإضاءة الخافتة. «في الحانة. لا بد أن يكون في حانة الأمير

في مثل هـذا الوقـت، إلا إن كان فريقـه في مبـاراة».

«النـاس يأتـون ويذهبـون في ذاكرتنـا أينـما كانـوا، هنـا أم في إنجلـترا، أحيـاء كانـوا أم أمواتـا». قالـت مـاري بسـوداوية بـدت منسـجمة مـع طبيعتهـا ومـع ابتسـامتها الجوانيـة الجميلـة. «لسـنا أكـثر مـن هبـة ريـح عـلى شـاطئ البحـيرة».

سـمعوا قرعـا قويـا عـلى البـاب مـن جهـة الـرواق، وصـوت عصـا بيـل إيفانـس عـلى الأرضيـة، مـع وقـع خطواتـه المتثاقلـة في جزمتـه الضخمـة. «بـارك الـرب فيكـم جميعـا». تنقلـت نظراتـه بـين الوجـوه ثـم تسـمّرت عـلى الطاولـة المضـاءة ومـا عليهـا.

قالت كيت: «ليس من العادة أن نراك مرتين في اليوم».

تركـت مارغريـت جامـسي واقتربـت مـن مـاري بينـما ركضـت القطـة خـارج الغرفـة.

«لم يكـن لـدي الكثـير لأفعلـه فجئـت أطمـئن كيـف تسـير أموركـم مـع تجفيـف التـبن».

قال جامسي ساخرا: «تم كل شيء بسلام. لقد تأخرت!».

«هل تريد أن تأكل؟».

«نعـم، باللـه عليـك يـا كيـت بسرعـة». جلـس عـلى الكـرسي الهـزاز وعندمـا قُـدّم لـه طبـق كبـير مـن الشـطائر قـال: «أهـلا بكـم جميعـا إلى هـذه الناحيـة مـن البحـيرة»، فأجابـوه وهـم يغالبـون ضحكهـم: «نحـن سـعداء بوجودنـا هنـا».

سأله جامسي ممازحا: «هل انتهيت من مروجك؟».

أجاب بيل إيفانس: «لا، مروجي ليست جاهزة بعد».

«كل من لم يقم بقص مروجه اليوم سيخسر كل شيء».

«هذه عادتك دائما في السخرية يا جامسي».

قالت ماري: «صحيح يا بيل، قل ولا تقصّر فيه».

«أعرف كيف أجعله ينضبط، فأنا أراقب ألاعيبه منذ سنوات». أجابه جامسي بصيحة ابتهاج خفيفة.

قال روتلج: «بيل سيذهب إلى المدينة قريبا».

«نعم، كل خميس سيأتي الباص ليأخذني من عند البوابة».

قال جامسي موافقا: «جيد، أنت رجل طيب يا بيل».

«أريد بعض الشراب قبل أن أذهب يا جو».

«أنت لست معتادا يا بيل». قال روتلج ثم ملأ له كأسا صغيرة وأضاف إليها الكثير من الماء. شربها دفعة واحدة وطلب المزيد. «لا يا بيل سيسبب لك هذا المتاعب».

رافقه روتلج إلى البوابة. لم يكن الدلوان معه فسار مباشرة في الطريق الصاعدة إلى التلة ملوحا بعصاه في مشيته المائلة التي تشبه زحف السرطان. فاح هواء الليل بروائح العشب المقصوص وأشجار صريمة الجدي، وطار عصفور متنقلا بين الأغصان ثم سكن، بينما بدت أكداس حزم التبن تحت الأشجار العالية كمكعبات ذهبية في ضوء القمر. رأى روتلج من نافذة الرواق ضوء سيارة يتحرك في البعيد كأنه قمر صغير على الطريق المتجهة إلى شروهاون، وعندما دخل إلى البيت وجدهم جميعا يستعدون للخروج.

«لا بد أنكم متعبون. سنوصلكم بالسيارة إلى شاطئ البحيرة».

«لا، قضينا ليلة رائعة. من لا يريد المشي في ليلة كهذه؟!».

«الليلة كانت عظيمة، لكن يومنا كان طويلا ومتعبا. اركبوا في السيارة».

اعتاد روتلج ألا يأخذ كلام جامسي حرفيا. كانوا سعداء بركوب السيارة، ماري ومارغريت يمسكان بالكلبين، وما إن تحركوا حتى

راح رأس جامسي ينوس إلى الأمام فوق صدره من النعاس.

صدق حدس كيت بأن لدى الشاه أمرا يشغل باله. أتى في موعده المعتاد يوم الأحد، أثنى على المرج النظيف وأكداس التبن، لكن عقله كان في مكان آخر ولم يطق صبرا ألا يبوح بما لديه.

تنحنح بصوت مسموع وقال: «أريد أن أتقاعد». كأنه هو نفسه لا يصدق ما يقول.

فوجئ روتلج: «أنت لا تشكو من شيء، أليس كذلك».

ضحك وأجابه: «لا».

«لماذا تريد أن تتقاعد إذن؟».

«لكل شيء أوان». هناك بعض المغفلين يستمرون في حياتهم وكأنهم باقون أبدا. لا أريد أن أكون من هؤلاء».

ساد صمت غريب في الغرفة، ففكرة تقاعده كانت بالنسبة إلى عائلة روتلج أمرا لا يقل صعوبة عما يشعر به الشاه نفسه، لكن روتلج أدرك أن الشاه ما كان ليطرح الموضوع لولا أنه أشبعه تفكيرا. «ماذا ستفعل بأعمالك؟».

«سأبيع».

«لمن ستبيع؟».

«لأي أحد يريد الشراء».

«وماذا سيحدث لفرانك؟».

«على فرانك أن يتدبر أمره مثلنا.. حسنا، ما رأيك؟» سأل بعد صمت طويل ومحرج.

«ألن تفتقد عملك؟ لقد أمضيت فيه أغلب سنوات عمرك. ماذا ستفعل بحياتك؟».

«لدي الكثير لأفعله»، قال بحدة. «ولا أبالي إن لم أجد شيئا أفعله».

«عليك ألا تتسرع. هذا كل ما يقلقني. تروَّ حتى تكون قد درست قرارك جيدا».

«لن نتسرع. هذا ما لن نفعله في أي حال». ضحك مستعيدا ثقته.

«ماذا سيحدث لأولئك الرجال في الأكواخ التي تملكها؟».

«لن يتغير شيء من جهتهم. لن يصيبهم أي مكروه وستبقى الأكواخ كما هي. حسنا، ما رأيك في الموضوع يا كيت؟».

«إنها خطوة كبيرة. ما رأي الكابتن هنا؟» ابتعد الكلب لدى سماعه اسمه واقترب من كيت، حركة أرضت سيده الذي ابتهج بما سمع. «إنه يعرف إلى أين يذهب. ليس أحمق».

سأله روتلج: «هل ناقشت الموضوع مع أحد غيرنا؟».

«لا. بضع كلمات فقط مع تلك المرأة في الفندق، لكني لم أخض في التفاصيل مع أي أحد».

«هل لديك أي مشكلة صحية؟».

«لا حسب علمي سوى أني تقدمت في السن».

«يصعب عليّ تقبل الفكرة».

«ويصعب عليّ أن أتقبّلها أنا نفسي أيضا»، قال بدعابة كئيبة. «لكن هناك وقت ما علينا أن ننتقل فيه إلى مكان آخر».

«لمَ لا نؤجل الموضوع فترة من الوقت. إن لم تغير رأيك خلال بضعة أسابيع نتحدّث مرة أخرى».

«هذا ما سنفعله. يشغلني الموضوع منذ وقت طويل ولا أستطيع نسيانه».

«أعتقد أن عليك أن تعطي فرانك دولان فرصته إن أردت أن تبيع، فلقد عمل عندك طوال حياته».

«وهل يستطيع ذلك؟ هل يملك ما يكفي من المال؟».

«يمكننا أن نبحث في كل ذلك عندما تصل إلى قرار نهائي».

سارا في الحقول وشاهدا في طريقهما أكداسَ التبن في المروج الجرداء والأبقار والأغنام في المراعي. وقفا على التلة المطلة على البحيرة ونظرا إلى مالك الحزين وهو يعبر من الشاطئ إلى المستنقع. الجو ساكن دون نسمة واحدة، وأوراق البردي حال لونها إلى القمحي وامتدت شجيرات البتولا كزهور خضراء امتزج لونها بزرقة الجبال في البعيد.

«هذه الزرقة تعني أن الطقس سيكون جيدا».

«بمناسبة الزرقة.. يبدو أن جارك سيقدم على فعل متهور من جديد».

«بزرقة الجبال الساحرة في البعيد؟» تمتم روتلج كأنه يرجع الصدى. «نعم، كان متهورا منذ أن عرفته».

«هذه المرة ستكون في الكنيسة مع كل الطقوس، ويليها حفل استقبال كبير في الفندق. أخبرك من الآن أنكم ستكونون مدعوين كلكم».

«ومن تلك المرأة المحظوظة؟».

«أرملة حمقاء من شمال البلاد، من ويث أو ويستميث، أولادها كبار وتملك مزرعة كبيرة. امرأة جذابة ونضرة كما قيل لي».

«أين وجدها؟».

«في أفضل مكان.. في مكتب زواج!».

«كفاك الآن.. هل تعتقد أن الرهبان والراهبات لديهم ما يفعلونه أفضل من فتح دكان للترقيع؟!» ارتجّ جسده من الضحك ثم مسح دموعه بكفه.

«من أخبرك بذلك؟».

«المرأة في الفندق. لقد تم حجز كل شيء. نصحتها أن تقبض الأجرة سلفا».

«هل أنت واثق أنك لا تختلق هذه القصة؟».

«ولا كلمة واحدة». وانخرط في ضحك صامت. «ليس هناك أكثر حماقة من أحمق عجوز».

وُضعت آلات الجزّ والتجفيف وحزم التبن في المخزن إلى الموسم القادم، وأُخرجت مجرفة كان الشاه قد أعطاها لروتلج بدت في وزنها الثقيل وأسنانها الفولاذية الحادة كأنها تحفة قديمة، إلا أنها كانت مناسبة للعمل في تسوية الأرض حول أكداس التبن. ما إن وصل روتلج مع مجرفته الكبيرة في الجرّار إلى الشارع، حتى رأى أن مخزن جامسي قد امتلأ نصفه. وصلت مارغريت تجر البغل من لجامه مع ست حزم محملة على العربة الصغيرة ذات العجلات المطاطية يتبعها جامسي، بينما كانت الدجاجات تتبختر باختيال في قفصها المعدني وأزهار الثالوث وإبرة الراعي تتألق في أصصها المصفوفة على رفوف النوافذ. كانت ماري تقف وراء النافذة.

«لو أخبرتني أنك ستبدأ العمل لكنت أتيت».

«لم يكن لدينا ما نفعله فقلنا نقوم بعمل مفيد».

أفرغوا العربة من حمولتها وحرروا البغل ثم أطلقوه في الحقل. «لو كان يدري ما يفعل لانضم إلى الأبقار، لكنه سيبقى وحده شأن البشر الذين لا يستطيعون التحكم بكمية ما يشربون». في البيت أخرج جامسي زجاجة وهَزَأ من روتلج عندما رفض أن يشرب.

«الوقت مبكّر لشرب الكحول. لا أستطيع النظر إليه الآن».

«أستطيع أن أشربه في أي وقت من النهار».

قالت ماري بتهكم وهي تصب له كأسا: «بالطبع تستطيع».

«هل من أخبار لديك؟».

«لا، جئت بحثا عن أخبار».

«أتيت إلى المكان الخطأ. فنحن ننتظر الأخبار».

ضحكت ماري من تكرار هذه العبارات لكن روتلج لم يستمر في اللعبة وأضاف: «لدي أخبار مهمة» فساد الصمت في الغرفة. «أخبار مهمة جدا».

صاح جامسي: «ماذا؟ ماذا؟ إنك فقط تمثّل، وما من أخبار لديك».

«لدي أخبار مهمة ومثيرة».

الأخبار قوت جامسي الذي لا يستطيع العيش دونه والمصدر الذي يغذي اهتمامه بكل ما يتحرك حوله في حياته. قبل سنوات كان مع ماري على موعد لقضاء أمسية في بيت روتلج. لم يكن ذلك يروقه لأنه لا يحب الرسميات والمواعيد المسبقة. ذهب روتلج ذاك اليوم لشراء لوازم السهرة من المدينة فصادف جامسي هناك ورافقه إلى الحانة حيث شربا وتحدثا لمدة نصف ساعة. «لن أودعك الآن فنحن سنراك الليلة».

رد بحزم: «لا، لن تروني».

سأله بقلق: «لماذا؟ هل هناك أي مشكلة؟».

أجابه ببساطة: «لا، ما من مشكلة أبدا. لكن لم يعد لديك أخبار هذه الليلة. لقد حصلت على كل ما لديك من أخبار».

لم يصدق روتلج ما سمعه حتى أتى المساء وانقضت الليلة دون أن يظهر جامسي أو ماري. والآن يضيق ذرعا بعبث روتلج وهو يكتم عنه ما لديه. «أنت تمثل دور المهرج فقط ولا أخبار لديك».

قالت ماري: «ربما أنت الذي تلعب دور المهرج، أما هو فلا».

«أقول لك إنه لا أخبار لديه. لم نسمع أخبارا في هذه المنطقة منذ سنوات».

«جون كوين سيتزوج مرة أخرى». قال روتلج هذا كأنه يلقي بورقة الحُكم[5] على طاولة لعب خضراء.

«أنت تكذب.. من قال لك هذا؟ لا بد أن أحدا كذب عليك».

«أخبرنا الشاه بذلك».

«ومن أين له أن يعرف؟ هو في المدينة».

«الشاه لا يكذب فهو غير معنيّ بالأمر على أي حال. إنه يرى كل الذين يتزوجون حمقى».

قالت ماري: «قد يكون صادقا إذن؟». «السيدة ماغواير صاحبة الفندق المركزي أخبرته. هما صديقان مقربان».

«أعرف ذلك. أعرف ذلك فهو يوصلها إلى القداس كل يوم أحد. يشبهان زوجين قديمين مع بعضهما».

«تم حجز إفطار الزفاف في الفندق المركزي وسنكون جميعنا مدعوين».

صمت جامسي فترة طويلة قبل أن يصدق أن روتلج لا يمزح أو يكذب، ثم بدلا من أن يقول شيئا هلل وصاح مبتهجا.

سألت ماري: «أين وجد جوني تلك المرأة المغفلة التي قبلت به؟».

«عن طريق مكتب الزواج».

قال جامسي وهو يفرك يديه كأنه للتو بدأ يصدق ما يسمع: «رأيت إعلانا عن هذا المكتب على جدران الكنيسة. يمكن لجون

(5) في الخليج تقال (حُكم)، وبعض البلدان العربية تقال: «الطرنيب»، وهي تسميات لها علاقة بإدارة اللعب بالورق/ الكوتشينة.

كويـن أن يفعـل أي شيء. كان في الفـترة الماضيـة يرسـل الكثـير مـن الرسـائل ويذهـب إلى أمكنـة كثـيرة في أوقـات متأخـرة».

قالـت مـاري: «الأمـر المؤكـد الوحيـد أن جـون كويـن لـن يدفـع تكاليـف حفـل زفـاف يدعـى إليـه نصـف سـكان البلـد».

«ربما الزوجة هي التي ستدفع. ربما كانت تملك المال».

«عندها ستكون الحمقاء الكبرى».

«ويكون الأمر برمته محض أكاذيب».

قـال روتلـج: «الأفضـل لنـا أن نبـاشر العمـل بأكـداس التـبن إلّا إن كنـا ننـوي الـزواج نحـن أيضـا».

نقلـوا حـزم التـبن بسـهولة، روتلـج في الجـرار مـع مارغريـت بـين رجليـه تمسـك بالمقـود أحيانـا، بينـما وقـف جامـسي مـع مـاري جانبـا يراقبـان. ارتفعـت أكـداس التـبن في المخـزن في طبقـات تشـبه الـدرج، وكان عـبء العمـل الأكـبر عـلى مـاري التـي كانـت تأخـذ الحـزم مـن روتلـج وترفعهـا إلى الأعـلى ليلتقطهـا جامـسي بيديـه الضخمتـين ويضعهـا بخفـة في مكانهـا. ارتـدت مـاري قبعـة رجاليـة مقلوبـة إلى الـوراء لتحمـي شـعرها فأضفـت عـلى وجههـا الجميـل ملامـح صبيانيـة كلـما ابتسـمت، لكنهـا ذوت مـن التعـب مـع حلـول المسـاء، ومـع ذلـك رفضـت أن تتوقـف عـن العمـل عندمـا قـال لهـا روتلـج إنهـا عملـت أكـثر مـما ينبغـي وإنـه يسـتطيع المتابعـة مـع جامـسي وحدهـما.

قالـت وهـي تضحـك: «لم يبـق إلّا القليـل. أتسـاءل مـاذا سـيقول الأب العجـوز المسـكين لـو جـاء الآن ووضـع أنفـه عـلى زجـاج النافـذة؟».

قال جامسي: «سيفقد عقله. سيظن أن العالم أصيب بالجنون».

قال روتلج: «سنكون كلنا آباء في يوم ما».

صاح جامسي من وسط الحر الخانق بين أكداس التبن: «هذه هي الحياة».

قالت ماري: «أعتقد أن مارغريت ستتحدث عنا عندما نكون راقدين تحت التراب في شروهاون بنفس الطريقة التي نتكلم بها على الأب».

«ستتحدث بلطف ونعومة مع زوجها قائلة كانوا أناسا محترمين. رحمهم الله. لم يتعلموا ولم يكونوا أغنياء ولم يكونوا يفقهون في اللباقة والسلوك، لكنهم كانوا طيبين».

صاحت مارغريت وهي تضرب الأرض بقدمها: «لن أقول ذلك».

«صحيح يا مارغريت. لقد ذهب بعيدا فيما قال. روتلج ذهب إلى المدارس وهو رجل مثقف، ليس كهذا المهرج الذي يتكلم بين التبن عن عشرة أشخاص».

قال روتلج: «ألا ترين إلى أين انتهيت بعد كل ذلك يا ماري؟».

«إلى عمل مهم لدى الحكومة». صاح جامسي فضحكا معا ثم نهضا ليتابعا العمل.

بينما كانوا يرفعون حزم التبن الأخيرة اقتربت سيارة خضراء من الشارع، ليست فارهة كمرسيدس الشاه، لكنها مع ذلك مميزة، جديدة ومكشوفة السقف تلتمع إطاراتها الفضية في الشمس وتنبعث الموسيقى من مكبرات الصوت فيها. صاحت ماري: «انتهت عطلة مارغريت». اقتربت الطفلة منها وعلى وجهها ملامح القلق والتوجس. كان الوالدان أول من نزل من السيارة، جيم في لباس الغولف الرياضي ولوسي في فستان صيفي بينما وقف الأولاد مستسلمين لحالة غريبة ينظرون من بعيد إلى مارغريت

دون أن يقتربوا منها أو تقترب منهم.

ساد الصمت لحظات حتى قطعه جامسي الذي صاح مرحبا وهو يقفز بسرعة من فوق أكداس التبن. «أهلا وسهلا بكم». صافح الجميع دون أن يعانق أو يقبل أحدا، وبحركة عفوية لمداراة انفعاله اقترب من الأطفال الثلاثة محاولا رفع كل واحد منهم ثم أشار بإيماءات أنه لم يعد قادرا على حملهم. «إنكم تكبرون بسرعة بينما أنا العجوز أذوي وأصغر». حرك قسمات وجهه كمهرج فضحك الأطفال واستعاد هو حضوره المرح بينما وقفت ماري ساكنة وقد اكتسى وجهها بحنو الأم وهي تنتظر قبلة ابنها كأنها في طقس مقدس.

قال ابنها مداعبا: «أما يزال يعاملك بشكل سيّئ يا أمي؟».

صاح جامسي: «ثعالب ماكرة»، بينما ظلت ماري ساكنة.

قبلتها لوسي وهي تقول بتدفق: «كيف أنت يا جدة؟ ما أروع أن أراك!!».

قالت وصوتها يرتعش مع دقات قلبها المسموعة: «أهلا بكم. أهلا. اشتقت إليكم».

صافحهم روتلج: «أهلا بكم».

«تساعد الوالد والوالدة في تخزين التبن؟ عائلتك الكبيرة».

«كيف هي كيت؟» قالت لوسي بحيوية تدفقت كنغمة موسيقية في صوتها.

«بخير. ستشعر بالأسف لأن الفرصة لم تسمح لها برؤيتك. كيف كانت فلورنسا؟».

«عظيمة، رائعة. رحلة العمر».

قال جيم بهدوء: «سعيدون بعودتنا إلى الوطن».

قالت لوسي وهي تجبر نفسها على الابتسام في وجه الطفلة: «كيف كان سلوك مارغريت؟».

«مارغريت كانت رائعة. لقد ساعدتنا كلنا في المروج»، قال روتلج وهو يشعر أنه في غير مكانه. «لقد أبهجت قلوبنا».

قال جيم ضاحكا: «لا بد أن همّا كبيرا انزاح عن صدر هذا الرجل، مع الانتهاء من تخزين التبن. عادة ما يصبح عاطفيا في هذا الوقت من السنة».

«لا تلقوا بالا إلى كلامه. سيدخلكم في دوامة إن أصغيتم إليه»، قال جامسي بمرح وهو ينصرف إلى الأولاد الذين يلعبون مع الكلبين. «لن تعرفوا أين أنتم أو إلى أين تذهبون إن أصغيتم إليه».

قالت لوسي بتواضع ساحر: «لديه إجابة عن كل شيء. أي شخصية لديه؟!».

قال زوجها بلهجة امتزج فيها عدم الثقة بالقلق والعدوانية: «صقر..».

رد جامسي وهو لا يزال مشغولا مع الأطفال: «فليرأف الرب بروح العجوز المسكين».

تلاشت حرارة اللقاء وعادت الدجاجات للنقر بين التراب ولتوجيه نظرات مضحكة بعيونها الصفراء بين فينة وأخرى إلى الشارع المزدحم. دقت إحدى ساعات البيت مبكرة في توقيتها ساعة كاملة، وحط طائر أسود بجلبة على الشجيرات جانب التبن. وقفت ماري صامتة تتأمل ابنها وزوجته كأنها تتساءل في سريرتها كيف مضى كل ذلك الزمن وتسرب من حياتها بطرائق لم تكن جميعها من اختيارها. فاض وجهها بمشاعر وانفعالات عديدة، وبدا كأنها تتحرق إلى لمس كل تلك السنين الهاربة من عمرها وضمها بين

يديها. لكن كيف يمكن لها أن تجمع الزمن وتقبله ولا جسد له؟!

كان جيم ودودا ومجاملا مع روتلج، لكنه افتقد إلى تلك الحرارة والخصوصية والحيوية التي كانت لوالديه. لم يفعل ما هو غير مألوف، فقد اعتاد أن يعير انتباها للآخرين، وبدا وجهه في تلك اللحظة لطيفا كأنه اكتشف في شواطئ شارع كيلدار الجديدة ما يسد رمقه بعد رحلة طويلة أرهقته مبكرا. كان قد تقدم كثيرا في مراتبه الوظيفية، ومن المستبعد أن يمضي أبعد من ذلك من دون نصيب كبير من الحظ.

زوجته أيضا كانت تطمح أن يترقى في عمله لكنها كانت بشكل ما عائقا في وجه ما يصبو إليه. توقعت عندما التقت بروتلج وكيت أن تبهرهما بشخصيتها، ذلك أنهما كانا يعرفان أهل زوجها، لكنهما وجداها متعبة تستمد كل ما في حياتها مما هو خارج ذاتها، وخصوصا مماَ تتخيل أنه انطباعات الآخرين عنها، وقد ساعد جمالها وفتنة أنوثتها في تأصيل نزعة الخيلاء لديها. لم يكن التهذيب في معاملة الآخرين لها كافيا لإرضاء غرورها، وكانت تسارع إلى تجاهل كل من يبدر منه ولو إشارة توحي بأن تأثيرها عليه أقل من ساحر. ما من شيء كان قادرا على إشباع إحساسها بالأهمية والثقة سوى وجودها بين أفراد عائلتها الكبيرة التي تشعر بقوة الانتماء إليها وحميمية العلاقة معها، على النقيض من زوجها الذي أصر أن يكون دائما قريبا من الدرجة الثانية. قال روتلج: «سأنتهي من الحزم الباقية وأدعكم لسهرتكم». بعد أن انتهى وأصبح المرج نظيفا ومرتبا رفض أن يطفئ محرك الجرار، لوح لهم مودعا وألقى بقبلة في الهواء إلى مارغريت فأدارت وجهها خجلا وغبطة.

«أتمنى لكم أمسية سعيدة».

قالت ماري: «بارك الله فيك».

صاح جامسي: «أنت تعلم أني لا أحبك في كل الأحوال».

ابتسمت لوسي ملوحة بيدها كملكة: «أليس فظيعا؟! لكن علينا أن نعترف أنه شخصية مميزة». واكتفى جيم بابتسامة خفيفة وهو يلوح بيده.

في الصباح التالي كان الطقس ساكنا وخانقا وأعلنت نشرة الأحوال الجوية في الراديو أن أمطارا رعدية ستجتاح البلاد كلها من الجنوب. بدؤوا العمل منذ الصباح الباكر في تسوية الأرض، وتركت إطارات الجرار فوق العشب الكثيف مسارات فاتحة اللون. أصرت كيت على المساعدة وارتدت قفازات قديمة لتقيها خشونة الحبال، لكنها لم تقوَ على رفع حزم التبن الثقيلة.

«أواثقة أنك تريدين القيام بهذا؟».

«نعم، طالما أستطيع أن أكون مفيدة».

«بالتأكيد أنت مفيدة، لكن هذه الحزم ثقيلة، ويجب ألا تؤذي نفسك».

عملا ببطء وانتظام، وازدادت مشقة رفع الحزم مع ارتفاع أكداس التبن. وصل جامسي وماري على دراجتيهما قبل انقضاء فترة الصباح عبر البوابة، ومرا من تحت أشجار جار الماء كل منهما يرتدي قبعة أُدير واقيها إلى الخلف، بينما كان كلباهما يقتفيان أثرهما على المروج. تنفس روتلج وكيت الصعداء، فبمجيئهما انخفض العمل الشاق والرتيب الذي ينتظرهما قبل مطر الليلة المتوقع إلى النصف وأصبح أكثر سهولة.

صاح جامسي: «عجوزان فقيران يبحثان عما يسد رمق الشتاء القادم».

«لماذا تركتما ضيوفكما؟».

«ذهبوا. سافروا الليلة الماضية، فدبلن ليست أبعد من ساعتين بسيارتهم تلك».

«ظننا أنهم سيبقون معكم بضعة أيام».

«لا، لقد ذهبوا». قال جامسي بحذر. «جيم عليه أن يعود إلى عمله والبيت لدينا صغير».

«مارغريت المسكينة كانت حزينة». قالت ماري بأسى ثم أضافت: «لم تكن تريد الذهاب معهم وكل ما كانت تحلم به أن تكون معنا في المروج اليوم».

«عندما ترى طفلة مثلها لا تستطيع إلّا أن تتمنى لها السعادة».

«فلنأمل أن تتحقق أمنيتنا إذن. عليها أن تكافح في الحياة وحدها مثلنا جميعا».

«ليس هناك أصعب من رؤية رجل وحيد في المروج». قال جامسي ثم انفجر ضاحكا عندما رأى القفازات في يدي كيت. «كيت، بارك الله فيك. يبدو أنك مستعدة للشتاء»، ثم مد لها يديه الضخمتين. «انظري، أحذية حقيقية. جلد طبيعي».

انخرطوا في العمل بنشاط، ومع مرور الوقت أصبح نقل حزم التبن أسرع. دخلت كيت وماري إلى البيت وعادتا بإبريق من الشاي المحلى. اتكأ جامسي على أكداس التبن وقال: «الشاه على حق.. جوني سيتزوج».

«كان يتحرق ليعرف كل شيء كدجاجة تتلوى على صفيح ساخن». قالت ماري بسخرية. «هبة من الله أن يحدث هذا ولو مرة واحدة، أن يقع أمر ما ويعرف به أحد قبله. ما إن غادرتنا ذلك اليوم حتى طلب من جيم أن يوصله إلى شروهاون،

ولم تصدق لوسي من قلقها أنهما سيعودان».

«لم نشرب سوى كأسين. كان المكان مكتظا ولقي جيم ترحيبا حارا. كان جون كوين كقطة تلعق صحنا من الكريما، الجميع يهنئونه ويربتون على ظهره ويقدمون له الشراب. مشهد يجعلك تموت من الضحك. وجدها عن طريق مكتب الزواج وعائلتها تعارض بشدة، ولهذا يقيمون حفل الزفاف هنا. لديها ثلاثة أبناء ومزرعة كبيرة وكثير من المال. لن يرسل جوني بطاقات دعوة، بل سيقوم بزيارة جميع الجيران شخصيا ودعوة الجميع. توقعْ منه زيارة في أي لحظة. لقد قضينا وقتا رائعا تلك الليلة».

سأل روتلج: «هل شرب جيم؟».

«كأسين فقط، لكن لوسي فقدت أعصابها. حشرت الجميع في السيارة فور عودتهما». ضحكت ماري وأضافت إلى جامسي: «لو سمعت ما قالته في طريقهم إلى دبلن لاحمرت أذناك».

«فليعطنا الرب العافية. أولئك الناس يبالغون في متطلباتهم. يعتقدون أن حياة الآخرين يجب أن تتمحور حول الرفوف التي يعرضون عليها مظاهرهم».

نقلوا أكداس التبن من المرج وامتلأ المخزن، وفي اللحظة التي توارت فيها الشمس وراء غيوم المساء السوداء تمكنوا من إفراغ آخر الحزم دون عجلة وهم يثرثرون بتكاسل. صمتت الطيور وخفَتَ طنين الحشرات بينما حلق السنونو على انخفاض فوق المرج. ضربت طيور التَّم الهواء الساكن بأجنحتها وهي تعبر البحيرة في سرب من سبعة طيور قبل أن تختفي وراء الأشجار محدثة في طيرانها ضجيجا لا ينسجم مع كائنات أنيقة مثلها. كانوا يرتبون

المكان بتمهل بعد ساعات طويلة من العمل وترقب ما يحمله الطقس، عندما وصل بيل إيفانس عبر البوابة ووقف عند المخزن مرتديا جزمته الكبيرة، وقد تقاطعت حمالة بنطاله الفضفاض، التي ثبتها بدبابيس بدلا من الأزرار، فوق قميصه الخشن.

قال: «عمل عظيم».

أجابه جامسي مستفزا: «فات الأوان على كل من لم ينته من مروجه بعد».

أجابه بيل إيفانس بتحدٍ: «لا يزال هناك الكثير من الطقس الجيد».

«أنت على حق يا بيل. لا تبالِ به». قالت ماري مساندة إياه ثم سألت: «متى ستذهب إلى المدينة؟».

«اعتبارا من الآن كل خميس».

«سينظفونك جيدا في المدينة يا بيل. ستكون شخصا آخر».

«أنت مقرف يا جامسي. سيأتي يوم يطردونك فيه من المقاطعة. عجيب أمر ماري، كيف احتملتك كل هذا الوقت».

«ماذا بوسعي أن أفعل يا بيل. لقد تورطت وعلقت به».

تركتهم المرأتان واتجهتا إلى البيت فتبعهما بيل بثقة كطفل. «رحمتك يا رب. يعاملونه أسوأ من كلب وهو لا يمانع أن يموت مصلوبا من أجلهم لنطقهم كلمة واحدة فقط. سيقضي وقتا رائعا في المدينة ويلتهم كل ما تقع عليه عيناه. سيأكل ويشرب إلى أن يتراكم ذلك حول جسده كحلقات من الشحوم». قال جامسي بمرح. «أحيانا إخاله سعيدا كأي واحد منا».

وقفت كلمات جامسي معلقة في الهواء بينهما لحظات دون أن تحظى بالموافقة أو عدمها، كأن كلا منهما يعلم في قرارة نفسه أن

مـا مـن شيء مؤكـد يحـدد معنـى السـعادة أو نقيضهـا بالنسـبة إلى أي إنسـان آخـر.

«هل تتبادل المواقع معه؟».

«لا».

«هل يتبادل هو معك؟».

«كضربة رام».

«أشك في ذلّك. لا أحد يبدل حياته، عادة هذا غير ممكن».

«أنا أبدل. أحب أن أكون دي فاليرا»[6].

«سـتكون ميتـا إذن». قـال روتلـج وانتبـه إلى أن تعابـير وجـه جامسي توحـي بأنـه لم يفهـم كلماتـه عـلى أنهـا مزاح.

وقفـوا مـع حلـول المسـاء يتأملـون المـروج الجـرداء، مسـاحات مـن الضـوء الأصفـر المحـروق تمتـد في مثـل هـذا الوقـت، أسـبوعا أو أسـبوعين في كل أنحـاء الريـف وسـط خـضرة المراعـي والأشـجار. اقـترح روتلـج أن يتوقفـوا عـن العمـل ويدخلـوا إلى البيـت، لكـن جامـسي ظـل يتلـكأ في رصـف الحـزم الأخـيرة كأنـه ينتظـر هطـول المطـر الـذي لم يتأخـر، فانهمـر بعـد أن هجعـت الطيـور محدثـا صوتـا قويـا فـوق ألـواح الحديـد. قـال جامـسي وهـو ينظـر عـبر البحـيرة إلى التلـة الجـرداء حيـث كانـت أبقـار باتريـك القليلـة ترعـى: «أليـس باتريـك ريـان أكـثر الرجـال مدعـاة لليـأس». «كل أيـام الصحـو التـي مـرت ولم يقـصّ أيّ شيء مـن مرجـه! ولـن يكـون أقـل إهـمالا إن جـاءت أيـام جافـة أخـرى». انهمـر المطـر بغـزارة فـوق سـطح البحـيرة وتسـاقطت قطـرات المـاء مـن شـجرة الجميـزة الكبـيرة فـوق سـقف المخـزن. قـال

(6) إيمون دي فاليرا (1882-1975) أحد زعماء أيرلندا الذين كافحوا من أجل نيل الاستقلال. كان رئيساً للوزراء ثلاث مرات بعد عام 1937، وانتخب رئيساً للجمهورية عام 1959.

جامسي وهما يهمان بالركض إلى البيت: «أريد أن أستمتع بهذا المطر. سأجلس بجانب النافذة مع كأس بيدي وأراقب كيف يغسل الأرض». أوحلت الأرض بسرعة وعلا صوت المياه المتدفقة في السواقي، وما إن توقف المطر حتى انقلب الطقس إلى عاصف مع ريح وزخات مطر تلطم وجه البحيرة بقوة.

جاء الشاه في يوم أحد ماطر إلى البيت متجهم الوجه وقال: «لقد قررت».

«هل تحدثت إلى أحد من وقتها؟».

«فقط تلك المرأة في الفندق».

«وماذا قالت؟».

«ما قلته أنت. كتبت وصية. سيحصل أولادها على الفندق لكن ليس قبل أن تقرر هي، أما مسألة كم من الوقت سيحافظون عليه فستترك للزمن. الشيء المؤكد أنه ما من أحد سيحتل مكانها».

«ما رأيها بفكرة منح فرانك فرصته؟».

«قالت إن في ذلك إنصافا إن تمكن من دفع المال. ما رأيك أنت؟».

«رأيي ليس مهما». «لكني أريد معرفة رأيك». «لقد عمل لديك طوال حياته ويحق له أن يشتري المكان كأيّ إنسان آخر، لكن الحياة كما تعلم لا تعطي الجميع ما يستحقون».

«يمكنك قول هذا في أي وقت».

«يمكنك أيضا أن تضع كل شيء في المزاد».

«لا»، أجاب الشاه متنبها. «أولئك الأوغاد ليسوا كجيمي جو ماكيرنان. سيكون مزعجا أن ترى المضاربين ورجال الضرائب يتجولون في المكان متلصصين».

«الضرورة تحكم أحيانا».

«لكن هل يستطيع فرانك أن يشتري؟ هل لديه ما يكفي من المال؟» بدا واضحا أنه توصل إلى قرار.

«لا أدري. عليك أن تتحقق من الأمر أولا وتتأكد من أنه يريد أن يشتري».

بدا الأمر غير قابل للتصديق بالنسبة إليه، فهو لا يتخيل أنه من الممكن ألا يرغب أحد بشراء الورشة.

«هناك أناس لا يحبون تحمل المسؤوليات الكبيرة».

«ماذا لو تقدم أحد غيره؟».

«سيكون القرار له».

«ها أنت تتكلم أخيرا».

«ماذا ستفعل؟».

«هذا ما أسألك عنه».

«تكلم معه. أنتما الاثنان عليكما أن تبحثا الأمر».

صمت الشاه مذهولا. نظر عبر النافذة إلى شجرة توت بدأت ثمارها تصطبغ بالأحمر وإلى عصفور يحط على شجرة أخرى ثم إلى غراب يحلق بصمت فوق الحقول. «نحن لا نتكلم مع بعضنا».

«لكنك تعرفه منذ عشرين سنة!».

قال الشاه بصرامة: «وربما أكثر، لكننا مع ذلك لا نتكلم».

هنا كان دور روتلج ليصاب بالذهول. لقد اعتقد دائما أن الناس الذين يعرف بعضهم بعضا منذ وقت طويل، يتحدثون فيما بينهم أكثر من غيرهم. استعاد في ذاكرته أنه لم يرَ على مدى سنوات طويلة الشاه يتبادل مع فرانك حديثا ولو عابرا. رآهما يتبادلان كلمات وجيزة بهدف أن يسمعها الآخرون، لكنهما كانا

يقولانها وكل منهما يدير ظهره للآخر أو يقف بجانبه، ولم يتحادثا مرة وجها لوجه. كانا منسجمين في العمل رغم اختلاف طباعهما وطرائقهما. يصحو الشاه مبكرا بينما ينام فرانك دولان إلى الظهيرة، لكنه يبقى في العمل حتى وقت متأخر من الليل. يتفقان مع الزبائن بسهولة، كل بطريقته الخاصة، ويتفقان بصمت على إبعاد غير المرغوب فيهم. لم يحدث أنهما اختلفا على إبعاد زبون ما عن الورشة أيا كانت طرائق التواصل بينهما، والتي كانت دائما صامتة تشبه الرسائل بين أجهزة الرادار. يُطرد الزبون ببساطة دون أن يعلق أي منهما على الآخر أو يتدخل فيما يجري، وكل ما يفعله أحدهما أن يرفع رأسه عما هو منهمك به ليراقب ما يفعله الآخر بصمت.

سأله: «ماذا تريدني أن أفعل؟».

«هل تتحدث معه؟».

«هل أنت واثق من أنك لا تريد البقاء كما أنت فترة أخرى؟».

«لا، حان وقت التغيير، ولا أحد يعرف شيئا عن الورشات سوى فرانك. لن يستطيع أحد أن يديرها سواه وهو الوحيد الذي يعرف كيف يتصرف مع الناس».

«هل أفهم منك أنك تريد بيع الورشات فقط وليس بيتك والأكواخ والحقول؟».

«لست على هذه الدرجة من السوء. لن أطفئ كل الأضواء في البيت دفعة واحدة»، قال الشاه وهو يضحك للمرة الأولى في ذلك اليوم مستعيدا طبيعته. أضاف بعد لحظات بحماسة: «فرانك مقدم على نهضة كبيرة في حياته».

«ربما فضل ألا يتحمل مسؤولية كهذه».

«عندها نذهب إلى المزاد. ربما ستتغير حياته بشكل مختلف في هذه الحال. بعض الناس يظنون الحياة نزهة سريعة».

لم تمض أيام قليلة حتى وصل جون كوين إلى البيت بسيارة فوكسوَل خضراء مستعملة ركنها تحت أشجار جار الماء في ذات المكان الذي كان يركن فيه سيارة البيتلز البيضاء، لكن دون أن يضع حجرا تحت إطاراتها هذه المرة ليحول دون انزلاقها إلى البحيرة. بدا في بزّته الجديدة كرجل أعمال أو كسياسي مشهور.

قال وهو يدخل إلى البيت: «رائع أن ترى زوجين شابين يشقان طريقهما في الحياة من نجاح إلى آخر، لا يديران ظهرهما إلى أحد ويفتحان الباب في وجه الجميع».

«أخشى أننا لم نعد شبابا يا جوني».

«الشباب في القلب. كل شيء في القلب وأنت شاب طالما شعرت بذلك. أنا نفسي أشعر أني سأبقى في الثانية والعشرين إلى أن يهبط الظلام. لقد أتيتكما بأخبار ولن أطيل عليكما، فأنا مثلكما لدي الكثير من العمل ولن أسمح لنفسي بتبديد وقت جيراني الطيبين». ظل طوال زيارته القصيرة واقفا ولم تتوقف عيناه عن الدوران في أنحاء الغرفة حتى ثبتت نظرته على وجه كيت. لم يكن يشوب أناقته سوى عينيه الصغيرتين وبعض الأسنان المخلوعة في فمه. «ليس من الخير أن يعيش الرجل وحيدا، وعلينا أن نسعى إلى ما نريد. وجون يؤمن بهذه المقولة في قلبه، لهذا ذهب إلى مكتب الزواج. كل شيء كان في غاية الترتيب والكمال. وجدوا لي سيدة محترمة أدت واجبها في الحياة وربّت أطفالها بعد وفاة زوجها المحترم، لكنها الآن مثلي تشعر أنها يجب ألّا تعيش وحيدة. هناك مشكلة صغيرة مع عائلتها لكن الزمن سيتكفل بحلها. الشباب

يجدون صعوبة بعض الأحيان في فهم حاجات الكبار، ذات الأشياء البسيطة والمتعة والطمأنينة التي يحتاجونها هم أنفسهم. لذلك قررنا أن نقيم حفل الزفاف هنا بين الأصدقاء والجيران الطيبين عوضا عن مدينتها. وهكذا كما ترون فإن ما أحضرني إليكما ليس نزوة إوزّة حمقاء، بل جئت أدعوكما لتشاركانا سعادتنا». أخبرهم بتفاصيل الموعد في الفندق المركزي.

هنأه روتلج وكيت شاكرين وتمنيا له السعادة، وقالا إنه يسعدهما أن يحضرا حفل الزفاف.

«لم نعد في ربيع العمر ولا داعي للانتظار، فالصيف أفضل وقت للزواج شبابا كنا أم كهولا. سأذهب الآن وأدعكما لأشغالكما المهمة. لن أضيع المزيد من وقتكما». رفض أن يتناول الشاي أو المشروب، وكرر مرارا أنه مشغول مثلهما وينبغي عدم تبديد الوقت في الشكليات والطقوس الرسمية. قال إن المبالغة في التهذيب تعطل الناس عن أعمالهم في هذه الحياة.

رافقاه إلى سيارة الفوكسل الخضراء تحت أشجار جار الماء.

«نتمنى لكما السعادة كليكما».

«السعادة تجلب السعادة وعندما يكون الناس سعداء يساعد بعضهم بعضا ويكونون على وفاق فيما بينهم».

لم يشغل محرك السيارة وتركها تنحدر في الطريق إلى أن اقتربت من البحيرة فنقل عتلة السرعة لترتج السيارة قليلا قبل أن يقلع محركها.

«يحاول توفير الوقود».

قالت كيت باشمئزاز: «آه..».

«قد يوفق بشريكة مناسبة هذه المرة. من يدري، فالوضاعة

موجودة في صنف النساء أيضا».

«بالتأكيد، لكني أراهن أن كلا منهما سيحاول أن يبقى بعيدا عن طريق الآخر».

أتى موسم بيع الأغنام. اعتاد جامسي كل سنة أن يرافق روتلج في سيارته إلى المعمل، وفي اليوم المتفق عليه وصل إلى البيت في الصباح الباكر وهو يفرك يديه. كان يعلم أنهما لا يحبان هذا اليوم.

«سنذهب لكسب المال. سنصبح أغنياء، نستلقي بين البرسيم ونقول الحقيقة دون تردد أو خوف».

قالت كيت: «تبدو كأمير».

«أمير المستنقعات والسّمار». كان متألقا، يرتدي بزّة صوف خشن نظيفة، وبدا بقميصه المفتوح عند العنق أكثر أناقة مما في ثياب الأحد الرسمية.. حال لون حذائه في المواضع التي بلل فيها العشب جلده الأسود.

«هل تريد شيئا قبل أن ننطلق؟».

«لا، ليس اليوم. علينا أن نسرع. ينتظرنا دور طويل من الشاحنات».

كانت المقطورة قد وُصلت بالسيارة والتصق بابها الخلفي بالحظيرة. حُملت الخراف السمينة إلى المقطورة أولا، ثم تم وزن ما تبقى على ميزان معدني في الزاوية. قال جامسي عندما وزن خروفا خفيفا وأطلقه حرا: «خلاص. خلاص مؤقت فقط. هل تظن أن هذا يدوم؟! كلهم سيذهبون إلى ذات المصير. إلى تلك الطاولة في يوم أحد جميل».

«حياة من خمسة أشهر. رحلة قصيرة!».

مسح جامسي بيده على سقف المقطورة برضى قبل أن يصعدا

إلى السيارة. «لن يروا البحيرة مرة أخرى».

كل ما عبرا به في طريقهما كان بالنسبة إليه مثيرا للاهتمام، الحقول المُعتنى بها والمهملة، البيوت المتداعية والمتألقة وتلك المهدمة، كل شيء تحت نظراته المتفحصة كان يستدعي تعليقات مسهبة. وزع الإطراء والذم على بعض الناس طوال رحلته، وأشار بيده معبرا عن عدم مبالاة وحيادية تجاه أناس آخرين، كأنه بذلك يضع مسافة بين حياته وحيواتهم. رسم إشارة بيده بسرعة ما إن عبرا من أمام فناء الدير غير المسقوف في شروهاون. كانت البارات مغلقة وبعض سيارات النقل توزع الخبز والصحف على المحلات. طلب من روتلج أن يخفف من سرعته عندما غادرا المدينة. قال وهو ينظر إلى امرأة بدينة تعبر الشارع: «عشت ورأيت زمنا كان كل الرجال هنا يرون في تلك المرأة ضوء الفردوس. أي أعجوبة هي الآن؟!». «لم يذهب ضوء الفردوس بعيدا. كل ما حدث أنه انتقل إلى نساء أكثر شبابا».

أخذ جامسي يغنّي بينما كانت السيارة تجر المقطورة ببطء أمام حانة جيمي جو ماكيرنان.

«رجال الأمن هؤلاء دائما هنا». «ليل نهار». «تبديد للوقت، فلا أحد ممن يريدون سيأتي عبر الباب الأمامي».

«أعرف ذلك. أعرفه جيدا. كل شيء يتم عبر الأبواب الخلفية، كل العالم يعرف أنه قاد عملية الفرار من سجن لونغ كيش. ألم يكسر ذراعه وفعل الكثير من الأمور الأخرى دون أن يعتقلوه؟! يريدون فقط أن يظهروا بمظهر من يتحرى ويراقب، ولا يهمّهم ما يحدث في الشمال طالما ظل بعيدا ولم يصل إلى هنا. كله استعراض».

«هذا خطأ. لا يصح أن يوجد قانونان».

«ليس لدي أي شيء ضد جيمي جو ماكيرنان. إنه من أكثر رجال المدينة استقامة وشرفا وليس أنانيا مثل غيره».

«ألا تمانع في أن يطلق عليك النار؟».

«لن يفعل ذلك إلا إن كان مضطرا. لن يطلق النار على أحد إلا من أجل القضية. جيمي جو لا يؤذي ذبابة إن لم تكن تقف في طريقه».

«لا أرى فرقا بين أن يموت الإنسان في قضية كبيرة أو أن يموت في قضية صغيرة».

«أنت تبالغ في التدقيق يا سيد روتلج. لن يطلق النار على أي منا، فنحن لا أهمية لنا».

شعر جامسي بالضيق فأراد الهروب بتغيير موضوع الحديث كعادته. «ما من أحد في حانة لوك». انتبه روتلج باضطرابه فقال: «سنتوقف عنده في طريق عودتنا». رد جامسي بحماسة محاولا التخفيف من اضطرابه: «يا الله». عند أطراف المدينة، قال ببطء كأنه يتذوق الكلمات التي ينطقها: «إمبراطورية الشاه». نظر إلى المخازن وإشارة خزانات المازوت والأكواخ والفناء الكبير المكتظ بخردة السيارات والجرارات والآلات وراء سور عالٍ من الأسلاك.

«هل يعرف كم من المال لديه؟».

«إنه يستمتع بجمع المال».

نظر روتلج إلى الشاه عند مدخل المخزن الكبير يضع قبضته على خصره وكلبه إلى جانبه.

«ليس لديه ما يجعله يشعر بأنه بحاجة إلى المال، مجرد امتلاكه فقط يمنحه السعادة».

«ليرحمنا الرب! إنه مستيقظ منذ الآن بينما لا يزال نصف

سـكّان المدينـة نائمـين. مـاذا سـيفعل بـكل مـا لديـه؟!».

قـال روتلـج ضاحـكا: «سـتذهب أموالـه إلى أحـد مـا بطريقـة أو بأخـرى. مـا مـن مـكان آخـر تذهـب إليـه. أمـوال جمعـت مـن النـاس ومصيرهـا أن تعـود إلى نـاس آخريـن».

«أعلـم أن أموالـه لا تهمـك عـلى الإطـلاق وأن كيـت لا تبـالي بهـا كذلـك. هـذا يسـتحق الثنـاء فعـلا، فليـس هنـاك أسـوأ مـن أن تـرى أناسـا ينتظـرون مـوت ذويهـم ليأخـذوا أمكنتهـم ويسـتولوا عـلى مـا لديهـم. الأجـدر أن يعمـل الإنسـان لنفسـه».

«أعرف يا جامسي، أعرف».

لم يعـد يتعـرف عـلى مالـكي المـزارع والبيـوت عـلى طـرفي الطريـق بعـد أن غـادرا المدينـة، وانـصرف إلى مراقبـة الطريـق بصمـت متلفتـا يمينـا ويسـارا خشـية أن يفوتـه أي تفصيـل. هتـف «درومـود» عندمـا رأى بنـاء محطـة القطـار الحجـري والحانـة الملحقـة بهـا. «كل صيـف نأخـذ جـون كويـن مـن هـذه المحطـة بسـيارة رولي ونعيـده إليهـا».

«محطة جميلة».

«لا بأس بها. تفي بالغرض، ولا شيء مهم فيها عدا ذلك».

ازدادت دهشـته عـلى الطريـق العريـض المـؤدي إلى روسـكي لكـثرة السـيارات والشـاحنات وللسرعـة التـي تعـبر بهـا. طلـب مـن روتلـج أن يخفـف سرعتـه وهـما يعـبران الجـسر فـوق النهـر في روسـكي، كي يُشـبع نهـم عينيـه مـن النظـر إلى قـوارب الرحـلات. «أجانـب وسـياح مـن دبلـن. مـال وفـير وشراب ورحـلات». فـرك يديـه مقلـدا بسـخرية عمليـة الاسـتمتاع بالمـال.

«هـل لـدى لـوسي وجيـم رغبـة في امتـلاك قـارب كهـذه القـوارب؟ بإمكانهـما توفـير ثمنـه».

«لا». بدا وكأن الفكرة أزعجته. «لا، ربما كانت لوسي تريد لكن من المؤكد أن جيم لا يريد ذلك». يفضلان الذهاب إلى بلاد أخرى، إيطاليا أو غيرها.. لا أعتقد أن هذه الأمكنة توافق ذائقتيهما».

عبرت السيارة مستنقعا وأرضا كستها الحشائش. كانت مياه فيضان النهر قد انحسرت تاركة وراءها مساحات من أوراق البردي التي حال لونها إلى القمحي وجفت. سارا بعد ذلك في طريق صاعدة حتى بدا نهر شانون من الأعلى كساقية تتلألأ في البعيد، ومرا من أمام مدرسة وكنيسة ذات أجراس كبيرة وأشجار معمِّرة، وما إن بدأ بالانحدار في الطريق النازلة نحو روسكومون حتى ظهرت أحجار الجير والجدران الحجرية لبيوت المدينة وأشجار الدردار النحيلة التي توزعت بين مراعي الماشية. عبرا بقرى صغيرة ثم سلكا طريق روسكومون المتحلقة باتجاه سوق الماشية ملتفين حول المدينة التي بدت مداخنها واضحة. تنهد جامسي قائلا وهو ينظر إلى ما يمرون به من بيوت وبشر: «في قريتنا لا نرى شيئا. لا شيء على الإطلاق». قرب ساعة يده من ضوء النافذة عندما توقفا وراء رتل طويل من الشاحنات والجرارات: «ساعة وعشر دقائق منذ أن انطلقنا من البيت. أسرع بخمس دقائق من السنة الماضية. هل تذكر تلك المرة التي انفصلت فيها العجلة عن المقطورة فجلسنا وسط جلبة الخراف ونحن يائسون. ما كنا سنكمل طريقنا وقتها لولا أولئك الرجال الذين عبروا بسيارتهم ورفعوا لنا المقطورة كأنها ريشة. أي رجال كانوا! رفضوا حتى أن يأخذوا ثمن كأس من الشراب».

«نعم أذكر. لا أدري ماذا كنا سنفعل لولا أولئك الرجال».

تحرك الرتل ببطء، تدخل الشاحنات الكبيرة من بوابة خاصة،

ويترك المزارعون سياراتهم ليتحدثوا إلى رفاقهم في السيارات الأخرى. وصلوا بعد نصف ساعة إلى دورهم. أخبر جامسي الموظف عند نافذة المقصورة الخشبية عدد الخراف في المقطورة وأخذ منه ملفا وبطاقة ورقية كتب عليها الرقم 126.

ركن روتلج المقطورة وبابها الخلفي إلى الحظائر، وساعد المزارعون في إفراغ الخراف المتجمعة على بعضها ذعرا. كان كل شيء منظما وهادئا عدا ثغاء الخراف، وألصق كلّ مزارع بطاقته على الجدار في انتظار دوره. ترك روتلج جامسي عند الحظائر وذهب ليركن السيارة والمقطورة في مكان ما. قطع مسافة طويلة على الطريق قبل أن يجد مكانا مناسبا، وعاد ماشيا حيث وجد جامسي في حالة من التوتر والقلق. الخراف تتحرك بسرعة وخشي أن يأتي الدور قبل أن يعود.

«ظننتك لن تعود أبدا».

«قطعت مسافة طويلة حتى وجدت مكانا للمقطورة. لا تقلق، أمامنا وقت طويل».

«لا، أمامنا القليل من الوقت. سيأتي دور الخراف في أي لحظة. لم يعد أمامهم سوى دقائق».

تلاشى توتره عندما اقترب رجل في صُدْرَة بيضاء وأخذ الملف من روتلج ليقارنه مع الأعداد ويكتب له وصًل استلام. بعد قليل جاء شابان واقتادا الخراف إلى الممر المؤدي إلى الداخل. تدافعت الخراف متجمعة حولهما فصرخا «حيوانات لعينة» وهما يدفعان ويجران ويرفعان الحيوانات المذعورة في الممر. قال جامسي بمكر: «يبدو أن خرافك لن تحوز على الرضى هنا». لكن روتلج كان لحظتها قد انفصل عما يربطه بتلك الحيوانات، كما يقف الإنسان

مسَلِّما أمام القدر المحتوم.

قال: «لقد عوملت بشكل جيد وما من سبب يدعوها إلى الخوف من البشر».

«بشكل جيد أكثر مما ينبغي كما يعتقد هذان الرجلان».

«ليفكروا كما يحلو لهم».

وقفا يراقبان كيف اختفت الخراف وراء آخر البوابات يدفعها رجال على شريط متحرك عُلق فوقه شرائط مطاطية سوداء.

في طريقهما إلى المكاتب شاهدا شاحنة كبيرة تفرغ الخراف مباشرة في الحظائر على أرض المصنع. كان هناك صوت مياه تتدفق في خراطيم وسط ضجيج مختلط من احتكاك المعادن والصراخ، رجال يرتدون مراويل بيضاء. وصلت شاحنة أخرى، نزل سائقها فتعرف بمفاجأة وغضب واضح على الشاحنة الأولى، وما إن لمح سائقها حتى ركض نحوه. يبدو أنه شعر بأن أحدا احتل مكانه. وسط هذا الجو المحموم، العمال يدفعون الخراف إلى مصيرها عبر الشريط المتحرك والمزارعون يفرغون الخراف، بدا أن العنف أمر وشيك. اقترب سائقا الشاحنتين وأصبحا على بعد خطوات من بعضهما، رجلان قصيرا القامة وقويا البنية بعضلات مفتولة. أخذ الرجل الأول يغني فجأة: «خذ بيدي فأنا غريب في الفردوس.. كلنا مفقودون في أرض العجائب..» فوجئ الرجل الثاني للوهلة الأولى لكن ابتسامة ماكرة ما لبثت أن ارتسمت ببطء على وجهه. هو أيضا يعرف الأغنية ويستطيع إكمالها. «أن أقف بين النجوم، هذا هو خطر الفردوس. أن يقف قاتل بجانب ملاك مثلك. رأيت وجهك فارتقيت إلى العلا، وهناك في الفضاء بقيت معلقا».

غنى الرجلان وهما يدوران بحذاءيهما الغريبين ويرفعان أيديهما

إلى الأعلى أمام الحضور المذهول ليتوقفا بعد ذلك متواجهَين ويصرخا معا: «وقل له إنه لم يعد غريبا». عندما فرغا من الغناء صفق الحضور لهما بحرارة بينما عاد كل واحد إلى شاحنته.

قال جامسي: «عندنا في القرية لا ترى شيئا. لا شيء».

قال روتلج ممازحا: «ترى السماء والطيور والحيوانات».

«لا شيء. لا شيء البتة. الناس هنا أكثر إثارة للاهتمام ويحدث لديهم في يوم واحد ما يحدث عندنا في عام كامل».

«ظننت أنه سيسحق بعضهما بعضا».

«الغناء والرقص طريقة أكثر ذكاء».

«غنى باتريك ريان وجوني بالطريقة نفسها حول الأعمدة الحديدية عندما التقيا أول مرة في البيت».

«في أيامهما كان جوني وباتريك يغنيان أفضل من هذين الرجلين».

ذهبا إلى قاعة ذات جدار زجاجي للمراقبة اجتمع فيها عدة مزارعين وفي زاويتها غرفة مكتب زجاجية مرتفعة جلس فيها رجل وامرأة. تتحرك الخراف معلقة على شريط يدور ببطء، مقطوعة الرؤوس ومسلوخة ويتدفق عليها الماء من صبّابات ليغسلها، فينتشر بخار يلف المكان ويتلاشى تدريجيا. تُنقل بعد ذلك إلى شريط آخر وهناك يتم وزنها على ميزان رقمي عملاق ويتعرف المزارعون على خرافهم الذبيحة من الأرقام الحمراء التي تظهر على شاشة الميزان فوق الوزن. في هذا الجو الذي يلفه البخار والبلل كان العمال يتحركون بسترات وقبعات مطاطية بيضاء دون توقف، كأنهم في طقس من الرقص الصامت، أو كأنهم أطباء وممرضات يمارسون الرياضة في مشفى للموتى. في المكتب الزجاجي

كانـت المـرأة تطبـع الأوزان والتصنيـف مـع اسـم كل مـزارع ورقمـه ثـم تناديـه عـبر مكـبر الصـوت وتسـلمه إيصـالا مـن كـوة في الجـدار. نـادت «روتلـج 126» فذهــب إليهـا وتسـلَّم إيصالـه. كان المزارعـون صامتـين، كل اهتمامهـم منصـب عـلى مـا يظهـر عـلى شاشـة الميـزان. نقَّـل جامـسي عينيـه دون كلـل بـين الوجـوه والميـزان والذبائـح، وظـل صامتـا كالآخريـن.

قـال روتلـج لأحـد المراقبـين عنـد الجـدار الزجاجـي: «هـؤلاء العـمال شـبان صغار».

«كلاعبـي كـرة القـدم. أكثرهـم لا يسـتمر أكـثر مـن سـنتين مـع كل هـذه الرطوبـة والأحـمال الثقيلـة. مهنـة الشـباب!».

«وماذا يفعلون بعد ذلك؟».

«مـا يفعلـه كل مـن يفقـد عملـه»، قـال الرجـل وهـو يبتسـم بكآبة. «يذهبـون إلى أعـمال البنـاء أو يبحثـون عـن مصنـع آخـر أو يهاجـرون إلى أمريـكا أو إنجلـترا، والـذي لا يسـتطيع يبقـى دون عمـل».

مسـحت المـرأة في المكتـب الزجاجـي الإيصـال فـوق آلـة وطبعـت فاتـورة مفصلـة بالمبلـغ والحسـومات، ثـم كتبـت صـكًا وقعـه الرجـل الوحيـد في المكتـب وأعطتـه لروتلـج في مغلـف أسـمر. كل شيء منظّـم بعنايـة وجـو العمـل وديّ وبسـيط وسـط الجمـوع المتدفقـة مـن المزارعـين. قـال جامـسي الـذي كان طـوال الوقـت ينظـر إلى أيـدي النسـاء في المكاتـب: «معظـم الموظفـات هنـا متزوجـات».

تحركـت بهـما السـيارة تجـر المقطـورة الفارغـة في طريـق العـودة. قـال جامـسي: «هكـذا العـالم، تصـل بخرافـك في مقطـورة ثـم تغـادر بهـا بعـد سـاعة بصـكٍّ في جيبـك». بـدأت عينـاه تلتهـمان المناظـر عـلى جانبـي الطريـق، أراض مُعشـبة، وأشـجار دردار نحيلـة، وشـجرة

كستناء ضخمة، ومساحات صغيرة من الصخور الجرداء تلوح في المدى الممتد كأنها جزر صغيرة في بحر من العشب. «عدة حقول في هذه الأرض تكاد تعادل حقلا واحدا عند البحيرة». توقفا في بار ملحق بمحل صغير على الطريق خارج روسكومون، وتناولا شطائر شرائح لحم الخنزير مع بيرة داكنة. قطعت المرأة في البار لهما شرائح الخبز من قطعة كبيرة طازجة، لا تزال ساخنة من الفرن. تأمل جامسي البار الغريب بفضول وبدا عليه أنه يتشوق إلى ما تحمله بقية الرحلة بينما تنفس روتلج الصعداء لانقضاء الصباح بسلام.

«هل لاحظت كيف تكون رحلة العودة قصيرة؟» قال روتلج وهو ينظر إلى القارب عند عبورهما الجسر الضيق فوق النهر في روسكي.

أجابه جامسي بتلقائية: «بالطبع، فأنت لا تتوقع ما الذي ينتظرك في طريق الذهاب لكنك تعرف طريق العودة إلى البيت جيدا».

وجدا مكانا لركن السيارة والمقطورة، وكاد جامسي يرقص وهو يمشي إلى حانة لوك. كان لوك يجلس إلى البار ساندا ذقنه إلى يديه المشبوكتين، وعدا عن عائلة سباك، جلست إلى إحدى الطاولات تشرب بهدوء في الزاوية، كانت الحانة فارغة. اتجه جامسي فورا إلى البار.

«هل تشعر بالسأم يا لوك؟».

أجابه لوك بثقة ساخرا: «لا، ليس بعد يا جامسي».

«ولماذا لست سَئما؟».

«لم يحن الوقت بعد».

«ومتى يحين الوقت؟».

نظر لوك إلى الساعة المعلقة على الحائط داخل طوق من الورود الاصطناعية: «سيصيبني السأم خلال دقيقتين أو أربع، لكني أتوقع أن تغادر البلدة قبل ذلك».

صاح جامسي موافقا: «عظيم يا لوك، أنت لا تخيب ظننا أبدا».

توقفت عائلة السباك عن الحديث وأخذت تراقب الرجلين بفضول. قال روتلج: «كأسان من شراب الكريستدتينس واثنتان جعة داكنة يا لوك». علق جامسي وهو يفرك يديه بحيوية: «نعم، من يكسب المال يدفع اليوم». جلسا قرب نافذة الحانة حيث يمكنهما رؤية امتداد الشارع، وكذلك الرجل الذي كان يقف وأمامه أصص من النباتات على طاولة خشبية طويلة. نهض جامسي واتجه إلى طاولة عائلة السباك. مد يده مصافحا: «سيد وسيدة ماكدونو، أهلا وسهلا بكما في المدينة». ابتهجا ولم يُضرْهما أنهما في الحقيقة يعيشان أقرب إلى المدينة من هذا الرجل الذي يرحب بهما، وأنهما في الحانة قبل وقت طويل من مجيئه.

«بصحتك يا لوك». مكتبة الرمحي أحمد

«بصحتك. يبدو أن صديقك تركك وحيدا».

«سيعود بعد قليل».

أراد روتلج أن يتحقق من رغبة فرانك دولان في شراء الورشة من الشاه فاختار وقتا يعرف أنه يعمل فيه وحده. سيكون الشاه في الساعة السادسة قد احتل طاولته في الفندق المركزي، وسيكون الرجال الذين قضوا اليوم كله وهم ينتظرون أمام الورشات ومستودع الخردة قد عادوا إلى أكواخهم. في طريقه عبر المدينة كانت المحلات الصغيرة قد أغلقت. وُجد فرانك في

الورشة الكبيرة، مستغرقا في فحص إحدى الآلات وقد تمدد كلب الشاه إلى جانبه. تعرف الكلب عليه فورا وركض نحوه، فقد كان معتادا عليه كصاحبه. «لو رأى أحدا غيرك لنبح عليه. ساعة أخرى ولن تراه هنا. سيركض وقتها ليلاقي سيده عائدا من الفندق. أليس كذلك؟» قال فرانك وهو يداعب الكلب الذي أمسك بيده بين فكيه. انتظر حتى ترك الكلبُ يدَه فمسحها بقطعة قماش ومد إصبعه إلى روتلج في إشارة اعتذار عن اتساخ يديه. لم يكونا صديقين مقربين، لكن علاقة ودية جمعتهما منذ سنوات. عينا فرانك تبرقان فكاهة وذكاء، ومن المدهش أن نظراتهما صارت مع مرور السنوات تشبه نظرة الشاه، أمر كان يجعل بعض الزبائن الجدد يعتقدون أنه ابنه.

هناك بعض التشابه في ملامحهما، لكن الشبه بينهما ازداد مع السنوات في طريقة المشي والكلام والإيماءات. اكتسب فرانك خبرة ومعرفة من خلال قراءاته والدروس المسائية التي تلقّاها عن الآلات. لم يكن الشاه يعرف الكثير عن ذلك، وكل ما كان يفعله، هو إدارة صفقات صعبة، وبيع الزبائن بطريقته الخاصة، بعيدا عن فرانك.

بعد فترة وجيزة من تبادل عبارات المجاملة قال روتلج: «طلب مني سيادته أن أحدثك في أمر عمل يهمه». فور سماعه ذلك، طغى طابع رسمي وجدي على ملامح فرانك وهيئته، فسارع روتلج إلى القول: «ليس أمرا مزعجا، هل يمكننا التحدث هنا؟». «ربما في الجهة الخلفية أفضل». بدا أنه اطمأن قليلا، لكنه لم يتخلص من ترقبه، فهو كالشاه لا يحب المفاجآت.

سارا بين خردة متنوعة من السيارات والمحركات والجرارات

والمقاعـد، فرانـك يداعـب رأس الكلـب كأنـه يحـاول تخفيـف ألم مـا عنـه. في الجهـة الخلفيـة بـدا المخـزن شاسـعا في امتـداده نحـو بوابتـه القوسـية الكبـيرة.

«الشـاه يريـد أن يتقاعـد ويفكـر في البيـع. هـل يهمـك الأمـر؟». تغـيرت ملامـح وجـه فرانـك، زال عنهـا ترقبـه المعتـاد وبانـت بـراءة استسـلمت للصدمـة. مـرت لحظـات دون أن يتمكـن روتلـج مـن معرفة ردة فعلـه. نظـر فرانـك في وجهـه طويـلا ثـم قـال بلهجـة امتـزج فيهـا عنفـوان الكبريـاء بتواضـع الذليـل: «نعـم، يهمنـي الأمـر جـدا». لم يكـن روتلـج يتوقـع ردا محـددا، لذلـك لم يتسـاءل عـن قـرار فرانـك، بـل أخـبره ببسـاطة عـن السـعر الـذي يطلبـه الشـاه.

حـدق فرانـك بثبـات في وجـه روتلـج، مـن دون أن ينطـق بكلمـة واحـدة عـن السـعر، ثـم قـال وكأنـه يفكـر وحـده: «السـؤال الأهـم هـل أملـك المـال؟ هـل أسـتطيع دفـع الثمـن؟ أن أكـون مهتـما أسـهل مـا في الأمـر».

«أنت وحدك من تستطيع الإجابة يا فرانك».

«كيف؟».

«هل لديك أي توفير للأموال؟ أو هل لديك أملاك؟».

مـا مـن أمـلاك لديـه، لكنـه وفّـر مبلغـا جيـدا مـن المـال، أكـثر بكثـير مـما يظـن روتلـج. «ولكـن مـن أيـن آتي ببقيـة المبلـغ؟» قـال فرانـك بـشرود كأنـه يرتجـل كلماتـه دون تفكـير.

«كـما يفعـل النـاس في حـالات كهـذه. يمكنـك أن تأخـذ قرضـا مـن البنـك. لا بـد أنـك تعـرف هـذه الأمـور جيـدا، ولا حاجـة بي لإخبـارك».

«لا، لا أعرف. هل تساعدني؟».

«بالتأكيـد، أسـاعدك قـدر اسـتطاعتي، لكـن أليـس مـن الأفضـل

أن تلجأ إلى أحد المقربين منك؟». «من؟». «عائلتك أو أقرباؤك أو أصدقاؤك».

«هؤلاء أسوأ من ألجأ إليهم. أفضل اللجوء إلى الغرباء على الاقتراب منهم».

«أستطيع مساعدتك إن أردت. قلت للشاه إنه من الأفضل لو تحدث إليك بنفسه، لكنه لم يقبل. قضينا الأمر على كل حال». «هكذا هو دائما، كثيرا ما يتصرف بقسوة. في غاية الانسجام حتى يواجه مشكلة، فيركض عندها بحثا عن الآخرين. لا يريد المواجهة».

ضحك روتلج من صراحته ومن دقة الصورة التي رسمتها كلماته: «يعلم الله إنك كنت تراقب الشاه منذ وقت طويل حتى تعرّفته جيدا، لكني مع ذلك من المعجبين به».

قال فرانك بتأثر: «كلنا معجبون به، لكن في أوقات ما يكون ذلك صعبا..».

«إذن سأخبره أنك موافق، وسنتابع الموضوع معا».

«ستراه هنا لو انتظرت نصف ساعة أخرى. بعد قليل سيأتي وسيركض الكلب نحوه».

«سأخبره في فرصة أخرى، ينبغي ألا نتسرع. أرجو لك حظا طيبا».

«فليساعدنا الرب».

رافقه فرانك دولان وهو يغادر، ولأول مرة لاحظ روتلج، طغيان ما يشبه أجواء الرهبنة على المكان، فكل ما فيه من خردة وآلات ومخازن وأكواخ صغيرة في الجوار كان يخلو من أي حضور أو أثر للنساء.

تبع ذلك مطر غزير وأيام عاصفة تماوج فيها سطح البحيرة

تحت هبات قوية، وظهرت أطياف متفرقة ارتسمت كبقع من ألوان زاهية هنا وهناك في سماء متقلبة. بين ساعة وأخرى كان الهواء يسكن مثقلا برذاذ الماء عندما كان المطر يتوقف عن السيلان من أوراق الشجر وحوافي السطوح. هدأت خلايا النحل، ووحده البعوض كان يحلق في أسراب بينما بهت اللون البني الواضح للمروج المقصوصة حديثا، وتلون العشب الجديد بمسحة زرقاء خفيفة. عاد عصفور الدغناش إلى نقر الفراولة البرية، وحال لون الحشائش في بعض الزوايا إلى الأسود، أما التوت البري على شاطئ البحيرة فقد اصطبغ بحمرة زاهية تذكر بالأغاني القديمة والتي تشبِّه بلونه شفاهُ النساء الجميلات. طيور السنونو حلقت على انخفاض باحثة عن قوتها في الحقول، وجلب الضوء الخافت الخفافيش، متخبطة هنا وهناك.

لم يكن في هذه الأيام الكثير من العمل خارج المنزل، فالأبقار والأغنام انصرفت إلى مراعي العشب الوفير وكان أغلب الجهد ينصب على قطاف الفاصولياء والخس والفجل والفول والبطاطا. قضى روتلج بعض الصباحات في العمل على طلبات الإعلانات التي لديه، ثم انصرف بعد إنجازها إلى القراءة أو صيد السمك في القارب. انشغلت كيت بالقراءة والرسم والمشي عند البحيرة، وكانت أحيانا تمشي أو تركب دراجتها إلى بيت ماري وجامسي. بيل إيفانس كان أكثر انتظاما من المطر في زياراته، فقد كان يأتي كل يوم ولا يتحدث سوى عن الباص الذي سينقله إلى المدينة، والذي تأجل قدومه عدة أسابيع لسبب ما.

لم ينقطع حديثه عن وصول الباص الوشيك كل يوم حتى كاد الجميع يقتنع بأن ذلك الباص ليس سوى قوس قزح يتراءى له

بعيدا في السماء. ظهر الباص الأصفر الصغير أخيرا في صباح يوم خميس ثم غادر في المساء مارا من أمام نباتات جار الماء عند البوابة، صاعدا في الطريق نحو التلة.

كان بيل إيفانس دائما يحيط ما يجري في بيته أو حقله بالسِّريّة، إلّا في الحالات التي قد يجلب له الحديث منفعة أو ثناء يطربه، وهكذا كانت الحال مع بيت الرعاية الذي يذهب إليه في المدينة. الأمر الوحيد الذي كان يتحدث عنه دون تكتم، هو الباص وركابه وسائقه مايكل بات، الذي أصبح يده اليمنى في إدارة شؤون الباص وركابه، الذين كان يتحدث عنهم بتواضع لورد.

«أساعد مايكل بات كثيرا خصوصا في نزول الركاب. بعضهم لا يقدرون على ذلك، وهم يثيرون الضحك. مايكل يقول إنه لا يعرف كيف كان يعمل دون مساعدتي. سيمر عليّ أولا صباح الخميس، أجلس إلى جانبه في الباص وأراقب الركاب».

لم يكن لقدوم الباص أن يفوت جامسي الذي لم يكن بوسع طير غريب أن يمر في سماء الحقول دون معرفته، لكنه لم يشأ أن يظهر فضوله تجاه الأمر فورا. ركب دراجته بعد يومين واتجه عبر شاطئ البحيرة إلى بيت روتلج وكيت اللذين عرفا سبب مجيئه فور وصوله. أخبراه بما يعرفان مسلطين الضوء في حديثهما على زهو بيل إيفانس بإنجازاته. رفع يده معترضا لمعرفته العديدَ من الركاب: «حذار، قد لا يستمر كثيرا على هذا النحو، فبعد أن أصبح الناس يعيشون سنوات أطول نشأت طبقة جديدة، أناس ليسوا أحياء وليسوا في القبر». أكثرهم لا يعرف طبيعة حياة بيل إيفانس. ربما كانوا قد أعطوه بعض السجائر بعد قداس الأحد، وها هم اليوم في كراسٍ متحركة لا يقوَون على تدبير شؤونهم. إنها فكرة

عظيمة على أية حال؛ أن يقلهم الباص إلى المدينة ليتلقوا الرعاية، هناك من يهتم بنظافتهم وغذائهم وهذا في الحقيقة يعطي فرصة لذويهم ليأخذوا قسطا من الراحة. لا ذنب للناس حين تتدهور أوضاعهم هكذا، وربما كان بيل إيفانس مقارنة مع غيره من ركاب الباص في وضع يحسد عليه».

يحتوي الباص على تجهيزات خاصة، أحزمة أمان ومساند ومنزلق مخصص لصعود الكراسي المتحركة. في الخميس التالي جلس بيل إيفانس إلى جانب السائق وهو ينفث دخان سجائره تحت علامة ممنوع التدخين، ولوح لكيت وروتلج ضاحكا عندما مر الباص أمام بيتهما في طريقه إلى البحيرة بينما كانت نظرات الركاب الآخرين مثقلة بالهرم والمرض.

حاول الشاه أن يخفي نفاد صبره في زيارته التالية، لكنه لم يستطع. «هل تكلمت مع ذلك الرجل في الموضوع؟».

«ألم يخبرك؟ ألم يتكلم معك؟».

«أنت تمزح! لم ينطق بشيء. لا بد أنك تكلمت مع جدار!».

«ذهبت إليه عندما كنت أنت في الفندق بعد نهاية العمل في الورشة».

«لماذا لم تأت إليّ في الفندق؟ على الأقل لتأكل شيئا وترتاح بعد ذلك العناء؟».

«لم يكن عناء».

«هل استطعت أن تنتزع أي كلمة من ذلك الرجل؟ لا بد أن الأمر كان كاقتلاع الأسنان!».

«لا، كان سهلا ومنطقيا وقال ما لديه بصراحة».

«حسنا، وماذا بعد؟» قال بنفاد صبر.

«يريد أن يشتري إن استطاع».

«آه.. هكذا إذن؟ وهل لديه المال؟».

«استطاع توفير بعض المال. أكثر بكثير مما تخيلت. لا أعتقد أن ما تدفعه إليه يكفي لاكتناز أي شيء».

«كفاك الآن». ضحك الشاه من الصورة التي رسمها روتلج له. «كيف سيدبر المبلغ الباقي؟ هل أخبرك؟».

«عليه أن يقترض».

«ومن سيقرضه؟».

«سيحاول أن يقترض من المصرف».

«وماذا سيقولون في المصرف عندما يرونه؟ لا بد أنهم سيطردونه إلى الجحيم».

«أعتقد أن فرصه كبيرة في الحصول على قرض. لكن هل أنت واثق من أنك تريد البيع؟».

«ولماذا أغير رأيي الآن؟».

«الورشة كانت كل حياتك وإن بعتها الآن فسيتغير كل شيء ولن يبقى لك مكان فيها. ستصبح له وحده، ويستطيع لو أراد أن يمنعك من الاقتراب منها. أنا لا أقول إنه سيفعل ذلك، بل أستبعد أن يُقدم على فعل كهذا. ما أريد قوله: عليك أن تكون واثقا من رغبتك في البيع».

«سأكون سعيدا إن طلب مني مغادرة المكان. سأخرج من الباب حتى قبل أن يلتفت إلي».

«لا أدري. ربما أنت تعرف ما تريد».

«أعرف جيدا. كثير من الناس يصرون على البقاء حتى يتلاشوا في المكان. لكل شيء وقته. ذلك الفتى يريد أن يشتري المزيد من

الأراضي وسيحرمه هذا من النوم وقتا طويلا».

«سأبدأ بإجراءات البيع إن كان هذا ما تريده».

«نعم، باشر بالأمر، ولكن خذ حذرك، فلا أعتقد أنهم في البنك سيعطونه المال بسهولة عندما يرون هيئته». أنهى الشاه كلماته وهو يضحك بصمت.

«إن كان هذا ما تريد».

«أنا واثق من قراري. لقد آن الأوان».

أصبحت الأرض رطبة وطرية فوجدا صعوبة في الاستمرار بالمشي، ولم يكونا قد تجاوزا سفح التلة المطلة على البحيرة. بعض طيور التم كانت تسبح بين مجموعة من الإوز البري فوق سطح البحيرة بينما كان مالك الحزين يتنقل بين الجزيرة الصغيرة والمستنقع. تداخلت ملامح المشهد، فلم يكن الضوء المبلل الذي يخترق السحب المنخفضة يضيء سوى الضباب والماء والغيوم. اختفت ألوان حشائش المستنقع وأوراق البتولا، وحجب الضباب الجبال التي اعتاد الشاه أن يقف على هذه التلة ليتأملها عبر البحيرة. نظر إليه روتلج، وهو يقف منفرج الساقين ويده اليمنى على خصره، وتذكر جدته بهذه الوقفة ذاتها أمام باب بيتها الموارب. كانت رغم تقدمها في العمر جميلة وقوية، تمتلك حس الدعابة وتحاول بتلك الوقفة أن تحتفظ باستقلاليتها وكبريائها بعد كل ما خسرته بمرور السنوات. قال الشاه فجأة: «يهطل المطر وينمو العشب ويكبر الأطفال. هذا كل شيء. نحن نعرف جيدا، لكننا لا نجرؤ على البوح».

تلقت كيت في الوقت هذا عرضا مغريا للعمل في لندن. اعتاد روبرت هوث أن يزورهما كل صيف. في الفترة الأولى لإقامتهما في

جوار البحيرة زارهم أناس كثر، ولكن مع مرور السنوات تناقص عدد الزوار ولم يبق سوى روبرت هوث، صلتهم الوحيدة بذلك العالم الصاخب الذي كانا ينتميان إليه يوما، عالم لا ينفك يبتعد عنهما.

ينحدر روبرت هوث من أصل متواضع في أيرلندا الشمالية، ابن تاجر أقمشة أوصلته منحة دراسية إلى جامعة أكسفورد حيث أدت الحرب إلى توقف دراسته. نال بعد الحرب شهادة في اللغات الكلاسيكية والتاريخ، وتمكن بعد ذلك من الحصول على شهادة أخرى في الحقوق، لكنه اكتشف أن لكنته المحلية ستكون عقبة في طريق نجاحه في هذه المهنة فالتحق بمدرسة تمثيل ليتقن اللكنة الإنجليزية. حقق نجاحا لا بأس به في المحاماة، لكنه كان دائما يشعر أنه وافد على وسط لم يستطع الانتماء إليه، لهذا لم يتردد في قبول عرض شركة مع مؤسسة إعلانات أنشأها أناس يعرفهم من أكسفورد. هجر المحاماة ليتفرغ لعمله في الإعلانات، ارتقى بسرعة في المؤسسة وكان هو من أجرى فحص المقابلة لروتلج عندما تقدم إلى وظيفة أخصائي في حقوق الملكية الفكرية بعد بضع سنوات من قدومه إلى لندن. كان وقتها على معرفة بكيت ووالدها وشهد بعد ذلك على زواجها.

عارض قرارهما بالرحيل عن لندن، ولولا بعض تكليفات العمل التي كان يرسلها إليهما في السنة الأولى لكانت حياتهما في جوار البحيرة أكثر صعوبة. اعتاد أن يأتي بالباص، ينزل في آخر الطريق فيلاقيه روتلج ويحمل حقيبته ثم يسيران معا بمحاذاة الشاطئ إلى البيت وروبرت يستعين بعصا ذات مقبض مطاطي تعينه على تجاوز الحفر والحصى. بعد بضع سنوات أصبح روتلج يذهب

إليه في فندق قرب النهر في إنيسكيلن ويعود معه بالسيارة إلى البيت. اعتاد أن ينتظره في بار الفندق وراء النافذة التي تطل على الطريق وتشرف على منحدر يصل إلى القوارب المربوطة بمنصة خشبية، وأبعد قليلا ينهض بناء المسرح الجديد إلى جانب الأعمدة الحجرية التي كانت ترفع الجسر فوق النهر في الماضي.

توقفت سيارة سوداء فارهة أمام الفندق، نزلت امرأة طويلة وجميلة بزي رسمي من وراء المقود وتوجهت إلى الباب الخلفي لتفتح الباب لروبرت بوث وتناوله حقيبة صغيرة. نزل مستعينا بعصاه لينهض من مقعده ثم وقف مع المرأة يتبادلان الكلمات والابتسامات، وبدت هي في أناقتها وسلوكها كأنها تنتمي إلى عوالم نوادي الغولف وحفلات العشاء الرسمية أو الأوساط الجامعية في عالم مترف. تعانقا قبل أن تذهب. اعتادت أن توصله إلى الفندق منذ سنوات، لكن روتلج لم يلتقِ بزوجة روبرت بوث أو أي من إخوته. ظلت حياته العائلية دائمًا طي الكتمان. تحركت السيارة فوقف بتهذيب ينتظر حتى اجتازت المدخل المسقوف بالأخضر ثم رفع عصاه واستدار ليدخل إلى الفندق. رحب بروتلج فور رؤيته: «أنا في غاية السرور». تناولا شرابا في بار الفندق وحدثه عن زيارته لأخيه في بيته الريفي وعن بعض المعارف المشتَرَكين في لندن.

في طريقهما إلى السيارة أخبر روبرت بوث روتلَج بتهذيب أنه يشعر بالبهجة للقاء كيت مرة أخرى. فكر روتلج أنه يعرف هذا الرجل ولا يعرفه في الوقت نفسه، فشخصيته تتسم بالتعقيد، وهو متكتّم يندر أن يفلت منه ما لا يريد التصريح به للآخرين. اقترنت الصداقة بينهما بالعمل، رابطان ما كان لأي منهما أن يستمر دون الآخر خلال كل تلك السنوات التي بدا لروتلج أنها غيرت من

طباع صديقه الذي يجلس الآن إلى جانبه في السيارة. بدا له مع تقدم عمره أقل فظاظة وعجرفة.

ابتل الطريق بمطر الصيف وهما يقتربان من الحدود، ولاحظ روتلج أن البيوت في الشمال أكثرا ترتيبا وأفضل نوعية من بيوت الجنوب، معظمها يتصل بحدائق مزهرة. وقفا في رتل سيارات طويل عند حاجز تفتيش في نقطة الحدود حتى وصلا إلى إشارة خضراء عبرا بعدها إلى مجمع أبنية محصن بالأسلحة وأكياس الرمل وسط أرض تكسوها الحشائش البرية والسُّمار وتمتد حتى سفوح الجبال.

سأل روتلج روبرت بوث كيف وجد النظام الطبقي بعد أن ذهب إلى أكسفورد، وهو الذي استطاع بعد فترة أن يعتاد على تعقيداته التي تشبه المتاهة. «كان الأمر في غاية السهولة. لقد اعتدنا منذ طفولتنا أن نشعر بالتفوق على الكاثوليك، ولكن مع مرور الوقت أصبح الأمر سهلا، فالخطوة الأولى هي الأصعب». اقترب جندي شاب يحمل بندقية وأخذ يقرأ أرقام لوحة السيارة لضابط يجلس وراء قضبان حديدية متصالبة داخل الحاجز، انتظر حتى تأكد من الأرقام على جهاز الكمبيوتر وأخذ إشارة التصريح بالمرور. اقترب جندي آخر ووقف قرب زميله في حالة تأهب، وكان الاثنان في لباس الميدان والعتاد الحربي الكامل. أعطى روتلج الجندي رخصة القيادة وصرح باسمه ومهنته وتاريخ ميلاده وعنوانه.

تفحص الجندي رخصة القيادة وبدا في سلوكه مهذبا وودودا: «ما غرض الزيارة؟». «لقاء صديق قادم في إجازة». «من أين هو قادم؟». «من لندن». قال روبرت بوث بلكنته المنمقة: «نهارك طيب». أدى الجندي تحية عسكرية بأناقة وقال: «عطلة طيبة يا

سيدي». أعاد لهما الرخصة ولم يطلب تفتيش صندوق السيارة.

قال روبرت بوث: «شاب لطيف هذا الجندي». تحركت السيارة وغادرا مجمع التفتيش عبر بوابة صغيرة حيث كانت السيارات الآتية من الطرف الآخر تنتظر دورها في التفتيش.

«كلهم هكذا. مدربون بشكل ممتاز».

«سمعت أنه من الصعب التطوع في الجيش هذه الأيام. لم يعودوا يقبلون أيا كان».

«قتل جنديان هنا بانفجار. لُغّمت سيارة وتُركت تنحدر من أعلى التلة. لكن الجنود لم ينتبهوا إلى أنه لا أحد وراء مقودها إلّا بعد فوات الأوان».

«هل ستنتهي هذه الحرب يوما؟».

«يُفترض أن تعرف الإجابة أكثر مني، فأنت من أهل البلد».

أجاب روبرت بطريقة أراد بها إنهاء الحديث: «لو تعلق الأمر بهذا الصراع لقدم شعبنا حسابا عسيرا، لكنهم سيخسرون على أي حال».

تتسم علاقة كيت بروبرت بوث بالتوافق والانسجام، فهو كان طوال حياته المهنية يسعى بدأب للانتماء إلى طبقة عائلتها. لم يعتد أن يحضر هدايا، وكانت زيارته ككل مرة منتظمة ورتيبة كجدول مواعيد ثابت. يستيقظ ويغتسل ثم يذهب ليتمشّى، ويعود لقراءة الصحف على الكرسي الهزاز بطريقة تجعل صوت الورق بين يديه يضفي إيقاعا خاصا على المكان حوله. ولأنهما يعرفانه جيدا، فقد وجب عليهما نسيانه حتى ينتهي من طقوسه الخاصة التي لم يكن لهما أن يغيرا فيها شيئا، وما إن ينتهِ من قراءة الصحف ويضعها جانبا على الطاولة حتى يتغير مزاجه، فهذا وقت الشرب.

يرفـع كأسـه ويقـول ضاحـكا: «أنـا في غايـة الابتهـاج لوجـودي معكـم». يجلـس بعـد ذلـك إلى مائـدة العشـاء ويـروي قصصا كثـيرة، لكنـه ككل مـن يهتـم باللياقـات الاجتماعيـة لا يتطـرق في حديثـه إلى زمـلاء العمـل أو المعـارف المشـترَكين إلّا في حـالات خاصـة. لم تكـن العاطفـة تتسـرب إلى صوتـه إلا في حالـة واحـدة، عندمـا يتحـدث عـن الرسـم. سـألته كيـت عـن لوحـة ألـوان مائيـة مـن مقتنياتـه كانـت معجبـة بهـا. اشـتراها منـذ زمـن بعيـد بسـعر رخيـص. قـال وهـو يضحـك بتفاخـر: «إنهـا حاليـا في اليابـان. تشـارك في معـرض هنـاك، وقبـل طوكيـو كانـت في سـيدني. يبهجنـي كثـيرا أن كل النـاس ينظـرون إليهـا بإعجـاب».

ذهـب في صباح اليـوم التـالي ليتمـشّى حـول البحـيرة ثـم عـاد ليقـرأ فيـما بعـد عـلى الكـرسي الهـزاز في الـرواق. أثنـاء ذلـك أتى بيـل إيفانـس، سـمع روتلـج قرعـه عـلى الزجـاج مـن داخـل المنـزل، وعندمـا وصـل إلى الـرواق كان روبـرت بـوث عـلى وشـك أن يفتـح البـاب. لم يتبـع بيـل إيفانـس روتلـج إلى داخـل البيـت، بـل وقـف بتعنـت عنـد البـاب وسـأل: «هـل يدخـن؟». «لا، هـو لا يدخـن لكـن أنـا لـدي سـجائر في الداخـل». سـأل بعـد أن دخـل وجلـس عـلى كـرسي: «مـن أيـن هـو؟».

«مـن لنـدن. لقـد رأيتـه هنـا عـدة مـرات مـن قبـل. ألا تذكـر في الصيـف المـاضي؟».

أجـاب وقـد رسـم عـلى وجهـه ملامـح ماكـرة: «يـا اللـه! نعـم، تذكـرت. أليـس لديـه منصـبٌ كبـيرٌ في عمـل مهـم؟».

«نعم، في لندن».

«ألا تستفيد أنت منه في شيء؟».

«إنه صديق، ويهيّئ لنا عملا في بعض الأحيان».

«هل العمل مدفوع الأجر؟».

«أجل».

قال وهو ينهض ويلتقط عصاه: «عليك أن تستفيد منه».

رافقه روتلج إلى البوابة، وعندما عاد وجد روبرت بوث لا يزال يتابع بيل بعينيه وهو يحمل الدلوين ويمضي نحو البحيرة.

«يبدو كأنه شخصية خرجت من رواية روسية».

«بل محليّ في نشأته وجنونه. أمثاله كثر، كانوا ينتشرون في كل مكان عندما كنت شابا، وأغلب مَن كان منهم بلكنة إنجليزية كاثوليك، من جوار ليفربول. لم يكن الأمر يختلف كثيرا عن تجارة العبيد».

«قصة محزنة».

«أيٌّ منا كان يمكن أن يكون مكانه».

أجاب روبرت بوث بحزم: «لكن ذلك لم يحدث».

على الغداء شرب نبيذا أحمر على غير عادته، رغم أنه كان أحيانا يسرف في الشراب بعد الظهر. قال لهما: «تعلمان أن ما يجمعنا صداقة قديمة، وفي الحقيقة لدي موضوع أردت طرحه عليكما الليلة الماضية، لكني فضلت تأجيله إلى اليوم. رئيس قسم التصميم عندنا تقاعد، ونفكر حاليا بإجراء تغييرات وتكليف كيت برئاسة القسم. الناس الذين يعرفونها جيدا واثقون من أنها قادرة بكفاءتها على الإدارة. لم يُحدد الراتب بعد، لكنه بالتأكيد سيكون أكثر بكثير من راتبها الذي كانت تتقاضاه سابقا. في الحقيقة كانوا ينوون الكتابة إليك، لكن لعلمهم أني قادم لزيارتكما فضلوا أن أخبرك شخصيا بأن قرار ترشيحك تم بالإجماع».

قالت كيت: «هذا تكريم وثقة كبيرة».

«لا أعتقد أن انتقالك سيكون صعبا. أما زلت تحتفظين بتلك الشقة؟».

«إنها مؤجرة الآن، ولكن المشكلة ليست هنا».

«أين المشكلة؟».

«أن أترك هنا».

«هناك أمر آخر أريد الإشارة إليه. الناس الذين يديرون الشركة الآن يعرفونكما ويقدرونكما، لكن الجيل الجديد يأخذ مكانه، ومن الطبيعي كما تعلمان أن يأتي الجديد بأصدقائه. من السهل أن يُنسى المرء عندما يترك مكانه».

فُتحت زجاجة نبيذ أخرى، وطغى جو من البهجة والتشويق على الأمسية. حضرت لندن بكل ما فيها من متعة وإثارة، ساحاتها وشوارعها وحدائقها وأسواقها، النهر المتدفق فيها وزحام البشر الذي لا ينتهي.

كل ذلك كان يبدو في الخدر الذي أشاعه النبيذ ممتعا لولا معرفتهما الأكيدة أن لندن لن تكون في هذه الظروف وهذا الزمن وطنا لهما مرة أخرى. «وأود القول أيضا إن انتقالكما إلى لندن سيكون بالنسبة إليّ شخصيا أمرا يبعث على السعادة. ستكون لندن أكثر بهجة بوجودكما. يمكنكما أن تحتفظا بهذا المكان هنا وتعتبرانه بيتا ثانيا».

«علينا التفكير في الأمر جيدا».

قال موجها حديثه إلى روتلج: «بالطبع لن تجد صعوبة في الحصول على عمل. ليس لدينا شواغر حاليا، لكن سيكون لدينا فرص في المستقبل».

«لا أظن أني أريد عملا منتظما مرة أخرى. الأمر يتوقف على

رغبة كيت وحدها».

«لكن تذكر، الناس ينسون..».

بدل روتلج ملابسه وخرج إلى الحقل. شعر بعد النبيذ والانفعال في الحديث بحاجة لأن يستغرق بعيدا عن ذاته في تيار الأعمال اليدوية، وعندما عاد وجد جامسي يدخل من بوابة في الخلف ويقف قليلا ثم يعبر الممر وهو يحني ظهره ليمر من تحت النافذة الكبيرة. وقف هناك ينصت بانتباه كطير أو حيوان صغير ثم راح يتفقد المخزن، يتفحص أدوات العدة المتروكة وأعمدة البناء غير المكتمل ويهز رأسه وهو ينظر إلى السقف. دخل بعد ذلك إلى البستان ثم إلى بيت النباتات الزجاجي وقضى وقتا طويلا يتفحص الأعشاب والخضار. قطف ثمرة طماطم ناضجة وراح يلوكها بصخب ثم توجه نحو الأبقار والأغنام، وكان عليه أن يمر بقرب روتلج ماشيا فوق الحشائش وهو لا يزال يمضغ ما في فمه.

قال روتلج بصوت خفيض: «مرحبا».

استدار مذعورا. «أفزعتني.. كيف تفعل هذا ولا تخبرني أنك هنا؟!».

«كنت أتلصص على صفحة في كتابك».

«حصلت على صفحة فقيرة إذن».

«لماذا لم تدخل إلى البيت؟».

أجاب جامسي وهو يقلد صوت شخير: «الرجل الإنجليزي العجوز هناك. ينام على الكرسي في الرواق وكتاب في حضنه». «لن يزعجه مرورك».

«لا، عليّ أن أذهب، فالعصافير لا تختلط مع الشحارير».

فاحت رائحة عطرية قوية انبعثت من شجيرة صريمة الجدي

التـي نمـت بجانـب الزعـرور الـبري قـرب المنـزل وتفتحـت أزهارهـا الصفـراء الفاتحـة عـلى أغصانهـا العليـا. كان روبـرت بـوث لا يـزال نائمـا في الـرواق فدخـل روتلـج إلى البيـت مـن المدخـل الخلفـي. وجـد كيـت تضـع القطـة السـوداء عـلى ركبتيهـا. قالـت ضاحكـة: «القطـة تذهـب إلى لنـدن!». «لـن يعجبهـا ذلـك». «ولا أعتقـد أنـه سـيعجبني أنـا أيضـا». «مـا رأيـك؟».

«لا أريـد التفكـير في هـذا الآن. أمسـكت بجامـسي يحـوم حـول المنـزل ويتفحـص كل شيء حتـى الطماطـم التـي زرعتهـا. رأيتـه يـأكل منهـا».

«لماذا لم يدخل إلى البيت؟».

«قال إن لدينا ضيوفا ولا يريد الدخول».

اسـتيقظ روبـرت بـوث مفعـما بالنشـاط. اسـتحمّ، بـدّل ثيابـه وذهـب ليتمـشّى طويـلا عـلى شـاطئ البحـيرة. عـاد بمـزاج جيـد ليتنـاول وجبـة عشـاء مـن شرائـح اللحـم المشـوية والسـلطة والنبيـذ. تـم شَيّ اللحـم عـلى منقـل حديـدي صنعـه الشـاه فـوق الموقـد في غرفـة الجلـوس فتقاطـر الشـحم فـوق الجمـر مضرمـا اللهـب. جلـس روبـرت بـوث بصمـت يـشرب البربـون ويتأمـل وهـج النـار المنعكـس عـلى الجـدران البيضـاء، وسرعـان مـا اسـتعاد حيويتـه عـلى المائـدة وراح يـروي قصصـا سـمعاها مـن قبـل، لكنهـا لم تفقـد طرافتهـا بالنسـبة إليهـما. اسـتمروا في سـهرتهم إلى وقـت متأخـر، لكـن عندمـا اسـتيقظا في الصبـاح وجـدا أنـه قـد عـزم عـلى الرحيـل إلى دبلـن. «راسـلاني أو اتصـلا بي إن كان لديكـما أي سـؤال». عانـق كيـت مودعـا: «شـكرا، كانـت زيـارة رائعـة. أتمنـى أن أراكـما قريبـا في لنـدن».

«شكرا لزيارتك ولكل شيء».

في الطريق إلى المحطة سأله روتلج وهما يعبران بين الأشجار والحقول عند أحد البيوت الريفية المنعزلة: «هل ستنزل في فندق شلبورن». «أجل، لكني سأخرج الليلة ألبّي دعوة عشاء». لم يسأله روتلج أكثر. وصلا مبكرين إلى محطة القطار الصغيرة، ذلك أنه لا يحب الوصول في اللحظات الأخيرة ويفضل أن يكون مبكرا. نظر إلى الوقت في ساعة المحطة وأخرج كتابا من حقيبته وجلس على مقعد يقرأ دون أن ينظر إلى المسافرين الآخرين متحاشيا أي محادثة معهم أو تدخل منهم.

ذهب روتلج إلى جو، وهو مساعد مدير بنك يعرفه ليسأل عن إمكانية حصول فرانك دولان على قرض. بعد أسبوع أجابه جو أنه حصل على موافقة مبدئية بمنح القرض، مشروطة بمقابلة مع فرانك، وأن تتم في مدينة لونغفورد. اختير المكان لتكون العملية بعيدة عن أعين الفضوليين.

«عليه أن يقول إنه يسعى إلى تطوير العمل وزيادة عدد الموظفين. هذا يتفق مع سياسة المصرف ويرضي السياسيين أيضا. أكثر ما يهمهم القول إن القرض يستثمر في أعمال مزدهرة. عليه أن يقول هذا في التقرير، وبعد حصوله على القرض يفعل ما يشاء طالما يدفع الأقساط الشهرية».

«لماذا لا تجري المقابلة بنفسك. ألم تفعل ذلك عندما حصلت أنا على قرض؟».

«أنت كنت زبونا لدينا قبل أن تطلب القرض، وكانت لدينا صلاحيات أكثر في ذلك الوقت. كل القرارات الآن تصدر من المكتب المركزي، لكني أعرف الشخص الذي سيجري المقابلة وقد وضحت له الأمور تماما. لا تقلق، القرض موجود وتم ترتيب كل شيء. كل

مـا تبقـى إجـراءات روتينيـة وأن يقـول هـو مـا ينبغـي قولـه في مثـل هـذه المعامـلات».

أراد روتلـج أن يذهبـا معـا في سـيارته إلى لونغفـورد، لكـن فرانـك أصر بتعنـت أن يذهبـا بسـيارة التويوتـا القديمـة التـي تخصـه. شـغل المحـرك بقَـدح سـلكي كهربـاء عاريـين، فلـم يكـن في السـيارة مفتـاحٌ للتشـغيلَ ولا عَـادمٌ للدخـان. قـال وهـو يقلـع بالسـيارة: «ومـا الفـارق إن كانـت أيٌّ منهـما سـتوصلنا إلى حيـث نريـد!». كان قـد قـص شـعره بتسريحـة أنيقـة وارتـدى بـزّة الأحـد الداكنـة وربطـة عنـق نبيذيـة اللـون، وأضـاف توتـره بعـض الرقـة إلى وجهـه اللطيـف.

«أتريـدني أن أتحـدث عـن نيتـك في توسـيع العمـل وتوظيـف عامـل أو اثنـين، أم تريـد أن تقـول ذلـك بنفسـك؟».

«لا نية لي في إجراء أي توسيعات أو توظيف أي أحد».

«أعرف، لكن علينا أن نقول عكس هذا لنحصل على القرض».

«لقـد فكـرت في هـذا طويـلا، وأشـعر أننـا لـو قلنـا هـذا فسـننصب فخـا لأنفسـنا وسـنتورط في طريـق لا نعرفهـا».

تحدثـا في هـذا الموضـوع مرتـين مـن قبـل، لذلـك ظهـر عـلى روتلـج التـبرم وهـو يقـول لـه: «ليـس الأمـر كذلـك. تسـتطيع أن تفعـل مـا تشـاء بعـد حصولـك عـلى القـرض بـشرط أن تدفـع الأقسـاط، ولكـن إلى أن تحصـل عـلى المـال يجـب أن تقـول مـا يرضيهـم».

«هل أنت متأكد من أن الموضوع بهذه البساطة وأنه ليس فخا؟».

«بـكل تأكيـد، أنـا واثـق مـن ذلـك. هـل يعـود قلقـك إلى دفـع الأقسـاط؟».

«لا عـلى الإطـلاق. لـو لم يكـن بوسـعنا تأمينهـا لأفلسـنا منـذ زمـن طويـل».

يشغل المصرف بناء فيكتوريا جميلا في وسط المدينة. وصلا في الوقت الذي كان فيه باب البناء الضخم يغلق أمام المراجعين. انتظرا حتى انصرف آخر الزبائن ثم اقتيدا عبر ممر إلى مكتب خلفي كبير حيث استقبلهما موظف طويل القامة. نهض الرجل وصافحهما ثم تحدث مع روتلج بمودة عن جو. جلسوا بعد ذلك وشرح روتلج ما يحيط بطلب القرض من ظروف.

«رغم أن الورشة تدر أرباحا إلا أن العمل فيها توقف عن التوسع منذ سنوات، وبما أن فرانك من جيل أكثر شبابا من مالكها الحالي فإنه يفكر في تطوير العمل وتوسيعه بحيث يتمكن بعد فترة من توظيف مزيد من العمال».

قال الموظف وهو يكتب: «هذا يتوافق مع رؤيتنا، والمصرف حريص على التنفيذ فور إتمام البيع». قرأ بعد ذلك ما كتبه على فرانك دولان موضحا أن كل ما هو مطلوب منه أن يوافق.

«لا.. لا أريد أولئك الأشخاص المرتشين الذين يراقبون ما أفعل. لا يمكنني القيام بعملي وهم فوق رأسي يتجولون في المكان ويتدخلون في كل شيء». رفع الموظف رأسه وبدت الحيرة على وجهه.

تدخل روتلج: «لقد تحدثنا في هذا الموضوع ونحن في الطريق إلى هنا. أعتقد أن فرانك قلق بعض الشيء لاعتقاده بأن عليه أن يوظف عددا كبيرا من الشباب، لكني أوضحت له أن بوسعه أن يفعل ذلك بالتدريج ووفق ما تقتضيه المصلحة». شحب وجه فرانك وثبّت نظراته في وجه الموظف الذي قال: «أتفهم أن توظيف الشباب لا يخلو أحيانا من بعض المشكلات، لذلك أنت حر في اختيار الطرائق التي تراها مناسبة لتطوير العمل». لكن

فرانـك اسـتعاد صوتـه فجـأة، قـال وكأنـه لا يسـتطيع تمالـك نفسـه: «لا، أنـا في الحقيقـة سـأقلص أعـمال الورشـة. المالـك الحـالي كان يتوسـع أكـثر مـن الـلازم وأنـا سـأقوم بتقليـص العمـل».

سـاد الصمـت في غرفـة المكتـب وراء النافـذة الكبـيرة التـي ظهـرت مـن خلالهـا ثمـار شـجرة البلسـان الداكنـة وأوراقهـا الخشـنة. بـذل روتلـج محاولتـين لإنقـاذ الصفقـة، وبـذل الموظـف مـا بوسـعه أيضـا، لكـن دون جـدوى. لم يكـن بوسـعهما سـوى الاستسـلام لذلـك الذهـول الـذي يصيـب المـرء عنـد مراقبتـه سـيارة تسـير في طريقهـا المعتـاد ثـم فجـأة ينفلـت أحـد إطاراتهـا لتنحـرف عـن مسـارها وتنقلـب. ظنـوا أنهـم لم يُمضـوا معـا إلّا دقائـق معـدودة، لـولا أنهـم نظـروا إلى سـاعة الحائـط الكهربائيـة وهـم ينهضـون ليكتشـفوا أن سـاعة كاملـة مـرت عـلى وجودهـم هنـا.

خرجـا مـن المبنـى، وأحسـا في الشـارع الـذي يزدحـم بحركـة أول المسـاء أنهـما غـير حقيقيـين، كمـن يغـادر للتـو صالـة سـينما ويشـعر أن الخيـالات التـي كان معهـا أكـثر حقيقيـة مـن الأبنيـة الضخمـة وحركـة السـير والنـاس حولـه. بـدا فرانـك وكأن الصدمـة قـد أصابتـه بالذهـول، هـو الـذي كان قبـل لحظـات فصيحـا إلى حـد أضـاع القـرض.

«يبدو أننا لم نوفق».

«لا، لم نحسن التصرف».

أراد روتلـج أن يخفـف مـن مـرارة الفشـل بـشيء مـن التسـلية قبـل العـودة فسـأله: «هـل ترغـب بـشرب شيء؟».

أجابه فرانك بشيء من الصرامة: «أنا لا أشرب».

«أعرف، قصدت قهوة أو شاي».

«في هذه الحال أنا أدعوك، فنحن هنا بسبب معاملتي».

سارت السيارة بصخب وبطء في طريق العودة، وتحسن مزاج فرانك دولان قليلا عندما رأى قوارب التنزه تجوب النهر. «أظنه كان يوما للتسلية على أية حال».

«أجل، يوم ممتع جدا».

ربما لو نُظر إلى الأمر بروية لأمكن القول إن فرانك لم يفعل شيئا سوى أنه كان في غاية الصدق، وأنه عبّر عن نفسه بطلاقة، كلُّ أَمْر منهما خطر بمفرده، ويكفي أن يجتمعا لتقع الكارثة. قال روتلج: «سنجد حلا. لا بد أن هناك طريقة ما». سأله عندما توقف بجانب سيارته: «ماذا سنقول للشاه عندما يسأل عما جرى؟».

أجابه فرانك: «أي شيء. لن نقول له شيئا».

صمت روتلج قليلا ثم قال عندما رأى إحباط فرانك دولان وقلقه: «أخبره أني أتابع كل شيء بنفسي. لا تقلق، لا بد أن نجد حلا».

في البيت سألته كيت فور دخوله: «ألم تسر الأمور في المقابلة كما يجب؟».

«لا، ما كان يمكن أن تكون أسوأ. تكلم فرانك بتهور وأضاع فرصة القرض».

«ليس من عادته، فهو حريص».

«لم يكن حريصا في هذه المرة. ظن أنه يتورط فيما لا يعرف وأن القرض فخ يُنصب له. ما كان عليه سوى أن يصمت، لكنه تكلم كما لو أنه اكتشف الكلام للتو».

«ماذا ستفعل؟».

«لا أدري. علينا أولا أن نجد طريقة نتفاهم بها مع الشاه. سيزمجر كأسد غاضب عندما يعلم بما جرى».

في وقت متأخر من الليلة ذاتها وصل الشاه بسيارة المرسيدس. ركنها قرب مدخل الرواق وترك الكلب وراءه قبل أن يدخل. تنحنح وسأل فور جلوسه: «حسنا، ما الذي جرى؟».

أجاب روتلج بحذر: «لا شيء».

«لا تخبرني. ما جرى أنه ذهب إلى هناك وجعل من نفسه فرجة للآخرين، وحينما رأوه لم يقبلوا استقباله دقيقة واحدة ورموا به إلى الخارج».

«لا، لم يحصل شيء من ذلك».

نظر الشاه إلى روتلج وقال بنفاد صبر: «اسمع، كفّ عن هذا، فأنا أعلم أنه ما كان عليهم أن يستقبلوه. هل حصلتم على القرض؟ نعم أم لا؟».

«لا، لم نحصل على القرض».

«آه! كنت أعلم.. لقد عرفت ما حدث منذ أن رأيته ينزل من تلك الخردة التي يسميها سيارته. أراقبه طوال عمري، وأعرف ما الذي يمكن أن يرتكب من حماقات. هل تنكر أنه ذهب وأفسد كل شيء؟».

«كل ما في الأمر أنه ليس معتادا على التعامل مع المصارف والمؤسسات».

«لكني لن أمنحه هذه الفرصة ثانية وإلى الأبد».

«لا، لن تنتظر طويلا. لا بد أن نجد طريقة ما للحصول على القرض».

نظر الشاه إلى كيت مستعيدا حس الدعابة وقال: «ما رأيك بكل ما جرى يا كيت؟ قالب الحلوى هذا جميل جدا».

قالت كيت: «بصراحة، أنا معجبة بفرانك».

«حسنا، أخيرا وجدتُ من يعجب به!».

ذهب روتلج إلى المصرف لسحب بعض النقود قبل ذهابه إلى حفل زفاف جون كوين فرآه جو يوستاس، صديقه مساعد المدير هناك. دعاه إلى مكتبه وقال له: «سمعت عما جرى في المقابلة في لونغفورد. المصرف كله يتحدث عن الموضوع».

«لماذا؟ ما الذي جرى؟».

«وما الذي يمكن أن يحدث أكثر من ذلك؟ لا يحدث كل يوم أن يدخل إلى المصرف زبون بضمانات مؤكدة للحصول على قرض ثم يخرج بعد ساعة وقد فقد حتى إمكانية الحديث في الموضوع مرة أخرى».

«لقد بالغ في صدقه وصراحته».

«سمعت أنه قال إنه ينوي تقليص العمل. لا يمكن للمصرف أن يقبل شيئا كهذا، وإلا اتُّهِمنا بمنح القروض للكسالى الذين يقضون وقتهم في الفراش».

«لا بد من طريقة ما للحصول على القرض. إنه رجل شريف وذكي، ومن المؤكد أنه سيفي بالتزاماته تجاه المصرف».

«في الحقيقة فكرت في الموضوع، ولا أرى أن أمامه خيارات. الطريقة الوحيدة أن تكون أنت كفيلا له».

«أما من طريقة أخرى؟».

«سأفكر في الموضوع وأسأل عن طريقة ما لحل هذه المشكلة، وبالتأكيد سأخبرك إن توصلت إلى أي شيء».

في صباح يوم الزفاف وصل بيل إيفانس إلى البيت في ملابس الأحد وقد مشط شعره وبدت عليه النظافة والترتيب.

«أين السيدة؟».

أجابه روتلج وهو يعطيه علبة سجائر: «تجهز نفسها. بكَّرتَ في المجيء».

«أجل، من الأفضل أن نصل باكرا وألّا نترك أنفسنا حتى اللحظة الأخيرة». أشعل سيجارة وتابع: «جون كوين يتزوج في الكنيسة! من كان يتوقع أن نرى يوما كهذا!».

«أظن أنك لم تكن لتقدم على فعل متهور مثله؟».

«لا، ليرحمنا الرب. لا، أنا أكثر تعقلا من هذا وأفضل أن أبقى عازبا أستمتع بحياتي كما أريد».

صمَتا عندما ظهرت كيت في ثوب لم ترتده منذ سنوات. لاحظت وقع المفاجأة عليهما فسألت: «كيفَ أبدو؟».

«في غاية الجمال».

«ألا يبدو الثوب مناسبا لامرأة أصغر من سني؟».

«على العكس. وصل بيل مبكرا».

«تبدين رائعة يا سيدتي».

«وأنت يا بيل تبدو أنيقا».

«سنقضي يوما رائعا».

وجدوا ماري في زيّ رسمي وجامسي في ملابس الأحد ينتظران عند شاطئ البحيرة في حالة من الانفعال والبهجة تبدَّت في إيماءاتهما وحركاتهما المضحكة. رفع جامسي كتفيه وتصنَّع أنه يختبئ منهم كمن ضُبط في فعل مشين، ثم صعدا إلى السيارة وهما يضحكان.

قال بيل إيفانس: «أنت محتال كبير يا جامسي».

شجعته ماري وهي تضحك: «أجل يا بيل، هذا صحيح. عليك به».

رد جامسي: «رائع يا بيل، أنت في غاية الأناقة. ستوقع امرأة في شباكك اليوم».

وقفوا بعد وصولهم إلى الكنيسة في الخارج يراقبون سيارات المدعوين تصل، وسيطرت على جامسي حالة من الابتهاج دفعته إلى مصافحة كل من يراه بحرارة، وتوقدت عيناه فضولا عندما وصل باتريك ريان في سيارة فاخرة أنزلته أمام مدخل الكنيسة.

«قد تكون سيارة عائلة رينولد صاحب الحفارات والجرافات».

قالت له ماري موبخة: «لا داعي لأن ترفع صوتك هكذا. أنت تعلم أن هذا المسكين ضعيف أمام المظاهر». عانقت باتريك ريان وقبلته بحرارة عندما انضم إليهم ليسأل فيما إن كان لديهم مكان في السيارة ليذهب معهم إلى الفندق. «لدينا مكان. نستطيع أن نتدبر أمرنا».

مد له جامسي يده مصافحا: «أهلا يا باتريك. لا تقلق لن نتركك هنا وحدك».

«سأجلس في أحضان السيدات.. أهلا يا بيل، أترى! كلهم يتزوجون عدا أنا وأنت!».

لم ينتبه بيل إيفانس الذي كان يراقب المدعوين باستغراق تاجر يتفحص الماشية قبل شرائها، أو كأنه يخمن كم من السجائر يمتلك هؤلاء الناس!

وصل جون كوين في موكب من السيارات الفارهة التي ازدانت بشرائط بيضاء، كلها تحمل لوحات تسجيل إنجليزية وتعود لأولاده الذين قدموا بها من بيوتهم قرب لندن عبر إنجلترا وويلز وصولا إلى دبلن ثم إلى المدينة حيث حجزوا غرفا في الفندق المركزي مدة أسبوع.

صمت الجمع المتجمهر في المساحة المفروشة بالحصى الأبيض قرب مدخل الكنيسة عندما نزل جون كوين من سيارة مرسيدس جديدة تشبه سيارة الشاه. بدا عندما انتصب بقامته وهو يلوح بيده كالسياسيين أكثر شبابا من سنه الحقيقية، بينما تقافز أحفاده من السيارات الأخرى، البنات في أثواب جديدة والصبيان في بزّات رمادية وزرقاء. كل أولاده جاؤوا، لم يتخلف أحد، والتفوا حوله، أبناؤه مع زوجاتهم، وبناته مع أزواجهن وجميع أحفاده، قبل الدخول إلى الكنيسة في مشهد لافت من الترابط. وقف جون كوين في مركز هذه الصورة المتدفقة حياة وشبابا في بزته الأنيقة، وردة بيضاء في عروة الصدر وهو يتألق تحت أنظار الجميع. دخلوا سوية إلى الكنيسة لينتظروا العروس التي وصلت بعد ذلك متأخرة، ولم يرها عند قدومها سوى رهط من المدعوين وقفوا يتهامسون في الخارج، سيدة في أواخر الخمسينيات من عمرها، أنيقة قوية الشخصية ترتدي ثوبا كحلي اللون وتضع وشاحا وزهور سوسن بيضاء على شعرها. بدت مرتبكة رغم مظهرها الواثق والأنيق ممسكة بذراع أخيها الكهل وهي تجتاز الممر بين المتهامسين ونظرات الفضول المتفحصة، لكنها ما لبثت أن استعادت ثقتها مع بداية مراسم عقد القران، وبعد إلقاء النثار الملون والتقاط الصور تألقت سعادة ورضى. تجول الأب كونروي بين المدعوين يصافحهم، بعضهم يطلب منه مواعيد لقداديس وآخرون يسددون له مستحقات عن مناسبات سابقة، وعندما رأى روتلج أمسك بذراعه وانتحى به مكانا قرب الجدار. نادرا ما يلتقيان، لكنهما احتفظا بمودة متبادلة منذ لقائهما الأول.

«لم أتوقع رؤيتك هنا».

«نحن مدعوون، كما كل الجيران في جوار البحيرة، ومن الطبيعي أن نلبي الدعوة. هل ستذهب إلى الفندق؟».

«لا، هو لديه آراء مختلفة عن الزواج مثلما حول الأمور الأخرى، ومن واجبي أن أدعوه مع زوجته إلى الشاي في الغرفة المقدسة وأقدم إليهما النصيحة. أعرف أن الأزواج في لحظات كهذه يريدون ما هو أقوى من الشاي بعد ما مروا به من عناء، وأعرف أيضا أنهم يبحثون عن نوع آخر من النصائح، لكنهم لا يحصلون مني سوى على الموعظة والشاي».

ذهبوا بعد ذلك إلى الفندق. تزاحموا كلهم في السيارة، الرجال الأربعة في المقعد الخلفي وماري إلى جانب كيت في الأمام. ما إن انطلقوا حتى بدأ باتريك بممازحة بيل إيفانس حول الطعام الذي يُحضّر في هذه اللحظات في مطبخ الفندق.

«أستطيع أن أشم رائحته من هنا.. الدجاج المشوي..».

رد بيل إيفانس كمن فاجأه الألم: «توقف عن هذا».

«الدجاج، جلده يتقمر ويحمر والخبز يُحمّص مع شرائح البصل ويُدهن بالدسم مع البطاطا المشوية والفاصولياء الخضراء..».

صدرت عن بيل إيفانس صرخة رهيبة: «كف عن تعذيبي يا باتريك».

ضحك باتريك وحده بهدوء ومكر كأنه يختبر كلماته التالية، لكن لم يكمل. صمت جميع من في السيارة وسرت قشعريرة في جسد روتلج. أعادته صرخة بيل سنوات إلى الوراء، إلى تلك الليلة التي استجوب فيها بيل عن ماضيه عندما أتى إليه يتضور جوعا. «توقف عن تعذيبي»، الصرخة ذاتها التي لا يمكن له أن ينساها، والتي لا يستطيع سوى الانحناء لها، والتي يصمت الآخرون في

هـذه اللحظـة احتراما لهـا. لم تعـد قـدرة بيـل عـلى النظـر إلى الأمـام تفـوق قدرتـه عـلى النظـر إلى الخلـف. أصبـح حبيـس دائـرة مغلقـة في الحـاضر، كل ذكـرى مـن المـاضي أو حلـم بالمسـتقبل وسـيلة تعذيـب بالنسـبة إليـه.

توافـد بعـض المدعويـن عـلى بـار الفنـدق، تبادلـوا النظـرات والابتسـامات مـن بعيـد، وجلسـوا في جماعـات، كل إلى طاولـة مـع ذويـه أو أصدقائـه دون أن يختلطـوا. تجـول البقيـة في ممـرات الفنـدق وحديقتـه بانتظـار أن تُفتـح قاعـة الطعـام الكبـيرة.

ذهبـت كيـت ومـاري إلى الحمامـات، وبـدا عليهـما عندمـا عادتـا إلى الطاولـة أنهـما اكتشـفتا سرا.

قالـت كيـت بصـوت متواطـئ كأنهـا تهمـس لنفسـها: «جـون كويـن أخذهـا إلى غرفـة في الطابـق العلـوي».

«إلى أين؟».

«إلى غرفـة ابنـه. طلـب المفتـاح مـن ليـام. لم تكـن تريـد الذهـاب معـه ولم تكـن تـدري مـا الـذي يجـري، لكـن مـن المؤكـد أنهـا الآن قـد عرفـت جيـدا. أنـا وكيـت رأينـا كل شيء بأعيننـا. انخـرط جميعهـم في الضحـك كالحمـير عندمـا رأوه يحملهـا فـوق ذراعيـه كأنهـا طفلـة».

«ربما لن تسمح له. لن تدعه يفعلها».

«أوه، سـيحاول معهـا باللـين والـكلام المعسـول أولا، وإن لم ينفـع ذلـك فسـوف يأخذهـا بالقـوة. لـولا خشـيته مـن التقريـع في الكنيسـة لفعلهـا قبـل الآن. لا بـد أنهـا جعلتـه يتحـرق انتظـارا لهـذه اللحظـة».

قال باتريك ريان بفظاظة: «ربما كانت تتلهف إلى عناق فقط».

علقت كيت بجفاء: «في وقت كهذا؟».

قال جامسي بهدوء: «قد يكون هذا أفضل لها إن كانت تريده، وفي كل الأحوال عليها فتح الأبواب شاءت أم أبت».

تردد صوت جرس يقرع في ممرات الفندق فنهض الجميع عن طاولاتهم، البعض يشرب ما تبقى في الكؤوس وقوفا. في القاعة بدت الوليمة صغيرة بالنسبة إلى حفل زفاف ريفي، لكن الطاولات رُتبت بطريقة تموِّه على قلة عدد المدعوين، ولم يكن هناك ورود سوى في مزهريات وزعت بعناية. جلس جون كوين مع عائلته وعروسه وذويها على طاولة كبيرة في صدر القاعة، بينما توزع المدعوون في جماعات على بقية الطاولات دون ترتيب مسبق. ساد بعض التردد قبل الشروع بتناول الطعام، وبما أن القس لم يكن حاضرا أتى مراسل من الكنيسة وتلا صلاة الشكر بيدين مضمومتين وعينين مغمضتين، وامتلأت على الفور الصحون بشوربة الفطر الساخنة. قُدم الدجاج المشوي مع أوعية كبيرة من البطاطا وهريس اللفت المطبوخ والجزر بالإضافة إلى الكثير من الخبز المحمص وأباريق من الصلصة البنية.

وبدلا من حلوى الكرز المعتادة في هذه المناسبات قُدمت فطيرة تفاح مع كريما طازجة.

لم يأكل أحد كما فعل بيل إيفانس الذي لم يتفوه بكلمة واحدة طوال العشاء عدا إجابات مقتضبة على بعض الأسئلة، وكان بين فترة وأخرى يستغرق في تأمل من حوله بذهول رافعا الشوكة والسكين في يديه قبل أن يعود لينهمك بكل جوارحه في الأكل من جديد. قال جامسي الذي راقبه بنظرات فضولية: «فليرحمنا الرب، أين يذهب بكل هذا؟!». لكن بيل لم يبال بتعليقاته المسموعة وانصرف بكل كيانه إلى الأكل.

لم تنصرف الأنظار رغم جودة الطعام عن عروس جون كوين التي جلست إلى جانبه بخضوع تحت الأنظار المتسائلة عما حدث وعما فعل العريس بها. تبين أثناء تقديم المشروبات أن العشاء على نفقة أولاد جون كوين، وليس على نفقة الزوجة كما أشيع، فتخفف المدعوون من الحرج وأقبلوا على الشرب بتلقائية. ألقيت بعد ذلك كلمات المضيفين، وكانت قصيرة عدا كلمة جون كوين التي كانت طويلة، كل كلمة فيها متوقعة بحيث استقبلها المستمعون بصمت متواطئ تخلله رفع كؤوس وغمزات عيون. دوى تصفيق متكلف عندما انتهى، وحول بعض الطاولات ضرب البعض أرجلهم بالأرض احتفاء بالكلمة. ابتسم جون كوين وهو يلوح لتهليل الحضور الذي طغى على أصوات التصفيق، ورفع يد عروسه التي ظهر أنها استعادت تماسكها، لكنها رفضت أن تعانقه وحافظت على مسافة بينها وبينه.

قالت ماري التي كانت تراقب ما يجري باهتمام: «أتعلمون ما الذي أفكر فيه؟ أظن أن هذه المرأة أكثر من الصفقة التي في مخيلة جون كوين».

أجابها باتريك ريان: «أعتقد أن عليها أن تعتاد الاستيقاظ مبكرا إن كانت تريد إرضاءه».

أزيحت الطاولات بعد ذلك لإفساح مكان للرقص. انبعثت الموسيقى من مكبرات الصوت، وقاد جون كوين وعروسه الآخرين في رقصة فالس هادئة، بينما جلس بيل إيفانس عاجزا عن الحركة بفعل الطعام والشراب وهو يتأمل المشهد وسط حلقات دخان سيجارته. تجولت السيدة ماغواير بين الحضور تطمئنُّ على حسن سير الأمور، وعندما رأت كيت وروتلج جلست معهما وتحدثت

بعض الوقت، وبعد أن ذهبت اتفق الجميع على المغادرة. بحثوا عن باتريك ريان فوجدوه يتحدث مع أخي العروس. قالت كيت: «هل نسأله إن كان يريد أن نوصله؟». أجاب جامسي: «ليس بحاجة إلى ذلك. سيجول على الجميع ولن تمضي الليلة حتى يحصل على سيل من عروض التوصيل».

في الطريق قال جامسي في السيارة وهم يغادرون المدينة: «أتعلمون، السيدة ماغواير صديقة مقربة من الشاه، وهي ودودة مع الرجال، ستكون مفاجأة مذهلة لو تزوجا».

ردت ماري بحدة: «ليسا سخيفين مثلكما أنت وجون كوين. أليس كذلك يا بيل؟».

أجابها بيل بشرود: «نعم يا سيدتي».

«ولماذا يتزوجان؟».

أجاب جامسي وهو يفرك يديه الضخمتين: «الجميع يعرف لماذا».

«أنت مخجل». قالت كيت التي كانت تقود السيارة لأنها لم تشرب كثيرا: «أعتقد أن دافع الإنسان الجنسي يبقى معه حتى الممات».

انفجرت ماري ضاحكة: «رحمتك يا رب، لست قليلة يا كيت».

قال جامسي: «كيت محقة، فأجساد الأطفال تفصح عن ذلك ما إن يتعلموا المشي، أما الكبار فلا يغيب عن تفكيرهم ويحتاجون إلى ذكاء شديد لمداراة ظهوره في مكان آخر».

أصر جامسي وكيت على المشي إلى البيت من البوابة المفضية إلى شاطئ البحيرة. «هذا سيصفي الذهن». أوصلت كيت وروتلج وبيل إيفانس الذي لم يتفوه بكلمة واحدة طوال الطريق إلى أعلى

التلة حيث لا يفصله عن بوابة بيته سوى القليل من المشي.

سأله روتلج بعد نزوله من السيارة: «كيف تشعر؟ تستطيع المتابعة وحدك؟».

«في القمة.. أنا في القمة.. أشعر بالروعة..».

استمرت الاحتفالات بزفاف جون كوين أسبوعا كاملا. انتظرت العروس حتى عبر أولاد زوجها بسياراتهم الفارهة شوارع دبلن متجهين نحو بيوتهم المتوزعة حول لندن. قضت الأسبوع في بيت جون كوين على شاطئ البحيرة، لكنها لم تكن تمضي فيه سوى الليل وفترات الصباح. صرفا معظم الوقت في المطاعم والمقاهي وزيارة الأقرباء، تأتي السيارة لتقلهما كل صباح ولا يعودان حتى وقت متأخر من الليل أو عند الفجر. ابتهجت الزوجة الجديدة بهذه الأجواء وراق لها ما أشاعه لقاء العائلة الكبيرة من الألفة، ولفت نظر الآخرين توافقها مع زوجها وما أظهرته من طاعة له بعد سلسلة طويلة من النساء اللواتي هجرنه. جالوا جميعهم على أقرباء جون كوين في زيارات حاملين زجاجات البربون كهدايا، هم الذين تلقوا الكثير في أفراحهم ويشعرون في بحبوحتهم الآن بمتعة أن يردوها بكثير من الأناقة والتواضع. تصرف الأبناء بحنكة وبلباقة كي لا يفسدوا هداياهم بإحراج مضيفيهم بأي تفاخر أو استعراض، على العكس تماما من طباع وسلوك أبيهم المعتاد. معظم الأقرباء لا يرحبون عادة بجون كوين، فهو إما مدين لهم أو يتقرب منهم لمنفعة، لكنهم تجاهلوا ذلك مجاملة، ورأوا أن مصلحة العائلة تستحق منهم عناء استقباله.

ظهوره مع أبنائه كان يدفعهم إلى التساهل مع حرصهم على إبقاء مسافة بينهم وبينه، وهم في كل الأحوال لا زوار لديهم،

ويندر أن يلتقوا بأحد إلا في الأسواق أو في الكنيسة. لذلك كانت زيارة جون كوين مع أبنائه وأحفاده حدثا مثيرا في حياتهم يحتفون به بتقديم الشاي وما يخبئون من زجاجات شراب لمناسبات خاصة، ويدفعهم إلى البحث عما تسمح به ظروفهم من الحلوى والبسكويت لتقديمها إلى الأطفال. كل هذا كان يكسر رتابة حياتهم، وأكثر من ذلك كانت الزيارات مادة غنية للحديث على مدى أسابيع وشهور. «كيف يكون لنذل عجوز كجون كوين أولاد محترمون وطيبون بينما لا يواجه الناس الشرفاء من أولادهم غير المتاعب؟ وكيف لذلك الوغد بعد أن دفن زوجتين وعاشر الكثيرات غيرهما أن تسير الرياح بما تشتهي سفنه ويجد امرأة محترمة وأنيقة؟ وأين؟ في مكتب الزواج الذي لا تظهر فيه العذراء سوى للمحظوظين، والذي ينتظر فيه رجال بوسعهم أن يكونوا أزواجا أفضل ولا يحصلون في نهاية المطاف سوى على أيديهم الفارغة. بعض النساء المسكينات يُغرر بهن بهذا النوع من علاقات الحب».

لم تتأخر الزوجة الجديدة في اكتشاف أنها ارتكبت خطأ كبيرا. دعوها في الليلة الأخيرة إلى العشاء في الفندق المركزي ورفعوا أنخاب العروسين وتمنوا لهما حياة سعيدة معا. احتفلوا بهما بعد ذلك حتى وقت متأخر من الليل في البار مع الكثير من الشراب والغناء ثم تبادل الجميع كلمات الوداع والتمنيات بأن يلتقوا مرة أخرى في الصيف القادم.

في صباح اليوم التالي، في الوقت الذي كان موكب سياراتهم يعبر إنجلترا، حزمت الزوجة أمتعتها الشخصية بينما كان جون كوين يصلح السور ويتفقد الماشية في الخارج ورحلت إلى شروهاون. هناك كان رجل طويل القامة أشقر الشعر قد وصل إلى بار البلدة

منذ ساعة. شرب كأسا واحدة من البيرة الداكنة وأجاب بلباقة على أسئلة محدثيه من الزبائن، لكنه لم يصرح بأي شيء يتعلق بهويته وبهدف زيارته. عندما ظهرت زوجة جون كوين عند الباب وضع كأسه على الطاولة واتجه نحوها، حمل حقيبتيها وغادرا دون أي كلمة. لم يخطر ببال أحد في البار أن يسجل أرقام لوحة سيارته، ولكنهم عرفوا من شكل الرجل ومن الطريقة التي تصرف فيها مع المرأة أنه ابنها.

يؤمن جامسي بالحظ مع ملعقتي صيد سمك كان جوني قد صنعهما قبل رحيله إلى إنجلترا من نحاس مطروق ووضع عليهما قطعة كهرمان صغيرة وجدها بين الأخشاب عند الشاطئ. في اليوم التالي لرحيل أولاد جون كوين إلى لندن كان يصطاد بالملعقة الطويلة ويضرب بها في الماء في منطقة من البحيرة ندر وجود السمك فيها. كان مع كل ضربة يقترب من البيت ذي السقف الحديدي تحت شجرة الكستناء الكبيرة، ووصل إلى مكان قريب من الأرض الصخرية العارية التي أخذ جون كوين إليها عروسه الأولى. كان الصباح مشرقا وقد اصطبغ العشب المتناثر حول الصخرة الجرداء بالأحمر، وطفت جماعات من الإوز البري وطيور التم على سطح البحيرة قريبا من الشاطئ، بينما كانت الطيور تغرد في كل أرجاء المنطقة. اقترب جامسي من بوابة البيت فهرول الكلب نحوه ونبح بضع مرات بتكاسل ثم عاد أدراجه. رأى الدجاج ينقر بين التراب في الفناء قرب شجرة الكستناء الكبيرة، وقف هناك متشاغلا بصيد السمك إذ إنه لو تحرك أكثر بمحاذاة الشاطئ فسيبتعد عن البيت. فكر في أنه لا يستطيع فعل شيء سوى الانتظار، رأى الكلب يعود من جديد ثم لمح جون كوين يتقدم نحوه وهو لا يزال في بزّة الزفاف.

أخرج ملعقة الصيد من الماء ثم اقترب وهو يغني: «جون كوين السعيد يستمتع بالصباح الجميل».

«رائع أن ترى جيرانك يسعون ببراءة وسلام وراء لقمة طيبة لموائدهم».

قال جامسي بابتسامة: «لا بد أن البهجة تغمر أيامك بعد أن تزوجت من امرأة جميلة».

«أحاول ما بوسعي كي أكون سعيدا ولا أعيش وحدي، عملا بأن على الرجل ألا يعيش وحيدا. نعم أعمل بمشيئة الله، رغم أنه لا مفر من الاعتراف بأننا نواجه الآن نكسة أرجو أن تكون مؤقتة».

«نكسة؟! جون كوين يتعرض لنكسة؟!».

«نعم يا جامسي، يمكنك أن تسميها نكسة، لكنها مؤقتة، ليست أكثر من عثرة مفاجئة أو حازوقة عابرة. وكما ورد في الأسفار المقدسة، إن من يجمعهم الله لا يستطيع البشر تفريقهم. كنت مساء البارحة أتفقد الماشية، وعندما عدت وجدت أنها رحلت إلى بلدها ولم تترك وراءها سوى رسالة غير ودية».

«ألم يكن هناك مقدمات أو تحذيرات؟».

«لا، لم يكن هناك ما يستحق ذكره. قضينا أسبوعا رائعا، نذهب مع الأولاد ونستمتع، الجميع سُعداء وعلى وفاق، عدا تلك الليلة حين قالت لي: جون، أعتقد أني ارتكبت خطأ كبيرا. النساء تراودهن أفكار كهذه بين حين وآخر، كالأطفال يجب التعامل مع أفكارهن بحس دعابة، كما تعلم. قلت لها ما يجب قوله لامرأة في مثل هذه الحالات، وعندما صمتت ولم تجب خلت أن ذلك ليس سوى نهاية سعيدة لقلق عابر وأننا عدنا إلى سعادتنا».

أصغى جامسي الذي يعرفه طوال حياته، فهو قد استغل وتملق وابتزّ الكثيرين ليحقق مصالحه، وها هو الآن يقع ضحية. قال له: «ولكن يا جون، ألا يكفي أنك قضيت أسبوعا رائعا رغم كل شيء؟».

«الأولاد نجحوا في حياتهم وحققوا ما يريدون من هذا العالم، وأرادوا أن يقدموا إلى أبيهم ما يستحق. جاؤوا يعبرون عن قوة ما يجمعنا من حب، ولم يبخلوا بأي شيء في فعل ذلك. اصطحبونا إلى كل ما نشتهي من أمكنة في النهار، وكان الليل لنا وحدنا. لا أتحرج من إخبارك يا جامسي أني استعدت في تلك الليالي شبابي. عاد العنفوان دون هدر، فقد كنا نمتلك القوة في شبابنا، ولكن كانت الخبرة تنقصنا». «كانت امرأة رائعة». «رائعة بقدر ما يمكن تخيله يا جامسي. لم يكن بي حاجة إلى أن أعلّمها أي شيء، صلبة وهنيئة أكثر من امرأة شابة، ويظهر عليها بوضوح أنها عاشت حياة رغيدة ومريحة ولم تعانِ من الفقر يوما. ثمرة خوخ ناضجة قطفت في اللحظة الأخيرة، قبلَ أن تسقط. كانت في غاية الجمال».

«أنت داهية يا جون. كائن داهية حقا».

«ثم جاءت هذه العقبة في طريقنا. لكن بمشيئة الرب سنتجاوزها وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه سابقا، وسيعود الجميع ليعيشوا معا في وفاق وسعادة».

«لا أشك في ذلك. لا أصدق أن جون كوين يواجه مشكلة كهذه دون أن يكافح من أجل حلها. لا أشك في ذلك لحظة واحدة».

«نعم، لقد بدأت منذ الآن بالتفاوض للتوصل إلى نهاية سعيدة لهذا المأزق، فالزواج حقوق وواجبات، ولا تستطيع أن تتخلى عن كل شيء كما تفعل مع زوج من الأحذية القديمة. أقول لك

يا جامسي رجلا لرجل، ربما وجب عليّ قبول أنها لن تعود للعيش في هذه الناحية من البلاد، لكن كما يقال إن لم تأت الجبال إليك فاذهب أنت إليها».

ترك جامسي جون كوين واتجه مباشرة إلى بيت روتلج. لم يضع الوقت كعادته في التسلل والتخفي لاستراق السمع، بل ترك عدة الصيد بين شجيرات الفوشيا عند البوابة وركض في الممر القصير وهو ينادي صائحا. بدا وهو يقرع زجاج نافذة الرواق كأنه أحد المشجعين العائدين من مباراة كرة قدم رابحة أو تاجر حقق صفقة في سوق الماشية. خرجت كيت التي كانت وحدها لتستقبله في الرواق، وسمع روتلج الجلبة فترك ما كان يفعله في الحقل وعاد إلى البيت. دخل جامسي وألقى بنفسه على الكرسي صائحا: «هذا أسهل، شكرا لكما، أنتما في غاية اللطف». صمت لحظة، لكنه لم يستطع كتمان ما لديه من أخبار أكثر: «ذهبت.. ذهبت..».

«من التي ذهبت؟».

«أعطني شيئا أشربه قبل أن أموت بحق الرب».. زوجة جون كوين رحلت. هربت قبل أن يصل الأولاد إلى إنجلترا. ذهبت وتركته. هجرته وعادت إلى بلدها».

مع زجاجة الشراب والماء أعاد قص الحكاية على سجيته، يغص أحيانا بما يشرب وهو يتكلم، ويخفض كأسه لينفجر بالضحك أغلب الأحيان. «لم أسمع في حياتي رجلا يتحدث عن امرأته بهذه الطريقة! يقول إنه كان يشعر معها بأنه يدخل ويخرج من المستقبل.. وأن طعمها كثمرة خوخ ناضجة قطفت للتو من الشجرة. رحمتك يا رب، جون كوين كائن داهية لا يتوانى عن فعل أي شيء! قال إنه استعاد شبابه. أدفع أي مبلغ من المال مقابل أن

أعرف ما الذي كانت تشعر به ثمرة الخوخ تلك!». «أنت مخزٍ يا جامسي. لا بد أنك كنت تستدرجه ليقول ذلك».

سأل روتلج: «ألم يكن هناك مؤشرات أو مقدمات؟».

«نعم.. نعم.. لكن كما يرويها جون كوين لا تستحق الاهتمام. التفتت إليه ذات ليلة في السرير وهما ينعمان بالسلام والسعادة وقالت: أعتقد أني ارتكبت خطأ كبيرا».

قالت كيت: «أي نهاية! تخيّل أن تذهب إلى مكان كمكتب الزواج ذاك لتحصل على رجل مثل جون كوين!».

«لا يزال الكثيرون يذهبون، ولن يوقفهم أحد. الطبيعة تفعل فعلها بهم. لكن هذه المشكلة لم تنته بعد، تذكروا كلامي، فجون كوين لا يمكن التخلص منه بهذه السهولة».

«وماذا بوسعه أن يفعل؟».

«الكثير. قد يعرض الأرض للبيع حتى يحصل على أعلى سعر ثم يسافر إليها، فكما يقول، إن لم تأت الجبال إليك فاذهب أنت إليها. قد يبدو في تصرفاته أبله، لكنه في العمق ليس كذلك إطلاقا».

«ألن يطردوه؟».

«لن يكون ذلك سهلا، فهي زوجته شاءت أم أبت، وهو بالإضافة إلى كل صفاته الأخرى محنّك كمحام. سيحاول معها بالكلام المعسول، ولن تذوب الزبدة في فمه قبل أن يحشر رأسه بينهم من جديد».

«وماذا عن أبنائها؟».

«كل منهم متزوج وله بيت وعائلة، ولا أعتقد أنهم سيتدخلون في شؤونها بعد فضيحة الزواج من رجل كهذا. هناك زوجاتهم

أيضا، فكما يقال من يعدّ فراشا يجب أن ينام عليه. هناك أمور كثيرة تنتظر جون كوين، وما من أحد يستطيع لعب أوراقه مثله. لن يعود صفر اليدين».

رافقاه إلى البوابة حيث حمل عدة الصيد من بين شجيرات الفوشيا واتجه نحو البحيرة. كانت الثمار على أشجار البُرْقُوق قد نضجت، وتلونت بعض رُقَع الأرض بالأصفر على طول الحزام الأخضر المحيط بالبحيرة التي بَدت كمرآة شاسعة عكست ضوء السماء وألوانها وعمقها. كل ما كان مزهرا أثمر الآن، وقرب أعواد الخيزران التي بهت لونها الأخضر وانحنت باتجاه الماء حام الذباب والحشرات ومارَ الماء الضحل بحركة الأسماك الصغيرة والكائنات التي تعيش في أعماقه.

سيأتي عيد الميلاد، ولن يكونا في لندن، يوم أحبا دائما أن يقضياه هناك. كتبت كيت إلى روبرت بوث بعد تأخير أرادت منه إبقاء باب الفرصة مفتوحا أطول وقت ممكن. قالت في الرسالة إنها وروتلج يشعران بالامتنان ويقدران له أنه فتح أمامهما بابا في وقت بدأت الأبواب كلها توصد بوجهيهما. قالت لروتلج برقة: «إنه لمدهش حقا الفارق في حياتك عندما تكون شابا. أن ترتدي ثيابك للذهاب إلى حفلة وأنت مشحون بالترقب، وكأنّ أي لقاء يمكن أن يغير حياتك». «نعم، في ذلك الوقت كنت تبدئين حياتك، أما الآن فأنت في منتصفها». أنهت كتابة الرسالة، وشعرت أنها بذلك تغلق الباب المفتوح وأن صوت انغلاقه قد أزعجها.

بدأ الشاه يلح خلال زياراته في أيام الآحاد التي صارت تحدث في أوقات متأخرة من الليل. «ألم تسمع جديدا من ذلك الرجل عن موضوع البيع؟».

أجاب روتلج متعمدا الغموض: «لا، لكنني متأكد أن كل شيء سيكون على ما يرام. نحاول الآن حل بعض الأمور».

«لن ينتظره العرض إلى الأبد. نادرا ما يحصل رجل بهذا التردد على فرصة كهذه».

تحدث روتلج مع جو يوستاس موظف البنك بشأن القرض مرة أخرى. بحثا كل الإمكانات المتاحة، لكنهما خضعا للحل الأخير في نهاية المطاف. يحصل روتلج على القرض باسمه ثم يحوله إلى فرانك دولان مع ضمانات قانونية. «ليس أمامنا طريقة أخرى، فلا تزال القصة حديث المصرف: الرجل الذي أقسم أن يقلص أعماله!». ذهب روتلج ليتحقق فيما إذا كان فرانك لا يزال راغبا في الشراء. نظر إلى مساحة الورشة عندما وصل، وانتبه للمرة الأولى إلى حجم ثروة الشاه. المكان يستحق أضعاف السعر المعروض. وجد فرانك يعمل في تركيب قطع محرك تحت بقعة ضوء على طاولة كبيرة في الورشة. وقف يتأمله بصمت حتى انتبه إليه وأدار حامل الضوء باتجاه الجدار، ثم نظر إليه بثبات نظرة صارمة ملؤها التساؤل.

«أما زلت تريد الشراء؟».

«بالتأكيد، أريد أن أشتري». جاءت إجابته واضحة وقاطعة وفاجأت روتلج بقدر ما أراحته.

«أعتقد أني وجدت حلا. سأعود إليك بعد بضعة أيام».

لم يسأل فرانك عما يدور في ذهن روتلج. تحدثا بعض الوقت عن أحوال العمل والمدينة ثم رافقه إلى سيارته دون أن يطفئ الضوء، فمن عادته أن يعمل حتى وقت متأخر لأنه يفضل العمل وحده حين لا يكون هناك أحد سواه في المكان. أشار إلى ضوء شاشة التلفزيون المنبعث من غرفة المكتب: «ألا تريد أن تراه؟

سيزمجر غضبا إن عرف أنك كنت هنا».

«الوقت متأخر ولا أظن أنه سيسمع».

«لا، ستصاب بالذهول لو عرفت ما تلتقط أذناه».

سألت كيت عندما حدثها روتلج عن معاملة القرض: «إن كان الموضوع آمنا كما تقول، فلماذا تتردد إذن؟».

«ليست فكرة جيدة أن يدخل المرء في معاملات مالية مع أناس مقربين. كنت أفكر أنه لا بد من وجود طريقة أبسط».

«هناك طريقة. لماذا لا يقرضه الشاه؟ أتذكر كم ترك لدينا من النقود عندما سافر في إجازة؟ وقد لا يكون ذلك سوى جزء يسير مما لديه».

تجمد روتلج مذهولا لأن فكرة بسيطة وقريبة كهذه لم تخطر بباله. «صحيح أننا لا نستطيع رؤية ما تحت أنوفنا!».

«أظن أن الأمر أكثر بساطة».

«كيف؟».

«أنت دائما تتحاشى أن تطلب منه شيئا، وتتردد في قبول أي شيء يقدمه إليك».

«لم نكن بحاجة».

«صحيح، ولكن ظروفنا لم تكن دائما سهلة».

«استطعنا تدبير أمورنا وحدنا».

قالت كيت وهي تنظر إليه بعد فترة خيم عليها الصمت: «أعرف..».

كسر روتلج الصمت قائلا: «يبدو أننا غير قادرين على معرفة أنفسنا بشكل كامل.. لكن هل سيوافق على إقراض فرانك؟».

«ولِمَ لا؟ ألا يريد أن يبيع؟ أنا أرى الأمر بسيطا».

«الناس يتصرفون بغرابة عندما يتعلق الأمر بالمال. تصرفات خارج العقل أو المنطق».

«كل ما تستطيع فعله أن تسأل».

جمع روتلج معلومات وافية عن الفوائد وأقساط التسديد وذهب إلى الشاه في وقت العشاء في الفندق.

وجده على طاولة وحده في مقصورة تطل على قاعة المطعم، متورد الوجه يأكل بطمأنينة غافلا عن كل ما حوله. مضت لحظات حتى انتبه لوجوده فابتسم بهدوء وأشار إلى كرسي بجانبه ليجلس، ثم وبذات الحركات المتمهلة نادى على النادل وقال له: «أحضر لهذا الرجل ما يريد يا جيمي».

«لا أشعر برغبة في الأكل. أريد شايا، إبريق شاي».

«أو ربما شيئا أقوى، قنينة كحول أو نبيذ أو بيرة؟».

رغم نفوره من الكحول كان يحسن تقديم أصنافه المتنوعة إلى ضيوفه، وفي البيت لديه خزانة خاصة مليئة بأنواع المشروبات يحرص على تقديمها بسخاء إلى زواره من الأصدقاء والأقارب، ولا سيما أولئك الذين يريد استدراجهم إلى شيء ما.

سأل: «كيف كيت؟».

«طلبت أن أوصل إليك سلامها. كنا نتحدث سوية عن مسألة البيع والقرض». طغى على ملامحه انتباه مفاجئ «حسنا؟». «لو نظرت إلى الأمر من أي زاوية فسيبدو من المنطقي أن تقرضه أنت، فلديك وفرة من المال».

«نعم، لا أشكو من قلة المال».

«لن تعطيه مالا، بل يدفع إليك الأقساط عوض أن يدفعها إلى المصرف».

«لا أريد أن أجد نفسي أمد يدي إليه كل شهر لتحصيل الأقساط».

«لن يحدث هذا. ستوقعان على عقد يدفع إليك حسب شروطه الأقساط وتضاف إلى حسابك المصرفي كل شهر أو ثلاثة أشهر، ولن تضطرا لتبادل كلمة واحدة إن لم ترغبا في ذلك».

«وماذا لو عجز عن ذلك؟».

«عجز عن ماذا؟».

«عن التسديد».

«تستعيد ملكية المكان، مثلما يحصل لو أعطى المصرف القرض».

اتفق روتلج وجو على أن تكون الفائدة معدلا وسطيا بين فائدة الإقراض وفائدة الإيداع، وبهذا يدفع فرانك فائدة أقل مما كان سيدفع لتسديد قرض المصرف، ويتقاضى الشاه بدوره فائدة تفوق ما يتقاضاه عن إيداع أمواله. قال الشاه عندما اقترح عليه روتلج ذلك: «هذا جيد، وسأعطيه بفائدة أقل أيضا».

تكلم وكأن همّا انزاح عن صدره، فقد كان دائما يرغب في إعطاء الورشة لفرانك، لكن رغبته بقيت طيّ الكتمان خشية أن يظهر بمظهر لا يليق برجل أعمال.

«يمكنك طلب الفائدة التي تريد، لكن برأيي هذا الاقتراح مناسب، فلا داعي للمبالغة في أي شيء».

«حسنا، فليكن ذلك».

«لكن عليك أن تعلم، فورَ توقيع العقد يستطيع إخراجك من المكان في أي وقت».

«أنا جاهز للمغادرة في الصباح».

تجمد فرانك صامتا كحجر عندما أخبره روتلج أن مشكلة القرض قد حُلت وأن الشاه هو من سيقرضه، ولم يتحرك أو يتفوه بكلمة حتى ألح عليه روتلج بالسؤال إن كان لا يزال يريد الشراء.

«بالتأكيد أريد الشراء. بعض الناس يشكون منه، لكنه أفضل مما يظنون بكثير».

انقضى الصيف ومر شهرا سبتمبر وأكتوبر والشتاء يتردد في القدوم، فتعرت الأشجار بينما كانت الأبقار والأغنام لا تزال تخرج إلى مراعي العشب. ذبلت الخضار وتحول لونها إلى الأسود، واكتست شجيرات البُرقُوق عند شاطئ البحيرة بأزهار زرقاء، وذوت ثمار التوت البري دون قطاف بينما تلونت أوراق شجيرات الورد بالبني والأصفر والأحمر. قُطف الخوخ والإجاص والتفاح، فخُزّن بعضُه وحُوّل بعضُه الآخر إلى مربيات في القدر النحاسي الكبير ثم وُزّع ما تبقى على الجيران. جُمع العسل من الخلايا وأُطعم النحل محلول السكر لعدة أيام، بينما توهجت ثمار العليق بلونها الأرجواني تحت الضوء المنعكس على سطح الماء فانقضّت عليها الطيور حتى أتت عليها كلها.

أحضر جامسي سلالا من الخضار وتُرك له أن يأخذ ما يريد في مقابلها، وذهب روتلج إليه ليحَضُر نهائيات بطولة أيرلندا على التلفزيون. شربا الشراب وقدمت ماري إليهما الشطائر والشاي بينما كانت دقات الساعات الخاطئة تتردد في أرجاء البيت وتتناقض مع الأوقات المعلنة في التعليق الرياضي. يشجع جامسي عادة الفريق الذي يدل أداؤه على أنه يقود الموسم إلى نهايته السعيدة بفوز باهر، ودائما يُرجع أي خسارة إلى أخطاء في التحكيم. قال وهو يرفع يده: «لا فائدة، لا يستحقون الوصول إلى النهائيات». خرج

بعد نهاية المباراة مع روتلج يرافقهما الكلبان وأوصله إلى البحيرة.

قال روتلج: «شكرا، كانت مباراة رائعة».

رد جامسي بلهجة تنم عن الرضى: «فاز الفريق الذي يستحق على كل حال». أضاف بعدها بعزم مودعا: «بمشيئة الله».

مشى على طول الشاطئ، لم تكن تمطر، لكن الريح هبت في وجهه ورافقه حفيف أوراق الشجر إلى أن وصل إلى البيت. عرف بوجود الشاه عندما رأى المرسيدس عند أشجار جار الماء قرب البوابة، وما إن دخل إلى البيت حتى سمع صوت عمه يتحدث مع كيت بانسجام عن عملية البيع والقرض. «لكن هل يقدر على ذلك؟ هذا هو السؤال يا كيت». وقف يستمع إلى صوتي المتحدثين اللذين يحبهما فاستعادت ذاكرته أحداث اليوم وصوره، دقات الساعات وصحبة جيرانه اللطيفة والمشي على شاطئ البحيرة، كل هذا أثار فيه مشاعر شتّى جعلته يفكر: لا بد أن هذه هي السعادة. لكنه انتبه وأبعد بسرعة هذه الهواجس التي بدت له أكثر خطورة من أي حديث افتراضي، فالسعادة يجب ألّا تُلاحق كأنها واقع، ولا يمكن حتى أن تُدرك، بل يجب أن نتركها في مساراتها الخاصة تتسلل حيث تشاء دون أن نلحظها أو نعي وجودها.

تساقط ما تبقى من أوراق في موجات صقيع عصفت بالأشجار وتركتها عارية تقف في وجه الريح عند الشاطئ، وأصبح بإمكان جامسي أن يرى كل ما يحدث حول بيت روتلج بعد أن تجردت كل الأغصان مما كان يحجب الرؤية. قُطعت الأغصان الجافة وخُزنت كحطب للتدفئة، وأخذ العواء يتردد من بعيد في ليالي الشتاء الباردة التي أصبحت الأصوات تسافر في جوها الجاف

مسـافات أطـول.

كـما في كل شـتاء عـادت أضـواء الشـوارع لتنـير باكـرا في أيام السـبت عندمـا يجتمـع النـاس للتسـوق. اعتـاد روتلـج وكيـت أن يذهبـا إلى السـوق مـع جامـسي ومـاري، وأن يذهبـوا بعـد ذلـك للـشرب في حانـة لـوك حيـث التقـوا هنـاك مصادفـة بباتريـك ريـان بعـد زمـن طويـل لم يـروه خلالـه. كان مزاجـه مرحـا للغايـة، لكنـه رفـض مرافقتهـم إلى البيـت لأن أصحابـه كانـوا ينتظرونـه في مـكان آخـر.

وفي أمسـية سـبت أخـرى دخـل جـون كويـن إلى الحانـة. «يبهجنـي أن أرى جـيراني الطيبـين يسـتمتعون بوقتهـم ويجتمعـون بمحبـة وود عـلى كأس مـن الـشراب كأنهـم عائلـة واحـدة بعـد أن فرغـوا مـن التسـوق». حيـا رواد البـار ثـم طلـب بـيرة داكنـة مـن لـوك الـذي أجابـه وهـو يشـير بمكـر إلى واجهـة البقالـة في الخـارج: «وهـل تريـد شـيئا مـن هنـاك أيضـا؟».

«لا يا لوك، لكل شيء مكان ووقت. حتى هذه البيرة».

سأله جامسي ببراءة: «هل أجَّرت الأرض يا جون؟».

«أجـل يـا جامـسي، أجَّرتهـا مـدة أحـد عـشر شـهرا لرجـل شريـف سـيعتني بهـا كأنهـا أرضـه ريثـما تسـمح لي الظـروف باسـتردادها. قضيـت وقتـا لا بـأس بـه في ويسـتميث وقابلـت الكثـير مـن النـاس في تلـك المنطقـة الغنيـة، والحقيقـة أن الأمـور أخـذت تتحسـن فيـما بيننـا، لكـن كـما تعلـم يجـب عـدم الإلحـاح في أمـور حساسـة كهـذه. لـو قـدّر لنـا اللـه أن نجتمـع مـن جديـد فسـنعيش مـع بعضنـا كقُبَّرتـين تحلّقـان في وئـام بـين الأمكنـة التـي نحـب، وقـد نحـط بـين فـترة وأخـرى في إنجلـترا لنـزور الأولاد، وسـأنتقل إلى هنـاك بشـكل نهـائي. كان مـن الأفضـل لـو تمـت تسـويةُ الأمـور بالتفاهـم، لكـن في الـزواج تجـد

نفسك أحيانا أمام اعتبارات قانونية تتعلق بالواجبات والحقوق».

«كل التمنيات لك بالصحة والسعادة يا جون».

«والآن اسمحوا لي، لا يُمل من صحبتكم، ولكن عليّ أن أذهب الآن. عندما يُحرم الرجل من شريكة حياته يجب عليه فعل الكثير من الأمور بنفسه».

تبع خروجَه ضحكٌ وأحاديث تناولت ما صرح به عن مشاريعه القادمة. قال أحد الرجال: «لا يختلف جون كوين عن أي منا مثقال ذرة، وهو طبيعي تماما عدا أن هوسه بالجنس أكثر قليلا». سرت في الحانة موجة من المزاح والتعليقات الساخرة، وأدار لوك وجهه إلى داخل البار مداريا ضحكه.

سألت كيت في طريق العودة: «هل يصدق جون كوين فيما يقول؟».

«جون كوين لا يبالي بما يقول أو بما يفعل. لا يهمه سوى نفسه وما تقتضيه مصلحته، ولو تعارض الكلام مع ذلك لحظة واحدة لتحولت خطاباته إلى اعترافات موجزة».

اعتاد الجميع أن يروا جامسي في مزاج مرح، وكأن روح الدعابة نبع لا ينضب داخله. لكنه في يوم من أواخر نوفمبر وصل إلى بيت روتلج ولم يقف عند أشجار جار الماء معلنا وصوله بدعابة، ولم يقرع نافذة الرواق بطريقته الفكهة. لم يرياه حزينا هكذا منذ زمن بعيد، دخل بهدوء ثم أعطى روتلج رسالة كان يحملها: «اقرأ هذه». نظر إلى الكرسي الهزاز فوجد القطة تجلس عليه فوق وسادة، حملها بيديه الضخمتين دون اكتراث ووضعها على الأرض ثم جلس. نظر إليه روتلج وفاجأه التعب والحزن على هيئته. الرسالة من جوني، قصيرة وواضحة، قرأها روتلج، لا صوت

يتردد في المكان غير دقات ساعة وخرير الماء الذي يملأ الخزان في الطابق العلوي. تجري شركة فورد توسيعات وإعادة هيكلة لفرع دانغهام، ولم يعد بوسع النقابة أن تحمي أمثال جوني. تمكنوا من الاتفاق على تعويض تسريح من العمل وتقاعد جزئي. لم يعد أمام جوني سوى أن يعود ليقيم مع جامسي وماري كما كان يفعل قبل هجرته إلى إنجلترا».

«ماذا ستفعل؟».

«لا أدري».

«هل تريده أن يقيم معكما؟».

«ماري.. ماري تقول إنها ستفقد عقلها لو أتى وأقام معنا. لم يغفُ لها جفن منذ أن وصلتنا الرسالة».

«وكيف تشعر؟».

«ليس أمامنا لو أتى سوى أن نترك البيت، إننا نتحمّل بمشقّة استضافته أسبوعين في إجازته السنوية. لا أدري ماذا سنفعل لو انتقل للعيش معنا في البيت بشكل دائم، والمشكلة أننا لا نستطيع التخلي عنه ككلب أيضا».

«هل أخبرت جيم؟».

«جيم في دبلن ولن يهتم بالأمر. كل ما يستطيع فعله أن يستقبله كل صيف في محطة القطار، عدا أن لوسي وجوني ليسا على وفاق. ما رأيك يا كيت؟».

«لا أدري ماذا أقول يا جامسي. إنها ورطة حقيقية».

لا يستطيعان العيش معه، وليس بوسعهما في ذات الوقت أن يظهرا أمام الآخرين أو حتى أحدهما أمام الآخر بمظهر من يتخلى عنه ويتركه دون مأوى. كانت الأمور تسير خلال سنوات طويلة

مضت وفق علاقة يحكمها الخجل والمجاملة، وتنزع نحو تدوير الزوايا الحادة حيث ما لا يقال أكثر أهمية بكثير مما يصرح الجميع به. تلك العلاقة وجدت دائما حلولا لمشكلات فرضها الواقع القاسي بالمداورة والالتفاف حول الحرج وتجنب المواجهة، وما كان لها أن تنجو من تدخلات الفضوليين لو أنها خضعت لسلوك أكثر صراحة ومباشرة.

قالت كيت بعد أن تحدث جامسي: «إن كان هذا ما تشعر به فعليك أن تكون صريحا منذ البداية. هذا أفضل للجميع، حتى لجوني نفسه على المدى الطويل».

«ماذا أفعل؟».

«اكتب له».

«وماذا أقول؟ منذ أن وصلتنا الرسالة فقدت ماري القدرة على النوم ولم نستطع القيام بأي عمل في البيت أو الحقل».

«يجب أن تقول ما لديك بصراحة».

«لا ندري ماذا نقول ومن أين نبدأ».

نظرت كيت نحو روتلج بحذر وقالت: «سيكتب لك روتلج الرسالة. هذه مهنته التي يكسب منها. تنسخها بعد ذلك وترسلها». «هل تكتب لنا الرسالة؟ هل تساعدنا في هذا حقا؟».

«بالطبع أكتبها لكم، لكن أليس من الأفضل أن يفعل جيم ذلك، فهو قادر على الكتابة بشكل قد يكون أفضل مني».

«لا، لن يهتم جيم بأمر كهذا. هو في دبلن ولا أريده أن يتدخل».

«حسنا إذن، سأكتبها. سأكتب الرسالة وأحضرها إليك هذه الليلة إلى البيت».

«لا يحلها سوى المتعلمين. ماري هي التي قالت لي اذهب إليهما، فالمتعلمون بإمكانهم دائما أن يجدوا طريقة ما. الرجل المتعلم قضى وقتا طويلا في المدارس ولا بد أن يجد حلا، ليس مثلنا نحن».

ضحكت كيت مبتهجة: «لا بد أنك بحاجة إلى شيء من الشراب الآن؟».

«الله لا يحب الجبناء يا كيت». استرخى جامسي مع الشراب وتلاشت غمامة الكآبة والقلق التي كانت تغشى روحه قبل دقائق. «هل سمعتما من قبل بحكاية رسالة أمريكا؟».

«لا».

«أراد أناس لا يعرفون الكتابة أن يرسلوا رسالة إلى أمريكا. في تلك الأيام كان من لا يتقن الكتابة يذهب إلى معلم المدرسة ليكتبها له مقابل أجر كأنه محام. كتب المعلم الرسالة لهم ثم قرأها عليهم وسألهم عن رأيهم، وعندما لم يقولوا شيئا سألهم فيما إن كانوا يريدون إضافة ملاحظة في نهاية الرسالة. سألوه هل هناك أجر إضافي لكتابة الملاحظة، وعندما أجاب بالنفي قالوا له حسنا إذن اكتب لنا هذه الملاحظة، ستبدو الرسالة أفضل بها: (اعذرونا لركاكة الكتابة والأخطاء الإملائية). لو رأيت فقط وجه المعلم!».

«ربما فعلوا ذلك عمدا؟».

«لا، لم يكونوا على دراية بما يفعلون. كل ما في الأمر أنهم سمعوا الناس يكتبون تلك الملاحظة في رسائلهم، فاعتقدوا أن ذلك أفضل ولم يريدوا أن يكونوا أقل من غيرهم».

رافقاه عبر البوابة وأشجار جار الماء إلى البحيرة. «سأكتب لك الرسالة وأحضرها في المساء».

رد جامسي متأثرا: «بارك الله فيك».

«ولن أتقاضى أجرا».

«لا أنوي أن أدفع لك في كل الأحوال».

كتب روتلج رسالة موجزة شرح فيها الظروف بشكل واضح، لكنه خفف من الحرج بأن ترك فيها بابا مفتوحا لجوني. قال فيها إنه سيجد نفسه معزولا في هذه البقعة النائية عند البحيرة دون سيارة أو هاتف، وإن جامسي وماري قد رتبا أمورهما واستعدا للشتاء، لهذا فهما يرسلان إليه الحُب والتمنيات بأن يلتقيا به في عطلة الصيف القادم كما في كل سنة. حمل الرسالة ومشى في المساء نحو بيت جامسي بمحاذاة الشاطئ، كل الأشجار في طريقه عارية تماما عدا السنديان والإيلكس، ورأى القمر الشاحب فوق البحيرة والإوز البري قرب أعواد الخيزران. نهض مالك الحزين عندما اقترب منه وخفق بجناحيه متقدما بكسل على طول الشاطئ كأنه يرشده إلى الطريق. رأى مع كيت أعدادا كبيرة من مالك الحزين منذ قدومهما للعيش هنا، لكن هذا الطائر بالذات هو من يتحرك أمامهما ليقودهما في طريق الذهاب ويعود لينهض من جديد ويقودهما في طريق العودة. فكر وهو يمشي، أجل، لا بد أن يشعر جوني بالعزلة هنا.

عندما وصل كان قفص الدجاج قد أقفل لقضاء الليل وانعكس على زجاج النافذة ضوء أزرق. كانا في الداخل يشاهدان البرنامج التلفزيوني بلايند ديت، مع الكلبين اللذين جلسا كل على كرسي ونظرا بتحفز نحو روتلج لدى دخوله كأنهما يترقبان أن يبعدهما ليجلس مكانهما. نهضت ماري بسرعة، عانقته وقبلته بينما ظل جامسي مشدودا إلى الشاشة يراقب امرأة شابة في ثياب مثيرة تقف بجانب مقدمة البرنامج. كان على المرأة أن تختار أحد

الشـبان الثلاثـة الذيـن يجلسـون وراء سـتارة تحجبهـم عنهـا، ووفـق قواعـد هـذا البرنامـج يقـضي مـن تختـاره المـرأة معهـا أيامـا في فنـدق فاخـر بـين لقـاءات تضيئهـا الشـموع وتحيـط بهـا الرفاهيـة ليتمكـن مـن التعـرف إليهـا واختيارهـا كشريكـة لحياتـه. بالمقابـل يجـب عـلى الشـبان أن يجيبـوا عـن مختلـف أنـواع الأسـئلة التـي توجـه إليهـم مـن مقدمـة البرنامـج، أسـئلة عـن هواياتهـم وأفكارهـم وحياتهـم ورغباتهـم الجنسـية. كل هـذا وسـط حماسـة الجمهـور وتصفيقـه للأسـئلة التـي لا يـكاد أي منهـا يخلـو مـن تلميـح جنـسي مهـما كانـت طبيعتـه بعيـدة عـن الموضوع.

أبـدت مـاري انزعاجهـا مـما رأتـه قلـة كياسـة في سـلوك زوجهـا، لكـن روتلـج قـال إنـه لا يمانـع، وهـو نفسـه يريـد مشـاهدة البرنامـج. «إنـه كالأطفـال، تأخـذه الحماسـة ببرامـج سـخيفة كهـذه، ولا يمكنـك أن تميـز أيهـما أكـثر خزيـا هـو أم الجمهـور الـذي يصفـق. الأبقـار التـي تتجمـع في الحقـل حـول قـذارة ليسـت أكـثرَ لباقـة منـه!». اختـارت فتـاة البرنامـج أخـيرا رفيقهـا مـن الشـبان الثلاثـة، وظهـر الشـاب مـن وراء السـتارة وسـط تصفيـق الحضـور بينـما جالـت الكامـيرا عـلى الوجـوه ترصـد ردود الأفعـال تجـاه اللقـاء الأول بينهـما. تـلاشى اهتـمام جامـسي فجـأة فنهـض وأطفـأ التلفزيـون.

قال روتلج: «لا أمانع المتابعة حتى النهاية».

«لا، إنه محض هراء. أعدّي لنا ما نشرب يا ماري».

نظـرت إليـه ثـم قالـت وهـي تخـرج الكـؤوس وزجاجـة البربـون: «إنـه فقـط غطـاء للجنـس. كلهـم يعرفـون ذلـك ويصفقـون لـه، يريـدون أن يـروا كل شيء بـدل أن يفعلـوه بأنفسـهم».

«سـيفعلونه أيضـا، فهـم يريـدون أن يجربـوا مـا يشـاهدون

بأنفسهم». رفع جامسي كأسه: «بصحتك، حظ طيب اليوم وغدا».

قال روتلج وهو يضع الرسالة على الطاولة: «كتبت هذه إلى جوني». خيم الصمت وبدا المكان كجهاز التلفزيون الذي انطفأ لا حياة فيه عدا دقات الساعة وصوت أحد الكلبين وهو يتحرك على الكرسي ليعدل وضعية جلوسه.

قرأت ماري الرسالة ثم أعطتها لجامسي الذي قال لها: «لا، اقرئي الرسالة لي».

«اقرأها أنت».

«لا، اقرئيها أنت، عيناي لا تساعدانني على ذلك».

«عيناك لا تساعدانك فيما لا تريد أن تراه فقط». أعطت الرسالة لروتلج: «اقرأها أنت له يا جو».

قال روتلج قبل أن يبدأ بالقراءة: «يمكنك أن تغير فيها أو تضيف أي شيء إليها، ويمكنك ألا ترسلها مطلقا أيضا».

قالت ماري: «ممتازة، لن نغير فيها شيئا. سأنسخها كما هي كلمة كلمة».

قال جامسي بقلق: «وماذا إن لم يبالِ بالرسالة؟».

«الأمران سيان، لا يمكنه العيش معنا، وسنترك البيت إن فعل».

علق روتلج: «ولكن ليس من الإنصاف أن تجعلاه يظن أن قدومه إلى هنا لن يسبب مشكلة. يجب أن يعرف مسبقا».

قال جامسي: «من المؤسف أن يضطر الناس إلى البحث في أمور محرجة كهذه».

«لا فائدة من هذا الرجل، فهو لا يستطيع الإقدام على أمر إن لم يدفعه أحد من الخلف. يفكر ويسأل وأنا لم تغمض عيناي منذ وصلتنا تلك الرسالة. كل صيف يبتهج لقدوم جوني، نغير كل شيء في

البيت ونعد له أفضل أنواع اللحوم، ثم ماذا؟ ماذا يفعل عندما يأتي؟ يمضي ويتركه لي أنا لأقضي النهار كله أستمع إلى قصصه التي نسيها الجميع، كأن الزمن توقف منذ أن رحل عن هذا المكان».

«كان كبير السن عندما رحل إلى إنجلترا. كان كمن يربط حجرا في عنقه ثم يلقي بنفسه في البحيرة».

خيم الصمت بعد كلمات جامسي فتحول صوت الساعات إلى ضجيج. قالت ماري: «أي متاعب يلقي الناس بأنفسهم في الجحيم من أجلها!». نهض روتلج وهو يقول: «تذكر، بإمكانك أن تغير ما شئت في الرسالة». «لن نغير فيها كلمة واحدة. سأنسخها كما هي وأرسلها في الصباح». نقل جامسي عينيه بين وجهيهما بحيرة وقلق، وبدا في تردده كمن يحبس أنفاسه وقتا طويلا ويوشك على قول شيء ما، لكنه عدل عن ذلك وتناول قبعته ليخرج برفقة روتلج. في الخارج هبت ريح باردة، وكان القمر يضيء السماء فوق البحيرة ويكشف لهما امتداد الدرب أمامهما.

«ماذا لو لم تقنعه الرسالة، فهو عنيد كأبي».

«لن تسمع منه كلمة واحدة بعد أن يقرأ الرسالة».

قال جامسي بتضرع: «رحمتك يا رب.. أصعب ما في حياة هذا الصنف من الرجال أنهم يقضون شبابهم لا يهتمون سوى بإسعاد أنفسهم، وعندما يكبرون لا يتقبلهم أحد، وفي شيخوختهم يبحثون عن مكان يؤويهم».

«قد لا نكون نحن أفضل حالا عندما نكبر».

«نحن لدينا بيوت على الأقل، ولسنا بحاجة إلى مأوى».

أراد جامسي أن يوصله حتى البحيرة لكنهما افترقا أعلى التلة. قال روتلج وهو يتدثر بمعطفه من هبة ريح باردة: «وصل الشتاء إلينا».

«وصل منذ أسابيع ولا داعي للكلام».

على الشاطئ تراءت لروتلج وهو يكمل طريقه نحو البيت دفقات ضوئية كأنها نهر من فراشات نحاسية براقة يجري بين ضفتي البحيرة وتمتد عتمة الماء الهائج على جانبيه. تردد صوت وقع أقدامه وهو ينظر إلى الأفق الذي تضيئه أنوار المدينة، وعندما انعطف بمحاذاة الشاطئ نهض مالك الحزين من بين أعواد الخيزران بتكاسل وخبط بجناحيه متقدما يرشده إلى الطريق كشبح يتراقص في ضوء القمر. في ليلة كهذه لا يهجس رجل يمشي هنا سوى في الركض هربا من ظله.

تلا ذلك أيام عاصفة انهمر فيها المطر بغزارة ممزوجا بالثلج أحيانا، وهاجت البحيرة متقلبة مع أحوال الطقس. بقيت الماشية حبيسة الزرائب، واحتُطبت الأغصان خلال الفترات القصيرة التي توقف فيها المطر. وجد روتلج في هذا الطقس متسعا من الوقت للقراءة ولبعض الأعمال الكتابية، وذهب في أيام متفرقة إلى حانة لوك وسوق الخميس وأريغنا لشراء مؤونة الفحم. لم تتوقف زيارات بيل إيفانس، وكان يبدو في جزمته وقبعته الضخمة كمومياء محنطة عندما يأتي طلبا للسجائر أو للطعام بينما يتحول إلى لورد في باص يوم الخميس. لم يرَ أحد باتريك ريان في هذه الفترة، لكن الجميع عرف في أي مكان ومع أي أناس يعمل.

لم يخفف من رتابة أيام الشتاء سوى ما تناقلته الألسن من أقاويل وحكايات عن جون كوين، وأشاع ذلك جوا من الإثارة لعدة أسابيع. لم يمض شهر على ذهابه إلى ويستميث مدينة زوجته حتى عاد وقد طرده أولادها. لم يترك أحدا بعد عودته إلا

وطلب مساعدته. ذهب إلى الطبيب والقس والمحامي والشرطة، لكن ما من أحد أصغى إليه، فزوجته كانت معروفة وذات سمعة طيبة. فحص الطبيب جروحه وقال إنها ليست خطرة ثم وصف له بعض الأدوية، أما القس فنصحه بأن ينسى ويعتبر كل ما فقده كفارة. من جهته أوضح المحامي له أن لا فرصة أمامه لإقامة أي دعوة، وأنه هو من سيُحاكم ويعاقب إن أقدم على أي إجراء قانوني، فعائلة الزوجة تتمتع بسمعة جيدة ولم تتورط من قبل في أي فضائح أو قضايا. أما الشرطة فقد استمعوا إليه دون اهتمام ثم أخبروه أن قضيته مدنية وليست من اختصاصهم.

ذهبت الزوجة لتقيم مع أولادها بعد أن ألقت ما لديها من متاع جون كوين في الشارع، وتوقف هو في لونغفورد ليزور طبيبا آخر ويقضي ليلته في الفندق. لم يسدد الحساب في اليوم التالي، وطلب أن تُرسل الفاتورة إلى محاميه قائلا إن الأمر يتعلق بقضية مهمة. جال على عدة محامين ليرفع دعوة ضد زوجته، لكن أيا منهم لم يقبل الاقتراب من قضيته. بعد ذلك اشترك في مزاد في سوق الماشية واشترى عجلا رغم أنه كان قد أجر أرضه. «لن يبقى هذا العجل الصغير بعيدا عن عشب الأرض التي يرعاها ذلك الرجل الشريف حتى الصيف القادم، وأنا في كل الأحوال لن أحتفظ به معي هنا وأنا أقضي وقتي بين الأصدقاء والجيران الطيبين».

لم يعدم جون كوين خلال تلك الدوامة من الأقاويل والإشاعات وسيلة يشرح بها وضعه. ذهب في ليلة سبت إلى حانة لوك هنري المزدحمة ووقف على البار يشرب البيرة. قال إنه سعيد لعودته إلى كنف جيرانه وأصدقائه الطيبين. «لقد وضعت القضية برمتها

بين يدي المحامي، وأتوقع أن تسوى الأمور عن طريق المحكمة قريبا. في هذه الأثناء استأنفت بحثي عن سيدة أخرى، ولن أطلب بركات الكنيسة هذه المرة، بل يكفيني حظي من بركات الجيران». استطاع بعض من استمع إليه أن يحافظ على حيادية ملامح وجهه بينما عبر الآخرون عن سعادتهم بعودته وعن تفهمهم لموقفه، فهو يجب ألا يلوم نفسه لأنه بذل ما بوسعه لإنقاذ سفينة كانت ستغرق لا محالة، وهو في حقيقة الأمر ليس سوى شهيد في قضية مبدأ. هكذا نشر حوله شبكة من الأكاذيب والنفاق كادت تضاهي في تماسكها الواقع ذاته.

كتب جوني رسالة أوضح فيها أنه يتفهم تماما إلى أي مدى ستكون عودته قرارا خاطئا، وأنه في الحقيقة كان في وضع نفسي غير مريح عندما أخبرهم أنه ينوي العودة، وأنه كان ينوي الكتابة إليهم قبل أن تصله الرسالة الأخيرة. ما حصل أن الأمور تغيرت منذ ذلك الوقت، فقد حصل على عمل جديد والأمور عادت للاستقرار من جديد. عندما أخبر سيد سينغ أن شركة فورد سرحته من العمل وأنه يبحث عن سكن أرخص في مكان آخر من لندن يمكنه فيه العثور على أعمال مؤقتة، أخبره أنه قد اشترى مؤخرا عدة بيوت فيكتورية تطل على المرج المحيط بغابة إيبينغ وينوي تحويلها إلى شقق يؤجّرها لموظفين واختصاصيين، أطباء ومحامين وممرضات ومحاسبين وغيرهم. لم يشأ سيد سينغ أن يتخلى عنه بسهولة، لهذا عرض عليه العمل كبواب مسؤول عن تلك الشقق، يعتني بنظافة المداخل والأدراج ويتابع إصلاح أي أعطال تطرأ في الشقق. مقابل ذلك سيحصل على أجر أسبوعي وعلى شقة صغيرة للسكن في القبو، وعندما فكر في ذلك جيدا في إحدى الأمسيات

التي قضاها في حانة أمير ويلز اكتشف أن بإمكانه توفير أكثر مما كان يفعل في أفضل أيام عمله القديم. سيبقى الآن في مكانه إلى أن يعود من إجازة عيد الميلاد في برمنغهام، ثم ينتقل فور عودته إلى ليتونستون. الأمور كلها في غاية التنظيم.

قال روتلج وهو يعيد الرسالة لجامسي: «لم نكن نأمل بحل أفضل».

قالت ماري وعيناها تبرقان: «هذا عظيم. وقع على رجليه. المسكين يستحق بعد كل ذلك حظا أفضل في إنجلترا».

قال جامسي: «أتت بنتيجة جيدة تلك الرسالة التي كتبتها».

أضافت ماري: «كان لها تأثير قوي. لم أكن أتوقع أكثر من هذا».

«جوني يفكر في العالم من خلال سيد سينغ، وها هو سينغ يقف إلى جانبه في النهاية».

منذ سنوات وجيم يلح على والديه في دعوتهما لقضاء عيد الميلاد في دبلن. اعتادت ماري أن تقول ممازحة: «ربما يبدو أكثر لطافة في دبلن»، فيرد جامسي ضاحكا: «لا تخافي، لا بد أن الأمور هناك سيئة بما يكفي». بعد كثير من التردد والتأجيل، قررا السفر لقضاء عيد الميلاد في دبلن، وكان لرسالة جوني الأخيرة دور حاسم في ذلك. سيقوم روتلج وكيت بالاعتناء بالبيت والماشية في غيابهما. تزايدت البهجة مع اقتراب العيد، زُينت الغرف بالأزهار وثمار التوت الأحمر وأوراق اللبلاب، وعلقت شبكات ملونة من الأضواء الكهربائية الصغيرة فوق أشجار عيد الميلاد لتشع قرب نوافذ الأروقة. صنعت ماري حلوى الخوخ وكعكة العيد لتأخذها إلى دبلن، وتجول جامسي في سوق السبت بين أقفاص طيور الديك

الرومي ليشتري في النهاية طيرين، أحدهما صغير كهدية لبيت روتلج والآخر ضخم ليأخذه معه إلى دبلن. روتلج وكيت بدورهما قدما إليهما هدية، زجاجة باورس معتقة ثمانية عشر عاما اشترياها من حانة في إنيسكيلن واحتفظا بها كذكرى أيام رغيدة كانا يشتريان فيها أفخر أنواع المشروبات. لا يزال البربون يحتفظ بطعم بورت خفيف تسرب إليه من برميل التعتيق الخشبي، وبدا لونه الداكن جميلا في الزجاجة.

في المدينة بُني هيكل ضخم لمغارة المهد أمام الكنيسة، وازدانت المحلات بالأزهار والأضواء المتلألئة، وحده جيمي جو ماكيرنان وضع راية ثلاثية الألوان كتحية لمن يحتفل بعيد الميلاد.

تجار سوق الماشية نصبوا بسطاتهم حول تمثال عازف القيثارة في الساحة الصغيرة، وبدا مظهر العائلات وهي تتنقل بين المحلات المزدحمة في الشوارع المضاءة وتتبادل العناق والتهنئات بالعيد مؤثرا. كل الحانات وضعت أشجار عيد الميلاد بكامل حلتها من الزينة والأضواء الملونة، وعرضت قسائم للاشتراك في مسابقات العيد بجوائز متنوعة من الإوز والديكة الرومية إلى المشروبات الكحولية بأنواعها. وسط كل هذا الجو الاحتفالي كان هناك محلات لا يدخلها أحد وقف أصحابها يتفرجون على العابرين في الشوارع، وكان هناك أناس لم ينتبه لهم أحد يتجولون ليس لأنهم على موعد مع جار أو صديق وليس لأنهم يشترون شيئا، بل لأنهم لا يريدون أن يكونوا وحيدين.

أوصل روتلج جامسي وماري إلى قطار الصباح الباكر. سيقضيان أسبوع عطلة الميلاد كله في دبلن، ورغم وصول روتلج مبكرا كانا جاهزين في انتظاره، الحقائب والصناديق على عتبة البيت والمفتاح

في قفل الباب، الدجاج حبيس قفصه المعدني والكلبان ينبحان في بيتهما. رفع جامسي يده في إشارة لروتلج قصد منها أنه حر في التصرف بالبيت وفق ما يراه مناسبا في غيابهما. «خذ راحتك». من بين كل الأمتعة كان هناك حقيبة واحدة متوسطة الحجم وضعا فيها كل حوائجهما، وكل ما تبقى كان هدايا، الديك الرومي وحلوى الخوخ وحتى زجاجة البربون. «سنتذوقها في دبلن. سنستمتع بها هناك».

لم يقضيا ليلة واحدة بعيدا عن المنزل منذ زفاف ابنهما قبل سبع عشرة سنة، وتحيط بهما الآن هالة روحية، كأنهما مؤمنان على وشك السفر صوب مكان مقدس لا مسافرين في قطار صغير يوصلهما إلى دبلن بساعتين. قالت ماري عندما نبح الكلبان وهم يبتعدون عن المنزل: «المسكينان، لا يطيقان أن يكونا حبيسين هكذا. لا بد أنهما عرفا ما الذي يحدث». انصرف جامسي إلى تعداد البيوت على جانبي الطريق وتسمية أصحابها، ليس بفضوله المتوقد المعتاد، بل بهدوء كأنه يؤدي طقسا أو صلاة. استمر في ذلك حتى استشاطت ماري غضبا وقالت: «من يسمعك يحسب أنك مسافر إلى أمريكا!». قال روتلج: «أو إلى الفردوس». «المكان الآخر على الأرجح». ذهبوا لانتظار القطار على الرصيف بعد حجز التذاكر، رغم أن المدفأة الكبيرة في غرفة الانتظار كانت تتوهج. عدد المسافرين إلى دبلن قليل، ومن الرصيف كان بوسعهم رؤية مسافات طويلة تنتشر فيها حقول وماشية في المراعي.

سأل روتلج وهم ينتظرون: «هل سمعت أخبارا من جوني؟».

أجابت ماري: «أرسل بطاقة. المسكين، حتى إنه كتب ملحوظة يطلب منا رفع نخبه في العيد».

قال جامسي: «ذهب إلى برمنغهام لقضاء العيد مع عائلة كنور، وسيعود بعد العطلة ليلتحق بعمله الجديد».

«هل سيعود باتريك لقضاء العيد في القرية أم أنه سيبقى حيث هو؟».

«سيعود، فهو يقضي يوم العيد مع أبناء خاله من عائلة هارني. يأتون عادة ليأخذوه بسيارتهم، لكني سمعت أنهم سئموا من هذا، كل سنة تبدأ زيارته على ما يرام ثم ما يلبث أن يُرهق من في البيت بطلباته».

قال روتلج: «قد آتي مرورا لأطمئن عليه إن كان في البيت».

قالت ماري وهي تضحك أول مرة منذ غادرت البيت: «سترى بيتا مثاليا إن ذهبت، كل ما تتخيله من أدوات الرفاهية الحديثة».

رُفعت الشارة في آخر المحطة وظهرت مقدمة القطار الصغير. أغلق مدير المحطة الشاب مكتب الحجز ومشى على طول الرصيف نحو صندوق الإشارات وهو يبتسم لمن يعرف من المسافرين. علق جامسي محاولا إخفاء فرحه: «إنه حتى لم ينتبه لنا». كل اهتمامه انصب لحظتها على القطار الذي كان يقترب منهم.

ذهبت كيت ليلة العيد إلى المدينة لتقوم بتسوق اللحظات الأخيرة، وقال روتلج إنه سيرافقها ليرى الشاه. أنزلها تحت راية جيمي جو ومضى ببطء في الزحام المزدان بالنجوم والأضواء وفوضى السيارات المركونة في السوق. أُضيئت المغارة عند مدخل الكنيسة وتلألأت النوافذ استعدادا لقداس منتصف الليل. اختفت ملامح العمارة الحديثة في البلدة وبدت في الليل كأنها سفينة كبيرة تستعد للإبحار نحو الآفاق الملونة التي تحيط بحياة الناس. عُلقت فوق مدخل الفندق المركزي نجمة بيضاء كبيرة محاطة بأضواء

ملونـة. اختفـى ذلـك كلـه عندمـا وصـل إلى ورشـة الشـاه. كل شيء كان هنـاك مظلـما، أُغلقـت المخـازن ومسـتودع الخـردة، أشـعل الضـوء فـوق مدخـل مكتـب الشـاه وتسـللت أضـواء شاشـات التلفزيـون مـن نوافـذ الأكـواخ. مـا إن اقـترب مـن البـاب حتـى فُتـح فجـأة ورأى الشـاه يصافـح الأب كونـروي مودعـا. لم ينتبـه لـه وأغلـق البـاب فوجـد نفسـه وجهـا لوجـه مـع القـس.

قال روتلج وهو يصافحه: «هذه مفاجأة».

«ليـس هنـاك أي خطـأ. منـذ خمـس سـنوات آتي كل ليلـة ميـلاد لأسـتمع لاعترافاتـه».

«وهل منحته الغفران؟».

«أجل، ستجده خفيفا كنثرات الثلج».

«عيد ميلاد سعيد».

«أعياد مباركة».

فوجـئ الشـاه بقـرع البـاب مـن زائـر آخـر ولم يفتـح إلا بعـد أن تعـرف عـلى صـوت روتلـج.

«أنـت هنـا تحتكـر القـس بعيـدا عـن رعيتـه ليأخـذ اعترافاتـك بـدل أن تذهـب بنفسـك إلى الكنيسـة كـما يفعـل الجميـع».

«هل رأيته؟ لا شأن له بأمثالك على أية حال».

«أجل، هو مشغول بأمثالك».

ضحـك الشـاه: «كفـاك الآن. هـذا الرجـل الفقـير الـذي رأيتـه الآن يحتـاج كغـيره مـن النـاس إلى بعـض النقـود بـين فـترة وأخـرى». حـاول الاسـتمتاع باسـتعراض سـلطته التـي تمكنـه مـن إحضـار القـس إليـه ليتلقـى اعترافاتـه، وأراد اسـتبقاء روتلـج ففتـح خزانـة المشروبـات الكحوليـة كاشـفا عـن محتواهـا الهائـل مـن الزجاجـات. «فلتـشرب

شيئا، إنها ليلة الميلاد». هز روتلج برأسه: «لا، كيت تنتظرني. أتيت فقط لأقول لك إننا لن نتناول الغداء غدا قبل الرابعة، ولكن بإمكانك المجيء في أي وقت قبل ذلك، فنحن في البيت طوال النهار».

قال وهو يشير إلى الكلب: «هل بإمكاني إحضاره معي؟».

«بالتأكيد، ألم تكن تحضره معك كل سنة؟». نهض الكلب من جانب المدفأة ونظر إلى صاحبه قبل أن يتوجه إلى روتلج منتظرا أن يداعبه.

«إنه يعرف. أجل، أقولها لك، يعرف ولا يفوته شيء».

في صباح اليوم التالي قالت كيت عندما استيقظت: «لا أصدق أنه يوم الميلاد مرة أخرى ونحن معا وحدنا. أذكر في طفولتي كنا نجتمع كلنا في بيت جدي، عماتي وأعمامي والأولاد. كان أجمل ما في يوم العيد حين نذهب في الصباح إلى الكنيسة ونحن نترقب ما سيحمله اليوم لنا، الهدايا تحت الشجرة والغداء التقليدي، جميع الأولاد يدورون مع الكلب وقطط جدتي، نفتش بين الهدايا. بعد ذلك تبدأ صلوات الشكر على المائدة، وغالبا ما كان جدي يطلب مني أن أغني (بارك الرب في أمريكا) وعيناه تغرورقان لرؤية كيت الصغيرة تغني. ومع انصرافنا إلى هدايا جدي تبدأ بين الأولاد دوامة من الغيرة والتنافس والشغب».

«ترى ما الذي كان سيقوله لو رآك هنا في يوم الميلاد هذا؟».

«سيصاب بالصدمة، فهو لم يغادر أمريكا في حياته، وكان يعتقد أن السفر إلى الخارج أمر مغيب لأن كل ما يحتاجه الناس موجود داخل أعظم بلد على وجه الأرض». لم يغفر لأمي أنها تزوجت من رجل إنجليزي». «في أيرلندا - أعظم البلاد - ما يخبئه العالم لنا في

المستقبل». «وليس لدينا سوى اليوم». اقترب روتلج منها وقبلها قبلة خفيفة: «فلنستمتع به قدر ما نستطيع».

ذهب لتفقد الماشية وأمضى أقل من ساعة في الأعمال المعتادة هناك، وشعر بمتعة العمل وهو يرى الحيوانات كلها في صحة جيدة. اتجه بعد ذلك إلى بيت جامسي حاملا زجاجة كحول، وفي الطريق نهض مالك الحزين كعادته من بين أعواد الخيزران عندما اقترب بينما كان سرب من الإوز يتجمع وسط البحيرة واثنان من طيور التم يصطادان. سمع أجراس القداس تتناهى إليه من وراء البحيرة، لكن ما من سيارات تحركت، فأغلب الناس حضروا قداس منتصف الليل ولا يزالون نائمين. في البيت استقبله نباح الكلبين الحبيسين وجلبة الدجاج في القفص المغلق وخوار الأبقار. فتح القفص ثم أطعم الدجاج والكلبين. طليت حظيرة الأبقار بالكلس الأبيض وبابها بلون أحمر، وفي الداخل ربطت الأبقار الأربع إلى عارضة ووضعت العجول الصغيرة بين حواجز خشبية صنعت من أغصان جار الماء. وضع أمام كل بقرة ماء ومقدارا من الشوفان المجروش ثم كمية كبيرة من التبن الذي كان قد أعده نهاية الصيف. شم رائحة التبن التي يعرفها جيدا ثم نظف الحظيرة بمجرفة صغيرة وفرشاة قبل أن يدع العجول ترضع من البقرات. الأبقار في وضع جيد، وادعة تظهر عليها العناية رغم ما يدعيه جامسي من أن لا شيء يهمه فيها سوى ما تجلبه من المال. أنهى عمله، أغلق الحظيرة وأعاد الدجاج إلى القفص والكلبين إلى بيتهما ثم وقف في الشارع يفكر بينما كانت الساعات تدق. كل ما في المنزل وحوله كان جميلا ونضرا. أخذ الزجاجة التي تركها بين أصص الزهور عند المدخل واتجه صوب البحيرة ليرى إن كان

باتريـك ريـان في بيتـه.

الطريـق وعـرة لا يمكـن اجتيازهـا إلا مشـيا، خربهـا الفيضـان ولم يقـم أحـد بإصلاحهـا. وصـل إلى مدخـل البيـت، بوابـة حديديـة صدئـة بـين عموديـن حجريـين تناثـرت حولهـما أزهـار الفوشـية. عنـد البوابـة آثـار أقـدام جديـدة والأرض حـول المـكان يغطيهـا العشـب بينـما تكومـت عنـد البـاب أكيـاس قمامـة وعلـب حليـب فارغـة وزجاجـات. كل مـن البيـت والمخـزن الملحـق بـه سُـقف بالحديـد ولم يطـل أي منهـما بالدهـان أو الكلـس منـذ أعـوام.

انتقـل باتريـك ريـان إلى هنـا إثـر انهيـار بيتـه القديـم بعـد سـنوات مـن الإهـمال. لم يجـب أحـد عـلى قـرع روتلـج. البـاب مفتـوح، في الداخـل كل شيء كـما هـو لم يتغـير منـذ أن رأى روتلـج المـكان أول مـرة قبـل عـشر سـنوات. الخزانـة البنيـة والخطـاف الحديـدي فـوق المدفـأة ولجـام الفـرس المعلـق عـلى الحائـط بـين الأيقونـات ولوحـة إكليـل الشـوك الـذي يقطـر دمـا وصـورة العـذراء، كلهـا بهتـت ألوانهـا وأشـاعت جـوا مـن الفقـر المتراكـم عـبر الزمـن. ظهـرت سـماكة الجـدار مـن خـلال النافـذة الصغـيرة، أربـع أقـدام مـن الحجـر عـلى الأقـل، وتـدلى مـن السـقف مصبـاح كهربـائي موصـول إلى قاطـع عـلى الجـدار، وقـرب المدفـأة وُضعـت كميـة مـن الفحـم وكومـة مـن الحطـب في وسـط الغرفـة. توزعـت الأشـياء بعشـوائية، علبـة سـكر وحليـب وراديـو صغـير وعلبـة سرديـن وقطعـة خبـز وفناجـين قـذرة وصحـن فيه قشـور بيـض ونصـف زجاجـة شراب، وزبـدة وتفـاح وأعـواد ثقـاب ووعـاء مـربى ووسـط هـذه الفـوضى تركـت زاويـة واحـدة في الغرفـة نظيفـة ومرتبـة. وُضعـت مكـواة عـلى مسـند كيِّ الملابـس قـرب الجـدار حيـث عُلـق قميصـان نظيفـان مكويـانِ بعنايـة إلى جانـب بـزَّة رسـمية داكنـة،

ووُضع على الكرسي حذاء جلدي جديد لامع.

نادى روتلج مرة أخرى فأجابه صوت واه من غرفة في الطابق العلوي. عندما فتح الباب رأى سريرا معدنيًا تكسرت عوارضه النحاسية وتكومت عليه الثياب والمعاطف في زاوية الغرفة. رأى بين الثياب والمعاطف أنفا حادا وطويلا ما لبث أن تحرك ليظهر وجه باتريك ريان.

«ماذا تريد؟».

«لا شيء».

«ما الذي أتى بك إذن؟».

«جئت أهنئك بعيد الميلاد».

نهض فجأة من بين الثياب لا يستر عريه سوى قميص خشن، وبدا جسمه القوي كأنه في عنفوان الشباب. هذا الرجل القوي عاش هنا في جوار البحيرة حيث لا يمكن إخفاء شيء عن الناس، ومع هذا لم يُظهر في حياته أي ميول جنسية تجاه أي امرأة. ذات مرة قال لروتلج وهو يضحك: «لا حاجة بي لذلك، فقد تعهد جون كوين أن يأخذ حصتي». تناول بنطاله من أرضية الغرفة وقال وهو يرتديه: «علينا أن ننهي العمل في بناء ذلك المخزن ذات يوم». دق جرس المنبه وهو يلبس جواربه فطلب من روتلج أن يوقفه. أوقف روتلج المنبه في الطابق السفلي وأزاح زجاجة البربون الناقصة على الطاولة ليضع مكانها الزجاجة التي أحضرها ثم وقف ينتظر. عندما أتى باتريك ريان كان ينتعل حذاء محلولَ الرباط، وسترة بنية قديمة.

قال وهو يمشط شعره الأشيب بأصابعه: «هل تريد أن تشرب شيئا؟».

«لا، شكرا لا يزال الوقت مبكرا».

«لكـن اليـوم عيـد». انتبـه إلى زجاجـة الـشراب الجديـدة عـلى الطاولـة. «مـا هــذا؟».

«بربون أحضرته لك بمناسبة يوم الميلاد».

«لا بد أن تشرب شيئا إذن».

«لا، الوقت غير مناسب».

«لماذا إذن تحضر لي ما لا تشربه أنت؟».

«أنا أشرب، وأسرف أحيانا».

طلـب باتريـك ريـان مـن روتلـج أن يشـعل المدفـأة. «دعْنـا نـرَ مـا بوسـعنا فعلـه في هـذا اليـوم». جمـع بعـض الحطـب وأوقـده في المدفـأة فتوهجـت باللهـب المضطـرم خـلال دقائـق. صـب باتريـك حليبـا في فنجـان وأضـاف إليـه بعـض الـشراب الكحـولي، ثـم بـدأ يـأكل تفاحـة وقطعـة خبـز دهنهـا بالزبـدة.

سـأل روتلـج الـذي كان صامتـا يتأمـل الجمـر المتوقـد: «هـل أنـت سـعيد؟».

«لا يمكنني القول إني لست سعيدا».

«ماذا يعني ذلك؟».

«لسـت في القمـر، ولكـن صحتـي جيـدة ولـدي مـا يكفينـي مـن المـال ولا أعـاني مـن مشـكلات كبـيرة، أظـن هـذا أفضـل مـا تعطيـه الحيـاة. مـاذا عنـك؟ هـل أنـت سـعيد».

«اللعنـة، لا أدري. أنـا لا أعـرف مـاذا أريـد بـين دقيقـة وأخـرى. لهـذا أحـب التمثيـل، أن تكـون شـخصا آخـر تعـرف دائمـا مـاذا يريد».

غـلى قليـلا مـن المـاء ووضعـه في وعـاء بلاسـتيكي أصفـر وبـدأ بحلاقة شـعر ذقنـه بشـفرة ومـرآة صغـيرة أخرجهـا مـن الخزانـة. ارتـدى بعـد

ذلك بزّته وقميصه المكوي ومشط شعره.

قال روتلج: «ألا تفكر بشراء غلاية كهربائية؟ ستساعدك كثيرا».

«لا يا بنيّ، أنا لا أكون هنا كثيرا، ولا يتعبني إشعال النار التي تدفئ المكان».

«هل سمعت أن جامسي وماري سافرا إلى دبلن لقضاء عطلة العيد؟».

ضحك وهو يجيب مقلدا جامسي: «أوه، كل شيء هناك.. ترى الناس والشوارع والسيارات..».

«وأن جوني سُرِّح من شركة فورد وحصل على عمل جديد حارسا بيوت وشقق إيجار؟».

«أجل سمعت. هل أنت من كتب الرسالة؟».

«لا، تحدثت معهما عنها فقط. عودته كانت ستسبب الإحراج للجميع لولا أن المشكلة وجدت حلا مناسبا كهذا».

عقد ربطة عنقه وسوّى سترة البزّة فبدا كأنه رجل يغادر فندقا فخما. طلب من روتلج أن يأخذ الزجاجة التي أحضرها.

«لا، دعها هنا. سنشرب من زجاجة أخرى لدي».

«فكرة عظيمة».

في البيت صب له كأسا كبيرة وتبادلا أنخاب الميلاد. أعاد قص حكاية يعرفها روتلج منذ زمن. «سأذهب لقضاء اليوم في بويل مع عائلة هارني. أقضي يوم الميلاد معهم كل سنة. سأقدم إليهم الزجاجة التي أحضرتها لي. نعم، ما يأتي من هنا يذهب من هناك. ستصل السيارة لتُقلني من شاطئ البحيرة في أي لحظة». وضع زجاجة البربون في كيس مع هدية مغلفة بورق ملون وحذائه الذي خلعه وارتدى جزمة بلاستيكية. أشار إلى أبقاره أعلى التلة.

«أترى عائلتي هناك؟ تبدو في وضع جيد، أليس كذلك؟».

أجاب روتلج بحذر: «لا بأس، منهكة قليلا».

«كلما عدت من عملي آخر الليل ألقيت إليها بعض التبن. نصيبها، مثلنا جميعا يا بني. هكذا الحياة، ما الفارق بين أن يُمْتَن أو يعشن؟ لا فارق يا بني».

فكر روتلج دون أن يتكلم: «وما نحن دون الحب؟ أليس الحب سوى اهتمامنا بالآخرين؟».

عند البحيرة انتعل باتريك ريان حذاءه، خبأ الجزمة مقلوبة رأسا على عقب بين الشجيرات وتوجه حاملا كيسه البلاستيكي إلى السيارة التي كانت تنتظر وراء أعواد الخيزران. «سأذهب لأرفّه عنهم في بيوتهم».

وصل الشاه مع الكلب بجانبه على المقعد الأمامي وركن سيارته قرب الرواق. تناولوا غداء عيد الميلاد في الرابعة عصرا. وضعت كيت على الطاولة غطاء حريريا مطرزا وأضاءت شمعتين على حامل فضي وقعدت القطة السوداء على الكرسي تراقب الكلب بعينين قلقتين. جُهّز الديك الرومي المشوي في المطبخ ووضع على طبق بيضوي كبير مع نبيذ أحمر وأبيض، لكن الشاه فاجأهما بطلب كأس من النبيذ الحلو. بدؤوا الوجبة بحَساء الكرّاث، لم يتكلموا كأنهم يمشون بحذر خشية أن يتعثروا. أكل الشاه بأناقة مستغرقا بمتعة بدا أنها بديل عن أي كلام يمكن أن يقال، ولم يتكلم حتى قدّموا إليه حلوى الخوخ مع الكريما.

قالت كيت: «أرجو ألا يكون الوقت متأخرا عن وجبتك المعتادة في الفندق».

«ذهبت مع تلك السيدة في الفندق إلى القداس، لهذا أفطرنا

متأخرين عند عودتنا، فقد كنا صائمين». تنهّد بمتعة ورضى ثم انتقل الحديث إلى البيع وإجراءات التحويل. تم الاتفاق على الأوراق والعقود، ولم يتبق سوى التوقيع عندما تفتح الدوائر الرسمية بعد عطلة الميلاد.

طرح سؤاله المعتاد: «ولكن هل هو قادر على ذلك؟». ثم فتح علبة سيجار وقدّم واحدا إلى كيت.

«كنت أود، لكني لا أستطيع بعد أن أقلعت عنه».

«هذا السيجار فاخر، أحضره لي أحد المسافرين». وضع سيجارين على الطاولة وأشار إلى الكلب وهو ينهض بخفة ويتجه نحو الرواق. شاهداه من النافذة، أضواء السيارة تتحرك وتبتعد باتجاه البحيرة.

«ربما كان لديه زيارة أخرى».

«أظن أنه ذاهب إلى مونيكا».

«غريب كيف أصبحت أحب حضوره بهذا الشكل».

قال روتلج وهو يستدير: «نعم، هذا يحصل».

في وقت متأخر من الليل وصل بيل إيفانس وقرع نافذة الرواق بقوة. دخل في ثياب القداس الأنيقة وطلب براندي. قدم له روتلج كأسا فشربها وطلب أخرى. ملأ له ثلاث كؤوس، فيها مقدار قليل من البراندي، وعندما طلب المزيد رفض إعطاءه، لكنه تركه يأخذ السيجارين. حاول إشعال أحدهما من الجهة الخطأ فأخذته كيت، قطعت أحد طرفيه ثم أشعلته له وهو يراقبها بنفاد صبر. أخذ السيجار المشتعل وبدأ يدخن بنهم. رافقه روتلج كل الطريق إلى أعلى التلة خشية أن يسقط إن تركه يمشي وحده، وفي الظلام لم يكن يرى سوى شبح قامته ورأس سيجاره المتوهج.

سـأله عندمـا اقتربـا مـن بيتـه: «كيـف تشـعر الآن؟».

«رباه، رائع.. أشعر أني رائع. ميلاد سعيد».

«وميلاد سعيد لك أنت أيضا».

توالـت أيـام العطلـة بهـدوء وسـكينة. لم يشـعرا خلالهـا بمعنـى أو بشـكل محـدد للسـعادة، لكـنّ إحساسـا مـا كان يجعلهـما يفكـران في أنـه في يـوم مـا مـن المسـتقبل سـيتذكران أيامهـما هـذه ويكتشـفان أن السـعادة لم تكـن سـوى فيهـا. كل يـوم يعـبران البحـيرة إلى بيـت جامـسي، يطلقـان الكلبـين والدجـاج، يضعـان العلـف للأبقـار وينظفـان الحظائـر ثـم يـتركان العجـول ترضـع. كل صبـاح يقـترب البغـل مـن البوابـة ويكـشر عـن أسـنانه وهـما يضعـان لـه التـبن. أثـار المـكان مخيلـة كيـت فاسـتغلت غيـاب جامـسي ومـاري لترسـم فيـه دون أن يقاطعهـا أحـد، وبمـا أنهـا كانـت تقـضي وقتـا طويـلا هنـاك، فقـد كان الكلبـان يُـتركان طليقـين والدجـاج يـسرح وينقـر بـين الـتراب. كل يـوم كانـا يوقـدان المدفـأة كي لا تنتـشر الرطوبـة وكي يحتفـظ البيـت بدفئـه ريثـما يعـود جامـسي ومـاري، ويربطـان السـاعات التـي لم تكـن اثنتـان منهـا تـؤشران إلى وقـت واحـد، كل منهـا تـدق حسـب زمنهـا الخـاص.

تلقيـا بضـع زيـارات، وقضيـا يومـا عنـد مونيـكا التـي زارهـا الشـاه في يـوم الميـلاد مـع الكثـير مـن الهدايـا. جـاء بيـل إيفانـس يـوم الأحـد مرتـين إلى البيـت، وعندمـا لم يحـظَ في الزيـارة الثانيـة بمـا يريـد مـن البرانـدي، قبـل بالشـاي والحلـوى وهـو يعـبّر عـن قلقـه مـن توقـف البـاص عـن القـدوم أثنـاء أسـبوع العطلـة. خشـيته مـن ألا يعـود البـاص كانـت واضحـة في كلماتـه: «الخميـس القـادم سـيعود كل شيء إلى طبيعتـه». «وسـيعود جامـسي مـن دبلـن أيضـا». «رحمتـك يـا اللـه، نعـم! سـيكون لديـه الكثـير ليُخبرنـا بـه».

عاد جامسي وماري في قطار بعد الظهر. أوصل روتلج كيت إلى بيتهما في طريقه إلى المحطة حيث أوقدت النار في المدفأة ووضعت باقة من زهور الأقحوان الحمراء والصفراء.

في المحطة كانت الزينة لا تزال تضيء قاعة الانتظار والتمعت قطرات المطر على الجسر الأخضر الذي يعبر فوق السكة الحديدية، وكانت بضع أبقار وحصان تستظل تحت الأشجار في آخر الحقل الممتد وراء المحطة. ما إن اقترب القطار الصغير حتى رأى روتلج رأس جامسي يطل من أحد نوافذ الأبواب متمسكا بالقبضة الخارجية، وخلفه ظهر وجه ماري يبتسم. عندما فُتحت الأبواب ونزلا إلى الرصيف حاول روتلج أخذ الحقيبة من يد جامسي فأبعدها ورفض: «لا، لا شيء فيها، خفيفة كريشة». قبلت ماري روتلج بحرارة، إلا أن جامسي بالكاد استطاع مد يده مصافحا. كانا مرهقين ولم يتفوها بكلمة واحدة في الطريق إلى السيارة.

«كيف أحوال الجميع في دبلن؟».

«كلهم بخير وعلى ما يرام. يسألون عنك وعن كيت».

«هذا لطيف، لا بد أنكما قضيتما عطلة رائعة».

صمتا وبدت عليهما الحيرة حتى تكلمت ماري: «لا بأس، كل شيء يمضي».

قال جامسي: «كانت زيارة عظيمة، وما من شيء يعيبها على الإطلاق».

«اجتمع حشد كبير من الضيوف في يوم الميلاد، أبوها وأمها كانا هناك أيضا».

«أبوها ليس رجلا عاديا، مدير بنك متقاعد، لكنه مدّع كبير ويشرب بطريقة لا تصدق». استعاد جامسي مع تعليقه الأخير

شيئا من طرافته واستغرق في تأمل البيوت والحقول على جانبي الطريق، لكنه لم يعدد أسماء أصحابها هذه المرة ولم يطلب التوقف في حانة لوك.

تكشفت تفاصيل زيارة دبلن بالتدريج مع الوقت. قضت ماري كل الوقت في البيت عدا مرة واحدة ذهبت فيها مع لوسي والأولاد إلى عروض الرخصة في السوق. كان الأولاد أجمل ما في الزيارة. التقى جامسي بمدير جيم وبعض زملائه في العمل.

«كلهم مثل جيم أشخاص مرموقون وأذكياء، ولم أجد صعوبة في التحدث معهم، فالأذكياء بسطاء، ولا يستعرضون، ولا يكذبون».

قالت ماري بفخر: «يقول جيم إنه موظف مهم لا تخدعه الأكاذيب، فما الفائدة إن لم تكن مخلصا لنفسك».

رفع جامسي يده الضخمة وقال: «الأولاد يحبون ماري والأرض التي تمشي عليها».

ردت ماري كأنها تخفف من المديح: «لا بأس، استطعت أن أجتاز الزيارة، لكنها كانت طويلة، فما من بيت يتسع لامرأتين. وهذا الرجل الذي بجانبك لم يكن السفر سهلا بالنسبة إليه. أتعلم ماذا قال عندما وصل القطار إلى لونغفورد؟ إن تعطل القطار هنا نستطع العودة إلى البيت مشيا!».

قال جامسي بطريقته المتكلفة كعادته عندما يكون ما يقوله موضوع الحديث: «لا بأس، جيم بذل ما بوسعه كي يقضي والداه وقتا طيبا، وأنت لا تحتاج إلى وقت طويل لترى كل ما تريده في المدينة على أية حال. إن ذهبنا مرة أخرى لن نقضي هناك أكثر من يوم أو يومين».

خفت ضوء المساء وأصبحت القيادة صعبة بسبب الظلال، لكن

ما إن وصلوا إلى البحيرة حتى تحسنت الرؤية وشاهدوا طيور التَّم تتجمع عند أعواد الخيزران والأشجار العارية الضخمة على طول الشاطئ تحت أضواء السيارة. لم ينطقوا بكلمة واحدة حتى عندما انعطفت السيارة في الطريق الصاعدة من البحيرة إلى البيت.

ما إن وصلوا إلى شارع البيت حتى رأوا عنق امرأة تنحني من النافذة المضاءة ثم تلتفت بوجهها بسرعة إلى جهة صوت السيارة. «كيت هنا!» صيحات وابتهاج وقبلات.. «أهلا وسهلا في بيتكما». «أهلا يا كيت. اشتقنا إليك». أراد جامسي أن يشربوا البربون على الفور، لكن روتلج أصر على أن يرى الحيوانات أولا. حدق جامسي بتركيز في حيواناته للحظات، وبدا أنها كلها عرفته، وخارت البقرة الكبيرة ترحيبا به. «يبدو أنها تلقت عناية فائقة. لا بد أنها شغلتك كليا. لا ينقصها سوى لمسات من العناية». كان الكلبان مع كيت عندما وصلت السيارة فلم تستطع ماري أن تتحرك من فرط هياجهما ترحيبا بها. «المسكينان.. المسكينان، ماذا فعلتما في غيابنا؟ هما أيضا اشتاقا إلينا».

أضرمت كيت النار وتركت إبريق الماء يغلي فوقها ثم أعدت طبقا كبيرا من الشطائر. شربوا بربون ساخنا مع القرنفل والليمون والسكر، وتحدثوا بهدوء عن زيارة دبلن، عن الأطفال وأمهم، وفتحوا الهدايا التي أحضروها، شال حريري أزرق طبعت عليه صورة لكنيسة من العصور الوسطى وعلبة من الصابون المعطر صناعة يدوية، وسترة صوفية مع زجاجة مشروب لجامسي. «ربما اعتقدوا أني لا أغتسل كفاية». وقفا يتأملان الهدايا كأنها تكثف كل ما في العالم من خير وكرم. «الأطفال المساكين كان عليهم أن يدخروا من أجل الهدايا». «كانوا رائعين للغاية.. حقا ما أروعهم!».

خلع جامسي معطفه وارتدى السترة الجديدة وألح على ماري كثيرا حتى قبلت أن تضع الشال الأزرق. قال وهو ينظر إليها: «ستكونين حديث الناس عندما تدخلين إلى القداس وأنت تضعين هذا الشال على رأسك». لاحظ روتلج وكيت أنهما متعبان رغم سرورهما بالعودة، فنهضا وسط احتجاجاتهما على أن الوقت لا يزال مبكرا.

بعد بضعة أيام من عطلة الميلاد شهد روتلج على توقيع عقود البيع والقرض بين الشاه وفرانك في مكتب المحامي. كان المكتب في بناء فيكتوري بسيط، علقت في غرفة الانتظار صورة قديمة للمدينة أيام كانت الدراجات والأحصنة وسائط النقل المعتمدة. قال الشاه ببرود: «تغييرات».. علق روتلج: «وهل هناك في العالم سوى التغييرات». ظل فرانك صامتا، ولم يكن في الغرفة غيرهم فأتت فتاة بعد دقائق وقادتهم عبر درج ضيق إلى مكتب في الطابق العلوي. نهض المحامي من وراء مكتبه الضخم، رحب بالشاه بحرارة ثم صافح الرجلين ودعاهم إلى الجلوس مشيرا إلى المقاعد الجلدية الوثيرة. ارتدى بزّة أنيقة وفرق شعره الرمادي من منتصفه. قُرئت العقود ووُقعت ثم أعطى فرانك المحامي شيكا وأخذ منه وصل استلام. عدا دماثة المحامي التي تجاوزت كل الأعراف المهنية، لم يكن هناك أي تفصيل غريب سوى أن البائع والمشتري لم يتبادلا كلمة واحدة طوال اللقاء، وحتى عندما خرجا إلى الشارع لم يوجه أحدهما كلمة واحدة إلى الآخر. أخذ روتلج بيد فرانك وتمنى له كل النجاح والتوفيق.

«شكرا.. شكرا لكل ما فعلته من أجلي».

«لا أبدا، لم أفعل شيئا».

وقف الشاه على الرصيف ولم ينطق بكلمة واحدة، ساكنا بغموض كأنه تمثال لبوذا. قال فرانك «شكرا» مرة أخرى واستدار ومشى مبتعدا نحو سيارته القديمة دون أي التفاتة أو كلمة أخرى.

مشى ببطء وتلقائية كأن أي تماس بين عالمه وعالم الشاه أمر لا يمكن للمخيلة استيعابه، وكانت قدرة الاثنين على الانفصال هكذا مدهشة. استدار بسيارته ومضى دون أن يلوح أو ينظر نحو مستودع الخردة وورشات سكك الحديد التي أصبحت الآن ملكه.

بعد أسابيع من طقس هادئ ورطب هبت العواصف فاقتلعت الأشجار الصغيرة وكسرت الأغصان، وغطت الطريق على طول الشاطئ بزبد الأمواج. فترات صحو وصقيع تخللت هبات العواصف وكست الشاطئ بطبقة من الجليد تتكسر وتتشقق إثر أي حركة في الماء. لم يتوقف بيل إيفانس عن الذهاب كل يوم إلى البحيرة. راقبه جامسي وأحصى في أحد الأيام ستًا وعشرين مرة توقف فيها ووضع دلوي الماء ليرتاح، وقلده كيف يصعد التلة بشكل مائل كما يزحف السرطان وكيف ينفخ في يديه ويغطيهما بكميه الأسودين الكبيرين ثم يفركهما بصدره. منذ زمن بعيد لم يروا بيل إيفانس في مزاج جيد كهذا، متساهل أغلب الأوقات، يدخن ويأكل ويشرب الشاي في حذائه ذي الساق الضخم ويتحدث عن الباص وسائقه مايكل بات وعن ركابه الذين يمكن أن يثيروا ضحك أي إنسان عادي. لم يعد يحيا من يوم إلى آخر، من لحظة إلى أخرى أو من متعة إلى أخرى، ولم يعد عاجزا عن النظر إلى الخلف أو الأمام ساكنا في لحظة الوقت الراهن، بل صارت له حياة يفكر فيها وينتظرها مع رحلات الباص كل خميس.

في أحد أيام الخميس الماطرة من شباط / فبراير وصل إلى الرواق حاملا دلويه عوض أن يتركهما كعادته بين شجيرات

الفوشية عند المدخل، ولولا ضيق الباب لدخل بهما إلى المنزل. «تستطيع إدخالهما معك إن أردت يا بيل». «لا، لا، لن يضرهما المطر في الخارج يا كيت». علمت كيت على الفور أن هناك مشكلة كبيرة. صرخ وهو يدخل إلى الرواق: «أوقفوني». «أوقفوك عن ماذا؟». «عن ركوب الباص». لم تره من قبل ينهار ويبكي هكذا كالأطفال. «لماذا؟» قال ودموعه تنهمر على وجهه متغلغلة بين تجاعيده: «منعوني من ركوب الباص». أحضرت كيت إبريق شاي وأضافت بعض البسكويت وكعكة فواكه إلى طبق من الخبز والزبدة والمربى وقدمته إليه. شرب الشاي لكنه لم يأكل شيئا. «أتوقف الباص عن المجيء أم أن أحدا منعك من الركوب فيه؟». أجاب بتردد: «منعوني». «لماذا؟». صرخ وهو ينهض: «منعوني.. هل لديك سجائر؟». أحضرت له بعض السجائر من علبة فوق رف أعلى المدفأة ثم رافقته إلى الباب. وقفت تنظر إليه يحمل الدلوين ويمشي تحت المطر الغزير عبر المدخل وشجيرات الفوشية باتجاه البحيرة.

عندما عاد روتلج أخبرته كيت. «علينا أن نفعل شيئا ما. يجب أن تذهب إلى بيت الرعاية ذاك وتواجههم». نظر إليها نظرة برود وتساؤل كانت دائما تحبها، لكنها أشعرتها الآن بالضيق.

«لماذا؟ ألا تعرفين أنه لا فائدة مني في حالات كهذه؟».

«كلانا لا فائدة منا، لكن يجب أن نفعل شيئا. كان الباص بالنسبة إليه كل العالم. كان مظهره كمن فقد كل شيء».

«الشخص الوحيد الذي يملك سلطة أو تأثيرا في هذا الموضوع هو القس».

«لماذا لا تذهب إليه؟ أنت على علاقة جيدة به».

«سأذهب هذه الليلة».

الكنيسة غارقة في الظلام، ضوء واحد فقط فوق مدخل سكن القس. أي مكان غريب بنيت فيه هذه الكنيسة بعيدا عن أي بشر! كان يجب أن تبنى قرب البارات ومكتب البريد والمدرسة حيث الناس. زاد حفيف الشجر والمطر المنهمر بإيقاع رتيب إحساس روتلج بعزلة المكان. دخل عبر بوابة السكن الصغيرة وقرع الباب فأضاءت الأنوار كلها دفعة واحدة. ظهر القس برداء أسود ثقيل وقميص مفتوح عند العنق، وبدا أنه سُرَّ لرؤيته، ودعاه للدخول إلى غرفة الجلوس حيث تناثرت الصحف والفواتير والكتب فوق طاولة بيضوية كبيرة بينما توهج الجمر في المدفأة. جلس روتلج، الفرش قليل، قديم ومتواضع، لكنه مريح ويوحي بأنه خدم العديد من أصحابه من قبل.

«لم نلتق منذ عيد الميلاد».

«لو كانَ الناس كلهم يدفعون لي كما ذلك الرجل لما توقفت عن زيارة البيوت. أتريد شايا أم شيئا أقوى؟». طلب روتلج شايا فنهض القس وحضّر له فنجانا على طاولة خشبية داكنة فوقها فناجين وأكياس شاي وضعت على صينية فضية. أحضر مع الشاي طبق بسكويت صغيرا، وملأ لنفسه فنجانا من الماء الدافئ.

«عليّ أن أبدأ في الموضوع الذي جئتك من أجله. هل تعرف بيل إيفانس؟».

«أعرف كل رعيتي».

«منذ وقت ليس بالقصير كان الباص يأتي كل يوم خميس ليأخذه إلى بيت الرعاية».

«أعرف هذا».

«كان ذلك المتعة الوحيدة في حياته والأمل الوحيد الذي ينتظره طوال الأسبوع. لقد منعوه مؤخرا من ركوب الباص، وأتيت إليك اليوم لتساعدنا في السماح له بركوب الباص».

«من الذي منعه؟».

«لا أدري من بالتحديد».

«ولكن لماذا؟ إنه لا يكلفهم شيئا».

«لا أدري. ربما لأنهم يريدونه في نقل الماء»، «أو ربما لم يعودوا يطيقون بهجته وسعادته التي يمنحها له يوم الخميس».

نظر القس إلى روتلج طويلا ثم نهض ليحرك الجمر في المدفأة «ربما لا يعلمون، ومن الطبيعي ألّا يعلم هو نفسه أن أيامه قرب البحيرة أصبحت معدودة. إنهم يوشكون على الانتهاء من بناء مجمع سكني من الشقق المخصصة لكبار السن ولمن يحتاج إلى المساعدة في شؤون حياته. المشروع تموله الدولة، وأنا في اللجنة المختصة. اسم بيل إيفانس في رأس القائمة. أطلقنا على المجمع اسم تراثنونا، ما رأيك؟».

«أمسية الحياة».. ترجم روتلج الاسم ورَدده لنفسه. لسبب ما لا يبدو سيئا بالإنجليزية. «أعتقد أنه شنيع».

«توقعت أن تقول ذلك. كانوا سيسمونه بوندوران. لكن برأيي طالما المشروع يحقق الغرض في تأمين السكن للمحتاجين فالاسم ليس مشكلة، ولا سيما أن أغلبية أعضاء اللجنة تراه وطنيا ومناسبا».

«أنا واثق من أن الاسم لن يكون مشكلة، وأن القليل من الناس يعرف ما معنى تراثنونا، ومع الأيام سيتحول إلى مجرد اسم».

«لا أبالي. بيل إيفانس واثنان غيره من بيت الرعاية في قائمة

السكن، وما إن يصبح المجمع جاهزا فسيحصلون على بيوت هناك».

«سيكون في غاية السعادة».

تحول الحديث بعدها إلى شؤون الماشية لديهما، الأسعار والأنواع وما الذي سيبيعانه في معرض سوق الماشية. ورد ذكر جون كوين فابتسم القس دون أن يظهر عليه أي موقف أو حكم. «رأيته مؤخرا يجرب حظه مع بضع سيدات، يجلس معهن في المقاعد الأمامية في قداس الأحد، ثم يوقد معهن الشمع للسيدة العذراء عندما تفرغ الكنيسة. من بعيد يبدو المشهد في غاية الرومانسية، وعندما يراني يقدمهن إلي».

فوجئ روتلج بعدها بتحول الحديث إلى معتقدات القس وإيمانه. تحدث بحرارة عن أمه وعن أبيه الذي كان مزارعا وتاجر ماشية صغيرا. «أنجباني وهما يؤمنان بأن ما كان خيرا بالنسبة إليهما سيكون خيرا بالنسبة إليّ أيضا. قال أبي وهو يُحْتَضَر إنه لو خُيِّرَ في أن يعيش حياته مرة أخرى لما تردد لحظة واحدة في فعل ذلك. هذا يفوق طاقتي، أرى أن مرة واحدة كافية». قال روتلج: «قد يكون خطأ أن أقول إني أحسدك».

«عش ودع الآخرين يعيشون. هذه حكمتي في الحياة، لكن الكاهن الكبير في لونغفورد لا يرى الأمور بهذا الشكل. إنهم هناك يريدون فرض آرائهم على الجميع».

«لا نعدم أمثال هؤلاء هنا أيضا».

«سأمر غدا في طريقي وأعلمك إن كان لدي أي أخبار بشأن الموضوع».

«هل تتناول معنا الغداء إذن؟».

أجاب القس بحزم: «لا، سأمر فقط لأعلمك بأي جديد».

في اليوم التالي وصلت سيارته واجتازت البوابة ببطء، يقودها بحذر شديد وقد تسمرت عيناه على الطريق أمامه كسائق مبتدئ، وظن من رآه أنه أمضى وقتا طويلا في زيارته إذ لم يسمع أحد صوت سيارة تعود في الطريق نحو البحيرة. كان بيل إيفانس ذاهلا كعادته، رأى القس عندما وصل، لكنه لم يتخيل أن لزيارته علاقة به شخصيا. عاد القس بعد يومين ليخبرهم أنه تم حل المشكلة، وأنه لا يستطيع البقاء فهو ذاهب إلى زيارة مريض. وفي صباح الخميس التالي كان بيل إيفانس يجلس في الباص على المقعد الأمامي إلى جانب مايكل بات، وعندما مر في طريقه إلى البحيرة بعد عودته أخبر الجميع كيف التقى به كأنهما لم يفترقا أبدا وكيف ساعده في الطريق.

يوم موناغان[7] هو أكبر سوق سنوي للماشية، ويقام في الخميس الأخير من فبراير، مستقطبا عددا كبيرا من الزبائن والتجار، وقد توسع في السنوات الأخيرة وأصبح يمتد ليشمل يومي الجمعة والسبت. ترتفع أسعار الماشية في هذا السوق الذي تتعدد الروايات حول نشأته واسمه وتفوق كل أيام السنة. يتناقل الناس في الحانات المجاورة حكايات تروي كيف تحول هذا المكان إلى أكبر سوق للماشية في المنطقة. يقول البعض إن اسم موناغان أُطلق على المكان لأن التجار كانوا يشترون الأبقار من هذه المنطقة ويرسلونها إلى إسكوتلندا، وتقول رواية أخرى إن تسمية السوق تعود إلى أيام الحرب الأهلية عندما كانت إحدى عائلات المقاتلين المشهورة المعروفة بلقب ملوك الربيع تدعو إلى مبارزات

(7) مقاطعة موناغان هي إحدى مقاطعات شمال أيرلندا الست.

في هـذا المـكان. كانـت حشـود غفـيرة تجتمـع لتتفـرج عـلى القتـال، وفي أحـد الأيـام قُتـل أحـد المحاربـين المحليـين فـكان عـلى المقاتلـين أن يهربـوا مـن المدينـة مختبئـين بـين أكيـاس الشـوفان في العربـات. يقـول آخـرون إنـه لا علاقـة للاسـم بقـرى المنطقـة وبلداتهـا كـما يدعـي الرحالـة وبعـض الرومانسـيين، بـل إن الاسـم اشـتُقّ مـن اسـم القديـس ماناشـان الـذي بنـى الديـر القديـم والـذي يصـادف يـوم صيامـه في الخامـس والعشريـن مـن فبرايـر.

جامـسي الـذي يبالـغ بالاعتـداد بأبقـاره يسـتعد لهـذا السـوق كل سـنة بكثـير مـن الاهتـمام، يقـدم للأبقـار الصغـيرة كميـات كبـيرة مـن العلـف وينظـف جلودهـا بالفرشـاة بعنايـة. في صبـاح أحـد الأيـام جـاء باتريـك ريـان الـذي لا تـزال لديـه بقرتـان صغيرتـان ترعيـان في الحقـول مـع أمهـما وسـاعده روتلـج في فصـل العجـول التـي تتجـاوز أعمارهـا السـنة ونقلهـا إلى حظائـر جامـسي بمقطورتـه. واجهـوا صعوبـة كبـيرة في ذلـك لأن عجـول باتريـك كانـت هائجـة ولم تعتـد أن يقـترب منهـا أحـد. قـال جامـسي سـاخرا: «أحصنـة سـباق»، لكـن باتريـك كان رابـط الجـأش، لم يبـال بالسـخرية وحافـظ عـلى مزاجـه المـرح. ينـوي قضـاء اليـوم في المدينـة اسـتعدادا للذهـاب إلى سـوق موناغـان. كان يعمـل لـدى عائلـة غنيـة في كاريـك في تجهيـز الحمامـات في بيـوت تُبنـى للإيجـار، وسـيوصلونه إلى موناغـان في يـوم السـوق.

ابتهجـت مـاري بزيـارة باتريـك ريـان الـذي بـدا أكـثر وسـامة وهـو يسـتمتع بـدفء حفاوتهـا. شربـوا البربـون بينـما كانـت السـاعات تـدق بغـير انتظـام في مواقيتهـا الخاطئـة، واتفقـوا أن ينتظرهـم باتريـك عنـد المسـتديرة القريبـة مـن السـوق قبـل بدايـة المـزادات ظهـرا، وبعـد ذهـاب روتلـج وجـد جامـسي وباتريـك فسـحة للحديـث عـلى سـجيتهما في غيابـه.

في الليلة السابقة ليوم موناغان حمَّل روتلج وجامسي الأبقار في المقطورة ونقلاها إلى السوق. كانت الأرض هناك فسيحة فوجدا مكانا لركن المقطورة بين البوابات بسهولة، لكنهما اضطرا إلى حمل الأبقار في ثلاث نقلات لأنهما واجها صعوبة في التعامل مع أبقار باتريك ريان الهائجة.

قال جامسي وهو يتأمل أبقاره النظيفة بجانب حيوانات باتريك البائسة: «أي رجل هو! لا فائدة ترجى منه أبدا. ما من رجل أذكى منه في هذه الأنحاء، لكن دون جدوى، فهو لا يكلف نفسه عناء الاهتمام بأي شيء».

«هل تعتقد أنه سيأتي غدا؟».

«لا تقلق، لن يُفوت كل ما ينتظره من الإثارة بين حشد من الغرباء».

تحيط بالسوق أرض فسيحة تمتد إلى سفح الهضبة حيث تلتمع أكياس النايلون العالقة بحاجز من شجيرات شوكية، وقد خُصصت لركن الشاحنات والجرارات التي تنقل الماشية منذ الصباح الباكر. أُضيء المكان بأنوار كاشفة قوية، وانصرف بعض الرجال إلى وضع اللمسات الأخيرة قبل بداية المزادات، يفحصون البوابات ويزيّتونها ويفرشون القش فوق مساحات من الأرض، بينما كانت امرأة في مكتب وطيْءِ السقف مضاء بمصباح عار تسجل أسماء الرجال وعناوينهم وتعطيهم لوحات بيضاء صغيرة بأرقامهم. انتقل الرجال بعدها بماشيتهم إلى ممر ضيق حيث قام رجل يرتدي سترة زرقاء بمقارنة لوحات الأرقام بعلامات مثبتة على أذن كل حيوان ثم ألصقها بالصمغ على ظهور الماشية. جمع الرجل البطاقات الخضراء ووضعها في صندوق كرتوني كبير ثم قال: «حظ طيب لكم غدا».

فُصلت الثيران عن الأبقار ووضعت في حظائر صغيرة قرب ساحة البيع مع ما يكفيها من التبن والماء خلال الليل. ردد جامسي عبارته المعهودة: «لن يروا الحقول حول البحيرة مرة أخرى».

رُبطت بعض الأبقار بين حواجز حديدية تحت الأنوار الكاشفة، وكانت كلها تخور وتتصاعد أنفاسها كالبخار في الهواء البارد. لم يقبل جامسي أن يذهب إلى حانة لوك أو أي من الحانات الأخرى، كان متوترا وحاول إخفاء ذلك، فكل اعتداده بأبقاره وما صرفه من جهد ووقت في العناية بها سيخضع لامتحان صعب غدا بما ستحصل عليه من أسعار، وعندما وصلا إلى البحيرة أصر أن ينزل من السيارة ويكمل الطريق إلى بيته في الظلام وحده. «ألم أفعل ذلك آلاف المرات من قبل؟».

في صباح اليوم التالي وجدا أعدادا كبيرة من السيارات والشاحنات والجرارات تزدحم على الطريق عند أطراف المدينة، كأن كرنفالا أو سيركا يقام في المنطقة، فقررا ترك السيارة ومتابعة الطريق مشيا. كان مدخل السوق مزدحما وضجيج أبواق السيارات يملأ المكان، والشاحنات تنتظر بفوضى دورها في الخروج والدخول وسط صراخ وشتائم المنتظرين. السوق ممتلئ عن آخره، التجار والسماسرة نصبوا بسطاتهم، وتحت خيمة قريبة وضعت مناشير كهربائية للبيع، بينما وقف رجل إلى جانب شاحنة صغيرة يبيع أدوية بيطرية ومحاليل تنظيف ومواد لإزالة القرون وسكاكين بمقابض عظمية ونصال معقوفة تستعمل في تقليم الأظلاف. على شاحنة أخرى عرضَت بضائع مختلفة، مضخات شحم وقطع تبديل للجرارات وسلاسل وحزم زرقاء من الحبال وبكرات. وسيارة مغلقة أخرى عرضت أحذية عادية وأحذية ذات سوق طويلة بلاستيكية

وألبسة واقية من المطر، وتوزعت هنا وهناك سيارات وبسطات تبيع كل ما يلزم من الأدوات والمواد ازدحم عليها المتفرجون والمشترون.

امتلأت الحظائر كلها واكتظت فلم تعد الحيوانات قادرة على الحركة، وتحول المكان كله إلى بحر تتلاطم أمواجه وراء العوارض الحديدية وسط ضجيج مكبرات الصوت. تجول مجموعة من المحكمين يرافقهم حشد من الرجال على الحظائر، تفحصوا الماشية المشتركة في المنافسة من مختلف السلالات ومنحوا إشارات حمراء وزرقاء وصفراء، كان الحشد يقابلها بالتصفيق والصيحات. انتقلوا بعدها إلى قسم آخر من الحظائر وأعادوا العملية ذاتها وسجلوا أسماء الفائزين في كل قسم ثم اختاروا الفائز الأول في المسابقة.

تردد اسم بطل موناغان في مكبرات الصوت فقوبل ذلك بموجة من التصفيق والضجيج، ثم تلا ذلك إعلان بدء عمليات البيع، وما إن تلاشى صوت المكبرات حتى عادت أصوات الصراخ والخوار، ووقع الحوافر إلى الحياة. دخل جامسي إلى الحظائر لينظف أبقاره آخر مرة، لكن روتلج لم يرَ جدوى من ذلك، فالأبقار بالنسبة إليه كانت قد مضت إلى مصيرها وانتهى الأمر. بدأ التجار يجولون على الحظائر، وكان من السهل تمييزهم بقبعاتهم وببزّاتهم التي ارتدوا فوقها صُدرات بجيوب مربعة كبيرة، وأحذية مربي الأبقار الحمراء التي انتعلوها. بعضهم حمل عصي خيزران تشبه الهراوات العسكرية، وترقب الجميع أي إشارة منهم كأن يتوقفوا أمام حظيرة أو يلمسوا عجلا أو بقرة، وأفضل الإشارات أن يسجلوا أرقامها.

لـن يلتقـي جامسي وروتلـج بباتريـك قبـل بـدء المـزادات، لذلـك ذهبـا إلى المطعـم وشربـا الشـاي عـلى طاولـة خشـبية فـوق الأرض الإسـمنتية العاريـة. كان الرجـال الذيـن أتـوا مـن مسـافات بعيـدة يتناولـون وجبـات الغـداء أو أطباقـا كبـيرة مـن الشـطائر، وفي المطبخ كانـت العامـلات يغطـين شـعورهن بقبعات بلاسـتيكية ورديـة اللون وهـن منهمـكات بتحضـير مئـات الوجبـات. «سـيواصلن تقديـم الطعـام حتـى منتصـف الليـل». تـردد عـبر مكـبرات الصـوت إعـلان قـرب بـدء عمليـات البيـع، لكنهـما لم يتحـركا باتجـاه الحلبـة حتـى سـمعا صـوت بدايـة المـزاد. كان باتريـك ريـان بانتظارهـما هنـاك، وبـدا في بزّتـه وقميصـه وربطـة عنقـه كأنـه أحـد السـماسرة. قـال جامـسي وهـو يمـد يـده الضخمـة: «أنـت متألـق اليـوم يـا باتريـك».

بـدأت المـزادات الأوليـة ببطء، يدخـل الحيـوان إلى الحلبـة عـبر ميـزان عـلى شـكل قفـص فيتحـرك مـؤشره الكبـير باضطـراب عـلى خلفيـة بيضـاء إلى أن يسـتقر بعـد لحظـات. يكتـب رجـل وزن الحيـوان بالطباشـير عـلى لـوح ثـم يديـره باتجـاه الحلبـة. لم يُبَـع أي مـن الحيوانـات السـتة الأولى. دلّال المـزاد كان يتـصرف كممثـل كوميـدي، يـرد عـلى كل شيء بمـزاح يسـتجيب لـه الحضـور في الحلبـة، بالضحـك والضجيـج. شـمّر عـن سـاعديه واعتـلى الحاجـز المطـل عـلى الحلبـة وسـط الضحـك والصيحـات: «اللعنـة، هـذه كارثـة.. فلنذهـب إلى بيوتنـا لنرقـد في الفـراش..» تعالـت صيحـات المتجمهريـن وازداد الصخـب والتصفيـق والصفـير، لكـن كل شيء توقـف عندمـا دخـل كبـار السـماسرة إلى الحلبـة وجلسـوا عـلى المقاعـد الأولى. خيـم الصمـت وبـدأ المـزاد بتسـارع. «مـن يدفـع 400؟ 420.. 430.. 450.. 460.. 70.. 80.. 500.. مـن يزيـد؟ 510..

من يزيد؟». انحنى الدلّال باتجاه صاحب الماشية الذي كان يجلس في مقصورة تحت مقعده: «هل يكفي؟». نظروا إلى البائع الذي أومأ فتابع الدلال: «لدي على يميني 510... من يزيد؟ 520.. 525.. 530.. 540.. 560.. 70.. 580.. من يزيد؟ 580.. تم البيع». نظر الدلال إلى الوجوه حوله ثم هوى بالمطرقة معلنا نهاية المزاد. توالت المزادات بسرعة على إيقاع عبارات الدلال التي كانت تشبه تعويذات تتكرر بأرقام مختلفة تدور وتتزايد بمهارة لتصل في النهاية إلى ذات الهدف. وبعد عشر عمليات بَيع بدأت همهمات الارتياح تسري بين الحضور، الأسعار جيدة، أفضل مما توقعه الجميع، وكل شيء يشير إلى أن سوق موناغان سيكون عظيما هذه السنة.

لاحت على وجه جامسي علامات الارتياح، لكنه لم يتخلص من توتره تماما ولم يفرك يديه برضى كعادته. كان باتريك ريان قد تركهم وذهب ليتحدث مع بعض الرجال. ذهب روتلج إلى حلبة أخرى ليبيع عجوله، إذ لم يكن من المجدي الانتظار مع جامسي وهما لا يعرفان من سيأتي دوره أولا. صادف في طريقه الأب كونروي برفقة مساعده أمين سر الكنيسة جيمي لينش. أومأ القس إليه برأسه من بعيد دون أن يتوقف أو يتكلم، وكان يمشي في لباسه الكهنوتي منشغلا عن الناس الذين كانوا يفسحون له الطريق. لم يكن التنقل بين الحلبات سهلا، وكان على روتلج أن يتسلق من فوق البوابات أو الحظائر ليتفادى الماشية التي كانت تعبر بهياج وخوف بين الحلبات والحظائر. نظر إلى الأرقام على اللوح عندما وصل إلى حلبة العجول فأدرك أنه وصل في الوقت المناسب، وتعرف على عجوله في حظيرة الانتظار. لم تكن مضطربة

وهـي تنتظـر دورهـا الـذي اقـترب.

دخــل العجــل الأول قفــص الميــزان، فانتظــر حتــى كُتــب رقمــه عــلى اللــوح ثــم أخــذ مكانــه في المقصــورة. رأى مــن نافــذة صغــيرة المشــترين يتجمعــون حــول الحلبــة، وبــدأ المــزاد بطقوســه وعباراتــه المعتــادة متصاعــدا إلى أن توقــف عنــد ســعر محــدد. انحنــى الــدلال نحــوه وســأله إن كان موافقــا، ورغــم معرفتــه بــأن الــدلال لــن يتحمــل المســؤولية ســأله عــن رأيــه. عــاد الــدلال دون أن يجيــب إلى الحلبــة واســتأنف المــزاد فبــدأ الســعر يرتفــع ببــطء ثــم بتســارع، فأشــار إليــه بالموافقــة، وعندمــا هــوت المطرقــة معلنــة نهايــة المــزاد كان الســعر قــد وصــل إلى رقــم جعلــه يبتســم وهــو يومــئ برأســه راضيــا. بعدهــا تســلّم روتلــج قســائم البيــع بينــما كان رجــل آخــر يدخــل المقصــورة. تذكــر أنــه رأى قبــل ذلــك في أســواق أخــرى مزارعــين يخرجــون مــن المقصــورة مرتبكــين مثلــه الآن كأنهــم مصابــون بــدوار.

ربــت رجــل كتفــه واقــترب بوجهــه الباســم: «هــذه أســعار جيــدة. أبقــارك رائعــة».

«أأنت مشترٍ أم بائع؟».

«بائع، لكن دوري لا يزال بعيدا».

«أتمنى لك حظا طيبا. السوق جيد اليوم».

أجابه بحماسة: «نعم، شكرا، طالما استمر هكذا».

في طريــق عودتــه اكتشــف مــن قســائم البيــع أن جامــسي حصــل عــلى الســعر الأعــلى. وجــده مــع باتريــك ريــان قــرب المتجمهريــن في الحلبــة. أراهــم قســيمته وهــو ينظــر إلى يــدي جامــسي الضخمتــين ترتعشــان.

«الأسعار جيدة، لكن جامسي حصل على الأعلى».

قال باتريك غامزا بعينه: «جامسي دائما يفوز، فهو لديه أفضل ماشية في أيرلندا كلها».

قال جامسي محاولا التملص من المزاح: «ليست الأسوأ على أية حال، والأسعار متقاربة لا تكاد تختلف عن بعضها».

تباطأت المزايدات بسبب عودة بعض المنسحبين وظهر التبرم على وجوه الدلالين. قال جامسي ساخرا: «كانوا يجربون الماشية». تسارع إيقاع المزاد بعدها ورأوا ماشيتهم تقاد إلى حظيرة قرب قفص الميزان، وتقلص الفارق بين أرقام اللوح وأرقامهم إلى اثنين فقط. وبما أن العجول قد حصلت على أسعار جيدة أصر جامسي بشيء من التصنع أن يبيع روتلج الثور أيضا. لم يقترب باتريك من المقصورة وقال مبتعدا: «بعها بأي سعر، مقابل أي شيء تحصل عليه. بعها إلى الجحيم». استعاد روتلج هدوءه وهو ينظر إلى ماشيته في قفص الميزان، وإلى أوزانها تكتب على اللوح، وإلى إشارات المشترين التي يترجمها الدلال بصوته وحركاته الإيقاعية إلى أسعار. أومأ إلى الدلال برأسه أن يتم عملية البيع عندما انحنى باتجاهه بعد أن تباطأت المزايدات.

عندما دخلت ماشية باتريك ريان كان المزاد أبطأ من كل ما سبقه، لكنه ما لبث أن تسارع وتحول إلى منافسة شديدة، ليحصل في النهاية على سعر أفضل مما توقعه الجميع. ابتهج الرجلان بذلك، ووجدهما روتلج عندما عاد يتلقيان التهنئات. «أنذهب أم تريدان البقاء؟».

قال جامسي بلهفة: «لا، نذهب، أنا لا أحب السوق».

ضحك باتريك ريان: «نذهب بمشيئة الله.. نذهب كأناس صالحين..».

تملصوا بصعوبة من حشد الرجال المتجمعين حول الحلبة، وساروا باتجاه الممر العريض الذي يفصل بين الحظائر حيث رأوا من بعيد الأب كونروي مع مساعده يتفقدان الماشية. قال باتريك ريان: «يبدو أنه يريد من يبيعه. أليس غريبا أن نراه هنا في ثيابه الكهنوتية السوداء؟!».

أجابه جامسي: «لا أرى ما يعيب الأب كونروي، فهو الأكثر استقامة من بين كل القساوسة الذين عرفتهم هذه المنطقة».

قال روتلج: «إن لم تكن ثيابه الكهنوتية تنتمي إلى السوق فإنها لا تناسب أي مكان آخر. إمّا تنتمي إلى الحياة كلها وإمّا لا».

رد باتريك ريان: «لكل شيء مكانه المناسب، ولا بد أنك تعرف هذا يا بني».

قاطعه جامسي وهو يلكز روتلج في إشارة إليه كي يصمت: «صمت.. حذار.. في زمن مضى كان رجال الدين يسيطرون على العقول في هذا المكان. كان الناس لا يجرؤون على مسح مؤخراتهم بالعشب خشية أن يكون ذلك خطيئة، ولا يترددون في استعمال التبن».

سلكوا طريقا فرعية نحو المدينة تجنّبا للزحام، وكان باتريك ريان يتوقف بين حين وآخر ليتحدث مع من يصادفه. لم يمانعا ذلك، فلديهم اليوم كله. قال جامسي بينما كانا ينتظرانه لينهي حديثه مع بعض الرجال: «لا تعارض باتريك في أي شيء يتعلق بالسياسة أو بالدين وإلا صدّع رؤوسنا طوال النهار بمحاضراته».

هز روتلج برأسه موافقا.

كانت حانة جيمي جو مكتظة عندما وصلوا إليها، فُتح بابها للتهوية، وفي الداخل وقف الرجال متلاصقين من البار الصغير حتى

الفناء الخلفي، وتناهى الضجيج إلى الشارع. قال باتريك ريان: «ثقتهم بأنفسهم تزداد، ويعتقدون أن أيامهم هنا باتت قريبة». قال روتلج: «كم من الأبرياء قتلوا أو شوهوا؟» حرك جامسي قدمه وداس على قدم روتلج بقوة لينبهه أن يصمت.

أمام حانة لوك هنري وقف بائع الملفوف أول مرة هذه السنة بجانب شاحنته الصغيرة، اصطفت داخلها رؤوس الملفوف من مختلف الأصناف في مجموعات ربطت بخيوط قنب صفراء. اقترب جامسي منه وأمسك بذراعه: «مرحبا أيها الرفيق القديم، لقد انتهى الشتاء». ابتسم الرجل الذي كان يرتدي ثياب العمل وقبعة قماشية كبيرة بوجهه المستدير اللطيف: «وأتى الربيع بخضاره مهما كان حال الطقس. أتريد العودة لتجرب حظك مع البطاطا؟». رفع جامسي يديه نافيا: «لا، لا أريد ذلك إطلاقا. انتهينا من ذلك». ضحكوا واشترى كل من الرجال الثلاثة حصة من ملفوف يورك ثم ترك روتلج وباتريك صاحبهما جامسي يتحدث مع الرجل ودخلا الحانة. «لن يأتي قبل ساعة، إنه طفل حقيقي». كانت الحانة مكتظة، كثيرون رحبوا بهما، وبسبب أسعار الماشية الجيدة ساد جو من البهجة في المكان وتحدث الجميع عن سوق موناغان. أصر باتريك على أن يدفع ثمن الدور الأول من المشروبات وأن يطلب ثلاث كؤوس من البربون إضافة إلى البيرة، لكنه سمع صوت جامسي فجأة: «هذا كثير، كثير، كثير». رفع جامسي كأسه فيما يشبه حركة احتجاج: «رائع يا باتريك، أنت غليظ اليد لكن ليحفظك الرب ويطيل في عمرك، وبمشيئته لا تموت وأنت ترغب في شيء». تكلم بزهو ومرح بدا أنه من تأثير حديثه مع بائع الملفوف، وشرب كأس البربون دفعة واحدة وأتبعها بجرعة كبيرة

من الجعة، ثم خاطب إحدى الفتيات العاملات على البار برقة: «المزيد يا ماري عندما تجدين الوقت، ذات الطلب».

ساد جو احتفالي في الحانة، وانشغل جامسي وباتريك بتبادل التحيات والأحاديث والمزاح مع الرواد، ولم يمض قليل من الوقت حتى بدأا يتلقّيان الدعوات وكؤوس المشروب. أخبر روتلج جامسي أنّ لديه زيارات قصيرة في المدينة، انسلّ خارجا، ومشى عبر المدينة المزدحمة في شوارع تكتظّ بسيارات مركونة في كل مكان، أو تطلق أبواقها، وهي تشق طريقها ببطء في مسارات متعرجة. تبادل تحيات سريعة مع أناس مرّوا به، لكنه لم يتذكّر سوى وجوههم، ومرّ بجانب تمثال عازف القيثارة البرونزي قرب النهر. شعر بألفة تشده إلى هذه المدينة التي أحبها عبر سنوات طويلة. كل الحانات والمتاجر كانت مزدحمة بالناس، وعلى جانبي الطريق الرئيسة الطويلة والعريضة امتدت البيوت، ما من بيت منها يشبه الآخر. بيوت بناها أناس قدموا من الجبال والأرياف، كل منهم بنى بجانب جار آخر دون أن يفكّر في شيء سوى أن يحصل على مأوى وحياة توفّران له لقمة العيش. لم يكن الازدهار وقتها حلما متاحا. الفندق المركزي كان كغيره مزدحما، لكن برجال تدل ثيابهم على أنهم أغنى من الرجال المجتمعين في الحانات. في وقت كهذا سيكون الشاه قد أنهى وجبته وغادر للتو. تابع مشيه باتجاه أطراف المدينة ليجد نفسه أمام مملكة الشاه الصغيرة، الساحة تكتظّ بالسيارات والشاحنات والمقطورات والجرّارات، فاضطرّ إلى الاقتراب أكثر مما أراد ليرى مَنْ في الداخل. يبدو أنّ يوم موناغان قد جلب لهم الكثير من العمل أيضا، كثير من الرجال يدخلون ويخرجون أو يتجمعون في جماعات صغيرة قرب مدخل الورشات

بينـما كان آخـرون يتجولـون في مسـتودع الخـردة المفتـوح. حتـى البسـتانيّ العجـوز جيمـي مـوراي جُنّـد في أعـمال اليـوم، ووقـف بقبعتـه الكبـيرة يراقـب البوابـات بانتبـاه.

اعتـاد روتلـج في طفولتـه أن يـأتي إلى هـذه المدينـة مـع أمـه، ولـرداءة الفحـم الحجـري الـذي كانـوا يسـتخدمونه أثنـاء الحـرب لم تكـن الطاقـة تكفـي لدفـع القطـار في المناطـق المرتفعـة، فـكان الـركاب ينزلـون مـن العربـات ويمشـون إلى أعـلى المرتفـع أو التلـة ثـم يركبـون هنـاك مـن جديـد. لا تـزال صـورة المحطـة حـاضرة في مخيلتـه، بواباتهـا البيضـاء وصنـدوق الإشـارات العـالي وشـجيرات التنُّـوب الصغـيرة قـرب السـكة والخرطـوم الكبـير الممتـد مـن خـزان الميـاه إلى بـاب غرفـة الموقـد كأنـه خرطـوم فيـل. للحظـات اسـتعاد صـور المحطّـة في ذاكرتـه كأنهـا لوحـة زيتيـة دقيقـة التفاصيـل بحيـث بـدت لـه السـاحة الآن خطوطـا مشوشـة. مـن كان يتوقّـع أن تلـك المحطّـة الصغـيرة، ومركـز المدينـة فيـما بعـد، سـتصبح هكـذا كأرض يبـاب يحكمهـا الشـاه كلـورد. وهـا هـو الآن يـأتي بـه القلـق إلى ذات المـكان، يفكـر بعمـه، كيـف سيسـتمر بعـد أن تخـلى عـن قوتـه ببيـع مملكتـه، فأصبـح ضعيفـا كطفـل يفقـد وجـه مـن يحـب. كل شيء ملـك فرانـك الآن.

عـاد أدراجـه وهـو يمـشي ببـطء في شـوارع المدينـة التـي ازدادت ازدحامـا وفـوضى، سـيارات وشـاحنات تتوقـف لينـزل سـائقوها كأنهـم يفتشـون عـن سـبب الازدحـام، ومقطـورات محملـة بماشـية لا يضيـف خوارهـا إلى المشـهد سـوى المزيـد مـن الضجيـج والارتبـاك. التقـى ببعـض الرجـال في طريقـه وشـعر بمتعـة وهـو يمـشي بـين النـاس في مدينـة صغـيرة تتوقـد نشـاطا وطاقـة. بائـع الملفـوف لا يـزال في مكانـه أمـام حانـة لـوك هـنري، لم يبـق مـن بضاعتـه سـوى القليـل. لـوح لـه

بمودة ثم دخل إلى الحانة. وجدها أكثر ازدحاما مما تركها، جامسي يجلس مع مجموعة من المزارعين يقارنون الأسعار وقسائم البيع والملحوظات التي كتبت عليها في وصف الماشية، وكعادته كان يتكلم ويحجب بيده الملحوظات على قسائمه. كان باتريك يجلس مع مجموعة من متعهدي الشاحنات والجرارات وقد اعتاد أن يبني لهم محطّات ومخازن، وما إن رأى روتلج حتى تركهم وذهب إليه.

بدا وجه باتريك محتقنا من أثر الشرب لكنه احتفظ بتوازنه. قال: «أين كنت كل هذا الوقت؟ لا بد أنك اشتريت المدينة كلّها». قال بعدها وهو يشير إلى الفتاة وراء البار: «أنت بحاجة إلى كأس براندي كبيرة».

قال روتلج وهو يشير إلى الفتاة مجيبا نظراتها المتسائلة: «لا، ستقتلني، سآخذ بيرة فقط، ثم إنه دوري بالدفع وعليّ أن أقود السيارة».

«من يبالي بمن يدفع الآن؟! هذا يوم من أعمارنا قد لا نرى مثله مرة أخرى». قال باتريك ذلك بفظاظة وهو يصرّ على دفع ثمن الجعة. طلب روتلج له كأسا كبيرة من البراندي وكأسا من الجعة لجامسي الذي كان لا يزال مستغرقا في النقاش.

«لا بأس، لا فارق بيننا، لكن لنحافظ على هذا اليوم باعتدال».

«علينا أن ننتهي من بناء المخزن عندك قبل الصيف. لقد أخذ وقتا أكثر مما ينبغي».

أجابه روتلج الذي اعتاد هذا الكلام: «لا بأس، لسنا في عجلة من أمرنا كما تعلم، وما من أمر ملحّ».

تحدث باتريك ريان بعدها عن سأمه من العمل في الريف

متنقلا من بيت إلى آخر لدى أناس يحتاج المرء إلى ست أيد ليلبي طلباتهم. لقد اشترى كل ما يلزم من مواد لسقف منزله ولا يزال يحتفظ بها منذ عشرين عاما، وحان الوقت لكي يعود إليه ويعيش بين الجيران بسلام مع بعض الماشية إلى أن يحين أجله.

جلس لوك هنري الذي كان يعمل في تحضير الطعام والشراب منذ الصباح على كرسي مرتفع مكتوف اليدين يتكئ على الرفوف التي تشع خلفه بألوان زجاجات المشروب، الكهرماني والأزرق والأشقر. جلس برضى ينظر إلى عاملِي الحانة الشباب يؤدّون عملهم بنشاط، ولم يُخف الشعر المستعار الذي كان يضعه الشيبَ على جوانب رأسه ورقبته، وكان بين حين وآخر ينهض من كرسيه، وينحني ببشاشة من وراء البار باتجاه زبون ينتظر دوره بالخدمة، أو يودع زبائن يغادرون، أو يرحب بآخرين يدخلون، ثم يعود إلى كرسيه بحركة بطيئة، لكنها دقيقة صقلتها الخبرة.

شعر روتلج فجأة بيد ثقيلة على كتفه فعرف أنه جامسي. «يوم رائع». أعطاه كأس الجعة التي أحضرها، وقال باتريك: «إن اليوم لا يزال في أوله، لكن جامسي لم يتحمس للمزيد من الشراب». ووافقه روتلج الذي أكد أنه لا يستطيع شرب المزيد وقيادة السيارة وأنه يفضل العودة إلى البيت. عندما قال جامسي إنه متعب ويريد الذهاب أيضا قال باتريك ممازحا: «الرب لا يحب الجبناء». ضحك جامسي وذهب ليودع رفاقه في الحانة وتبادل معهم الوعود بلقاء آخر قريب.

قال باتريك ريان: «طفل حقيقيّ».

سأله روتلج: «هل أنت متأكد أنك لست بحاجة إلى من يوصلك إلى البيت».

«ليس لدي من ينتظرني في البيت مثلك يا بني، ولا يزال لدي عملاء يجب أن ألتقي بهم. لن أنتهي من ذلك قبل الليل».

«وهل لديك مكان تبيت فيه».

احمرّ وجه باتريك وقال والتعب والثمالة تنضحان من ملامح وجهه الوسيم: «هل التقيت من قبل بممثل لا يستطيع إيجاد فراش ينام فيه؟! إن كنت قد فعلت يا بني فاعلم أنك التقيت بمن هو ليس جديرا».

«كنت فقط أسأل».

في الشارع مشى جامسي مترنحا بداية الأمر، ثم ما لبث أن استعاد توازنه، ولم يتفوه بكلمة واحدة ووجوه الناس تمرّ به تحت الأضواء. عبرا أمام رجال الأمن الثلاثة في الزقاق مقابل حانة جيمي جو دون أن يقولا شيئا، ثم انعطفا إلى منطقة مظلمة فرأيا أضواء سوق موناغان البيضاء تشع في البعيد وأرتالا من الشاحنات والمقطورات المحملة بالماشية تخرج وتدخل، وسمعا أصوات الدلالين تدير المزادات عبر مكبرات الصوت.

قال جامسي عندما رأى أعداد السيارات والشاحنات التي لا تزال مركونة على الطريق: «الكثير من الرجال المساكين لن يخرجوا قبل الفجر».

قال روتلج وهو يفتح باب السيارة: «كان يومنا موفّقا وحصلنا على أسعار ممتازة».

كانت بعض السيارات قد غادرت فتمكنا من الاستدارة والعودة في الطريق دون أن يمرا عبر السوق أو عبر المدينة. ضحك جامسي وقال: «نعم، يوم موفّق وأسعار عظيمة. حتى باتريك حصل على أسعار جيدة».

سارا بصمت باتجاه البحيرة، وعند الشاطئ كشفت أضواء السيارة جانبا من أعواد الخيزران ومساحات صغيرة من سطح الماء الممتد تحت السماء المظلمة. تنبه جامسي الذي كان يغفو بين فينة وأخرى إلى انعطاف السيارة ثم صعودها في الطريق نحو بيته أعلى التلة.

«وصلنا إلى البيت». كان الشارع غارقا في العتمة عدا مربع صغير من الضوء في مكان النافذة بدا في ألقه الهادئ والجميل كأنه ضوء قداس المساء. سمعت الأبقار المربوطة في الحظيرة أصوات السيارة ووقع الخطوات فأطلقت خوارا حزينا لفقدان عجولها. قبلت ماري جامسي، لكن ما إن تلامسا حتى رمقته بنظرة تأنيب. الغرفة دافئة، النار تتوهج في المدفأة، والكلبان يسترخيان على كرسيين، والكتاب الذي كانت ماري تقرأ فيه مقلوب على الصفحة التي توقفت عندها. اقترب جامسي من الكلب الأبيض الصغير ورفعه ليبعده، فكشّر عن أسنانه وابتعد ينبح بقوة. أنّبته ماري لإسرافه في الشراب، لكنه لم يكن أكثر من تأنيب شكليّ، ولم تستطع الاحتفاظ بملامح وجهها الجديّة أكثر من لحظات. قدم لها قسائم البيع بزهو فنظرت بتلهف إلى الأسعار، لكن فرحها تضاعف عندما رأت قسائم باتريك. «المسكين، ظننت أنه لن يحصل عل أي شيء بحيواناته البائسة تلك». «أعطوه السعر العادي. لم تكن مواشيه تعاني من مشكلة سوى قلة الأكل».

أعدت ماري كأسا من الشراب لروتلج، وعندما وضعت القليل في كأس جامسي احتج على ذلك فأضافت له قطرات إضافية، لكنه لم يمانع، بل شعر بالرضى، فهو متعب ولن يستطيع شرب المزيد على أية حال.

«هـذا الرجـل لا يسـتطيع إلا أن يـشرب في كل مناسـبة. لـو رأيتـه كيـف يـسرف عندمـا يـأتي جـوني!».

«بعـض النسـاء يطاردنـك ليـل نهـار، يقيدنـك ويقلمـن رجولتـك دون أن تـدري».

رفعـت مـاري غطـاء رطبـا عـن طبـق كبـير مـن شـطائر الدجـاج وشرائـح اللحـم مـع البقدونـس ثـم مـلأت إبريـق الشـاي بالمـاء ووضعتـه فـوق المدفـأة.

قـال جامـسي وهـم يأكلـون ويشربـون بهـدوء: «سـتمضي السـنة بسرعـة. سـتحل أيـام الصـوم الكبـير قريبـا، ومـا إن تمـض حتـى يمـر عيـد الفصـح، ويبـدأ كل شيء بالنمـو بسرعـة».

حـل موسـم توالـد الأغنـام، أُضيئـت الحظائـر في الليـل، وكان روتلـج وكيـت ينهضـان مـن النـوم ليتفقداهـا كل سـاعتين، فيتحـول التعـب والنعـاس إلى رضى صامـت كلـما وضعـت نعجـة وليدهـا بسـلام. أتى جامـسي ليتفقـد الحمـلان الصغـيرة، وعندمـا علـم أن بيـل إيفانـس سـيحصل عـلى سـكن خـاص بـه قـال بتشـكك: «لا أدري كيـف سـيقدر عـلى ذلـك! سـيضيع هنـاك.. فهـو اعتـاد عـلى حياتـه هـذه منـذ زمـن طويـل».

قالت كيت: «ولكن ستكون له حياته الخاصة».

«لا أحد منا لديه حياة خاصة».

«على الأقل لن يعتدي عليه أحد بعد الآن».

«الـكلاب والقطـط حـول البحـيرة تُعامـل بطريقـة أفضـل. بعـض النـاس لا حـظ لهـم».

قـال روتلـج: «ليسـت مشـكلة حـظ، فـكل إنسـان يمكـن أن يكـون محظوظـا، والخـير والـشر يسـيران معـا».

ذهب روتلج في إحدى الأمسيات إلى المدينة ليرى كيف تسير الأمور في ورشات المحطة، وليبرر زيارته أخذ معه ساعد آلة جزّ العشب لإصلاحه. اكتشف في المدينة أنه أربعاء الرماد[8]، وفوجئ أن أغلب الناس لا يضعون دمغة الرماد على أجبنهم. يذكر أن معظم الناس كانوا في الماضي يضعون الدمغة، والذي يفوته الذهاب إلى الكنيسة يقوم سرا بوضع الدمغة على جبينه من رماد الجرائد المحروقة بعد تبليله. وجد الشاه وقد دمغ جبينه بالرماد، يقف مع كلبه في مدخل الورشة الكبيرة.

استقبله بحرارة، وبينما كان يفحص ساعد آلة الجزّ قال له روتلج مشيرا إلى جبينه: «يبدو أنك مخلص في واجباتك».

ضحك وأجابه بعباراته المعهودة: «كفاك الآن.. تلك السيدة في الفندق تريد أن تراك».

«بخصوص ماذا؟».

«لا أدري. لم تشأ الإفصاح عن ذلك».

«كيف تجد فرانك؟».

«لم يتسبب في أي كارثة بعد، ولكن لا يزال الوقت مبكرا لنحكم عليه».

«وأنت كيف تشعر بعد التغيير؟».

«عظيم، لكن لم يكن لي أن أبقى حتى الآن، هذه مسؤولية كبيرة».

قطعت حديثهما حركة دخول الزبائن إلى المكتب الصغير واتصالات هاتفية أجاب عليها الشاه بدماثة فاقت تلك التي كان يعامل بها الزبائن عندما كان يملك كل شيء، لكنه أخبر الجميع

(8) أربعاء الرماد هو أول يوم من زمن الصوم النصراني ويرمز في النصرانية إلى التوبة.

أن عليهم العودة إلى مدير الورشة الجديد فرانك دولان الذي كان يعمل في مكان ما داخل الورشات. ذهب روتلج للبحث عنه شاقا طريقه بين ركام من المحركات وقطع الآلات المتناثرة في كل مكان. وجده يرتب قطعا صغيرة فوق رف أمامه ويفكك أخرى ليعيد تصنيفها بدقة تسهّل تناولها عندما تُطلب.

«إذن لن توظف شبابا لديك؟». فوجئ فرانك بدعابة روتلج، لكن لم يبدر عنه سوى ابتسامة عريضة تلاشت بسرعة. «كيف يشعر الشاه بعد التغيير؟». «كيف تجده أنت؟».

أجاب فرانك وصوته يرتعش تأثرا وامتنانا: «لا أدري كيف كنت سأتصرف من دونه. لم يقصر في مساعدتي..».

«كل شيء على ما يرام إذن؟».

«نعم حتى الآن».

عاد روتلج إلى مكتب الشاه فوجده هناك ينتظره ليذهبا معا إلى الفندق وقد بدل ملابس العمل وارتدى بزّته. حرك بحذائه ساعد آلة الجز على الأرض فانتبه روتلج إلى أنه انتهى من إصلاحه.

«قمتَ بعمل رائع، يبدو كأنه جديد».

«نعم، بعد إصلاحه يمكنك أن تثق بأنه يعمل معك كالجديد تماما».

تنحنح بعد لحظات وقال: «اتصلت بسيدة الفندق بينما كنت تتحدث مع ذلك الرجل، إنها تنتظرنا هناك».

جاء فرانك وهما يغادران، وقف لحظات صامتا ثم عاد مع الكلب إلى ورشته. توقفا ليضع روتلج الآلة في سيارته ثم تابعا الطريق إلى الفندق. مرّا بمشروع المجمع السكني الجديد، عشرات الشقق الصغيرة تبنى ببوابات وحدائق صغيرة، توقفت في وسط

طريق مغلق آلة كبيرة لمزج الإسمنت. نظر الشاه إليها وقال بسخرية: «من أجل كبار السن.. أطلقوا عليها اسما غريبا.. اسما أيرلنديا..».

«أسموها تراثنونا. هل تعرف معناها؟».

«لا بد أنه شيء ما سخيف».

«تراثنونا تعني ليلة. بيل إيفانس سيحصل على إحدى هذه الشقق».

«سينتهون من البناء في الوقت المناسب. آن له أن يترك شقاء حياته عند البحيرة مع دلوي الماء».

في الفندق رحب بهما موظف الاستقبال الذي كان يجلس وراء مكتب على شكل حذوة حصان بحفاوة وأشار إليهما إلى طاولة محجوزة في مقصورة خاصة. نطق باسمها بصوت دافئ، وهما يدخلان المطعم ويتوجهان بهدوء إلى طاولة مرتفعة جُهزت لثلاثة أشخاص. أتى كبير الطهاة من المطبخ بقبعته الطويلة، صافحهما وعرض عليهما ما لديه من وجبات. تناولا في البداية حساء الفطر، وبعدها طلبا سمك السلمون مع كمية كبيرة من الخضار المشوية وبوظة مع فطيرة الكرز للشاه وسلطة خضار لروتلج الذي لم يطلب حلويات، ولم يقبل ما قُدّم إليه من بربون ونبيذ وجعة. انضمت السيدة ماغواير إلى المائدة وطلبت مثل روتلج سمك السلمون مع سلطة خضار. بعد فترة صمت طويلة، علق الشاه مشيرا إلى طبق السلطة: «كيف تأكلون هذا؟!». كان مستغرقا في متعة الأكل. تذكر روتلج أن آخر لقاء جمعهما كان في حفل زفاف جون كوين.

خرج الشاه عن صمته، وقال وهو يهز رأسه: «يا له من

ولـد». «محـارب».

قالت السيدة ماغواير: «أظن أن الزواج لم يكن موفقا؟».

أجابها الشاه: «أحسست بما ينتظرها فتركت ذلك البيت على شاطئ البحيرة ورحلت».

أضاف روتلج: «ذهب وراءها إلى ويستميث ثم عاد بعد فترة».

قال الشاه باقتضاب وصرامة: «طردوه».

«ليس لدي أي مشكلة مع جون، وأولاده سينزلون في الفندق عندما يأتون في عطلة الصيف من إنجلترا، فهم عائلة لطيفة ومتحابة». أرادت السيدة ماغواير أن تنهي الحديث بالموضوع بكلامها هذا، وعندما تكلم الشاه عن أولاد جون لم تهتم بل توجهت بالحديث إلى روتلج. «ما رأيك بمركز العالم؟». نظرا إليها كأن شيئا من الخيبة حل مكان ترقبهما لما تريد قوله في هذا اللقاء الذي طلبته.

قال الشاه معترضا: «كفاك الآن، هناك أمكنة أكثر سوءا».

نقّل روتلج عينيه بين وجهيهما لحظات قبل أن يتكلم. رجل وامرأة تربطهما علاقة قديمة، يذهبان كل أحد إلى القداس معا، ويأتي الشاه كل يوم ليتناول طعامه معها في الفندق، وكثير من المتزوجين لا يعيشون هذا الانسجام والقرب. سأله ذات يوم: «كيف تستقر أحوالك في الفندق؟». «إنها امرأة، وكغيرها من الناس تحتاج إلى بعض المال بين وقت وآخر». نشأا في بيئة واحدة بالمدينة، لكنهما لم ينتميا بشكل كامل إلى أوساطهما الاجتماعية، ولم تدفعهما الرغبة أو الاهتمام إلى الانضمام كغيرهما إلى نوادي الغولف أو غيرها، بل حافظ كل منهما على ثقافة خاصة ترتبط بالعائلة وبالكنيسة أكثر مما ترتبط بأي شيء آخر. ثقافة منحتهما

استقلالية وذكاء لم يسمحا لهما يوما بالاختلاط بأي أوساطلا تتوافق مع مزاج كل منهما وحساسيته.

قال بحذر: «ماذا تقصدين بالتحديد؟». «كيف ترى أحوال فرانك والورشات؟». «فوجئت أن كل شيء جيد، كما هو تماما، لم يتغير شيء، فرانك يعمل بجد وهو سعيد ومسرور».

قال الشاه: «في وضعه يجب أن تدفعه إلى الأمام وهو يخطو خطواته الأولى، وينبغي عليك ألا تجامله في هذه المرحلة إطلاقا».

قالت السيدة ماغواير: «لكنه بالطبع لم يعد ذات الرجل الذي كان في الماضي».

استغرقوا ثلاثتهم في الضحك، وقال الشاه وهو يمسح الدموع عن وجهه: «كفاكما أنتما».

«كنت قلقا عندما طرح عليّ الموضوع أول مرة. حتى كيت لم تكن تريده أن يتقاعد ويترك المكان».

«أخبرني بذلك. وأنا كنت قلقة، كلنا كنا قلقين».

قال الشاه بثقة: «لم يكن من داع للقلق».

«من الصعب الوثوق بالناس. لا أحد يدري كيف يمكن أن يتصرفوا أو في أي اتجاه يسيرون عندما يمسكون بدفة الأمور بأيديهم».

قالت: «صحيح، رأيت في حياتي الكثير ممن غيّرهم المال والسلطة».

«على المرء أن يفكر مرتين حتى لو أراد أن يعطي كل ما لديه لأولاده».

تنبه روتلج على الفور إلى أنه ارتكب حماقة بعبارته الأخيرة هذه، فنظر إلى السيدة التي قالت موافقة: «بل أكثر من مرتين».

تحولت بعدها بعينيها إلى جبين الشاه الملطخ بالرماد في نظرة كلها شغف.

«كفاكما الآن..» ضحك الشاه ومسح عينيه الدامعتين بكفه.

جفت الأراضي التي أغرقها ماء المطر، وبدأت الأزهار الصغيرة تظهر على ضفاف السواقي وتحت الأشجار. استقبلت أزهار النرجس الربيع بجمالها في بيت ماري القديم عند البحيرة حيث نمت شجرة جار الماء في غرفة الجلوس. عادت الطيور الصغيرة للتحليق بحثا عن قوتها، وجلست طيور التم على بيوضها وسط أعواد الخيزران، وعلى مقربة كانت مياه الشاطئ الضحلة تمور بالحياة، أسماك الكراكي التي وضعت بيوضها تضرب سطح الماء بزعانفها السوداء وتتلوى لتظهر جسدها الأبيض. وفي المراعي عادت الأغنام مع حملانها الصغيرة تقفز هنا وهناك، وتثب على بعضها كأنها تنتعل نوابض في حوافرها الصغيرة. ساعد جامسي روتلج على ربط المحراث القديم إلى الجرار، ثم حرثا الأرض حول بيتهما استعدادا لبذار الربيع. شكا أثناء العمل من سفاهة الناس الذين التقى بهم عندما ذهب إلى الحانات في شروهاون ليحتفل بيوم القديس باتريك بعد نهاية الصوم الكبير.

قُلمت أشجار الفاكهة، غُرست شتلات الزهور، وبدأ النحل يطير من الخلايا ليجمع الرحيق، وعلى صخرة جرداء قريبة وقفت القطة السوداء قرب بركة ماء تنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض على أي ضفدع يقترب من حافة الصخرة.

ترددت أصوات أجراس قداس الفصح في الصباح وانسابت كرعشات فوق سطح البحيرة تحت سماء صافية. «دائما نرى الشمس في صباح الفصح. انظر كيف تتألق الأرض وترقص السماء

وتشع نورا فرحا». سمعا خطوات جامسي في الخارج، ثم قرعه نافذة الرواق قبل أن يدخل. دخل إلى الغرفة حيث كانا يجلسان.

«أهلا يا جامسي. تفضل، استرح وخذ قطعة شوكولا. أهلا بك».

وقف في بزّة الأحد وسيما ومتألقا وقد ثبت زنبقة في عروة صدر سترته. مد يده إلى كيت التي تصنعت الخوف من وضع يدها في يد بهذه الضخامة.

«الله لا يحب الجبناء يا كيت».

استسلمت وأعطته يدها إلى أن صرخت بعد لحظات: «رويدك يا جامسي»، وكعادته ترك يدها وهو يبتسم ظافرا. «أنت من فرسان الله يا كيت».

«سيد روتلج». انحنى بوقار فأجابه روتلج: «سيد مورفي».

«لا سادة هنا. لا سادة في هذه البقعة من العالم. ما من أحد سوى رجال نبلاء مكسورين».

«وما من سادة في هذا البيت أيضا. من هو تحت لا يخشى السقوط».

«لماذا لا تذهب إلى القداس إن كنت تشعر نفسك تحت هكذا؟».

قال روتلج وهو يعيد تثبيت الزنبقة على صدر جامسي وكأنه يعلن توقف لعبتهما المعتادة: «لم أكن أعرف أنك مع الرجال الذين يؤيدون العنف؟».

«بلى أؤيدهم جميعهم. بدؤوا بالتجمع اليوم عند بوابة الكنيسة، وسيسيرون من التمثال نحو شروهاون».

ضحكت كيت وعادت إلى اللعبة: «هل تريد كأس بوربون يا جامسي؟».

«هـا أنـت تتكلمـين يـا كيـت لكـن عليـك أن تحـذري مـن بعـض الكلـمات».

«لماذا؟».

«انظـري إلى رَجُلـك» مشـيرا إلى روتلـج الـذي كان قـد أخـرج بعـض الكـؤوس مـن الخزانـة وزجاجـة مـن كحـول البـاورس وشرع بصـب المـاء في إبريـق بنـيّ.

«أنا بطيئة».

«لسـت بطيئـة البتـة يـا كيـت. إنـك فقـط لم تولـدي هنـا. لا بـد أن تولـدي في المـكان لتعرفيـه جيـدا وتكـوني عـلى درايـة بمـا تفعلـين».

«وهو لم يولد هنا».

«ليـس بعيـدا مـن هنـا. قريـب بمـا يكفـي ليعـرف. لم يكـن في المدرسـة، لكنـه كان عـلى معرفـة بالطـلاب. بصحتكـم اليـوم وغـدا».

رفـع كأسـه بمـرحٍ احتفـاء بنهايـة اللعبـة، ثـم سـاد صمـت فـترة، وهـم يشربـون.

سأل جامسي فجأة: «هل سمعتما صوت الوقواق هذه السنة؟».

«لا، ليس بعد».

ضحك وقال بزهو: « كسالى».

«ولكن كيف تكون أنت أول من يسمعه كل سنة؟».

«سـمعته قبـل ثلاثـة أيـام السـاعة السادسـة وعـشر دقائـق فـوق أشـجار جـار المـاء في تلـة مـوروني، ومرتـين البارحـة».

صـوت قـرع طبـول تناهـى مـن البعيـد إلى فضـاء الغرفـة السـاكن، ثـم تـلاشى فجـأة كـما بـدأ بعـد ثـوان. «إنهـم يتجمعـون في غلاسـدروم، وبعـد فـترة سيسـيرون في مظاهـرة نحـوٍ المقـبرة في شروهـاون. لا أزال أذكـر الهجـوم كأنـه حـدث البارحـة. كنـت أزرع البطاطـا مـع أبي،

أضع الشتلات في الحفر التي يحفرها في الأرض المحروثة، وريح باردة تهب فوق التلة. رأيناهم يتسللون في رتل عبر المستنقع مع بنادقهم، وينحدرون باتجاه غلاسدروم متخفّين تحت سور الشجيرات على ضفة النهر. كانوا كلهم شبابا، وبعضهم فتية صغار. ليرحمنا الرب، كانوا يريدون الاختباء في الأجمة، لينصبوا كمينا، ويهجموا على مقطورة الوقود القادمة من شروهاون عند وصولها إلى غلاسدروم. لكنهم وقعوا في كمين، فقد وصلت إخبارية إلى الجيش كشفت أمرهم، وأُطلقت المدافع الرشاشة باتجاههم. لم أسمع في حياتي أصواتا كتلك التي سمعتها يومها، دوي وصليل معادن لا يمكن أن أنساه. أُصيب ثور أحمر كان في المكان في عينه وظل يترنح في الحقل ساعات. لم يستسلم أولئك الرجال المساكين. هرب من استطاع منهم باتجاه المستنقع واختبؤوا هناك، لكن مجموعة من أربعة عشر جنديا ببنادقهم بقيادة ضابط يحمل رشاشا مع كلابهم البوليسية طاردوهم. ما كان الكلب يشم مكانا حتى يصفر الضابط مشيرا إلى أحد الجنود، وبطلقة واحدة ينتهي الأمر. لم يكن بوسع أحدهم أن يقاتل، فقد أخفوا بنادقهم أو دفنوها في الطريق، وقد وُجد بعضها فيما بعد. كنا في أعلى التلة نرى كل شيء. طلب أبي مني ألا أنظر وأن أتابع غرس البطاطا كأن شيئا لا يحدث، لكنني لم أستطع الامتناع عن النظر. كان بوسعهم رؤيتنا من الأسفل، لكنهم لم ينظروا باتجاهنا، وربما كنا سنبدو لهم حصانا وبقرة لو انتبهوا لوجودنا. نفدت الغراس وذهب أبي ليحضر المزيد من البيت. كان قويا في تلك الأيام، لا يتأفف من النهوض فجرا، ويستطيع جز فدان كامل من المروج بمنجله قبل أن تتوارى الشمس خلف تلة مورونّي. رأيتُه يوما يمشي ثمانية عشر

ميلا إلى سوق سوانلينبار ليشتري حصانا، وأعرف أنه كان سيقطع المسافة نفسها في طريق العودة إذا لم يوفّق بشراء حصان. لم يكن يتكلم كثيرا، كان جاهلا وفظا، ولا يؤمن بشيء إلّا بالعمل، لكننا لم نجُعْ يوما. كانت أمي المسكينة تطير كالصعوة أو العصفور لتلبية طلباته التي لا تنتهي. ما كان أحد ليطيق شخصا مثله في أيامنا هذه. كان سيسحق لو عاش في هذه الأيام».

شد على قبضته وضربها بإبهامه تأكيدا لكلامه وتعبيرا عن غيظه.

«ألم تكن أمك خائفة وحدها في البيت؟».

«كانت مع جوني تحضر الغراس. سمعا إطلاق النار ولم يعرفا ما الذي حدث، وخافا أن يفتحا الباب لأحد، لكنهما عرفا خطوات أبي في الشارع عندما أتى ليحضر الغراس. وما الذي كان بوسعهما فعله لو لم تكن خطواته على أية حال؟».

«وهل تابعتما الغراس؟».

«وما الذي كان أمامنا فعله غير ذلك؟ لو توقفنا أو هربنا سيشكون بأننا نتجسس عليهم. كنا طوال الوقت نسمع خوار الثور الجريح، وهو يدور مترنحا حول نفسه، وبعد فترة غادروا باتجاه غلاسدروم ورجلان منهم يجران جثة بينهما من ذراعيها. نقلوا الجرحى في شاحنة من غلاسدروم إلى كاريك. كثيرا ما أستعيد أحداث ذلك اليوم في ذاكرتي، كيف تغير مصير ذلك الرتل من الشبان الذين عبروا المستنقع في الصباح خلال لحظات. لم نترك يومها مكاننا أعلى التلة حتى اقترب حلول الظلام. مشينا إلى المستنقع، كأن شيئا لم يحدث، كل شيء كما هو، لم نرَ أيّ طلقة رصاص فارغة. ثم ومن أجمة على ضفة النهر سمعنا صوتا

يهمس كأنه يخاف أن يسمعه أحد: (مرحبا.. مرحبا.. مرحبا..). ضحك جامسي وهو يحاول استعادة ذلك التوتر بين لهفة النداء على أن يُسمع، ورعبه من أن يُسمع. فكرنا بالهروب في الظلام الوشيك. قلنا إنه شبح أحد الرجال القتلى، سمع صوتنا وعرف أني طفل، لكن الصوت عاد لينادي بأعلى ما يستطيع: مرحبا.. مرحبا.. .. مرحبا.. رأس رجل يظهر فوق الماء وسط أجمة الحشائش في النهر. كان الرجل قد اختبأ في النهر، تقدم إلى عمق لا يظهر فيه سوى رأسه واحتمى بالحشائش كي لا يجرفه الماء، ولهذا لم تكشف الكلاب البوليسية أثره، ويقال إن برودة الماء أنقذته من الموت لأنها أوقفت النزيف. ربط أبي حبلا تحت ذراعيه وأخرجه من النهر، وكان علينا أن نربط العربة إلى الحصان الصغير بسرعة، واستطاع أبي بصعوبة رفعه إلى العربة رغم قوته. بقي الرجل الذي عرفنا اسمه، بيغ بيرني، عدة أسابيع في العليَّة خلف مربط الحصان في بيتنا. جاء القس والطبيب لزيارته، وكنا نستخدم سلما لندخل إلى مخبئه. كنت أحمل المصباح للطبيب دولان كي يغير له الضمادات». توقف جامسي فجأة وصاح: «مرحبا.. مرحبا.. مرحبا..» لم يكن في صوته أي أثر لحرارة النداء الموجوع هذه المرة، بل كان صراخا يشبه زعيق طير في أجمة المستنقع.

«فتشوا كل البيوت في قرى الجبال، لكن لحسن الحظ لم يقتربوا من غلاسدروم، ولو أنهم اقتحموا بيتنا ووجدوه في العلية لكنا قد انتهينا. لم يكن بيغ بيرني يتكلم إلا نادرا. اعتدت أن آخذ له الطعام والشراب، وأفرغ وأنظف حوض الغسيل له. ترك له أبي سبحة الصلاة محاولا أن يخرجه من الصمت، لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة. ربما كان يخشى أن يسمعه أحد ما في الشارع. وبعد أن

تحسن واستعاد قواه أتى رفاقه في الليل بعربة تجرها دراجة نارية وأخذوه. بعد ذلك اقتحموا بيت المسكين سينكلير، البروتستانتي الذي يقطن على بعد عدة حقول. عائلة محترمة ومكافحة لا تتدخل في شؤون الآخرين ككل البروتستانت، ولم تكن معرفتهم بأحداث ذلك الكمين تزيد على معرفتنا نحن. فتحت لهم الزوجة واعتقدت أنهم جاؤوا من أجل شراء الحصان الذي نشروا إعلانا عنه في جريدة الأوبزرفر، فأدخلتهم إلى الحظيرة حيث كان تايلر يحلب البقرة. قتلوه بين الأبقار بدم بارد كأنه كلب، وادعوا أنه اعترف قبل موته. أوه يا كيت، نحن بشر جميلون. قتلوه فقط لأن أحدا ما يجب أن يدفع الثمن، ولم يجدوا أقرب من المسكين سينكلير لأنه بروتستانتي. في اليوم التالي اقتحموا كل البيوت، فتشوا بيتنا والعليّة، لكنهم لم يجدوا شيئا. لم نسمع بعدها كلمة واحدة من بيغ بيرني، كلمة شكر واحدة بعد أن عرضنا حياتنا للخطر وهو يختبئ عندنا. منذ تلك الليلة التي غادر فيها بيتنا بعربة الدراجة إلى هذه اللحظة لم نسمع كلمة شكر واحدة، ولا أعتقد أننا سنسمع إلا إذا نهض من قبره. بعد الحرب تحسنت أحواله وأصبح غنيا، وانضم إلى عضوية كل لجان العمل في المقاطعة، وبعد تقدمه في السن صرنا نراه يجلس أمام متجره في الأيام الدافئة. هل تصدقان أنه تجاهلنا؟».

«ألم يكن بوسعك أن تذكره بنفسك؟ البشر ينسون عادة، ويسرون عندما يذكرهم أحد».

«لا أعتقد. كان يعرف بيتنا جيدا. كيف له أن ينسى من أنقذه من النهر واستضافه وأطعمه في العليّة أسابيع؟! لا بأس على أية حال، لا نستطيع أن نترك كلبا أو قطة تغرق في النهر، فما بالك

برجـل جريـح».

غالبـا مـا أرى نفسـي مـع أبي في الربيـع نـزرع البطاطـا ونـرى أولئـك الشـبان يتسـللون في رتـل عـبر المسـتنقع وأفكـر، كيـف لسـاعة واحـدة أن تغـير كل شيء؟! هـذه هـي الحيـاة».

قالت كيت بتمهل: «أجل، هذا كل شيء».

صمـت جامسـي محـاولا الإصغـاء بانتبـاه إلى أصـوات قـرع الطبـول التـي عـادت: «لا أرى طوابـير مـن النـاس تحـاول الخـروج مـن شروهـاون. بـدأت المظاهـرة».

«أليـس مـن الأفضـل أن يضعـوا دميـة ناطقـة تقـول مرحبـا.. مرحبـا.. كل دقيقـة بـدلا مـن تمثـال الجنـدي الحجـري الـذي يطـل ببندقيتـه مـن أعـلى التلـة؟».

«لن يفعلوا ذلك».

«أليس أفضل من التمثال؟».

«ليـس هنـاك طريقـة تجعلـك حتـى أنـت يـا كيـت تسـمعين مرحبـا مـن الحجر».

«كل مـا عليـك فعلـه أن تضـع شريطـا مسـجلا في رأس التمثـال مـع كلمـة مرحبـا تـتردد كل بضـع لحظـات».

«لن يتقبلوا ذلك. سيعتقدون أنك تسخرين منهم».

«ولكن أليس هذا أقرب لما حدث في الواقع؟».

«لا معنـى لهـذا. إنهـم يأخـذون الأمـور بجديـة مفرطـة. سـيطلقون النـار عليـك. تخيـلي كيـف يـأتي السـياح، ينزلـون مـن السـيارات مـع كاميراتهـم، وعندمـا يصـورون التمثـال يسـمعونه ينطـق: مرحبـا! سـيكون الأمـر مذهـلا، فقـط لـو نـرى وجوههـم وهـم يسـمعون التمثـال ينطـق». ضحـك وشرب مـا تبقـى في كأسـه مـن بربـون.

«مــر.. حبــا.. كان في صوتــه فجــوة رهيبــة بــين مــر.. و.. حبــا.. كان المســكين اللعــين يخــاف أن يســمعه أحــد ويمــلأ الرعــب مؤخرتــه مــن ألا يســمعه أحــد! والآن تحــول إلى تمثــال وإلى مظاهــرة في الفصــح». صمــت لحظــة ثــم قــال بتعجــب: «المــوتى يمكــن تحويلهــم إلى أي شيء!».

قال روتلج: «لماذا لا نذهب؟».

عندمــا وصلــوا إلى البحــيرة قــال جامــسي: «رحمتــك يــا اللــه، مــا مــن أحــد عــلى الشــاطئ. في المــاضي كان هــذا الشــاطئ يمتلــئ بالنــاس يــوم الأحــد، بــشر فقــراء وأبريــاء يؤمنــون بــأي شيء بســهولة، ويمكــن لأي شيء أن يســعدهم. لا أحــد الآن ســوى الغواصــين وطيــور التــم».

عــلى جانبــي الطريــق تناثــرت أزهــار الربيــع والبنفســج والفراولــة البريــة والهندبــاء. لم ينتــشر عطــر النعنــع بعــد، لكنهــم رأوا عروقــه الخــضراء تنمــو عــلى الأرض. اقتربــوا مــن أصــوات الطبــول وســمعوا الجلبــة والصفــير. رفــع جامــسي دراجتــه مــن بــين الشــجيرات وســار بهــا عــلى جانــب الممــر، وعندمــا وصلــوا إلى الطريــق الرئيســة رأى ســيارة شرطــة عنــد المنعطــف يتبعهــا مجموعــة مــن النــاس يرتــدون بناطيــل وأحذيــة وقفــازات وربطــات عنــق وقلنســوات ســوداء وقمصانــا بيضــاء ونظــارات داكنــة. في أرتــال ثلاثيــة رفعــوا لافتــات كتــب عليهــا شــعارات وصــور بــيرس وماكديرموتوســاندس عــلى خلفيــات خــضراء وبيضــاء وذهبيــة، ألــوان أضفــت عــلى الصــور تأثــيرا رخيصــا ومشــؤوما بعــض الــشيء. بعضهــم كانــوا نشــطاء محليــين، لكــن أغلبيتهــم أتــوا مــن الشــمال، وفي وســطهم كان جيمــي جــو يمــشي بهــدوء، وعــلى مقربــة ســيارةُ شرطــة ثانيــة تراقــب عــن كثــب.

قــال جامــسي بلهجــة إطــراء: «شيء واحــد لا بــد مــن قولــه حــول جيمــي جــو. إنــه لا يتصــدر في الأمــام أبــدا».

رد روتلج: «ربما يصنعون له تمثالا في يوم من الأيام».

«دائما يلاحقونه، في السجن وخارج السجن، يستدعونه للتحقيق في أي ساعة من النهار، وليلَ نهارَ يراقبه المحققون من الفرع الخاص، لكن لم يحدث شيء خلال كل تلك الأعوام. لا بد أنها مشيئة الله أنه نجا عندما انفجر الشمال بالأحداث».

«هل يعرف أي من هؤلاء المتظاهرين أي شيء عن حادثة الكمين؟».

«لا إطلاقا. كلهم غرباء، ولم يكونوا قد ولدوا وقتها. جيمي جو هو الوحيد الذي يعرف، لكنه لا يبالي بذلك، فكل ما يهمه أن يستغل المناسبة في أمور أكبر. لهذا السبب لن يعجبهم اقتراح الدمية الناطقة، لأنها لا تناسب ما يسعون إليه».

«إلام يسعون؟».

«إلى الاستعراض، لإثارة الناس من أجل قضاياهم».

عبرت سيارة الشرطة الثانية من أمامهم فانتبهوا إلى مجموعة تقف أمام الكوخ عند زاوية الشارع، كان من بينهم باتريك ريان وبيغ ميك مادن، أحد خصوم جامسي القدامى وصاحب الكوخ، ومعهم ثلاثة مراهقين. أشاروا إلى روتلج وكيت وجامسي لينضموا إليهم، لكن جامسي قال: «فليذهبوا إلى الجحيم، لن نذهب إليهم». لكنه تأخر، فقد كان روتلج وكيت يعبران الشارع نحوهم. لم يشأ جامسي أن يبدو وحده في مظهر من لا يريد لقاءهم. ميك مادن رجل ضخم قوي البنية، عمل في شبابه في المصانع وأعمال البناء وعاد في الأربعينيات من عمره إثر وفاة والده. عازف أوكورديون ماهر، استطاع كسب رزقه من العزف في الحانات وحفلات الزفاف إلى أن دفعه الإفراط في الشرب إلى ترك العزف والشرب معا. رغم

عدائيته وتبجحه المستمر كانت تصرفاته مع الآخرين صبيانية. كوخه تقليدي، ثلاث غرف طليت مع الجدران بالكلس الأبيض بينما طليت النوافذ والأبواب بالأحمر. عانق كيت وصافح روتلج بحرارة والتفت بحدة إلى جامسي قائلا: «هل سمعت الوقواق هذه السنة؟».

«لا يمكن سماع شيء هنا في الطريق. السيارات والجرارات تصيب الأذن بالصمم».

كرر ميك مادن الكلمة بسخرية: «الصمم.. البشر وصلوا إلى القمر ويطيرون إلى النجوم، ولدينا هنا من يلصق أذنيه بالأرض في انتظار أن يسمع الوقواق!».

علق باتريك ريان: «وليس طيرا يستحق أن تصغي إليه أيضا، يضع بيوضه في أعشاش غيره، ويضيّع بيوض الآخرين، ويخدع الطيور المسكينة لتضل طريقها، وكل ما يفعله أن يزعق: كوكو كوكوكوكو».

كرر ميك مادن مرة ثانية: «الناس في العالم وصلوا إلى القمر، وهنا لدينا من يتسابق ليكون أول من يسمع الوقواق».

قالت كيت: «أنا أستمع للوقواق كل سنة».

رد ميك مادن: «لا تدافعي عنه يا كيت. أعطي الوغد مساحة إنش واحد وسيبني عشه في أذنيك».

قال باتريك ريان مقلدا في حركة صامتة: «أنا أسمع الوقواق وأصيح كوكو...».

رد ميك مادن: «أحسنت يا باتريك. اكشف أكاذيب أولئك المدعين».

«لا، أنا لا أُخدع. أعرف كل شيء ولا يمكن خداعي».

لم يقل جامسي شيئا غير هذا، فهو رغم سرعة بديهته وطبعه المرح لا يستسلم عادة للاستفزاز، واستطاع أن يُضحك المراهقين الثلاثة بحركات وجهه الساخرة من وراء ميك مادن، الذي اعتقد في البداية أنهم يضحكون من تهكمه، لكن بعد أن ساوره الشك التفت إلى الوراء ليرى جامسي متلبسا بفعلته. قال روتلج: «علينا أن نذهب». ودّعهم باتريك الذي استمتع باللقاء وبالمواجهة المضحكة بين الخصمين ووعدهم بأن يزورهم قريبا. لوّح الصبية بخجل، وودع ميك مادن جامسي برشقة من الشتائم باستمتاع واضح.

في الطريق إلى البحيرة قال جامسي: «مادن هذا عديم الذوق واللباقة. لو كان لديه الحد الأدنى من السلوك اللائق لوجد من يجلس معه على كأس من الشراب في الحانات أو في البيوت، لكن ما من مكان يذهب إليه، يتوارى في منزله وحيدا، لا شيء يفعله سوى إثارة أولئك المراهقين بحكاياته عن عشيقاته السود في إنجلترا. لم يعرف نساء لا هنا ولا في إنجلترا، ولا يعرف حتى مؤخرته».

قالت كيت: «ولكنه لا يزال رجلا حسن المظهر».

«هؤلاء الناس جبناء يا كيت. إنهم فقط يتكلمون، وعند أول تجربة يتراجعون ويهربون. لا شيء لديهم سوى أن يصدعوا رأسك بالكلام».

أراد روتلج تغيير موضوع الحديث: «جون كوين على الأقل ليس جبانا».

رد جامسي متفكرا: «يقال: إن جون كوين لم يصاحب أي امرأة في إنجلترا عندما كانت زوجته على قيد الحياة، وكان يرسل كل بنس يكسبه إليها. لا يمكنك معرفة الناس حقا». كان طوال الطريق من مقبرة شروهاون يصغي إلى لحن حزين على البوق، وعندما

اقتربوا من البحيرة توقف فجأة ورفع يده: «أجل، كان هو الذي تزوجها». تلاشى صوت البوق في البعيد، أخرج جامسي دراجته من بين الشجيرات، ودع روتلج وكيت ثم استدار ومضى.

ارتفعت الشمس فوق البحيرة في سماء لا أثر فيها للغيوم، وترقرق الماء تحت الضوء في كل مكان، كأن السماء كلها ترقص في عيني طفل. توالدت الأبقار وخرجت مع عجولها الصغيرة إلى المراعي. مر موسم الربيع دون خسارات عدا نعجة واحدة تعثرت ولادتها، فمات حمَلها قبل أن تضعه، ثم قتلتها الصدمة قبل شروق الصباح.

زارتهما مونيكا وأخبرتهما أنها تنوي الزواج مرة أخرى. هنّأاها وتمنيا لها السعادة، واتفقوا أن تأتي مع بيتر موناغان لقضاء أمسية معهما. «أردت أن تعرفا قبل الشاه. الله وحده يعلم ما الذي يمكن أن يقوله عندما يعرف. كنت قلقة بشأن الأولاد، لكنهم اعتادوا على بيتر ألان رغم فتور العلاقة في البداية. تعرفت إليه في حفل لفرقة الإنشاد في الكنيسة. سيفقد الشاه المسكين إيمانه بالكنيسة عندما يعرف».

ليس صحيحا أن الإنسان لا يتوقف عن تكرار خياراته في علاقته مع الجنس الآخر، فبيتر موناغان لا يشبه في شيء الرجل الذي أحبته مونيكا سابقا وتزوجته، رجل الأعمال المحبوب، الاجتماعي الذي يسرف في الشرب. بيتر رجل مجامل وخجول، قليل الشرب وخاضع تماما لمونيكا، والشيء الوحيد المشترك بينه وبين مونيكا وبادي جو هو الذكاء. مرت زيارتهما إلى روتلج وكيت بسلام واتفقوا على موعد آخر في بيت مونيكا.

قال الشاه أثناء زيارة يوم الأحد وهو يضع يده على رأس

كلبـه: «يبـدو أننـا سنشـهد حفـل زفـاف قريبـا».

سألت كيت: «أيّ زفاف؟».

«مونيـكا.. ظننـت أنـك تعلمـين. تريـد السـباحة في ذات النهـر مـرة أخـرى. كأن تجربـة واحـدة وأربعـة أولاد لا يكفـون تلـك السـخيفة؟».

«من صاحب الحظ السعيد؟».

«معلـم مسـكين، سـتجعله يفتـح عينيـه عـلى الدنيـا. كانـت قـادرة عـلى رجـل بحجـم بـادي جـو وجيوبـه المليئـة. لقـد حـذره الطبيـب من بدانتـه ذات يـوم: ليـس هنـاك رجـال كـثر في حجمـك». بـدأ جسـمه يرتـج مـن الضحـك وهـو يسـتعيد عبـارة الطبيـب مـما جعـل الكلـب ينبـح. كنـت أعلـم مـا يـدور في رأسـها منـذ تلـك الأيـام في الفنـدق عـلى شـاطئ دونغـال، فهـي ككل عائلتهـا مـن طـرف أبيهـا تحكمهـا هـذه الخصلـة السـخيفة، كائـنٌ جنـسي معتـوه».

قالـت كيـت بحـذر: «مونيـكا امـرأة جذابـة وذكيـة. ومـا المانـع مـن أن تجـد رجـلا تبنـي معـه حيـاة سـعيدة؟ أليـس أفضـل مـن أن تـربي أولادهـا وحدهـا؟».

رد الشاه بصوت مرتفع: «فلتهنأ بذلك».

أزهـرت أشـجار الخـوخ وتلتهـا أشـجار التفـاح ثـم تألـق زهـر الإجـاص الأبيـض، وأتى شـهر أيـار / مايـو بمطـر غزيـر وعواصـف. لـوّن العشــبُ الحقــولَ بالأخــضر الزاهــي، وانــصرف الجميــع إلى اقتــلاع الحشـائش الضـارة مـن بـين الخضـار، وانتـشرت زهـور قفـاز الثعلـب عـلى جانبـي الزقـاق بينـما فاحـت رائحـة النعنـع الـبري النفـاذة عـلى شـاطئ البحـيرة.

تكـررت محـاولاتُ القطـة السـوداء للخـروج مـن المنـزل قبـل أن يُقفـل في الليـل، لتعـود بفريسـتها مـن خـلال النافـذة المفتوحـة

المضاءة، بهدوء أحيانا وبصخب أحيانا أخرى. ازداد نشاط النحل في الخلايا، وأورقت كل الأغصان بكثافة حتى تحولت الأشجار على شاطئ البحيرة إلى جدار أخضر، تبدو البحيرة من خلال فجواته الصغيرة كأنها قطع من السماء، إلا إذا حدق الناظر من خلالها ليرى امتداد الماء إلى الضفة الأخرى. ذهبت كيت في أحد الأيام لتتفقد الأغنام فوجدتها ناقصة. شاة مع حمَلها الأسود الذي ولد متأخرا هذا الموسم. أصغت علها تسمع صوتا أو استغاثة، لكنها لم تسمع شيئا سوى حفيف الأشجار وطنين الحشرات وجلبة الطيور. هبت ريح قوية من صوب البحيرة، حلقت الغربان على مقربة بينما كانت الشحارير تصدر أصواتا صاخبة على الأشجار.

ازداد قلقها وهي تبحث عند الساقية وبين الشجيرات دون جدوى، وعندما كانت تهم بالعودة إلى البيت وجدت النعجة مع حمَلها الأسود في فسحة بين الزهور البرية والشجيرات تجتر بطمأنينة لا تخلو من الحيطة. تشممت النعجة حمَلها لحظات ثم نظرت إلى كيت بتحدٍّ. تأملت كيت المشهد، صورة مجسدة للسعادة، ولم تبرح النعجة مكانها حتى المساء، لكنها لم تقترب من بقية القطيع عندما عادت. ظلت مع حمَلها متلازمين طوال الوقت وعلى مسافة من القطيع. بعلبة دواء كبيرة وجهاز بخ أخضر مَرّ روتلج على الخراف كلها بنفاد صبر بعد أن بللت أصوافها ثيابه. عندما انتهى من بخ الأغنام بالدواء ترك القطيع يخرج لتبدأ جلبة الأمهات والحملان الصغيرة، كل يبحث عن الآخر إلا نعجة واحدة فقط بقيت تصرخ حتى يئست من العثور على حمَلها فاقتربت من البوابة الحديدية. عرفها روتلج، النعجة التي ولدت الحمَل الأسود متأخرة. التقط أنفاسه وتمتم ببعض اللعنات،

وبعد أن بحث عن الحمَل في الأمكنة المجاورة وجده جثة هامدة فوق التبن في المخزن. الحمل الصغير اصطدم بآلة قص التبن وهو يجري وراء النعاج، فسقط على الأرض ومات.

«لدي أخبار سيّئة. مات الحمل الأسود».

جمدت كيت مصدومة: «ما الذي حدث؟».

«قمت برش القطيع بالدواء، وبسبب تأخري كنت مستعجلا فلم أنتبه للحمل. لم أدرك مقدار صغره وضعفه. كان عليّ أن أفكر وأنتبه».

«هذا ليس خطأك».

«كان حظه في النجاة كبير لو أني انتبهت. لسوء الحظ تعثر وسقط. كان بإمكاني أن أخرجه بنفسي وأضعه في مكان آمن».

«سهل أن نقول هذا الكلام الآن. على الأقل هو ذكر ولن نتمكن من الاحتفاظ به وقتا طويلا في كل الأحوال». سمعا صوت ثغاء النعجة، صوت مفجوع بالفقدان يتردد في السكينة من وراء البيت.

قالت كيت: «هي ليست مثلنا على الأقل، ولن يمضي يوم آخر حتى تنساه تماما، كأنه لم يكن لها أبدا».

لم يتمكنا من تبديد غيوم الكآبة التي تلبدت رغم إدراكهما عبثية الإسراف في الانفعال، كأن الحمل الأسود استدعى كل ما في حياتهما من خيبات وفقدان، وجمعهما في آلام مشتركة تفوق في حجمها الخسارة الصغيرة. دخل جامسي دون أن يقرع الباب، اكتفى بأن نادى بصوت خفيض «كله عمل ولا وقت للهو.. خفف عنك وخذ قسطا من الراحة». عندما أصبح في وسط الغرفة، وقبل أن يصل إلى المقعد الكبير تحت النافذة رفع رأسه المحني وقال:

«مـا الأمـر، مـا بكـما؟».

«أخبار محزنة لسوء الحظ».

«ما الذي جرى؟». «الحمل الأسود الصغير الذي وُلد متأخرا..».

«كفّا عـن هـذا. كل مـن يـربي الماشـية يجـب أن يتوقـع وفيـات. هـذا يحـدث دائمـا ولا داعـي لأن تنشـغلا بالأمـر هكـذا. ألقيـا بمـا حـدث وراء ظهريكـما، وإلا فعليكـما أن تـتركا هـذا العمـل نهائيـا، وتعترفـا بأنكـما غـير قادريـن عليـه».

تحـول الحمـل الأسـود بينـما كان جامـسي يتكلـم إلى رمـز للجـمال مـع أمـه فـوق المـرج المشـمس، ولم تعـد لحظـة الجـمال تلـك موجـودة إلا في المخيلـة.

ظهـر عـلى جامـسي أن لديـه مـا يقولـه، وأن وراء زيارتـه أمـرا مـا يؤرقـه. منـذ سـنوات خلـت اعتـاد جيـم أن يـزور روتلـج وكيـت مـع لـوسي والأولاد كلـما أتـوا مـن دبلـن، لكـن الزيـارات قلّـت مـع مـرور الوقـت إلى أن توقفـت في السـنوات القليلـة الماضيـة. لم يحـدث ذلـك بسـبب أي جفـاء أو خـلاف، بـل ظلـت الدعـوات تتكـرر فيـما بينهـم دون أن يلتقـوا، وفـترت العلاقـة مـع مـرور السـنوات. كانـت مارغريـت ابنتهـم الصغـيرة قـد رأت روتلـج في زيارتهـا الماضيـة يشـوي شرائـح اللحـم عـلى المنقـل الحديـدي الـذي صنعـه الشـاه، وهـي تلـح عـلى أهلهـا أنهـا تريـد أن تـرى ذلـك مـرة أخـرى. قـال جامـسي: «إن جيـم ولـوسي مـع الأولاد سـيأتون بعـد أيـام مـن دبلـن وهـم يسـألون إن كان بإمكانهـم المجـيء ليشـوي روتلـج اللحـم لهـم عـلى المنقـل». لم يتمكـن جامـسي مـن مـداراة حرجـه مـن طلبـه فآثـر أن ينهـي كلامـه ويذهـب، إلا أن روتلـج وضـع يديـه عـلى كتفيـه وهـو ينهـض وأجـبره عـلى العـودة للجلـوس في مقعـده.

«سنقيم وليمة».

«هذا كثير، كثير يا روتلج».

«الأفضل أن يأتوا يوم سبت، فالشاه دائما هنا يوم الأحد».

«يمكنهم المجيء في أي من اليومين، لا فرق، فهم سيقضون عطلة الأسبوع كلها هنا. سينزلون في الفندق المركزي، البيت لا يتسع لهم كما تعلم».

تخفف من حرجه وهم يستعيدون ذكريات الزيارات واللقاءات حين كان الأولاد صغارا. رافقاه بعدها إلى البحيرة، وحين نهض مالك الحزين وضرب بجناحيه الهواء ليقوده على طول الشاطئ قال: «لم أكن أود أن أثقل عليكم بطلب كهذا، لكن ماري هي التي دفعتني. قالت: لم لا؟ لا أتذكر أنهما رفضا لك طلبا من قبل. قلت لها: وهذا ما يجعلني أتحرج من الإثقال عليهما. صحيح أن مارغريت طلبت، ولكن لوسي هي التي تلح على زيارتكما في الحقيقة. جيم لا يتحمس لأمور كهذه عادة».

«ما الفارق من الذي يريد؟! هذه فرصة لنجتمع على وليمة عامرة كما نفعل عندما يأتي جوني. إن لم يحدث أي جديد ننتظركم يوم السبت الساعة الثانية».

«هذا كثير.. كثير».

قالت كيت: «جئتنا اليوم كأنك ملاك لتنقذني من كآبتي».

رد جامسي بمرح: «لا عليك يا كيت. ثم ألم تقولي إنك لست مؤمنة؟». «هناك ملائكة أرضية». قال وهو يبتعد بدراجته وراء مالك الحزين: «نعم، دون أجنحة ولا تطير».

عرف روتلج بيل إيفانس من قرعه القوي على باب الرواق، لكنه لم يسمع ضربات عصاه على الأرض ولا صوت جزمته الثقيلة.

وقـف في المدخـل جامـدا وقـد انقلبـت هيئتـه، قـص ومشـط شـعره، ذقنـه حليقـة، يرتـدي بـزّة صوفيـة جديـدة وقميصـا أبيـض مـع ربطـة عنـق بنقـوش بيضـاء وينتعـل حـذاء جلديـا نظيفـا. «أنـت تتألـق!». ضحـك وقـال وهـو يتجـه نحـو الكـرسي الهـزاز الأبيـض: «لا بـأس عـلى أية حـال». ملامحـه الدقيقـة رسـمها الشـقاء عـلى وجهـه بحـدة، لكـنّ عينيـه بقيتـا تحتفظـان بالـبراءة، كأنهـما لا تريـان شـيئا سـوى الـذي أمامـه.

«لم أرك في حلة أبهى من قبل. من أين لك كل هذه الأناقة؟».

«الأب كونـروي أحـضر لي كل شيء. سـأترككم وأذهـب لأعيـش في المدينـة».

«كيف حصل هذا؟».

أجاب بتلقائية: «الأب كونروي».

أعطـاه روتلـج علبـة سـجائر ووضـع إبريـق الشـاي عـلى النـار ليغـلي ثـم أحـضر لـه طبقـا مـن البسـكويت والحلـوى.

«أليس لديك أفضل من الشاي؟».

«أنـت عـلى حـق يـا بيـل، اليـوم مناسـبة خاصـة. لـدي بربـون وبرانـدي».

أجابـه: «برانـدي». كان قـد أشـعل سـيجارة وراح يدخـن بنهـم ويستنشـق بعمـق ثـم يطلـق الدخـان مـع أنفاسـه بتمهـل بعـد أن يحبسـها لحظـات متلـذذا. مـلأ روتلـج لـه حصـة صغـيرة مـن البرانـدي وأعطـاه الـكأس فشربهـا دفعـة واحـدة وطلـب المزيـد. أعـاد روتلـج مـلء الـكأس مـرة ثانيـة وثالثـة ثـم قـال لـه بصرامـة: «يكفـي يـا بيـل. لا يصـح أن يجـدك الأب ثمـلا عندمـا يـأتي باحثـا عنـك». حـاول الاعتراض وطلـب المزيـد، لكـن روتلـج تجاهـل ذلـك وقـال: «أتمنـى لـك حيـاة سـعيدة في المدينـة».

«حظ طيب لك يا جو وليمنحك الرب كل ما تريد».

«هل تعرف ماذا ستفعل هناك؟».

«الكثير.. لدي الكثير لأفعله». توقف فجأة عن الكلام وثبتت نظراته.

«ماذا فعلت بملابسك القديمة؟».

«تركتها في البيت».

«ألن تأخذها معك عندما تذهب إلى المدينة؟».

ضحك بمكر وقال: «لا، أنت فضولي مثل جامسي».

قال روتلج وهو يرافقه إلى البوابة: «هل ستعود لزيارتنا هنا؟».

ضحك كأنه سمع فكرة سخيفة لا يمكن تصديقها: «أوه لا. كل شيء هناك، في المدينة». قال عندما وصلا إلى أشجار جار الماء: «لا تنس أن تسلم لي على السيدة».

«بالتأكيد، سيحزنها فراقك. لن أودعك لأني حتما سأراك في المدينة».

«لا تنس السجائر عندما تأتي».

«لن أنسى».

سار ببزّته النظيفة وحذائه الجديد مبتعدا ببطء نحو البحيرة دون أن يلتفت وراءه. تشابكت أغصان الأشجار فوقه فتحول الزقاق إلى نفق من الخضرة تخترقه فجوات متناثرة من الضوء. توقف في طريقه عدة مرات كأنه يرتاح من ثقل دلوي الماء.

وصل الأب كونروي في المساء، تجاوز الرواق بسيارته ثم استدار بها في ساحة المخزن الذي لم ينته بناؤه بعد ليعود ويركنها عند البوابة. خرج روتلج على الفور لاستقباله. قبل دعوته للجلوس، لكنه رفض تناول الشاي أو القهوة.

«هل السيدة هنا؟».

«لا، لكنها في مكان ما قريب».

تحدثـا عـن أحـوال الطقـس وشـؤون الزراعـة والماشـية. قـال روتلـج: «رأيتـك في سـوق موناغـان. سـمعت أنـك حصلـت عـلى أسـعار جيـدة».

«نعـم، منـذ زمـن لم نـرَ أسـعارا كهـذه. ارتكبـت خطـأ كبـيرا عندمـا اشـتريت بعـض الماشـية». أوضـح الأب بعـد ذلـك كيـف أنـه رآه في السـوق لكنـه لم يسـلم عليـه. قـال إنـه اتخـذ قـرارا بـألّا يسـلم أو يـرد التحيـة عـلى أي أحـد في السـوق، لأنـه لـو فعـل ذلـك لقـضى اليـوم كلـه في تبـادل التحيـات مـع الجميـع هنـاك.

«معظـم رجـال الديـن عارضـوا ذهـابي إلى السـوق ورأوا فيـه أمـرا غـير لائـق. بعـض أولئـك النـاس يريـدون تحويلـك إلى رمـز متحجـر أو مجـرد تمثـال. مـا رأيـك أنـت في الأمـر؟».

«رأيـي واضـح وأتوقـع أنـك تعـرف موقفـي مـن أمـر كهـذا جيـدا. كان بيـل هنـا قبـل بضـع سـاعات، متأنقـا في حلتـه الجديـدة. قـال إنـك اشـتريت لـه الثيـاب الجديـدة».

قـال الأب بنفـور مفاجـئ: «لم أشـتر شـيئا عـلى نفقتـي. لدينـا تبرعـات خاصـة بهـذا الشـأن». «أتمنـى أنَ يكـون سـعيدا في المدينـة». قـال وهـو ينهـض وقـد وشـت ملامحـه بـشيء مـن التـبرم: «كلنـا نتمنـى لـه السـعادة، لكـن مـا سيواجهه في الواقـع أمـر آخـر. أفكـر في بعـض الأحيـان أنـه مـن الأفضـل أن نـترك لهـذه الأخطـاء أن تصحـح نفسـها بنفسـها في خضـم مـا تفرضـه الحيـاة، وأن التصـدي لهـا خـير مـن تأجيلهـا إلى وقـت يتعـذر التعامـل معهـا بشـكل فعـال. سـنرى مـا الـذي سـيحدث عـلى أيـة حـال».

«رغم ذلك، يسعدني أن أراه يأخذ فرصته بصرف النظر عما سيحدث. ماذا بوسع أي منا فعله؟».

نظر القس إلى روتلج وفي عينيه اعتراض صريح، لكنه لم يشأ أن يجادل. «لن يكونوا مسرورين منّي هناك، فهم يدفعون الكثير من المال. الدولة تدفع إلى جميع السكان كل أسبوع».

«قال روتلج بابتسامة فاترة: «لا أعتقد أني أستطيع المساعدة في ذلك».

تم تنظيف البيت وفتحت نوافذه للتهوية استعدادا ليوم السبت. اشترى روتلج كمية كبيرة من شرائح اللحم وجلب ما يكفي من الخس من بيت الخضار الزجاجي. نظف المنقل الحديدي قبل أن يثبته في مكانه. وضعت كيت زهورا جديدة في المزهريات الموزعة في أنحاء البيت، إحداها بيضاء كبيرة وسط المائدة مع زجاجة نبيذ أحمر. وصلوا بعد الثانية بقليل في سيارة بيضاء جديدة اجتازت الطريق المشجرة بمحاذاة الشاطئ، وعكس زجاجها أشعة الشمس عندما انعطفت عند أشجار جار الماء وتوقفت أمام البوابة. ارتدوا كلهم ثياب المناسبات الخاصة عدا ماري التي تبدو دائما بأناقتها الطبيعية كانت في ثياب القداس. لوسي في ثوب حريري أزرق، فوقه شال وحذاء أبيض، وجيم في قميص أزرق تحت سترة بنّية من الصوف الناعم وبنطال فضفاض. ارتدى الأولاد القمصان الزاهية والأحذية الرياضية الرائجة في أزياء جيلهم، لكنهم كانوا على غير عادتهم في حالة من الكآبة والشرود.

«أهلا وسهلا بكم. فرصة رائعة أن نراكم جميعا».

«لطف كبير منكما أن تستقبلانا، لكن ألا تريدان تغيير رأييكما بعد أن رأيتما الحشد كله؟. الجميع كان متلهفا لزيارتكم».

انتبه روتلج وكيت إلى غياب جامسي، وأدركا على الفور أن هناك مشكلة ما، لكنهما تريثا في السؤال، وبعد لحظات انتبها إليه يجلس في مقعد السيارة البيضاء الأمامي مطرق الرأس ذاهلا عما حوله. أوضح جيم: «لم نكن ندري ماذا نفعل، نتركه في البيت أم نحضره معنا إلى هنا.. أمي قالت إنك لن تمانع».

«ذهب إلى القرية بحجة زيارة قصيرة، وفي نهاية المطاف كان على جيم أن يذهب للبحث عنه وإحضاره. لسوء الحظ، عاد إلى البيت في هذه الحالة التي تراه فيها الآن».

قالت لوسي برقة: «عمي دائما يحب أن يكون مختلفا».

قال روتلج: «لم أره من قبل في مثل هذه الحالة سوى مرة واحدة، عندما اشترى الديك الرومي في عيد الميلاد».

«ماذا سنفعل؟».

«لا شيء، دعه في مكانه. إن أحضرناه ربما يقع فوق النار أو يرتكب حماقة أخرى».

دخلوا جميعا إلى البيت حيث وزعت لوسي بسخاء الإطراء على كل من في الداخل. شربت مع جيم نبيذا أبيض مثلجا، ولأن ماري لا تحب النبيذ أعدت لها كيت شرابا كحوليا ساخنا. قالت وفي صوتها غصة: «هل نذهب إليه؟». أوقد روتلج حطب السنديان في المنقل فانضم الجميع ليتفرج على ألسنة اللهب التي عكست ظلالهم على الجدران البيضاء بينما عبقت الغرفة بروائح الفحم المحترق والسنديان. جذبت رائحة اللحم القطة السوداء التي راحت تتمسح بأرجل الأطفال مستجدية. أثارت النار الأطفال وظلوا يراقبونها حتى تلاشت في احمرار الجمر المتوقد. جعلهم روتلج بعد ذلك يساعدونه في وضع شرائح اللحم فوق المنقل

ووزع عليهم أطباقا ليمسكوها له ومهمات أخرى. قال جيم الذي كان ينظر من النافذة إلى جامسي في السيارة: «صديقنا لا يزال نائما»، ثم انضم إلى البقية وهم ينتقلون إلى غرفة الطعام. «هذا عظيم، في منتهى البساطة والروعة».

تتالت عبارات الإطراء والمجاملة على المائدة إلى أن أصبحت محرجة مع التكرار والرتابة. ملأ الأولاد أطباقهم مرة ثانية، وشعر الجميع بغياب جامسي الذي كان حضوره دائما يملأ جلساتهم بالطرافة والمرح. الرجل الذي يحبه الجميع نائم الآن في السيارة، لكنه حاضر رغم ذلك بينهم. قالت لوسي كأنها تتحدث عن أعجوبة: «لقد ترك انطباعا خاصا عند كل من التقى بهم في دبلن. الجميع هناك يسألون عنه ويفتقدونه».

قالت ماري كأنها تحاول التخفيف من شدة الإطراء: «أظن ذلك لأنهم لم يعتادوا على أمثاله، فالغريب دائما يثير الإعجاب. لا بد أن انطباعهم سيتغير لو رأوه في حالته الآن».

قال جيم: «ما تقوله لوسي صحيح. توم موري سكرتير القسم لدينا سألني عدة مرات عنه، وقال إنه يفكر بالمجيء إلى هنا ليراه ويتعرف على المكان الذي يعيش فيه. ينسجم مع الناس بسرعة وتلقائية دون أن يهتم كثيرا بأفكارهم ومعتقداتهم، كأنه يعرفهم طوال حياته». تدفقت من كلماته وإطرائه المتحفظ عاطفة تجاه والديه لم يعتد التصريح بها. لا يزال الوقت مبكرا ليرى كيف ستنضج حساسية وعواطف أولاده عندما يكبرون، لكنه يعرف أن حياتهم ستكون مختلفة، فهم لن يمروا مثله بتجربة اقتلاع جذورهم وإعادة زرعها في تربة أخرى، وأغلب الظن أن القوة التي سيرثونها منه ومن جدهم ستظهر في شخصياتهم بطريقة جديدة.

نهضت لوسي عندما فرغوا من الأكل لتساعد كيت في نقل الأطباق وتنظيف المائدة. «وجبة عظيمة، شكرا يا كيت. كنا ننتظر هذا اللقاء طوال الأسبوع».

قال جيم: «لم أتذوق أفضل من هذه الشرائح من قبل».

كان روتلج يفكر بجامسي. لو كان هنا لما أعجبه جو المجاملات وطقوس الغداء الرتيبة. عندما أحضرت كيت الحلوى والبوظة والشاي انسل خارجا إلى السيارة البيضاء. وجده نائما في المقعد الأمامي، فتح الباب بهدوء ووضع يده على كتفه: «ماذا فعلت بنفسك يا صديقي القديم؟». فتح جامسي عينيه ونظر إليه كأنه غائب في عوالم بعيدة من النعاس والتعب والخدر، ثم أغمضهما من جديد. ضغط روتلج على كتفه وأغلق باب السيارة بهدوء.

سألته ماري عندما عاد كأنها تحدثه عن سر بينهما: «كيف هو؟».

«لا بأس».

«هل تكلمت معه؟».

«لا، ما زال نائما، لكن لا يبدو عليه أنه مريض أو يعاني من أي شيء».

«أي حظ سيّئ! لا أدري كيف ذهب وارتكب هذه الحماقة في هذا اليوم بالذات؟ هكذا يفعل دائما عندما يأتي جوني..». صمتت قبل أن تنهي كلامها ثم استغرقت في التفكير.

قالت لوسي: «عمي دائما مختلف بعض الشيء عن الآخرين، لكنني أعتقد أن ذلك من حقه بعد كل تلك السنين».

«حقه كمؤخرتي».

«أمي، ما هذا؟».

صمتوا وهم يشعرون بأن حضور جامسي طغى على جلستهم أكثر من غيابه، مما دفعهم إلى الإسراع في إنهاء ما في أطباقهم والنهوض. «لا نستطيع التعبير لكما عن شكرنا».

«سررنا كثيرا بزيارتكم».

«عليكما أن تزورانا في دبلن في المرة القادمة، بيتنا واسع وسنقضي وقتا ممتعا معا».

«بالتأكيد، يسعدنا ذلك».

انفجرت مارغريت فجأة بالبكاء بينما كان الآخرون يتبادلون العناق والقبلات وكلمات الوداع. وضع أبوها يده على رأسها محاولا تهدئتها، فاشتد بكاؤها وتحول إلى نحيب. تبعها أخوها وأختها الصغيران، وانهمرت دموعهما أيضا. أخوهم الأكبر جيمس وحده لم يبك، لكن وجهه امتقع وارتعشت شفتاه. تبادل الكبار النظرات والإيماءات، وتوجهوا صامتين إلى السيارة البيضاء حيث كان جامسي في المقعد الأمامي غارقا في نومه.

رأى روتلج وكيت جوني يستريح في ظل أشجار جار الماء متكئا بكل ثقله على الدراجة النسائية وقد أنهكه الطريق الصاعد من البحيرة. لم ينتبه إليهما رغم أنهما كانا على بعد خطوات منه. وعندما رفع رأسه وسوى شعره الأملس فوق جبينه اقتربا منه: «أهلا وسهلا بعودتك يا جوني».

«رائع أن أعود إلى هنا، ويسرني أن أراكما بخير». وقف ينظر إليهما ببزّته الصوفية الزرقاء وربطة عنقه الحمراء، وأكمام بنطاله المرفوعة بملقط صغير، وحذاؤه الذي كستهُ طبقة رقيقة من غبار الطريق. أسند دراجته إلى حائط الرواق واستدار لينظر إلى المخزن. «يبدو أن باتريك لم يأت إلى هنا منذ الصيف الماضي؟».

«سـمعناه يتحـدث كثـيرا عـن ضرورة إنهـاء البنـاء، لكننـا لم نـره خـلال الفـترة الماضيـة. إنـه مشـغول يعمـل هنـا وهنـاك في أمكنـة مختلفـة مـن البلـد».

«هـذا هـو باتريـك». قـال روتلـج وهـو يحـضر زجاجـة روم وشراب التـوت مـن الخزانـة: «كانـت سـنة حافلـة يـا جـوني».

قـدح جـوني عـود ثقـاب بكعـب حذائـه وأشـعل سـيجارة: «نعـم، سـنة حافلـة.. لم تكـن التغيـيرات التـي حصلـت في فـورد سـهلة بالنسـبة إلي. تغـيرت حيـاتي كلهـا، لكنـي لحسـن الحـظ وجـدت عمـلا جديـدا، وأمـوري الآن مسـتقرة. لم يقـصر جامـسي ومـاري، وكانـا -والحـق يقـال- في غايـة النبـل معـي، تمامـا كـما يعامـلان ابنهـما جيـم، وقـد ألحـا عـليّ كثـيرا في أن أتـرك كل مـا في إنجلـترا وأعـود للعيـش معهـما. لا أخفـي عليـك أن الدعـوة أغرتنـي..». نفـض سـيجارته في المنفضـة التي وضعتهـا كيـت لـه عـلى الكـرسي. «أغرتنـي دعوتهـما في البدايـة، لكنـي عندمـا فكـرت في الموضـوع وجـدت أن ذلـك لـن يكـون ملائمـا لي. الناس يسـتقرون في أماكنهـم، ومـع مـرور الزمـن يعتـادون عـلى نمـط حيـاة معـين يصعـب تغيـيره بسـهولة، والـذي يعيـش في لنـدن لا يسـتطيع التأقلـم مـع مـكان مثـل البحـيرة. سـيجده مكانـا خاويـا ومعـزولا عـن العـالم. مـاري وجامـسي، بـارك اللـه فيهـما، نظـرا إلى الموضـوع مـن هذه الزاويـة أيضـا. لـن تسـتطيع العيـش هنـا دون سـيارة، وسـتجد نفسـك كالسـجين تقـضي أيامـك تحـت أشـجار جـار المـاء عـلى تلـة مـوروني لا شيء تفعلـه سـوى أن تتأمـل النهـر الصغـير والمسـتنقع. هـذا مـا قالاه لي، وكنـت أعلـم أنهـما صادقـان، فمـن لي غيرهـما في هـذه الدنيـا! نحـن بحاجـة إلى لحظـات كهـذه نـدرك فيهـا أنـه لدينـا في مـكان مـا في هـذا العـالم أحبـاء مـن لحمنـا ودمنـا، لا يتخلـون عنـا ونسـتطيع العـودة

إليهم في نهاية المطاف. بعد أن عرف سيد سينغ مشكلتي بدأت الحياة تعود إلى مساراتها، وأنا الآن أكسب من عملي الجديد أكثر مما كنت أكسب في أفضل أيام فورد».

أعدت كيت طبقا من الشطائر وقال جوني: «إنه لا يريد المزيد من الروم ويفضل فنجان شاي». ملؤوا فناجينهم من إبريق الشاي الأحمر الكبير.

«وكيف المكان الذي تعيش فيه؟».

«صف من البيوت الفيكتورية القديمة مقابل الغابة اشتراها سينغ وحوّلها إلى شقق للإيجار. كل السكان يعملون في مهن متخصصة. يدخلون ويخرجون كل يوم إلى أعمالهم دون سؤال أو جواب. لدي مدخل خاص إلى القبو المجهز بكل شيء، تدفئة مركزية وهاتف وتلفزيون وحمام».

«وهل لديك عمل كثير؟».

«ما يكفي لملء وقتي. فرغم ذكائهم لا يستطيع أولئك الناس تركيب مصباح أو قاطع كهربائي. أستطيع إصلاح معظم الأعطال، وإن واجهت مشكلة لا أستطيع حلها أتصل بسيد سينغ.

أذهب بعض الأحيان لأتمشى في الغابة، أجلس عند البركة وأتفرج على البط وطيور التم. في الليل أذهب إلى فندق هيتشكوك الذي يملكه صديقي مايك فورلونغ. كلفني سيد سينغ إدارة الإيجارات القصيرة، وحتى الآن لم أرتكب خطأ واحدا لحسن الحظ. أعمال سيد سينغ تطورت كثيرا، وهو الآن يقود سيارة من طراز بينتلي. بعد ذلك رفع لي أجري وقال إنه من الصعب أن يجد المرء في هذه الأيام أحدا يعتمد عليه ويثق به مثلي».

«يبدو أن أمورك تسير بشكل جيد بالفعل».

قال وهو يشعل سيجارة أخرى: «لا بأس. يمكنك القول إن كل شيء سار كما هو مخطط له. أوه، في تلك الأبنية القديمة وضعوا عازلا للصوت رغم أن كل الشقق مفروشة بالسجاد. شقة واحدة فقط لم يعزلوها. أتعلم أي واحدة؟ تلك التي فوق القبو تماما. ساكنها رجل أسود يتقن عدة لغات ويعمل مترجما، طويل القامة ونحيل ولا تنقصه الوسامة، شعره جَعْدٌ يقارب الأربعين من عمره. يتحدث الإنجليزية بلكنة أرستقراطية، ويحرص دائما على ارتداء وشاح أكسفورد. جون كوين نفسه لا يضاهي هذا الرجل في الفجور. يغيب أياما أو أسابيع، لكن عندما يكون في شقته لا تتوقف النساء عن زيارته كأن الحياة ستنتهي غدا. كلهن بيضاوات، لم أره مرة واحدة مع امرأة سوداء، وبسبب رداءة العزل في شقته يمكنك في الليل أن تسمع كل ما يجري هناك بوضوح كأنك تجلس معه. يمكنك أن توقت منبه الساعة على الثالثة فجرا.. آه.. يا إلهي... يأتين إليه في سياراتهن الخاصة أو في سيارات أجرة، وهو لا يخرج لاستقبالهن عادة، لكن لو ترى مشاهد الوداع! لا أملُّ من مراقبة ذلك. زائراته من كل الأعمار، من العشرينيات إلى الخمسينيات، واللواتي يأتين في عطلة نهاية الأسبوع يقضين عنده الليل كله ولا يغادرن قبل ظهيرة اليوم التالي. لا تختلف تفاصيل ما يجري بين امرأة وأخرى أو بين زيارة وأخرى، وما عليك سوى أن تستمع إلى ما يحدث بينه وبين النساء في غرفته».

بدا جوني كأنه يستعيد شبابه وهو ينهض، يزيح سنوات التعب المتراكمة على كاهله ويترك لجسده أن يروي الحكاية. تتحرك يده إلى الخلف فوق كتفه كأنها تسوّي وشاحا ينسدل حول رقبته، ويخطو ببطء ليطوق خصر امرأة بقوة تربك خطواته وتقيد

حركتـه. في لحظـة الـوداع يضـم المـرأة المتخيلـة إليـه في عنـاق طويـل ثـم يبعدهـا قليـلا لينظـر إليهـا متحسسـا فداحـة الفقـدان الوشـيك. يعيـد المـرأة بعـد لحظـات إلى أحضانـه مـن جديـد في عنـاق يسـتجدي منـه عـزاء أخـيرا في محنـة الفـراق التـي لا يقـوى عـلى احتمالهـا. عنـاق يقـف بعـده ليسـوّي وشـاح أكسـفورد عـلى كتفيـه ويراقـب سـيارة تبتعـد عنـه تحـت وطـأة إحسـاس جـارح بالخسـارة، خسـارة كل شيء، الحـب والجـمال والحيـاة.

أنهـى جـوني حكايتـه، انتصـب بقامتـه فجـأة ثـم انحنـى كمـن يـؤدي تحيـة. صفـق روتلـج وكيـت لـه بحماسـة. «باتريـك ريـان كان سـيؤديها بشـكل أفضـل. لكـن ذلـك الرجـل الأسـود يشـبه أبطـال الكاوبـوي. إنـه شـخصية كوميديـة». «لا، أديتهـا بشـكل رائـع». سـأله روتلـج: «هـل تحدثـت معـه؟». «لا، لا نتكلـم إلا إذا حـدث عطـل مـا في شـقته، وهـو يجعلـك تفهـم أنـه يريـدك أن تنـصرف حالمـا تنهـي عملـك». يـتركك ليقـف عـلى النافـذة أو يقـرأ في كتـاب، ويحـرص دائمـا عـلى إفهـام الآخريـن أن لا وقـت لديـه. الأمـران سـيان، فهـو رجـل عـادي في نهايـة المطـاف، ويمكـن محـوه مـن الذاكـرة بسـهولة، ولا يبدو مهتما بمصادقة الرجال على أية حال».

«أنـا مضطـر للذهـاب إلى المدينـة لـشراء بعـض اللـوازم قبـل أن يغلـق السـوق، وكنـت قـد جهـزت المقطـورة قبـل أن تـأتي. هـل تـود مرافقتـي؟».

«لا أمانـع، أخفـف مـن ضجـر بضـع سـاعات عـلى الأقـل. ولكـن مـاذا أفعـل بالدراجـة».

«ليست مشكلة، يمكننا وضعها في المقطورة».

«عظيم، كادت أنفاسي تنقطع وأنا أقود الدراجة حول البحيرة».

لم يتكلما في السيارة، جلس جوني مسترخيا في المقعد الأمامي. لم ينظر إلى أي شيء كانا يمران به، لا إلى أعواد الخيزران وسطح البحيرة الذي كانت تداعبه نسائم الصيف، ولا إلى مالك الحزين الذي خفق بجناحيه ومشى على طول الشاطئ مسافة ثم ضرب من جديد بجناحيه ملتفا في طريق عودته. لم ينظر إلى أوراق الكرز النضرة وسط الخضرة الممتدة ولا إلى الإوز البري وطيور التم في البحيرة. اتكأ برأسه إلى الوراء كأنه يستريح من التعب أو يخلد إلى نفسه في الليل. توقف روتلج عند البوابة المفضية إلى البحيرة، أخرج الدراجة من المقطورة ووضعها وراء العمود الحجري الكبير.

حاول جوني الاعتراض: «كان يجب أن أفعل هذا بنفسي».

«لا عليك، أنت في إجازة وأنا معتاد على المقطورة. ماذا يفعل جامسي اليوم؟».

«أظن أنه عند المستنقع. لا يبقى في البيت أبدا. لو ترى كيف أنبته ماري عندما عدنا من المحطة. قالت إنه تصرف بشكل مخز أمام الأطفال عندما زاروك في البيت. أخبرني جيم بما حدث عندما استقبلني في المطار».

«لم يفعل ما يخزي، لكنه فاجأني».

«دائما يفعل هذا في طريق عودتنا من المحطة. يعود سكرانَ ويحدّق في كل شيء بعيني صقر، حتى ولو لم تنتبه إليه».

«لماذا يخرج عن طوره هكذا؟ هو عادة يتصرف بكياسة أمام الأطفال».

قال جوني متبرما من موضوع الحديث: «جامسي على الدوام لغز لمن حوله».

وصلوا إلى الطريق السريع بعد أن اجتازت السيارة الأزقة

الضيقة، واستعاد جوني شيئا من حيويته وتكلم عن أصحاب المنازل على جانبي الطريق.

«تعرف الناس هنا أكثر مني».

«لم أكن صغيرا عندما هاجرت، وأنصاف الغرباء يمكن أن يعرفوا المكان أكثر من ساكنيه أحيانا».

«هل تشعر بالندم لأنك هاجرت؟».

«أجل، في كثير من الأحيان. كل الناس هاجروا وقتها وأنا لم أتخلف عنهم، رغم أني لم أكن مضطرا لذلك. الحياة ليست كالمسرح، لا يوجد فيها بروفات، ولا يمكنني العودة إلى الوراء في كل الأحوال».

توقفوا أمام بيت الشفاء بين زحام السيارات ليفسحوا الطريق لجرار يمر في الشارع.

«هل يشفي هذا المكان من مرض السرطان حقا؟».

«جرب المرضى كل أنواع الأطباء والأدوية، وعندما يئسوا جاؤوا إلى هنا. يمنحونهم بركات الأدعية ويقولون لهم ما يريدون ويحبون أن يسمعوا. الروح قوة غامضة. ومن يدري؟!».

أخبره روتلج أن بيل إيفانس لم يعد ينقل الماء من البحيرة وأنه انتقل ليعيش في شقة صغيرة في المدينة. رد دون اهتمام كبير: «نعم، كانت الكلاب تحظى بمعاملة أفضل». مرا من أمام سوق الماشية، لكن جوني عاد إلى صمته ولم ينظر إلى ما حوله ولا إلى رَجلي الأمن في الزقاق أمام حانة جيمي جو. أشعل سيجارة عندما توقفا أمام معمل الألبان بينما كان روتلج يحضر عبوات من مستحضرات التعقيم ويضعها في المقطورة.

«هل ترغب في الذهاب إلى حانة لوك، تشرب شيئا وتستريح

بينما أشتري بقية الأشياء قبل أن يغلق السوق؟».

«ما من مكان أفضل وما من رجل أروع من لوك. لم نمر به في طريق عودتنا من المحطة، ومنذ وصولي وأنا أفكر في المجيء إلى هنا. اشتقت إلى هذا المكان».

عثرا على مكان للسيارة مقابل الحانة، وفي الداخل وجدا لوك يجلس على مقعده وراء البار وقد أدار ظهره وهو يشاهد التلفزيون المثبت على رف مرتفع في الزاوية. أخذ وقتا طويلا حتى تعرف إلى جوني، وعندما تذكره مد يده من فوق البار مصافحا: «أهلا بك يا جوني. عودتك إلينا تفرحنا مثل أزهار يونيو».

«يسعدني أن أراك بخير يا لوك».

طلبا كأسي روم مع شراب التوت وبيرة وأعاد لوك النقود التي وضعها جوني على البار. «ضيافة المحل»، «أهلا وسهلا بك في بلدك يا جوني». أوضح روتلج أنه يريد الذهاب لشراء بعض الحاجات وأنه لن يتأخر في العودة. توقع أن جوني سيسر لو تركه وحده يتحدث مع لوك، لكنه فوجئ به يتبعه إلى الشارع. «ألم يكن من الأفضل لك أن ترتاح في الحانة؟». «لا، كنت سأبقى وحدي بعد قليل. سنعود معا». ازدحمت الشوارع بحركة المساء المحمومة والمحلات يغلق بعضها ويستقبل بعضها الآخر زبائن اللحظات الأخيرة. لازم جوني روتلج كظله في المحل الأول متجولا معه إلى أن أنهى جمع ما يريد في السلة فتركه عندها ليدفع الحساب منتظرا عند الباب. لم يعرفه أحد وهما يتسوقان، وفي الطريق إلى المتجر الثاني بدأ يتخلف في مشيه عن روتلج متباطئا وهو يلهث وقد شحب وجهه وتلون بظلال زرقاء. اعتذر وهو يمسح جبينه المتعرق بكمه.

«هل أنت بخير؟».

«لا شيء، ضاق نفَسي لحظات فقط».

«أليس من الأفضل لك أن ترتاح في الحانة بدلا من الجري هكذا في السوق؟».

«وهل ستتذكر أن تمر لتأخذني؟ ألن تنساني في الحانة يا جو؟».

فوجئ روتلج بنفسه يضع يديه على كتفي جوني: «ليرحمنا الرب، لم يحدث أني تركت أحدا ما من قبل في المدينة يا جوني. سأعود حالما أنتهي من التسوق لنشرب كأسين بهدوء. بل سنشرب كؤوسا كثيرة. وجودك معنا فرصة لا تتكرر كل يوم».

عبرا الشارع إلى الحانة بعد أن وضعا ما اشترياه في السيارة. قلق جوني الذي وشت به كلماته، بان صريحا في عينيه وتحول إلى رعب؛ رعب من أن يُترك وحيدا. نظر لوك إليهما بتساؤل وهو يرى عودتهما السريعة، لكنه بلباقة مضيف حانة عريق لم يتطفل عليهما بالسؤال أو يظهر استغرابه، واكتفى بتقريب كأسيهما على البار. جلس بعض الزبائن يشربون على الطاولات، وثلاثة موظفي مبيعات أتوا من المتاجر المجاورة يلعبون لعبة رمي السهام على لوح أسود في الزاوية.

طلب روتلج المزيد من الروم وقرر تأجيل التسوق إلى يوم آخر. جوني الذي استرد حيويته كان يراقب رماة السهام من مكانه على البار، وعندما جاؤوا لتجديد كؤوسهم سأل: «هل بإمكاني أن أجرب رمية يا شباب؟».

«بالتأكيد، يمكنك أن ترمي قدر ما تشاء».

«لا أظن أني سأصيب شيئا. مرة عدت في إجازة الصيف وجربت أن أرمي ببندقية بعد انقطاع طويل فلم أحقق أي إصابة».

أعطـوه حزمـة مـن السـهام المجنحـة، أخذهـا وتوجـه إلى مـكان الرمـي في زاويـة الحانـة. ولأنـه غريـب عـن المـكان توجهـت أنظـار الجميـع إليـه وهـو يسـتعد، حـرك رسـغه متحسسـا شـكل السـهام ووزنهـا ثـم قـام برميـات تجريبيـة سريعـة. بخفـة سـاحرة أصـاب في الرميـة الأولى ثـم في الثانيـة، ومـع تـوالي الرميـات كان يصيـب الهـدف في نقطـة المركـز تمامـا وسـط صمـت الحضـور المترقـب. أنهـى حزمـة الأسـهم ولم يخطـئ الإصابـة إلا مـرة واحـدة انحـرف فيهـا السـهم عـن مركـز الهـدف مسـافة لا تزيـد عـلى سـماكة سـلك كهربـائي. صفـق لـه الحضـور وهـو يجمـع السـهام ويعيدهـا إلى الفتيـان، لكنهم ردوهـا إليه وطلبـوا منـه أن يرمـي مـرة ثانيـة. خـلال دقائـق طـارت السـهام مـن يـده واحـدا تلـو الآخـر وأصابـت جميعهـا نقطـة الهـدف، وعندمـا أعـاد السـهام وتوجـه إلى مكانـه جانـب روتلـج عـلى البـار، صفّـق الجميـع لـه بحـرارة أكـثر هـذه المـرة.

مـد لـوك يـده مهنئـا: «لم أرَ أبـرع مـن هـذا»، واقـترب الفتيـان بوجـوه اختلطـت فيهـا الدهشـة بالإعجـاب: «كـما نـرى في التلفزيـون». أصر جـوني عـلى طلـب المزيـد مـن الـشراب، وشربـوا نخـب تألقـه.

«لا أفهـم مـا حـدث. حتـى في حانـة أمـير ويلـز في لنـدن لم أصـب كـما فعلـت اليـوم. اعتقـدت أني لـن أوفـق حتـى في إصابـة واحـدة. لم تلمس يدي سهما منذ أشهر».

قـال لـوك: «مـا كانـت المهـارة سـتظهر هكـذا لـو لم تكـن لديـك أصـلا».

«لا أدري، جربـت يـداي البندقيـة بعـد غيـاب وأخفقـت. هـذا لغـز محـير، لا أظـن أني أسـتطيع فعـل ذلـك مـرة أخـرى ولـو توقفـت عليـه حياتي».

عندما حان وقت الذهاب كان كل من في الحانة قد بدأ يسأل عن جوني، عن حكايته ومن أين أتى. «لن أودعكم الآن، لا بد أن آتي لأراكم قبل أن أشد الرحال إلى إنجلترا».

«أجل، وستقدم لنا مباراة رمي حقيقية». «رغم أنك ستهزمنا. لو كنت ستبقى هنا لانضممت إلى فريقنا وهزمنا كل الرماة في المنطقة».

رد بتواضع: «قد لا أستطيع تحقيق إصابة واحدة مرة أخرى. شكرا يا لوك».

قال لوك وهو يجمع الكؤوس الفارغة: «بل شكرا لك أنت».

خرج وسط كلمات الوداع والتمنيات بلقاء قريب. تدفقت الحيوية والعافية فيه من جديد، مشى مع روتلج إلى السيارة بثقة، عدا الحانات كان كل شيء مغلقا والمدينة غارقة في السكون والظلام كما تقفر الحدائق العامة آخر النهار. سأل بتهذيب وهما يغادران المدينة: «كيف أحوال عمك؟».

«بخير، كما هو. يداوم على وجباته في الفندق، كأن شيئا لم يتغير في حياته رغم أنه باع الورشات لفرانك دولان».

«لا بد أنه غني جدا الآن. كلهم قالوا عنه مجنون عندما اشترى محطة القطار القديمة».

«أجل، لديه الآن أكثر من حاجته. يحصل بعضهم على أكثر مما تتسع له الحياة أحيانا».

وافقه جوني: «نعم، هذه هي الحكاية».

ترك روتلج الطريق السريع وانعطف في دروب ضيقة تخترق البساتين والحقول باتجاه البحيرة. تقدمت السيارة ببطء تحفها الأغصان المتشابكة حولها وتتساقط الأوراق على زجاجها، وبدت

البحيرة لهما فضاء شاسعا ومفتوحا عند خروجهما من الممرات المعتمة.

قال روتلج: «لن يتأخر باتريك ريان في المجيء عندما يعلم أنك هنا. ربما نذهب معا لنقضي سهرة حافلة في حانة لوك عندما يأتي».

«سيكون هذا رائعا. لوك رجل لطيف ومحترم وأنا أفضل حانته على أي مكان آخر».

قال روتلج عندما وصلا إلى البوابة الكبيرة على الشاطئ: «ما عليّ الآن سوى أن أضع دراجتك في المقطورة وسأوصلك إلى البيت».

قال جوني بحزم: «لا، سيظنون أني أصبحت ضعيفا لو فعلت ذلك. ها هي دراجتي وراء العمود، سأركبها وأسير على مهل، فأمامي الليل كله».

ترك روتلج محرك السيارة يهدر ونزل معه. «هل أنت متأكد من أنك لا تريد أن أوصلك؟».

«نعم، قضينا سهرة ممتعة ومر اليوم بسلام، وأنا الآن أفضل بكثير، وكل شيء عاد إلى طبيعته».

في البيت روى لكيت كيف ألم الرعب بجوني من أن يُترك وحيدا. قالت: «زيارته سببت لي القلق».

«لماذا؟ بسبب ارتباكه؟».

«لا، لأنه لم يكن في صحة جيدة».

«أحتاج إلى نبيذ في هذه الليلة».

أعدت كيت المائدة وأوقدت عليها شمعة. تركت الستائر المفتوحة لظلال الأشجار الضخمة تتسلل مع الضوء المرتعش فاتسع فضاء الغرفة كما في حلم ليضم الأشجار والحقول وضوء

السماء الداكن العميق. كل ما في المكان من أشياء وكائنات لفها الصمت والهدوء وهما يرتشفان النبيذ ويأكلان.

دوى قرع قوي على الباب والنافذة، ارتجت له أركان البيت كأن عاصفة ضربت البحيرة. قفزا من النوم مذعورين وتبادلا نظرة تساؤل قلقة ثم سمعا صراخا وصيحات مرتبكة تقترب. ركض روتلج باتجاه الصوت فرأى وجه جامسي من زجاج الرواق واضحا في ضوء القمر، يضرب بكفه الضخمة النافذة ويحاول باليد الأخرى خلع الباب، والزجاج يكاد يتكسر لشدة اهتزازه. «مات جوني.. جوني مات. مات.. مات.. مات..». استمر جامسي في صراخه حتى بعد أن فتح روتلج له الباب.

«لا يمكن، لقد أوصلته إلى البوابة بنفسي هذا المساء».

«مات. رآه القس والطبيب».

«لا أكاد أصدق. أنا آسف».

«مات قبل الساعة التاسعة. كنت أنا وماري نمشي قرب المستنقع ورأيناه يصل إلى البيت على دراجته. عادت ماري لتحضر له الشاي وقالت إنها وجدته منشرح الصدر وفي مزاج طيب. تحدث عنك وعن كيت وعن سهرتكما عند لوك والوقت الذي قضاه معك في المدينة. تركته ماري يشاهد ميكي ماوس. منذ زمن طويل يحب أن يشاهد أفلام الكرتون. رأيناه بعد ذلك من مكاننا قرب المستنقع يخرج إلى الشارع مرتين، يقف كأنه ينظر إلى أشجار جار الماء على تلة موروني باحثا عن شيء ما. راود القلق ماري فسبقتني إلى البيت لترى إن كان بحاجة إلى أي شيء. سمعت صوت أنين عندما اقتربت من البيت ووجدته مطروحا على الأرض، وعندما لم يجبها خرجت إلى الشارع وصرخت باتجاهي. لم يكن قد

فـارق الحيـاة عندمـا وصلـت، اسـتطاع نطـق بعـض الكلـمات، لكنهـا كانـت مفككـة ومضطربـة. قـال القـس إنـه لم يكـن قـد أسـلم الـروح تماما عندمـا مسـح عـلى رأسـه، وأخبرنـا الطبيـب عندمـا وصـل أن قلبـه توقـف للتـو، وأن ذلـك كان يمكـن أن يحـدث في أي لحظـة». تكلـم جامـسي بسرعـة، ورغـم الارتبـاك والصدمـة تدفقـت كلماتـه كأنهـا تـروي حكايـة رواهـا عـدة مـرات مـن قبـل.

مـد روتلـج يـده: «أنـا آسـف». ضغـط جامـسي عـلى يـده بقـوة أجفلتـه.

«كنـت أريـد إيصالـه إلى البيـت بالسـيارة، لكنـه رفـض وأصر عـلى أن يكمـل الطريـق وحـده».

«أعـرف، أخـبر مـاري بـكل شيء عندمـا كانـت تعـد لـه الشـاي. أكل بشـهية عـلى العشـاء ولم ينهـض حتـى أنهـى كل مـا في صحنـه».

دخلـت كيـت إلى الـرواق واقتربـت منهـما بهـدوء. «يؤسـفني ذلـك يـا جامـسي. ألا تدخـل لتـشرب شـيئا؟».

«لا، عـلّي أن أمـر ببقيـة البيـوت لأخـبر الجـيران». انتبـه روتلـج لحظتهـا إلى سـيارة كانـت تنتظـر تحـت أشـجار جـار المـاء عنـد البوابـة.

«هل يمكننا المساعدة في أي شيء؟».

«لا، لا شيء. لا نسـتطيع أن نجـد باتريـك ريـان. بحثنـا عنـه في كل مـكان، ولا أحـد يعـرف أيـن هـو أو في أي منطقـة يعمـل. قـال بعضهـم إنـه في دبلـن يبنـي بيتـا لعائلـة رينولـد».

«سنكون معكم حالما نرتدي ثيابنا. هل نحضر أي شيء معنا؟».

«لا، كل شيء موجود وجاهز. خذا وقتكما، لا داعي للعجلة».

في الخـارج كان القمـر يـضيء السـماء والليل شـفيفا يكشـف الطريق الممتـدة إلى مـا وراء البحـيرة. قـررا أن يذهبـا مشـيا ولاحـت لهـما في

البعيد أضواء السيارة الصغيرة التي تقل جامسي تتسرب من بين الأشجار على الطريق الصاعدة نحو التلة. انعطفا في محاذاة الشاطئ فأجفل الإوزُ وسبح في الماء باتجاه الطيور المتجمعة على بعضها كعناقيد فاكهة سوداء وسط البحيرة. انتصبت الأشجار كحُراس عمالقة على طول الشاطئ، ملقية بظلالها الطويلة على العشبِ المضاء بنور القمر، فيما داعبت نسمات رقيقة سطح الماء فانسابت عليه رعشات فضية. لم يتحرك مالك الحزين الذي أزعجه مرور السيارة قبل قليل إلا بعد أن تجاوزاه بمسافة طويلة فنهض بتكاسل منتصبا في ضوء القمر ثم خفق بجناحيه واستدار عائدا في الجهة المعاكسة. قال روتلج عندما وصلا إلى البوابة المُفضية إلى الشاطئ: «هنا قال لي آخر كلماته».

كان الشارع الصغير أمام بيت جامسي مزدحما بالسيارات، وانعكس ضوء القمر على الأعمدة الحديدية المنتصبة وراء سور الشبك المعدني وعلى جدران الغرف الخارجية البيضاء. قفص الدجاج مقفل، ورسم الضوء المتسرب من النافذة والباب المفتوحين مستطيلين شاحبين على الأرض. امتلأت غرفة الجلوس بالناس ووضعت صناديق كرتونية فوق الطاولة البيضوية الكبيرة في الغرفة الداخلية بعد أن نُقلت كراسيها. فاجأتهما ماري بملامح سكينة غريبة في وجهها، كأن صدمة الموت قد نقلتها إلى عالم روحي آخر. قالت وهي تصفق بيديها: «مسكين جوني». صافحا المعزين وجلسا. أحاديث وهمهمات خافتة تناهت إلى سمعيهما: «نعم هذا محزن، ولكن لو نظرت إلى الأمر من زاوية أخرى فسترى أنه ارتاح. صحيح أنه لم يكن طاعنا في السن، لكن لا عائلة ولا أولاد ينتظرون عودته. رغم كل الحزن فإن القدر كان رحيما به، ولو

فكرت في الأمر مليا لوجدت أنه ما كان سيختار نهاية أفضل من هذه لحياته. كلنا نتمنى ألا يحدث ذلك، ولكن هل من مفر؟ كلنا سنواجه هذا المصير عاجلا أم آجلا. فليرحمنا الرب». تبع الحديث تمتمات عبرت عن الرضى والموافقة سرت بين الجميع، كأنهم يوافقون على كلام سمعوه مرارا من قبل.

عاد جامسي في السيارة التي انتظرته تحت أشجار جار الماء عند البوابة. كان غاضبا ومتوترا. توجه فور دخوله إلى روتلج فتلاشت الهمهمات والأحاديث الخافتة. «بحثنا في كل مكان وأرسلنا أخبارا في كل الجهات ولم نعثر على أي أثر لباتريك ريان. ما من أحد يعرف أين ذهب».

سأل روتلج: «لماذا تبحث عنه؟».

«هو من يكفن الموتى عادة».

نظر روتلج حوله بقلق. البيت مليء، تجاوز الوقت منتصف الليل ولا يزال المعزون يتوافدون. الصناديق فوق الطاولة البيضوية مملوءة بالطعام والشراب، ومراعاة للتقاليد لا يمكن تقديم أي شيء إلا بعد أن يُكفن الميت ويسجى لتلقى عليه نظرة الوداع الأخيرة. قال: «أنا سأكفن جوني». صمت جميع من في البيت وتوجهت أنظارهم إليه.

نظر جامسي إليه متسائلا: «هل تستطيع فعل ذلك؟».

أجاب محاولا إخفاء قلقه: «نعم، عملت في مشفى عندما كنت طالبا».

«هل أنت واثق؟».

«نعم، خصوصا إن كان هناك من يساعدني».

«أنا أساعدك». أتى الجواب من توم كيلي، أحد جيران جامسي

الذين يعرفهم معرفة سطحية. حلاق يعمل في دبلن وهو هنا في زيارة لأمه التي رافقها إلى العزاء.

قال جامسي: «أنت بحاجة إلى كأس من البربون أولا». ملأ الكؤوس ووزعها ثم وقف ينتظر أن ينتهي الرجال من شربها، كان ذلك طقسا ضروريا لمواجهة مهمة صعبة كهذه. أحضر بعدها صندوقا من الكرتون وأعطاه لروتلج: «جيمي جو قال إن كل ما تحتاجه موجود هنا». ملأت ماري حوضا بالماء الساخن وأحضرت مناشف ومقصا وإسفنجة وشفرة حلاقة وزوجا من الشراشف البيضاء وغطاء وسادة. قادت مع جامسي الرجلين إلى الغرفة السفلية. كان جوني ممددا على الفراش في بنطاله وقميصه حافي القدمين. قالت ماري بشرود: «جوني المسكين». بينما وقف جامسي بجانبها دون أن يتكلم. كان مرهقا ومشوشا. «إن احتجت إلى شيء فاقرع الباب بقوة وسيأتي جامسي إليك».

«هل هناك قطن؟».

«كل شيء في الصندوق».

فتح روتلج الصندوق فوجد فيه كيسا كبيرا من القطن وضمادا أبيض وسبحة وشفرة حلاقة وقطعة صابون. أغلق جامسي الباب وراءه بقوة وهو يغادر الغرفة مع ماري. قال روتلج: «علينا أن ننزع ثيابه أولا». ارتعشت يده وهو يسند الجسد الدافئ واستعاد اللحظات التي جمعتهما في شوارع المساء المزدحمة قبل ساعات قليلة. تذكر كل تلك السهام التي طارت من هاتين اليدين اللتين فارقتهما الحياة الآن. كيف للموت، كيف لهذا الشيء الرهيب التام والنهائي أن يحدث بهذه السرعة؟! انسدل البنطال بسهولة بعد أن رفعا حوضه قليلا. أخرجا من جيوبه محفظة نقود وسكينا صغيرة

ورزمة مفاتيح وسبحة ومشطا وقطع نقود معدنية وقسائم رهان.

حاولا نزع القميص الداخلي الطويل فواجها صعوبة كبيرة. كان جسده ثقيلا ورخوا.

«قصه».

«أليس من الأفضل أن ننزعه كما فعلنا بالقميص؟».

قال روتلج وهو يعطي توم مقصا: «إنه ضيق جدا». وعندما رأى التردد على وجهه المتسائل أضاف: «لم يعد بحاجة إليه».

«لا يمكنك العثور على مقص حاد واحد في الريف. يستعملون المقصات هنا في كل شيء».

تخلصا من القميص القطني بسهولة بعد أن قصه توم، وفعلوا الشيء نفسه مع السروال الداخلي. لم يبقَ على الجسد سوى ساعة فضية ضخمة في المعصم ومضت أرقام الثواني الحمراء فيها بانتظام كقلب آلي ترددت نبضاته في سكون الغرفة. «لم يعد بحاجة إلى هذه أيضا». نزع الحلاق الساعة ووضعها جانبا، لكن وميض أرقامها المتواتر شتت انتباه روتلج فمد يده وقلب وجهها إلى الأسفل في منفضة السجائر الزجاجية الكبيرة. انتبه بعدها إلى جهاز تقوية السمع في أذنيه فنزعه وألقاه جانبا. سدا أذنيه وأنفه بالقطن، وعندما قلباه على بطنه سقط من فمه طقم أسنانه الصناعية.

بدت حرمة حياة الإنسان أكثر وضوحا وحضورا في الموت منها في حياته الطبيعية كلها. رؤية الميت عاريا هكذا تكشف ما كانت ثيابه وشخصيته تخفيانه، وتذكّر بتلك المعجزة الفيزيولوجية التي كانت تتنفس قبل لحظات. ذلك الانسجام التام بين يده وعينه الذي أصاب الكثير من الطيور وجعلها تسقط من السماء كالحجارة لم يكن مصادفة، وها هي تلك اليد تسقط أيضا.

«الأفضل أن نرفعه ونضعه على الأرض».

«هل أنت متأكد؟».

«سنتحرك بحرية أكثر على الأرض، ثم إن علينا أن ننظف الفراش».

رفعاه على شرشف ووضعاه على الأرض. حلق توم ذقن الميت بحركات ماهرة وسريعة بينما كان روتلج يغسل الجسد ويجففه بمنشفة. «هل أقص له شعره؟». «افعل كل ما تراه لازما». تناول توم مقصا ومشطا وأخذ يقص الشعر وهو يشكو من رداءة المقصات، وبينما كانا على وشك الانتهاء فتح باب الغرفة فقفز روتلج وألقى بنفسه على الباب موصدا إياه قبل أن يُفتح على مصراعيه. سمعا صوت اعتذارات تتكرر بشكل محموم وراء الباب، وانتبه روتلج إلى مفتاح من الطراز القديم في القفل فأداره وأقفل الباب.

«كارثة أن يراه أحد ممددا هكذا على الأرض».

«كان علينا أن ننتبه إلى المفتاح منذ البداية».

بدّلا الشراشف وأغطية الوسادات، وبحرص شديد رفعا الجسد الثقيل على شرشف ومدداه فوق السرير. أخرجا الكفن، رداء قماشي ناصع البياض على شكل صدرية بأكمام طويلة نُقشت أطرافها بخيوط ذهبية اللون وثبتت فيها أربطة طويلة. أدخلا اليدين والذراعين في الأكمام ورفعا الجسد كي يتمكنا من تثبيت القماش الأبيض بعقد الأربطة وراء الظهر.

عاد توم إلى شكواه: «إنهم يختصرون كل شيء هذه الأيام. في الماضي كان الميت يحصل على كفن كامل».

«هذا أسهل لنا، ولن يلاحظ أحد الفارق على أية حال. ماذا سنفعل بشأن السبحة؟».

«سنعطيه سبحته الخاصة». وضع توم السبحة بين أصابع جوني قبل تثبيت يديه فوق صدره ثم ردا الشرشف فوقهما. «شارفنا على الانتهاء لم يبقَ سوى إغلاق الفم». أعاد توم طقم الأسنان إلى مكانه ومسح الوجه بالقطن ليسوي ملامح الوجه كي تثبت الأسنان في مكانها. «جيد، تبدو الآن ثابتة». لكن طقم الأسنان انزلق خارج الفم، وتكرر ذلك عدة مرات، بعد كل تثبيت تفشل المحاولة من جديد.

«أعتقد أن صبر الناس قد بدأ ينفد».

«تذكر كلامي، كل ما نفعله سيكون موضوعا للنقد والتمحيص. سيتكلم الجميع باحثين عن أي خطأ أو هفوة فيما نفعل».

عادا إلى المحاولة من جديد، بحرص وببطء يعيدان ما فعلاه مرة تلو المرة، وأصداء التململ ونفاد الصبر تأتيهما عبر الجدران.

قال روتلج: «إن لم تنجح هذه المرة فسآخذ مكانك». وربما بسبب هذا الإلحاح ارتبك توم وانزلق طقم الأسنان من جديد. قال بغضب وهو يعطي مكانه لروتلج: «لا تقلق.. لا تقلق، كل منا سيحصل على حصته من النقاد». نجح روتلج بتثبيت الأسنان وإعادة الفم إلى شكل مستقر باستخدام المزيد من القطن وبالتساهل قليلا في الدقة والتفاصيل.

«أنا فعلت ذلك بشكل أفضل بكثير عدة مرات».

«أعرف، أعرف».

«وجنتاه منتفختان».

«لا بأس، سيفي هذا بالغرض. ألا تسمع أصواتهم في الخارج؟».

«ربما لا تعلم، ولكن تذكر كلامي، سيدقق الجميع في كل شيء ولن يوفروا فرصة لنقدنا. قد تصبح سيرتنا على كل لسان».

«لا تخشَ ذلك، سأتحمل أنا المسؤولية، وستكون أنت في دبلن».

«شئنا أم أبينا سننال الكثير من النقد والتقريع».

انتبه روتلج إلى مدى القلق في صوت توم فاقترب منه وشد على كتفه محاولا تهدئته: «لقد قمت بعمل ممتاز. كلانا فعلنا ما بوسعنا، ولا يمكننا الاستمرار في ذلك إلى الأبد».

رد متشككا: «ربما الأمر ليس بهذا السوء. لا بأس، قد ننجح في الامتحان».

جمعا الثياب والفضلات في أكياس نايلون وأخفياها مع الصندوق الكرتوني في الخزانة ثم أبعدا حوض الماء جانبا وفتحا الباب. دخل جامسي وماري ووقفا صامتين وقتا طويلا ينظران إلى وجه جوني. اقتربت ماري ولمست جبينه الشاحب: «إنه جميل».

قال جامسي بتأثر: «عظيم.. ليس بوسع باتريك أن يفعل أفضل من هذا».

«لم أتخيل أنه كان يملك جسدا بكل هذه القوة».

«أقوى مني وأقوى من أبي. أقوى مني في أفضل أيامي».

صُفّت الكراسي بمحاذاة جدار الغرفة، وأوقدت شمعة فوق طاولة صغيرة مغطاة بقماش أبيض. أُحضرت مزهرية كبيرة مليئة بالأزهار ووُضعت على رف النافذة. دخل المعزون واحدا تلو الآخر، كل شخص يقف قليلا أو ينحني ثم يغادر. جلس كبار السن على الكراسي بمحاذاة الجدار يتلون الصلوات تقودهم امرأة ويرددون وراءها في صوت واحد. وُزعت صينيات كبيرة من الشطائر والمشروبات، بربون وبيرة وبورت وعصير ليمون، وتناوب بعضهم على ملء فناجينهم من إبريق شاي كبير من الألمنيوم. تحولت التمتمة والهمس بالتدريج إلى كلام صريح، واستعادت الأصوات

ثقتها وتلقائيتها في أحاديث تناولت في البداية حياة الراحل ثم انتقلت بعد ذلك إلى شؤون الحياة والهموم الشخصية. بعض المدخنين أطفؤوا سجائرهم وهم منهمكون في الحديث في علب وزجاجات البيرة الفارغة فأصدرت نشيشا يشبه طنين الدبابير بينما تجمع بعضهم في الخارج في رطوبة الليلة المقمرة يثرثرون ويضحكون.

عندما بدأ ضوء القمر يشحب مع بزوغ الفجر وصل باتريك ريان فجأة ووقف في مدخل البيت، شبح يرتدي بزّة رسمية وربطة عنق سوداء عقدت بمهارة فوق قميص ناصع البياض، حليق الذقن وشعره الرمادي الكث ممشط بعناية.

«أنا آسف.. آسف..».

«لا بأس. لا بأس يا باتريك. بحثنا عنك في كل مكان».

«وحالما وصلني الخبر ارتديت ملابسي وجئت». بخطوات بطيئة توجه إلى الغرفة السفلية، رسم علامة الصليب ووقف وقتا طويلا ينظر إلى جوني، ثم اقترب منه ولمس جبينه ويديه في وداع بطيء متجهم .

عادت جلبة الأحاديث والضحك التي خفتت عند وصوله، وعندما خرج من الغرفة أظهر تبرمه بحركات نزقة، لم تفلح في إعادة الصمت مرة أخرى. قدموا له طبق شطائر فأشار بيده رافضا، كأنه يريد أن يقول: من يقدر على الأكل في لحظة مهيبة كهذه؟! لكن عندما قدم جامسي إليه كأسا كبيرة من البربون، تقبلها بحركة لا إرادية، كأن اليد التي امتدت وقبضت على الكأس لم تكن يده. سأل: «من الذي كفنه؟».

أجاب روتلج: «أنا كفنته».

«كان يجب أن أعلم».

همس توم إلى روتلج: «ألم أقل لك؟ وصل النقاد».

أشار باتريك إلى روتلج أنه يريد التحدث إليه على انفراد في الخارج.

وقفا بجانب النافذة حيث كان بإمكانهما رؤية باقة الزهور الكبيرة والشموع وجوني الممدد على بياض السرير. «لماذا لم تنتظرني؟ هل عجزت عن الصبر إلى هذا الحد؟».

«لم يتمكن أحد من العثور عليك. بحثوا في كل مكان، ولم يكن بوسعهم الانتظار أكثر».

«ألم يخطر لهم أن خبرا مهما كهذا لا بد أن يصلني أينما كنت؟».

«لم يكن لديهم أي علم عن مكان وجودك، وبعضهم قال إنك في دبلن وإن الجنازة ستنتهي قبل أن يصلك الخبر».

«أظن أنه ذلك الحلاق السمج الذي ساعدك».

«توم كيلي ساعد قدر استطاعته، وأنا أتحمل مسؤولية أي خطأ».

قال باتريك بمرارة: «كان علينا أن نمنح ذلك الرجل المسكين أقل ما يستحق منا، أن ندعه يرحل بمظهر لائق على الأقل».

«لم يبدر من الناس أي ملحوظة».

«الناس لا يعرفون. إنهم لا يهتمون بشيء سوى ملذاتهم وملء بطونهم. لكن أصحاب الشأن يعرفون.. أنا أعرف..». صمت قليلا ثم أضاف كأنه يتبرم من أفكاره وهواجسه: «على كل حال لا فائدة من الكلام الآن. قضي الأمر وانتهى كل شيء. سأزورك في الأسبوع القادم لنرى ماذا سنفعل بذلك المخزن.. يجب أن ننتهي من البناء. تأخرنا كثيرا وما عاد بوسعنا تأجيل ذلك».

توقف الناس عن التوافد إلى البيت وبدأ المعزون بالمغادرة. لم يبقَ سوى قلة ممن يريدون ملازمة الميت طوال النهار. أخبرت كيت روتلج أنها جاهزة للعودة إلى البيت. ذهبا سوية لإلقاء نظرة الوداع على جوني. بدت لهما الغرفة الصغيرة بسكونها وشموعها وزهورها وبياضها مع المصلين على الكراسي جميلة.

نظر روتلج إلى وجه جوني مليا وفكر أنه لا يمكن أن يكون في وضعية أفضل رغم كل ما قاله باتريك ريان. أصر جامسي وماري على مرافقتهما إلى البحيرة، وما إن داعبت نسائم الصباح الباردة جسديهما بعد أجواء البيت الخانقة، حتى سرى التعب وإرهاق الليل في أعضائهما كالخدر.

«أليس متعبا أن تمشيا كل هذه المسافة؟».

«لا، نحن بحاجة لاستنشاق هواء نظيف. أمامنا يوم طويل، ولا بأس أن نبتعد قليلا، فكل شيء سار بشكل جيد».

«باتريك ليس راضيا عما فعلناه».

«لا تبالِ بباتريك، كلنا نعرفه جيدا. لن يرضيه شيء حتى لو أتت السماء ذاتها إليه. الجميع قالوا إن جوني بدا جميلا وفي مظهر لائق. ما من أحد لم يقل ذلك».

قالت ماري وعيناها تبرقان: «بصرف النظر عن كل ما يقول الناس -بمن فيهم باتريك ريان- فإن جامسي هو الأفضل».

ابتسمت كيت موافقة: «جامسي حالة خاصة».

«ربما لست الأسوأ بينهم على أية حال. يجب أن نبدأ بحفر القبر عند الظهيرة».

«هل تريدني أن أحضر أي أدوات؟».

«سيكون هناك الكثير منها، لكن أحضر معك الرفش الفولاذي الحاد وذلك المعول الجيد الذي لديك والمجرفة أيضا».

«أتظن أن جيمي جو ماكيرنان سيأتي مع سيارة النعش أم أنه سيرسل أحد رجاله؟».

«ربما يرسل أحدا، لكنك لا تستطيع التكهن بشيء معه، فهو مشغول بمتاعب السياسة ولا أحد يعرف بماذا يفكر، رغم أنه هو من أعطاني الصندوق الكرتوني والكفن».

توقفوا عند شاطئ البحيرة. قالت ماري وهي تعانق كيت: «شكرا لكل ما فعلته من أجلي».

«لم أفعل شيئا. كنت سعيدة أن أقف إلى جانبك».

قال جامسي: «الأولاد لن يأتوا، فهم لا يعرفون جوني جيدا، لكن جيم ولوسي سيصلان من دبلن هذا الصباح».

«نراكم قريبا».

«ليحفظكما الرب».

كسا السديم الأبيض الصباح بغشاوة رقيقة فتراءت لهما الأشجار كأطياف تمتد على طول الشاطئ بينما تناهت جلبة الإوز من مكان ما وسط البحيرة. نهض مالك الحزين بكسل وخفق بجناحيه متقدما على طول الشاطئ ثم قفل عائدا ليختفي في السديم الأبيض. لم يتكلما تحت وطأة التعب وسيل الأفكار والمشاعر بعد ليلتهما الطويلة. سألت كيت عندما اقتربا من البيت: «كيف شعرت وأنت تكفن الجسد الميت؟».

«لا أدري بالضبط، لكنني أشعر بالارتياح لأن ما قمت به حول الموت، والخوف من الموت أمر طبيعي وعادي. وأنت ماذا فعلت؟».

«ساعدت ماري في تحضير الشاي والشطائر وتقديم المشروبات. أرأيت مغامرة أكثر بهجة من ذلك؟».

اهتز جسد روتلج في ضحك صامت كأنه نسخة أخرى أكثر شبابا ورشاقة من عمه. قرر وهما يصعدان التلة باتجاه البيت ألا يخبرها أن باتريك سيأتي الأسبوع القادم كي يكمل بناء المخزن.

انضم بيغ ميك مادن إلى جامسي وباتريك ريان وروتلج للمساعدة في حفر القبر. بحثوا عن قبور العائلة بين الشواهد والعشب الطويل بجانب جدار الدير. وجدوها عند صليب معدني صدئ داخل إطار دائري، كان حداد قد صنعه منذ زمن بعيد، ولا تزال آثار مطرقته واضحة على الصدأ. قاس باتريك ريان القبر بشريط قياس بعد أن أزالوا العشب، وغرس أوتادا صغيرة في مواضع الزوايا. الرجال الأربعة الذين شاهدوا المظاهرة من التمثال إلى مقبرة شروهاون في عيد الفصح باشروا الحفر بينما كانت أبقار القس ترعى العشب بين أطلال الدير القديم.

غارت الحفرة في عمق الأرض بسرعة في البداية، لكن الحفر تباطأ مع ازدياد العمق وبات عليهم التوغل في الأرض القاسية بوصة بوصة، وإخراج التراب بالرفش والمجرفة. تناوبوا على الحفر وازداد كلامهم وسط طنين النحل حول البرسيم والأزهار الصفراء القريبة. في البعيد تلونت الجبال وراء البحيرة بغلالة زرقاء كانت تتلاشى لحظات كلما مرت سيارة أو شاحنة على الطريق القريبة مثيرة الغبار حولها. كان ظل جدار الدير يقترب من حفرة القبر كلما تقدم الوقت وهم يحفرون. قال باتريك ريان: «في الماضي كان هذا المكان يعج بالرهبان. يقال: إن خلافا دب بينهم بشأن الكتب المقدسة وإنه كان بعضهم يضرب بعضا بالسياط».

قال بيغ ميك: «كانوا يستعبدون الناس ويحكمون الريف كله من هنا. لو تجرأ أحد على مخالفة قوانينهم لحاكموه على الشاطئ ورموه في البحيرة بعد أن يعلقوا صخرة في رقبته».

نظر روتلج إلى أطلال الدير القديم وبقايا الحجارة وخطوط البناء بين العشب حيث ترعى أبقار القس ثم قال: «لقد مضى ذلك الزمن».

أجابه باتريك ريان: «وما أدراك يا بني؟! لم يتغير شيء سوى أن الأمور أصبحت أكثر مخادعة، وأن من يحكم اليوم أكثر ذكاء. عليهم أن يتبعوا طرائق أكثر خبثا لأن الناس اليوم لديهم معلومات عن كل ما يجري حولهم».

تعثروا وهم يحفرون ببقايا لوح خشبي مهترئ يغطي جمجمة وبعض العظام. جمعها جامسي في كيس بلاستيكي. «أمي مدفونة في جهة القرية من المقبرة، ويبدو أنني سأدفن مع أبي عندما يحين دوري».

«ليرحم الرب موتانا». «ليرقدوا بسلام».

«آمين».

قال بيغ ميك: «قبر أبي هناك». أشار إلى صليب حديدي صدئ آخر في إطار دائري، لا يزال يحتفظ ببقايا نقوش تشبه الزهور. تكلم ببساطة وهدوء وهو ينظر إلى جامسي كأن كل ما يحمله من عدوانية تجاهه تلاشى في لحظات: «احتضر يومين كاملين قبل أن يموت».

رد باتريك ريان: «نعم، أذكر ذلك جيدا. أبوك جون ميك كان رجلا ضخما لكنه طيب وغير قادر على إيذاء طفل. لازمته طوال ليلتين أثناء احتضاره. اجتمع الكثير من الناس حول منزله، وظل

يعاني من سكرات الموت ويتلعثم بالكلمات بين نفس وآخر».

«أذكر ذلك جيدا. عدت من إنجلترا في الليلة التي مات فيها».

توقفوا عن الحفر عندما اصطدم الرفش فجأة بصخرة، وبينما كانوا يجرفون التراب فُتحت بوابة المقبرة ودخل جون كوين وهو يحمل رفشا على كتفه. ضحك باتريك ريان وهو يراه يقترب منهم. «لا أحد يمكنه التفوق على جون كوين، يأتي متأخرا بما يكفي ليتجنب العمل ومبكرا بما يكفي كي لا تفوته دعوة الشرب في القرية».

اقترب من جامسي ومد يده مصافحا: «وصلني الخبر متأخرا. آسف يا جامسي، أحزنني رحيل جوني الطيب، أفضل الرجال الذين عاشوا في هذه المنطقة. أنا حزين جدا يا جامسي».

«أعرف ذلك يا جون، أعرف جيدا».

صرخ باتريك ريان فجأة: «انظروا ماذا فعلنا! حفرنا القبر بالعكس، الرأس في مكان القدمين. انتابني الشك أن هناك خطأ ما منذ أن عثرنا على الجمجمة والعظام. أخطأت في تحديد القياس، وعلينا الآن أن نزيد عرض الحفرة من جهة الرأس».

عادوا إلى الحفر من جديد. انضم إليهم جون كوين مع رفشه وهو يرد على مزاحهم وسخرياتهم من نسائه بمزيج من التبجح والتملق والفكاهة. فرغوا من الحفر وجمعوا أدواتهم وأشياءهم استعدادا للعودة إلى القرية، فوفق التقاليد يجتمع الرجال الذين حفروا القبر بعد إتمام عملهم لتناول الشراب.

سأل روتلج باتريك ريان: «هل ثمة فارق كبير في أن يكون رأسه في القبر من جهة الغرب؟».

«الفارق كبير يا بني».

«كيف؟».

«لا بد لرجل متعلم مثلك، أمضى سنوات كثيرة من حياته في المدارس أن يعرف».

«العالم مليء بأمور لا أعرفها».

«يرقد ورأسه في جهة الغرب كي يواجه الشمس المشرقة عندما يقوم». نظر باتريك ريان في وجوههم ثم انتصب بقامته وفتح يديه بانفعال مواجها جهة الشرق: «ننظر إلى قيامة الموتى».

كان ظل جدار الدير قد غطى القبر وقتها، لكن نافذة مضيئة انفتحت غربا وانبعثت منها موجات متلاحقة من النور في السماء نحو الجهة التي تشرق منها الشمس.

قال جامسي بينما أحنى روتلج رأسه: «لا يفوتك شيء يا باتريك».

في تلك الليلة توجه روتلج وكيت إلى شاطئ البحيرة لينضما إلى الجنازة وراء سيارة النعش. وجدا عددا كبيرا من السيارات مصطفة وراء بعضها فركنا السيارة وتابعا الطريق مشيا إلى بيت جامسي. فوجئا وهما يصعدان التلة بأعداد هائلة من السيارات اصطفت في الحقول على جانبي الطريق.

قالت كيت: «لم أرَ جمعا بهذا الحجم في حياتي».

«جامسي وماري محبوبان جدا من الجميع. الأمر لا يتعلق بجون كوين نفسه، فقد مضى زمن طويل على هجرته».

تملكهما عند بوابة البيت إحساس مفاجئ بالرهبة. سيارة النعش السوداء اللامعة أمام البيت وسط فوضى من السيارات التي تحاول الاصطفاف وراءها في رتل يمكن أن يلتف من زقاق خلفي ليعود باتجاه البحيرة. ضجيج وحركة مضطربة تتعثر فيها

السيارات بعضها ببعض، وصراخ ودخان ينبعث من المحركات. نزل جيمي جو ماكيرنان من سيارة النعش ووقف في الزقاق يراقب الفوضى والضجيج صامتا، تطغى البساطة والتواضع على مظهره رغم زيه الرسمي، البزّة والقميص الأبيض وربطة العنق السوداء.

لمح جامسي روتلج وكيت فأسرع إليهما يربكه الانفعال: «جيمي جو أتى بنفسه، لكنه أخطأ في الموعد ووصل في السادسة بدلا من السابعة. ليس أمامه سوى أن ينتظر». تحركت سيارة النعش واقتربت ببطء من باب البيت متجاوزة سور الشجيرات الصغيرة ومشاتل البصل والبقدونس. اقترب البغل من البوابة الحديدية كأنه يتفقد السيارة السوداء اللامعة بينما توقفت الدجاجات في القفص عن النقر لحظات محدقة بعيون صفراء إلى جهة الضجيج قبل أن يستأنفن نبش التراب من جديد.

قال جامسي: «كنا نبحث عنك منذ أن وصل جيمي جو مبكرا. نريدك أن تبقى معه في الغرفة العلوية حتى يحين موعد الانصراف».

أجاب روتلج معترضا: «يجب أن تعلم أني لست على علاقة طيبة بجيمي جو أو بحركته».

«لا يهم، أنت تستطيع التحدث معه على الأقل، لا نريد له أن ينتظر مع الآخرين».

«لما لا تفعل ذلك أنت أو جيم؟».

«لا، لدينا ما نفعله هنا».

قال بلهفة من وجد حلا في لحظة إلهام مفاجئة: «باتريك ريان.. لن تجد أفضل منه فلا شيء سيسعده أكثر من قضاء الوقت في تسلية جيمي جو ماكيرنان».

قال جامسي بعناد: «لا، لا، ليس من السهل احتمال وقاحة باتريك. جيمي جو لا يحب الثرثرة ولن يصعب عليك فعل ذلك. قولي له يا كيت».

«لا علاقة لي بالأمر يا جامسي».

«صدقني الأمر سهل جدا ولن يصعب عليك. سيكون هناك بربون وكل ما ترغب فيه».

لم يجد روتلج أمامه سوى أن يرفض بشكل قاطع أو يقبل فورا، لكنه لم يشأ أن يرفض لجامسي طلبا في يوم كهذا.

في الغرفة العلوية وُضعت زجاجة بربون جديدة مع إبريق ماء وليمون وكؤوس على الطاولة إلى جانب السرير بينما توقفت ساعات الحائط. لم يجتمع الرجلان بمفردهما من قبل، ومنذ أن باعهما جيمي جو الحقل عند البحيرة قبل سنوات لم يتجاوز الحديث بينهما المجاملات كلما التقيا مصادفة. كان يراه في الطريق أو في الحانات يبيع جريدة أنفوبلاتش. بعض الناس كانوا يشترون الجريدة بدافع التعاطف والتأييد، وبعضهم كجامسي بدافع المجاملة والرغبة بإرضاء الجميع، لكن الكثيرين مثل روتلج كانوا يُعرضون عنها بسبب مواقفهم المناهضة للعنف وأهدافه. كان يبيعها بكياسة ولباقة، يقدم الجريدة لمن يشتري ويأخذ النقود مع ابتسامة أو إيماءة شكر، ويحيّي من يرفض بانحناءة خفيفة ويمضي بصمت. بادر إلى الحديث بعد أن أُغلق باب الغرفة عليهما وتصافحا: «أخطأت في الموعد. ظننت أن الجنازة تبدأ في الكنيسة عند السادسة». «يعتقدون أنك أكثر أهمية من أن تجلس تحت مع الآخرين، ولسبب ما كلفوني مجالستك والاهتمام بك».

رد وهو يضحك: «اعتدت على اهتمام الآخرين بي.. تغيرت

الأحـوال منـذ أن اشـتريت تلـك الأرض عنـد البحـيرة».

قال روتلج وهو يقدم له البربون: «تغيرت أكثر بالنسبة إليك».

خلال السنوات الماضية ارتبط اسم هذا الرجل بتفجيرات حدثت في بعض المدن وبتصنيع ونقل القنابل وبجرائم قتل وملاحقات وتحقيقات وإعدامات. أن يرفض هذا الرجل ذاته البربون الآن بكل هذه الكياسة واللباقة، أمر لا بد أن يفاجئ أي أحد سمع ما يكفي عنه من قصص وأخبار ليرسم له صورة أخرى. صورة تتقبلها المخيلة بسهولة أكثر، رجل يضرب عن الطعام ويمضي إلى النهاية بعزيمة لا تلين.

«ابتعدتُ عن الاجتماعات والعمل المباشر مع الناس. في وقت ما أصبح عمل كهذا أكبر من طاقتي. وبصراحة لست نادما».

«هل ترغب بكأس ماء أو ليمون أو فنجان شاي؟».

«شكرا، لا أريد شيئا».

قال روتلج بدافع المجاملة والرغبة في كسر الصمت أكثر من الفضول أو البحث عن أجوبة: «لا بد أن الأوضاع في سجن لونغ كيش كانت صعبة».

«لم يكن مخيم ترفيه على أية حال».

كان قد قاد عملية فرار من السجن أصيب فيها بذراعه وأصر على الاستمرار رغم محاولة رفاقه ثنيه عن ذلك، وتحولت قصة مشاركته في العملية فيما بعد إلى نشيد يُغنّى في الاجتماعات.

«ظن الجميع أنك مشغول ولن تتمكن من المجيء. توقعوا أن ترسل أحدا نيابة عنك مع سيارة النعش».

قال بثقة وحذر بعد أن شعر أن المحادثة بينهما أصبحت أكثر صعوبة وارتباكا: «اعتدت في أغلب الأحيان أن أرسل أحدا، لكني

فكـرت أن الخـروج إلى النـاس قـد يريحنـي».

الأصـوات الآتيـة مـن الخـارج وغـرف البيـت الأخـرى مـلأت فـترات الصمـت بينهـما. أحاديـث وكلـمات ترحيـب وتعزيـة، قـرع كـؤوس وضحـكات، وفي الشـارع همهمـة النـاس المتجمعـين وضحكاتهـم المتفرقـة ووقـع الأقـدام التـي تدخـل وتخـرج.

«ماذا تفعل في البيت والحقل؟».

«المعتاد، بعض الأبقار والأغنام..».

«وهل يكفي ذلك للمعيشة؟».

«ربمـا اسـتطعنا تدبـر أمورنـا لـو كنـا مضطريـن، لكـن لـدي دخـل مـن عمـل إضـافي آخـر».

«أي عمل؟».

«عمل كتابي».

«وهل هذا العمل شاق؟».

«شاق بما يكفي. أجد العمل في الحقول أكثر متعة».

«هل الهدوء والطيور هناك تناسب هذا النوع من العمل؟».

أجاب روتلج بسخرية لا تخلو من مرارة: «لا، كل ذلك لا يفيد».

«ماذا تفعل هناك إذن؟».

«هـل تقصـد لمـاذا لا أنتقـل إلى مـكان قريـب مـن مجـال عمـلي؟ نحـن نعيـش هنـا، عـلى أنـه مـكان للسـكن مثلـه مثـل أي مـكان آخـر. لقـد سـألتني عـن الطيـور مـن قبـل عندمـا التقينـا أول مـرة ونحـن نبحـث عـن بيـت لنشـتريه».

«لا أذكـر. سـمعت أن عمـك لا يـزال يواظـب عـلى زيارتـك كل أسـبوع؟».

«يزورنا كل أحد منذ أن انتقلنا إلى هنا».

«يعجبني الشاه. صحيح أنه لا يدعمنا كثيرا، لكنه لا يقف في طريقنا أيضا. يتعامل مع مشكلات الحياة ببساطة».

تحول الحديث بالتدريج إلى موضوعات أخرى أقل حرجا وإلى الراحل، كيف كان يأتي كل سنة في إجازة الصيف منذ هجرته إلى إنجلترا. أحاديث سهلة توقع روتلج أن تمضي بيسر بما تبقى من وقت اللقاء، لكن جيمي جو فاجأه بسؤال: «لا يبدو أن لديك أي اهتمام بقضيتنا؟».

«لا، أنا لا أؤمن بالعنف».

«لا تؤمن بالحرية إذن؟».

«بلدنا حر».

«جزء منه ليس حرا».

«هذه مشكلة ذلك الجزء، وأعتقد أن ذلك ليس من شأننا».

«أنا أرى الأمور بطريقة مختلفة. أعتقد أن هذه القضية تقع في صلب شؤوننا».

لم يرد روتلج. أي جدوى من رجل مثله لا يقود جماعة ولا ينتمي إلى أي حزب من وجهة نظر رجل ملتزم بقضية. وبالنسبة إلى جيمي جون نفسه، فقد لا يبدو له الآن أكثر من أحمق يصغي إلى غناء الطيور على شاطئ البحيرة. نظر إلى ساعته بعد فترة صمت وقال: «يمكننا أن نذهب الآن». أجابه جيمي جو: «أجل، يمكننا أن نظهر من مخبئنا الآن». فتح روتلج له الباب ووقف جانبا.

عندما دخل إلى الغرفة السفلية خفتت الأصوات فجأة وتحولت إلى همسات، ونهض باتريك ريان مستقبلا إياه بحرارة، لكن عندما انتبه إلى أن روتلج لا يتبعه ترك باتريك وعاد إليه ليشكره على

مرافقته. خرج بعد ذلك باتريك مع جيمي جو لنقل النعش إلى السيارة. فرغ البيت وأُقفلت أبوابه وبدأت امرأة تتلو صلوات انضم إليها الناس تدريجيا وما لبثت أن انتقلت بينهم لتصل إلى أفواه المنتظرين عند سياراتهم في الحقول. حمل جامسي وجيم وباتريك النعش وتقدموا به في ممر المدخل نحو السيارة بصعوبة يساعدهم جيمي جو في المناورة في الممر الضيق. وراءهم مشت ماري ولوسي ذراعاهما متشابكان. لم يبكِ أحد حزنا أو غضبا، وجْهُ جامسي كان متوترا، ووحدها ماري بداَ الحزن جليا عليها.

جلس باتريك ريان متجهما في المقعد الأمامي إلى جانب جيمي جو في سيارة النعش. تقضي الأعراف أن يرافق جامسي أخاه في رحلته الأخيرة، لكن يبدو أنه أعطى مكانه لباتريك. غادرت السيارة البيت ببطء، والبغل الذي كان يرعى في الحقل لم يودعها. مشى المعزون وراءها حتى وصل كل إلى سيارته، وعندما وصلت إلى الشاطئ توقفت عند الزاوية التي كان الرماة يجتمعون عندها في موسم منافسات الرمي قبل سنوات. استأنف الموكب بعد ذلك طريقه حول البحيرة بسرعة أكبر، وكان روتلج وكيت آخر من انضم إليه.

بعد بضعة أيام من الجنازة ذهب روتلج وكيت لزيارة جامسي وماري ليطمئنا إلى أحوالهما ويسألا إن كانا بحاجة إلى أي شيء. في الطريق المحاذية للشاطئ توقفا مذهولين مقابل بستان الكرز. أعمدة هاتف نصبت بين الأشجار ترفع أسلاكا امتدت نحو الطريق العامة. كانت شركة الهاتف قد أعلنت قبل شهور مشروعا يهدف إلى وصل كل المناطق في البلاد بشبكة الاتصالات بذات الكلفة للجميع مهما كانت مناطقهم وقراهم نائية. بعد

عـدة اجتماعـات توصلـت الشركـة إلى اتفـاق نهـائي، ووافـق جميـع سـكان القريـة والمناطـق المحيطـة بالبحـيرة عـلى المـشروع وسـجلوا أسـماءهم في القوائـم.

وجـدا الشـارع خاليـا مـن السـيارات والمـارة، واسـتقبلهما الكلبـان بالنبـاح عنـد البوابـة. الدجـاج وراء الشـبك المعـدني مسـتغرق في النقـر ونبـش الـتراب. في الداخـل كان البيـت في حالـة فـوضى. نُزعت السـاعات مـن الجـدران وتوزعـت فـوق الكـراسي والطـاولات تاركـة في أمكنتهـا مسـاحات باهتـة. بـدت الجـدران فقـيرة وخاويـة دونهـا.

قالـت مـاري وهـي تعانقهـما: «لا أدري كيـف أدعوكـما في كل هـذه الفوضى!».

قـال جامـسي: «أتى رجـل السـاعات لإصلاحهـا. لم نتمكـن من تشـغيل بعضهـا بعـد الجنـازة والكثـير منهـا لا تشـير إلى الوقـت الصحيـح منـذ سـنوات. لذلـك قلنـا إنهـا تحتـاج إلى صيانـة».

«نظفهـا وزيَّتهـا، وسـيقوم بضبطهـا غـدا بعـد أن تعلـق عـلى الجـدران. يقـول إن بعضهـا قديـم ونـادر ويمكـن أن يكـون ثمنـه جيـدا وإنـه مـا مـن خلـل فيهـا».

قال جامسي: «مثلنا تماما».

«وهل تظن أن أحدا يمكن أن يدفع مالا من أجلك؟».

«بالتأكيـد، الكثـير مـن المـال، فأنـا مـن نوعيـة نـادرة كـما قـال تـوم كيسي».

سأل روتلج: «هل رأيتما أعمدة الهاتف؟».

فتـح جامـسي ذراعيـه الطويلتـين: «رأيناهـا. رأيناهـا هـذا الصبـاح. أتـوا قبـل أيـام بآلاتهـم وحفاراتهـم. لديهـم كل شيء وسـينهون العمـل خـلال أسـابيع. أتـوا مـن كـورك بعـد أن أنهـوا تمديـد الخطـوط هنـاك،

وأصبح لدى الجميع خطوط هاتف. يعملون طوال الوقت ويذهبون في الباص لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. أعجبهم المكان هنا ويقولون إنه أجمل منطقة في الريف».

قالت كيت: «أجل، هو كذلك».

نظر روتلج حوله وقال: «بما أن المكان يعج بفوضى الساعات فلماذا لا نذهب إلى المدينة؟ سنأتي مرة أخرى لنسهر بعد أن تنتهوا من الساعات وتعلقوها».

قالت ماري وهي تغلق الباب: «أرهقتنا هذه الساعات. نحن بحاجة إلى الخروج من البيت. جوني المسكين، رحل، هكذا كأنه لم يكن».

«ذهب جيم إلى لندن بالطائرة لإحضار أغراضه من شقته. قال إن القبو أصغر مما أخبرنا، لكنه في حي جميل في لندن. الشقق كبيرة لكنها ليست فخمة».

«هل التقى بسيد سينغ أو بأي من معارف جوني؟».

«لا، لم يَر أحدا. كتب له ملحوظة وعلقها على الباب. فاجأنا جوني أنه ترك وصية. أوصى بكل ما لديه للأولاد. كل ما حصل عليه من فورد».

قالت كيت: «هذا لطف كبير منه».

«نعم، جوني دقيق ومنظم في كل ما يتعلق بحياته الشخصية. مسكين باتريك، تأثر كثيرا، ولا يتوقف عن الحديث عنه. عن أيام التمثيل والمسرح، وعن الرمي وكيف كان الرجال يجتمعون ويطلقون بنادقهم في كل اتجاه، بينما كان جوني يكتفي برفع بندقيته ليسقط الطير من السماء كحجر».

قال جامسي: «باتريك ريان يثرثر كثيرا. لم يكن جوني بالنسبة

إليـه أثنـاء حياتـه أكـثر مـن أي شـخص عـادي آخـر».

قـال روتلـج وهـم يجتـازون أعمـدة الهاتـف: «ربمـا رحيـل جـوني حولـه في نظـر باتريـك إلى إنسـان كبـير وخـاص».

عـدّ جامـسي الأعمـدة: «أربعـة عـشر عمـودا في يـوم واحد. سـينهون العمـل خـلال أيام».

مـروا مـن أمـام سـوق الماشـية المغلـق، وعـبروا قـرب الزقـاق حيـث وقـف رجـلا الأمـن مقابـل حانـة جيمـي جـو ماكيرنـان ثـم مـن أمـام الكنيسـة وحانـة لـوك، وعندمـا مـروا مـن أمـام الفنـدق المركـزي صـاح جامسي: «تمهـل يـا روتلـج. توقـف هنـا.. توقـف». توقـف روتلـج عـلى جانـب الطريـق. كان الشـاه قـد خـرج مـن الفنـدق بخطـوات واثقـة واتجـه ماشـيا نحـو المحطـة حامـلا في يـده كيسـا بلاسـتيكيا أبيـض. في ذات اللحظـة كان كلبـه يخـرج مـن الورشـة ويتجـه نحـو البوابـة البيضـاء ليجلـس عـلى الأرض رافعـا رأسـه. عندمـا التقيـا هنـاك كانـت أصواتهـما مسـموعة، الشـاه يربـت عـلى الكلـب ويلاعبـه ثـم يعطيـه الكيـس. أمسـك الكلـب بالكيـس بفمـه ومـشى أمـام الشـاه باختيـال، متوقفـا بـين حـين وآخـر لينتظـر صاحبـه، هـازًا بذيلـه في طريقهـما نحـو الورشـة.

انعطفـت السـيارة بعـد ذلـك في طريـق مقابـل الشـقق الجديـدة التـي يسـكن بيـل إيفانـس فيهـا. أشـار روتلـج إليهـا بيـده فأنـزل جامـسي زجـاج النافـذة لـيرى بوضـوح أكـبر. «لـدي فضـول لأن أرى كيـف تبـدو تلـك الشـقق مـن الداخـل، وكيـف أحـوال بيـل في حياتـه الجديـدة».

قالت ماري: «وما فائدة ذلك؟ هذا ليس من شأنك».

قـال روتلـج: «لا بـد أنـه يشـاهد التلفزيـون الآن مثـل كل النـاس في

البلاد. برنامج الموعد مثلا..».

أجابه جامسي: «لا، هذا البرنامج يبث يوم السبت فقط».

في الحانة صافحهم لوك وقدّم إليهم التعازي. تحدثوا عن جوني وعن ليلته الأخيرة في الحانة وكيف سجل كل الإصابات بالسهام المجنحة. شربوا مرتين وغادروا قبل أن تزدحم الحانة بروّاد آخر الليل. عند البحيرة أصر جامسي وماري على متابعة الطريق مشيا إلى البيت واتفقوا على اللقاء في أمسية بعد أن تُعلق الساعات على الجدران من جديد ويعود كل شيء إلى طبيعته.

بعد أيام حان موعد الزيارة في ليلة صحو، وفي طريقهما شاهدا خطوط الهاتف تتمدد على طول الشاطئ. فوجئا عند وصولهما إلى البيت بأن الكلبين لم يخرجا لاستقبالهما عند البوابة. كانت الأبواب مغلقة وسيارة رجل الساعات مركونة أمام البيت. سيارة صغيرة معدلة لتناسب ذوي الاحتياجات الخاصة. في الداخل عادت الساعات إلى أمكنتها على الجدران تدق بانتظام، والساعاتي يتنقل بصعوبة على عكازة من الألمنيوم مستندا إلى حافة الطاولة ليضبط الساعة فوق المدفأة المطفأة. وقف جامسي يراقب دون أن يبادر بأي مساعدة بسبب اعتداد الساعاتي بنفسه. كان وجهه جميلا وحساسا وعيناه داكنتين مع ابتسامة مؤثرة. قال وهو يبتعد عن الطاولة مستندا إلى عكازه ليجلس بسرعة ملفتة على كرسيه المتحرك: «هذا جيد، ستعمل الآن بانتظام». قدمت ماري إليه فنجانا من الشاي. «هذا كل ما يمكن فعله اليوم. سأعود بعد أسبوع لأتأكد من أنها تعمل بشكل جيد».

قالت ماري: «أنت ماهر جدا. هذا عظيم. الساعات كلها تعمل وسيعود كل شيء في البيت إلى طبيعته».

دقت عدة ساعات فجأة على توقيت نصف الساعة. فرفع الساعاتي ملعقته مشيرا إليهم أن يصمتوا. بعد لحظات دقت ساعة أخرى بمفردها. «آه، كنت أعلم أن هذه الساعة لن تدق في موعدها. سأفحصها الأسبوع القادم وأرى ماذا تحتاج». ابتسم بظفر. «أعتقد أن هناك ساعة أخرى بحاجة إلى فحص». قال جامسي الذي بدا أن لديه أخبارا لم يعد قادرا على كتمانها: «أتعلمون، هذا الرجل باع خاتم الزفاف لزوجة جون كوين!».

قال الساعاتي بلهجته الدقيقة والحريصة: «أنا أبيع مجوهرات في بيتي. أصبحت الآن معروفا ومعظم الناس يأتون للشراء مني. جاء جون كوين مع زوجته لتتفرج، وأعجبها خاتم ذهبيّ سعره مئة جنيه. دفع ثمنه نقدا».

قال جامًسي بحماسة: «انتظروا، لم تنته الحكاية».

تابع الساعاتي: «بعد أن طردوه من ويستميث جاءني بالخاتم يريد إعادته واسترداد ثمنه».

قالت ماري: «لا بد أنها رمته في وجهه».

قال جامسي: «وربما طلبه هو منها».

«في حياتي لم يحدث أن أعاد لي أحد خاتم زفاف وطلب استعادة ثمنه. قلت له إن ذلك غير ممكن، لكنه أصر. ولكي أتخلص منه وافقت بعد أن تأكدت من الخاتم. أعطيته خمسين جنيها، لكنه رفض وأراد أن نتقاسم الفارق. في النهاية أعطيته ستين جنيها وقلت له هذا ما لدي. إما أن تأخذها وإما أن تتركها. أخذ النقود وظننت أنها المرة الأخيرة التي أراه فيها».

رفع جامسي يده: «انتظروا..».

تابع الساعاتي: «لكنه عاد الأسبوع الماضي. كنا كلنا في البيت

نائمين، لكنه ظل يقرع حتى نهض أخي وفتح له الباب. قلت لمايكل ألا يدعه يدخل مهما كان السبب وأن يطلب منه الانتظار في الخارج. أراد أن يخبرني أنه اشترى بالستين جنيها عجلا من سوق الماشية، وأنه باع العجل في مساء اليوم نفسه بمئة وعشرين جنيها. الخاتم ربح في عجل أكثر مما ربح في امرأة. سألته ألم يكن من الممكن تأجيل هذه الأخبار إلى الصباح؟ قال إنه لم يكن باستطاعته النوم قبل أن يخبرني عن أرباح الخاتم».

قال جامسي: «جون كوين عاد ليربح من جديد. هذا ما كان يريد للناس أن يعلموه، وهذا كل ما يهمه وكل ما يفكر فيه».

قال الساعاتي: «سأنتظر فقط حتى تدق الساعات. ستدق على التاسعة بعد قليل».

دقت الساعات على التاسعة فابتسم الساعاتي ابتسامة العارف، وانتظر حتى صمتت ثم دقت ساعة بمفردها بعد لحظات. أصغى إليها بانتباه وهو يبتسم حتى هدأت جميعها وعادت تُتكتك بانتظام. كتب ملحوظة على ظرف فارغ وأعطاه لماري. «سآتي في مثل هذا اليوم الأسبوع القادم. لن تأخذ وقتا طويلا، وسأتمكن من ضبطها كلها على التوقيت الصحيح». رافقاه إلى سيارته، جامسي يحمل له حقيبته وماري تسير بجانبه. انتظرا معه حتى وضع حاجاته وعكازه وراء المقعد ثم ركب السيارة ومضى. عاد جامسي إلى البيت وذهبت ماري لتقفل القفص على الدجاج.

«هذا الرجل الصغير عظيم حقا. يستطيع أن يجعل الساعات تتكلم. اعتقدنا أنه سينتهي من إصلاحها سريعا، لكنه دقيق جدا وحريص في عمله. أهله أناس محترمون قدموا له كل ما يمكن من الاهتمام والرعاية». نهض وأخرج زجاجة باورس من كيس ورقي

أسـمر في الخزانـة. «وهـو لم يضيّـع ذلـك هبـاء».

مازحتـه مـاري عندمـا عـادت: «ظننتـك أحـضرت زجاجـة البـاورس منـذ زمـن».

قـال وهــم يشربــون: «جــون كويــن لا يــزال يربــح». مــد يــده الضخمــة متظاهــرا بأنــه يريــد إبعــاد الكلــب الصغــير عــن الأريكــة فكـشر الحيـوان عــن أسـنانه وحــاول الإمســاك بيــد جامــسي.

قالـت كيـت: «إن كان هنـاك أحـد يربـح فـلا بـد مـن وجـود أحـد يخـسر».

سألت ماري: «ونحن ماذا نفعل؟».

ضحك روتلج: «ننتظر دورنا».

قال جامسي: «كان يجب أن تكون قسا».

«كنت على وشك أن أكون».

دقــت الســاعات عنــد العــاشرة ثــم تبعتهــما ســاعتان متأخرتــان بعـد لحظـات. قالـت مـاري: «هـل سـمعتم؟ أتظـن أنـه سـيتمكن مـن ضبطهـا كلهـا بتوقيـت واحـد».

«إن لم يضبطهـا ذلـك الرجـل فلـن يتمكـن أحـد آخـر مـن ذلـك». صمـت جامـسي قليـلا ثـم أضـاف: «يجـب أن نرميهـا ونشـتري سـاعات جديـدة، لكـن هـذه السـاعات القديمـة جـزء مـن ماضينـا لا نسـتطيع الاسـتغناء عنـه».

«لو استطاعت هذه الساعات أن تتكلم لروت حكايات كثيرة».

«السـاعات حكيمـة، لا تقـول شـيئا. كل مـا تقولـه تيـك تـوك.. تيـك تـوك لا تبـالي بـشيء. تيـك تـوك لا تقـترب مـن المتاعـب. تيـك تـوك ارفـع يديـك. تيـك تـوك..». ضحـك بمـرح لكنـه شـعر بالخيبـة عندمـا لم يوافـق أحـد عـلى شرب المزيـد مـن البـاورس، فوضـع الزجاجـة في

كيسها وأعادها إلى مكانها دون أن يملأ كأسه». «لا فائدة ترجى منكم. عرفت يوما أناسا غيركم لا يخافون هكذا».

في الخارج كان كل شيء يرفل في سكون الليل عدا قوقأة الدجاج الذي آوى إلى قفصه ونباح الكلبين اللذين انطلقا بحثا عن طريدة بين الشجيرات بعد أن قضيا المساء كله على الأريكة وجلبة الشحارير التي أفزعها النباح. تحت سماء صافية ارتسمت أمامهم الدرب الملتفة بين الحقول، جامسي وروتلج يمشيان معا ووراءهما كيت وماري. بعد فترة صمت طويلة تكلم جامسي: «هل تؤمن بوجود حياة أخرى بعد الموت؟».

اضطرب روتلج من طرح جامسي سؤالا كهذا. «لا، لا أؤمن بذلك، لكن ما من طريقة لدي لأعرف».

«هل تعني أننا مثل أي كلب أو قطة أو بقرة أو نبات، عندما نموت نموت ولا شيء آخر؟».

صمت روتلج لحظات ثم أجاب بحذر: «لا أدري إن كان هناك أصل أو معنى للحياة غير الطبيعة، ولا أعتقد أنه من الخطأ التفكير بأننا سنعود بعد الموت إلى ذلك الأصل.. لماذا تسأل؟».

«أفكر في هذا الموضوع كثيرا منذ أن مات جوني».

«وما رأيك؟».

«أعتقد أنه لو وجد فردوس أو جحيم لكانا مكانين مكتظين».

فوجئ روتلج بنبرة الحزن العميق في صوت جامسي وشعر بعاطفة تتدفق فجأة تجاه هذا الرجل الذي يمشي إلى جانبه بخطوات أربكتها تساؤلاته وحيرته. قال وهو يبتسم محاولا إخفاء انفعاله: «أعتقد أن كل تلك التساؤلات حول الحياة الأخرى والفردوس والجحيم تتعلق بتجاربنا الشخصية».

«لكن من الصعب أن يترك الإنسان نفسه للحيرة.. فماذا لو كان هناك ما ينتظرنا بعد هذه الحياة؟! معظم الناس يشكون من أن الأب الطيب كونروي متشدد فيما يتعلق بالمال، لكنه فعل كل ما في وسعه، فعل كل ما يمكن فعله من أجل جوني. لم يتأخر لحظة عندما عرف بالخبر. وصل إلى البيت بعد أقل من ساعة من اكتشافنا جوني مطروحا على الأرض، منحه بركته الأخيرة واستقبل جنازته بنفسه في الكنيسة. تلا صلوات القداس وألقى أجمل عظة في التأبين، أجمل عظة سمعتها. قال إن جوني ينتمي إلى جيل من الأيرلنديين، أجبرته الظروف على الهجرة إلى إنجلترا لكسب لقمة العيش. قد لا يكون ذلك دقيقا في حالة جوني، لكنه ينطبق على كل الناس الذين هاجروا في تلك الأيام. بعضهم نجح في تأمين حياة رغيدة وظروف مريحة، لكنّ كثيرا منهم لم يحصل سوى على الشقاء وقسوة الغربة. هؤلاء أجبروا على الهجرة إلى إنجلترا لأسباب لا ذنب لهم فيها، وكثيرا ما ينظر إليهم الآخرون بتعالٍ وتأنيب، لا لشيء سوى أنهم بقوا هنا في أيرلندا دون أن يكون لديهم ما يبرر نظرتهم الفوقية. كل من حضر القداس قال إنها عظة عظيمة لم يلق مثلها من قبل. وعند القبر تلا الصلوات. هل تعلم كم طلب مقَابل كل ما فعله؟».

«لا أدري.. مئة جنيه؟».

«عشرين جنيها. أعطني عشرين جنيها يا جامسي، هكذا قال. يقولون إنه متطلب وكدت أتشاجر معه لإقناعه بأن يقبل مني أربعين جنيها فقط».

«أقل مما ربح جون كوين في خاتم زفافه المستعمل».

«جون كوين كارثة، لكن الأب كونروي أفضل قس مسؤول عن

رعيته في أي مكان. يمكنك أن تذهب إليه في أي ساعة من الليل أو النهار ولن يردك خائبا أبدا».

«وأنا معجب به أيضا».

همس جامسي ممازحا: «عليك أن تذهب إلى القداس إذن».

انعكس سكون الليل على سطح البحيرة مقابل سماء صافية ارتسم فيها هلال قمر جديد، وضوء طائرة عابرة، ومض بتواتر كقلب يخفق. في عمق البحيرة ترددت جلبة الإوز البري، المتجمع على سطح الماء، بينما كان زوج من طيور التم، يبحث عن قوته على الشاطئ.

«لا يمكنك رؤية بيتك أو أضوائه من هنا مع هذه الأشجار حول الشاطئ». التفت جامسي إلى تلة باتريك ريان التي بدت له رغم الضوء الخافت جرداء ومهملة، وبصوت أفصح عن رضى عميق وسعادة قال: «أليس باتريك ريان رجلا عديم الجدوى؟! ماشيته متروكة هنا وحدها على هذه التلة البائسة بينما هو يتسكع في كل مكان. أنا لم أسافر كثيرا، لكنني أعرف كل العالم».

«أجل، أنت تعرف العالم كله، وقد كنت دائما دليلي المفضل».

صمت جامسي لحظات ثم التفت بسرعة وقال: «لست الأسوأ على أية حال».

عانقت كيت ماري ثم مشت مع روتلج بسرعة في الطريق المنحدرة نحو البحيرة. عند البوابة المفضية إلى الشاطئ سمعا نداء أو صراخا من جهة التلة. توقفا والتفتا. جامسي وماري في إطار من الضوء الخافت أعلى التلة.

صاح جامسي: «كيت».

ردت: «جامسي».

صـاح: «مرحبـا.. مرحبـا.. مرحبـا..». تـردد صـدى صوتـه فـوق البحـيرة كأنـه طـير، ثـم سـمعا سـعالا وضحـكا قبـل أن يختفـي مـع مـاري في الظـلام.

لم ينهـض مالـك الحزيـن مـن بـين أعـواد الخيـزران حيـث انتصبـت أعمـدة الهاتـف بـين أشـجار الكـرز ليقودهـما عـلى طـول الشـاطئ. الليلـة ليسـت بجـمال وألـق الليلـة التـي مـات فيهـا جـوني، الأشـجار أكـثر غموضـا وتجـذرا في أسرارهـا، والمـاء رغـم ضجيـج الإوز سـاكن، والهـواء يضـوع بروائـح العشـب والزعـتر والبرسـيم وعطـر النعنـع البري الـذي ينمـو زاحفـا فـوق الحـصى بـين شـجيرات صريمـة الجـدي قـرب الميـاه.

صرخـت كيـت مذعـورة عندمـا انعطفـا في الطريـق الصاعـدة نحـو البيـت. وقـف باتريـك ريـان في الزقـاق سـاكنا كـما وصـل في ليلـة العـزاء، لا يظهـر في العتمـة سـوى شـعره الرمـادي وقميصـه الأبيـض بينـما تـوارت ملامحـه الأخـرى في حلكـة الليـل. سـأل روتلـج بحـدة: «لقـد أفزعتهـا. لمـاذا لم تنبهنـا إلى وجـودك؟».

رد بـبرود: «كنـت في طريقـي، ولم أسـمعكما تتكلـمان. كنـت عندكـم في البيـت، لم يكـن هنـاك أي شيء مقفـل، لا البيـت ولا السـيارة ولا المخزن. توقعت أنكما في الحقل فانتظرتكما».

«كنا عند جامسي».

«أعلـم، سـمعت صراخـه وثرثرتـه قـرب البحـيرة قبـل قليـل. لـن يتـصرف كرجـل عاقـل أبـدا. مـن يسـمعه فلـن يصـدق أن جـوني مـات منـذ أيـام فقـط».

سـألت كيـت وقـد اسـتعادت هدوءهـا: «هـل تريـد العـودة معنـا؟». فوجـئ روتلـج بدعوتهـا.

«لا، انتظرت هناك طويلا وحان الوقت كي أعود إلى مخدعي». تجاهل دعوتها بنفاد صبر وقال فجأة: «سأكون هنا طوال الصيف، وعلينا أن ننتهي من ذلك البناء. من فوائد أن يكون بيتكما مفتوحا على العالم أني تمكنت من تفقد كل شيء لمعرفة ماذا سنحتاج لنكمل العمل في البناء. تركت لك قائمة باللوازم على الطاولة تحت الإبريق. أحضرها معك في الصباح كي لا ننسى شيئا. سأنتظرك في التاسعة عند المنعطف على الشاطئ. أحضر المقطورة وسنذهب إلى المدينة لنشتري كل ما يلزمنا، ثم نباشر العمل بمشيئة الرب، ولن نتوقف هذه المرة حتى ننتهي من بناء ذلك المخزن». تكلم بنبرة الثقة واليقين ذاتها التي شرح فيها في مقبرة شروهاون كيف يجب دفن جوني ورأسه إلى جهة الغرب بحيث يواجه الشمس المشرقة عندما يقوم من قبره مع المؤمنين.

قالت كيت بتردد: «لا داعي للعجلة في بناء المخزن يا باتريك. يمكننا تأجيل ذلك إلى الصيف القادم احتراما لروح جوني».

وقف ينظر إليها بدهشة دون أن يتكلم وترددت أصوات الإوز البري من جهة البحيرة عالية في الصمت الثقيل. أدار ظهره لها متوجها بالكلام إلى روتلج: «يجب عليك أن تفعل ما يجب فعله يا بني. نلتقي غدا في التاسعة على الشاطئ إن أردت، والأمران سيان بالنسبة إليّ، سواء أتيت أم لا، فلدي عمل ينتظرني في أمكنة كثيرة. سأذهب لأرفه عنهم جميعا في بيوتهم». ثم مضى يمشي بخطوات بطيئة في الضوء الخافت على شاطئ البحيرة.

أكملا الطريق إلى أعلى التلة صامتين، وعندما عبرا تحت أشجار جار الماء سألت كيت: «ما الذي تنوي فعله؟».

«لا أدري، لدينا وقت لبحث الموضوع، ولسنا مضطرين لاتخاذ قرار قبل الصباح».

توقفا قبل أن يدخلا البيت عند الرواق. استدارا ونظرا إلى ما وراء البحيرة رغم معرفتهما بأن جامسي وماري قد اختفيا من الأفق منذ وقت طويل.

كي يواجهوا الشمس المشرقة

جون ماكغرين، تشيخوف أيرلندا كما يسميه النقاد في أوروبا، والروائي الذي حرر أسئلة الحياة من سجون التاريخ والجغرافيا والسياسة والعنف، وأطلقها في فضاء التساؤلات الكبرى، تساؤلات الإنسان في بحثه الأزلي عن عالم يشبه أحلامه.

إنه كاتب رواية «كي يواجهوا الشمس المشرقة» التي تكتشف أفقاً ينهض فيه الإنسان من موته لينظر إلى الشمس وهي تشرق.

رواية توجت تجربة فريدة في ابتكار عوالم تتحرر فيها الشخصيات من إرث الفقدان والألم والعنف، وتبحث عن فضاء تحتفي فيه المخيلة بالحياة وبالجمال.

يضيء جون ماكغرين عالماً غيبته التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عصفت بالمجتمع الريفي في أيرلندا منذ بداية القرن العشرين.

إنه عالم الروائي الأول، الوطن والأم المفتقدان، عالم يتلاشى بفعل الهجرة والرحيل ويذوي المجتمع فيه على هامش الحداثة وأنماط الحياة الجديدة.

لا تستعيد الرواية هذا العالم في مقاربة نوستالجية تؤرخ لحالة الفقدان الشخصي في حياة الكاتب، بل تغامر في اكتشافه ومعرفته في ضوء الواقع المعاصر في سرد ينتصر للحياة ولكفاح الإنسان الملحمي في وجه الموت والغياب.

يتجلى الإنسان في هذه الرواية في قبحه وفي جماله، في عجزه وفي قوته، في وضاعته وفي سموه. يتجلى حقيقياً ومبدعاً في علاقته مع الطبيعة ومع الكائنات الأخرى، الحيوانات والنباتات التي يعيش معها ويشاركها مصيرها في الكفاح من أجل البقاء.